الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



جامعة أحمد دراية – أدرار

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية

قسم العلوم الإنسانية

رَكْبُ الحَجّ الجَزَائِرِيُّ خِلالَ العَهدِ العُثْمانِي (1518-1830م)

دِراسةٌ تاريخيةٌ واجتماعيةٌ مِن خِلالِ الرِّحْلاتِ الحِجازيةِ

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر

إعداد الطالب: أحمد بوسعيد

المشرِف: أد/ محمد حوتية

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة	الصفة	الجامعة الأصلية
د. مبارك جعفري	أستاذ محاضر أ	رئيساً	جامعة أدرار
أد. محمد حوتية	أستاذ التعليم العالي	مشرفاً	جامعة أدرار
أد. ناصر الدين سعيدوني	أستاذ التعليم العالي	مناقشاً	جامعة الجزائر2
أد. بن يوسف تلمساني	أستاذ التعليم العالي	مناقشاً	جامعة البليدة
د. البشير غانية	أستاذ محاضر أ	مناقشاً	جامعة الوادي
د. محمد مرغيث	أستاذ محاضر أ	مناقشاً	جامعة أدرار

الموسم الجامعي: 1438هـ – 1439هـ / 2017م – 2018م


بسم الله الرحمن الرحيم

بَلَدُ الجَزَائِرِ مَا أَمَرَّ نَوَاهَا   كَلِفَ الفُؤَادُ بِحُبِّهَا وَهَوَاهَا

يَا عَاذِلِي فِي حُبِّهَا كُنْ عَاذِرِي   يَكْفِيكَ مِنْهَا مَاؤُهَا وَهَوَاهَا

المقَّري التلمساني... حَجَّة 1028هـ/1619م

"إنَّ الجزائريين الذين توجَّهوا إلى الجزيرة العربية خلالَ العهدِ العثماني لم يذهبوا إليها كجغرافيين أو مؤرِّخين أو سُوَّاح، وإنَّما توجَّهوا إليها حجَّاجاً يُؤَدُّون الفريضة ويزورون الحرم الآمن، لذلك كانت قلوبُهم إلى البقاع المقدسة تسبقُ أرجلَهم، وخَيالُهم يتجاوزُ مرمَى أبصارِهم، وأشواقُهم إليها تُنسِيهم آلامَ الطريقِ ووعثاءَ السَّفر"

المرحوم أبو القاسم سعد الله



الإهـداء

إلى من لولاهما ما رسمتُ بِخطّ ولا أهديتُ قَطّ

والدي الكريمين حفظهما اللهُ على الدوام

إلى من كانت على العهد نعمَ العون والعضُد: زوجتي الوفيّة

إلى زينةِ حياتي: محمد علي، عبد الهادي وعبد النور

إلى من قاسَمني طعم الأيام ودعَّمني على ممرِّ الأعوام

إخوتي: مختار، محمود وعبد المالك. وأخواتي جميعاً

إلى منتسبي "الدار الكبيرة" حيثما وُجدوا، أقاربَ وأصهاراً

إلى زملاء الدراسة والتدريس في المستويين المتوسط والعالي

إلى مَن علَّمَتْ أقدامُهم وحوافِرُ رِكابِهم طريقَ الحجِّ: حجّاجِ الركب

إلى سفراء الجزائر العثمانية بالمشرق: أعلامِ وعلماء ركبِ الحج

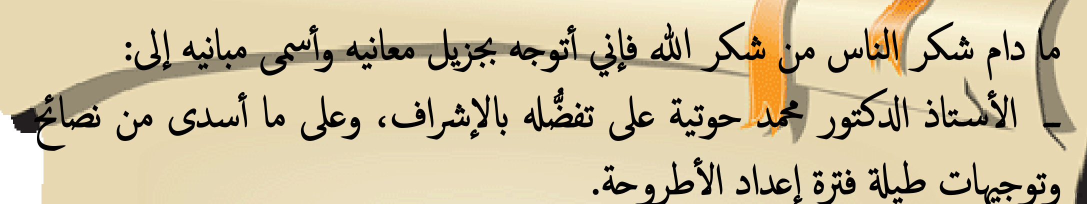
إلى كلِّ من ساهم في إخراج هذا العمل من العدم

أهدي ثمرة هذا الجُهد المقلِّ

أحمد

التشكرات

" شُكْرُ المَوْلَى هُو الأَوْلَى "



ما دام شكر الناس من شكر الله فإني أتوجه بجزيل معانيه وأسمى مبانيه إلى:

ـ الأستاذ الدكتور محمد حوتية على تفضُّله بالإشراف، وعلى ما أسدى من نصائح وتوجيهات طيلة فترة إعداد الأطروحة.

ـ من تشرَّفنا بوفودهم إلى جامعة أدرار، فوجَّهونا إلى البحث في إرثِ الجزائر العثمانية الخصب، وأخصُّ بالذكر الأستاذين الدكتورين المرحومين: أبا القاسم سعد الله وعائشة غطاس، والأستاذة الدكتورة فاطمة الزهراء قشي.

ـ روحِ الأستاذ الدكتور عبد الكريم بوصفصاف، الذي كان له الفضلُ في إعادتنا إلى مَجرَى البحث التاريخي... سَقَى اللهُ قبره شآبيبَ الرحمة والرضوان.

ـ الأساتذة الدكاترة: أحمد جعفري، محمد دباغ، أحمد الحمدي، مبارك جعفري، عبد الله بابا، عبد الحميد بايشي، عبد الرحمن بعثمان، عبد السلام كمون.

ـ الأستاذ الدكتور: عبد المالك بوعريوة رئيس القسم، وكافة زملاء التدريس.

كما أتوجَّه بشكر خاص إلى السادة الباحثين والمؤسسات البحثية:

- الحاج محمد سالم بن عبد الكريم بأدرار.
- مولاي عبد الله اسماعيلي بأدرار.
- الشيخ أحمد بن حسان بتسابيت.
- الحاج الطيب شاري بكوسام.
- موظفي المكتبة الوطنية الجزائرية بالحامة.
- موظفي الأرشيف الوطني بالجزائر العاصمة.
- موظفي مكتبة السليمانية الجامعية باسطنبول.

فجازى اللهُ الجميع خيراً، وأجزلَ لهم أجراً


المقدمة

ظلَّ الحجُّ إلى بيت الله الحرام مؤمَّل المسلمين جميعاً حيثما كانوا، تُحدي إليه الرواحل والمطايا من كلِّ حدبٍ وصوب، شوقاً لرؤية تلك البقاع والمواطن، وتقديساً لِما حواه ثَراها من ذكرى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأزواجه وأصحابه. وقد ارتبط الجزائريون ـ والمغاربة عموماً ـ بتلك الشعيرة أيَّما ارتباط، منذ القرن الأول للهجرة (السابع للميلاد)، بعد أن هداهم الله لدينه الحنيف، فحرصوا على تلبية نداء سيدنا إبراهيم الخليل والإتيان من كلِّ فجٍّ عميق زرافات ووحدانا.

لم يُثنِ الجزائريين عن الحجِّ في العهد العثماني بُعدُ الشُّقة ولا عِظَمُ المشَقَّة. مواجهين مخاطر السفر، وطول الطريق، وتقلبات الأحوال، ومفارقة الأهل والخلاَّن والأوطان. فكان الاهتداء إلى لَمِّ شَمل الحجاج الجزائريين ورواحلهم ضمن قافلة كبرى موسمية، تُحاكي مجتمعاً منظَّماً، شكَّلتْ ما عُرف بركب الحج. ذلك الإطار المنظِّم لشؤون الحجاج هو موضوع هذه الدراسة "ركبُ الحج الجزائري خلالَ العهدِ العثماني دراسةٌ تاريخيةٌ واجتماعية من خلالِ الرِّحلات الحجازية".

أهمية الموضوع وأهداف الدراسة:

تكمنُ أهمية هذا الموضوع في كونه يرصد ظاهرة دينية في منطلقها (الحج إلى بيت الله الحرام)، لكنَّها تأخذ أبعاداً تاريخية، اجتماعية إنسانية، تجارية وثقافية.... كما أنَّ الحج إلى بيت الله الحرام اعتُبِر لقرون خلَتْ الوسيلة الهامة في تدعيم التقارب الحضاري والاجتماعي بين الأفراد والمجتمعات الإسلامية، ومصدراً رئيساً من مصادر الإعلام والإخبار بمختلف المستجدَّات والتطورات السياسية والأمنية والمذهبية الطارئة في العالم الإسلامي. ومن المرجوّ كذلك أن يُغطي هذا الموضوع فترة زمنية هامة من تاريخ الجزائر في العصر الحديث، هي فترة الارتباط بالدولة العثمانية، فيُجلِّي النظرة الرسمية للسلطة العثمانية المحلية حيالَ ركب الحج الجزائري، ومدى مساهماتها في الإعداد أو التنظيم والتوجيه.

تأتي هذه الدراسة في إطار تبيان التطور التاريخي لركب الحجِّ الجزائري خلال ثلاثةِ قرون من الوجود العثماني، من حيثُ تنظيمُه وإمارتُه (قيادتُه) ومراحلُ التحضير والإعداد لرحلة الحج، والمسارات والمحطَّات التي كان الركب يسلكها، ومظاهر التكافل الاجتماعي والتواصل الإنساني ضمن الركب، وعلاقات الركب الجزائري بأركاب الحج المجاورة، والمعيقات الطبيعية والأمنية التي كان الركب يواجهها، وانعكاسات التطورات السياسية في البلدان الإسلامية على الحجاج الجزائريين،

وظروف وصول الركب إلى أرض الحجاز، انتهاءً بخط العودة وسلامة الركب وعادات استقبال الحجاج. وذلك كلّه بالاعتماد على ما دوّنته كتب الرحلات الحجازية الجزائرية ـ بصفة خاصة ـ المطبوعة منها والمخطوطة، خلال الفترة الزمنية المذكورة آنفاً.

كما أنَّ من الأهمية بمكان تأصيلَ الأحداث المرتبطة بركب الحج وفرزها وتوثيقها، وذلك من خلال الاعتماد على ما دوّنَته كتب الرحلات الحجازية الجزائرية خاصة والمغاربية عامة، واستنباط الإشارات ذات الدلالات التاريخية والاجتماعية والحضارية، التي تزخر بها تلك "المذكِّرات الحجية"، إذْ لا يخفى أنها المصدر الأول والرئيس في كلِّ ما يتعلَّق بمراحل السفر للحج وظروفه.

والجزائريون ـ على غرار المغاربة ـ أبدعوا في كتابة رحلاتهم الحجازية خلال الفترة المختارة للبحث، ومن تلك الرحلات على سبيل الذكر لا الحصر: رحلة ابن أبي محلي الساوري السجلماسي سنة 1001هـ/1593م، ورحلة أحمد المقَّري التلمساني سنة 1028هـ/1619م، ورحلة المجاجي سنة 1063هـ/1653م، ورحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف) سنة 1091هـ/1680م، ورحلة ابن عمار الجزائري سنة 1166هـ/1752م، ورحلة الورثِلاني سنة 1179هـ/1766م، ورحلة الفُلاني القبلاوي سنة 1183هـ/1769م، ورحلة عبد الرحمن بن عمر التنلاني التواتي سنة 1188هـ/1774م، ورحلة إبراهيم المصعَبي سنة 1196هـ/1782م، ورحلة أبي راس الناصري المعسكري سنة 1204هـ/1789م، ورحلة عبد القادر بن عومر التنلاني التواتي سنة 1232هـ/1817م، ورحلة الأمير عبد القادر الجزائري مع والده الشيخ محي الدين سنة 1241هـ/1825م....

دوافع اختيار الموضوع:

وقعَ اختياري على موضوع ركب الحج الجزائري نتيجةً لدوافع شخصية ذاتية وأخرى علمية موضوعية، أوجِزها في الدواعي التالية:

ـ مواءَمة طبيعة الموضوع لتخصص الدراسة في مرحلة الماجستير، وهو التاريخ الاجتماعي والثقافي المغاربي عبر العصور، ورغبتي في الاستمرار ضمن هذا النوع الخصب من الدراسات التاريخية، الذي يحتاج إلى المزيد من البحث والإثراء.

ـ الرغبة الشخصية في الإطِّلاع على كلِّ ما يتعلَّق بمسيرةِ وخطِّ سيرِ الحجاج الجزائريين خلال العهد العثماني من مُنطلقها إلى مُنتهاها، وإبراز صور ومعاني التحدي والصبر التي طبعتْ رحلات أولئك الحجاج الجزائريين.

ـ محاولة القيام بإعداد دراسة تاريخية "تقنية" ـ إنْ صحَّ التعبير ـ عن الركب (أو القافلة المنظَّمة) الجزائري في حدِّ ذاته، بعيداً عمَّا درجَ عليه كثيرون في الاكتفاء باستخراج مظاهر التأثير والتأثُّر المرتبطة بالحج فقط، إنْ على مستوى القوافل الحجية فيما بينها، أو على مستوى التفاعل ما بين المشرق والمغرب من خلال تلك الشعيرة.

ـ توفُّر كمية لا بأس بها من المادة الخام حول الموضوع، والمتمثلة في ما حوَتهُ مخطوطات ومطبوعات الرِّحْلات الجزائرية الحجازية وغيرها من المصادر ذات الصلة، الغنية بأخبار ركب الحج ومجالات سفره التجارية والاجتماعية والثقافية. لكنَّ معظمها ـ رغم ذلك ـ يحتاج إلى كثير من التمحيص والتدقيق والتخريج.

ـ محاولة الإسهام في تدوين وحفظ جانب هام من التاريخ الوطني الجزائري في شقِّه الاجتماعي والثقافي، خلال فترة هامة من تاريخ الجزائر وهي العهد العثماني.

ـ توجيهي من قِبَل الأستاذ المشرف ـ مشكوراً ـ وتشجيعه إياي على السير قُدماً في هذا الموضوع.

إشكالية البحث:

تسعى هذه الدراسة التاريخية إلى تبيان وتتبُّع التطور التاريخي لركب الحج الجزائري شكلاً ومضموناً، اعتماداً على ما توفّرَ من مصادر ونماذج من رحلات الحج الجزائرية. وذلك من خلال طرح الإشكال الرئيس التالي: ما هي الظروف والأوضاع العامة التي أحاطت أو أسفَرَتْ بركب الحج الجزائري في غدوِّه ثمَّ رواحِه من الحجاز خلال العهد العثماني؟

لا تتسنَّى الإجابة عن ذلك التساؤل إلا باستعراض التفاصيل والجزئيات المتعلقة بالركب عبر فصول الدراسة ومباحثها، وتوضيح النقاط والإشكالات الفرعية التالية: كيف كان يتمُّ الإعداد لرحلة الحج؟ ومِمَّ كان يتكون الركب عُدَّة وعتاداً؟ وما هي العائلات التي أُنيطتْ بها مهمة قيادته؟ وماذا عن الصعاب والمعيقات التي كان يواجهها الركب؟ والطرق التي كان يسلكها ومحطات الراحة والعبور؟ وهل اختلفتْ الأوضاع في رحلة الإياب عن الذهاب؟ وهل حفظت رحلة الركب الجزائري

أسماء بعض الأعلام من الحجاج الذين استمرَّ إشعاعهم الفكري بعد انقضائها؟ وماذا عن الغرائب والطرائف التي ميَّزتْ سفر الركب إلى الحج؟ وغيرها من الأسئلة المرحلية.

المنهج المتبَّع في البحث:

نظراً لاحتواء هذا النوع من المواضيع على المعطيات المعرفية المباشرة، وغِناه أيضاً بالإشارات والدلالات المحصَّلة بالنقد والاستنتاج، فقد حاولتُ أن أجمع بين أداتين رئيسيتين في المنهج التاريخي هما: الأسلوب الوصفي والأسلوب أو الأداة التحليلية النقدية.

فالأسلوب التاريخي الوصفي يلائم طبيعة الموضوع، المعتمِد على وصف وسرد مجريات وظروف رحلة الرّكب، وما يحيط بها من أحداث ومستجدات، وإحصاء مكوِّنات الركب ومحطّاته، واستعراض التأثيرات الاجتماعية والثقافية ضمن الركب وخارجه، واستقراء المواقف المختلفة الجماعية والفردية للحجاج الجزائريين من الأحداث المتزامِنة مع رحلة حجِّهم.

أمَّا الأسلوب التحليلي فقد وظَّفتُه في دراسة المادة العلمية التي تزخر بها المصادر، ومن ثَمَّ تحليلها ونقدها بحثاً عن حقيقة التطور التاريخي لركب الحج الجزائري خلال تلك الفترة، والوقوف على أهمية هذه المناسبة في تعضيد عُرى التعاون والتضامن بين الجزائريين، واستنتاج الأفعال وردود الأفعال اتجاه الظروف المحيطة برحلة الحج من بدايتها إلى نهايتها.

مجالُ البحث:

يتمثَّل الحدُّ الزمني للبحث في الفترة ما بين ق10 ومنتصف ق13هـ (ق16 وبداية ق19م)، والتي تُمثِّل مراحل العهد العثماني بالجزائر، إلَّا أنه لا يتمُّ التركيز كثيراً على القرن 10هـ/16م، باعتباره مرحلة مفصلية في تثبيت الوجود العثماني، وبناء مؤسَّساته الإدارية والعسكرية، واسترجاع مقوِّمات الكيان الجزائري إثر التحرشات الأوروبية. كما أنَّ الفترة الزمنية المختارة للبحث غنية بعشرات الرحلات الحجازية الجزائرية والمغربية، المخطوط منها والمطبوع، مما يساهم في الإحاطة بالموضوع من جلِّ جوانبه وإيفائه نصيبَه من الدراسة.

أمّا الإطار المكاني فيشمل الجزائر كلَّها، من بحرها إلى تلِّها وصحرائها، إضافةً إلى المسارات الجغرافية والحواضر التي كانت أركاب الحج تنزل بها. فأركاب الحج كانت تسلك تلك الدروب

والمسالك جملةً واحدة، بعيداً عن الحدود الجغرافية الحديثة وتعقيداتها، وبغضِّ النظر عن مواطن النفوذ العثماني السياسي والإداري في ربوع الجزائر خلال تلك الفترة.

نقدُ المصادر والمراجع المعتمَدة:

اعتمدتُ في جمع المادة العلمية حول ركب الحج الجزائري على جملةٍ من المصادر، بعضها مطبوع وبعضها الآخر لا يزال مخطوطاً، وتأتي في مقدمتها الرحلات الحجازية الجزائرية بصفة خاصة، والمغاربية بصفة عامة، المدوَّنة خلال الفترة المدروسة، لأنها هي السند الأساس والمنطلَق المرجعي للدراسة، بحكم أنَّ الرحَّالة أو المصنِّف هو حاجٌّ مُنتَمٍ لركبِ الحج أولًا، قبل أنْ يكون كاتباً لتفاصيل رحلته، فهو يعيش يومياتها، ويُكابدُ ما يلقاهُ جميع الحجَّاج في سفرهم. أذكر من أهمِّ كتب الرحلات التي أفدتُ منها ما يلي:

ـ رحلة أحمد المقَّري التلمساني صاحب "نفح الطيب" سنة 1028هـ/1619م، المسماة "الرحلة إلى المغرب والمشرق"، وقد عالجتُ من خلال رحلته تلك ـ التي تمَّ بعضُ مراحلها بحراً ـ الحياة الثقافية والأدبية في عصره (أي في القرن 11هـ/17م)، كما استنتجتُ منها معلومات تاريخية عن بلاد المغرب ومصر وأرض الحجاز واليمن، وبعض القضايا الفقهية والفكرية التي كانت تُثار بين أفراد ركب الحج. رغم أنّ تلك الرحلة يكاد جانبُ الإجازات والمراسلات الأدبية يطغى عليها.

ـ رحلة عبد الرحمن المجاجي سنة 1063هـ/1653م المعنونة بـ "رحلة منظومة حول الحج إلى مكة"، في مخطوط محفوظ بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم: 1565، وهي منظومة في غاية الأهمية، أفدتُ منها في معرفة أسماء بعض أمراء (شيوخ) ركب الحج الجزائري، وأشهر الأعلام العلماء المداومين على الحج، وأسماء أهمِّ المحطات والمنازل التي يرتادها الركب، وحالات الوفاة في رحلة الحج وكيفية التعامل معها. وكان يُمكن أنْ تُفيد في البحث أكثرَ، لولا ضياعُ جزئها الأول المتضمِّن تفاصيلَ الركب الجزائري في طلوعه (أي ذهابه) من الجزائر إلى الحجاز، ورغمَ ذلك فقد أفادني المقطع المتوفِّر الخاص بأخبار الركب في هبوطه (أي رجوعه).

ـ رحلة أبي سالم العياشي الكبرى سنة 1072هـ/1662م، المعنونة بـ "ماء الموائد" في مجلدين، فهي من أهمِّ الرحلات المغاربية وأكثرها شيوعاً، ورغم أن منطلقها كان من سجلماسة بأرض المغرب، إلا أن ركب الحج المغربي كان يمرُّ بالجزائر وتونس وطرابلس والقاهرة، قبل أن يصل إلى

الحرمين الشريفين، ولطالما سايَر الركب الجزائري في الذهاب والإياب، فأشار الرحالة إلى بعض الملاحظات عنه، وعن علاقته ونظرته للركب المغربي، وذكره باللفظ "ركب الجزائر" أو "ركب أهل الجزائر" عدة مرات. بلْ إنَّ العياشي نفسَه رافقَ الحجاج الجزائريين خلالها، فانضمَّ إلى ركب الجزائر في بعض محطات الطريق أثناء العودة من الحج، وسجَّل يومياته ويوميات الركب الجزائري كذلك. والرحلة زاوجتْ بين الجانبين الديني والعلمي، قياساً لشخصية صاحبها، حيث سجَّل العياشي كلَّ ما صادفه في طريقه، من أفكار ومعتقدات، وأعراف وعادات، وطقوس وممارسات، فكانت ـ بحق ـ مصدراً هاما، ليس لأخبار الركب المغربي فحسب، بل لأركاب الحج المغاربية بصفة عامة، ومن ضمنها الركب الجزائري وأخبار حجَّاجه، لأنَّ بعض الطرق والمقاطع كان الحجاج المغاربة يقطعونها سويّاً، وأهمُّها طريق درب الحجاز (من مصر إلى مكة المكرمة)، كما أنّ الرحلة شملتْ بالذكر العديدَ من العلماء الحُجاج الجزائريين، المرتحلين أو المجاورين بالحرمينِ الشريفين.

ـ رحلة جوزيف بتس (أو الحاج يوسف الجزائري) سنة 1091هـ/1680م، وهي رحلة مترجمة صغيرة في حجمها، لكنَّ قيمتها كبيرة بالنظر إلى التوصيف الدقيق لسير الحجاج وما يقع داخل الركب من مظاهر التعاون، وللمدن التي حلَّ بها الحجاج الجزائريون ومميزاتها الاجتماعية والإدارية، رغم أنَّ الرحالة بتس ـ الذي أسلم بعد أسرِهِ في الجزائر ـ كان يستخدم بعض التهكُّم والأحكام المسبقة ضد المسلمين بمناسبة تجمُّعهم في موسم حجِّهم.

ـ الرحلة الورثِلانية سنةَ 1179هـ/1765م، الموسومة بـ "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، لصاحبها الحسين بن محمد الورثِلاني، وهي من أشهر الرحلات الحجية الجزائرية وأكثرها فائدة، نظراً لمتنِها الطويل (ثلاثة مجلدات)، ولِما تضمنته واستفدتُ منه، من تسجيلٍ دقيقٍ ليوميات سفر الرّكب الجزائري من محطة لأخرى، ووصفٍ لكثير من المناطق الساحلية والداخلية الشرقية أثناء فترة الحكم العثماني، وإحالةٍ إلى أسماء بعض الأعلام والمؤلَّفات التاريخية النادرة، وتذكيرٍ بأخبار حجَّتين سابقتين للورثلاني. لكنْ يَعيبُها الإفراط في الإحالات واقتباسُ نصوصٍ كاملةٍ من رحلتَي ابن ناصر وأبي سالم العياشي المغربيَين، رغم إشارة الورثلاني إلى ذلك.

ـ رحلة عبد الرحمان التنلاني التواتي سنة 1188هـ/1774م، وهي رحلة قيِّمة كان منطلقها منطقة توات بالجنوب الغربي الجزائري، سجَّل فيها صاحبها كلَّ ما ارتبط بمحطاتها ضبطاً ووصفاً، وما أحاط بمجرياتها من لقاءات ومحاورات علمية. كما صوَّرتْ تلك الرحلة الحجازية أوجهاً متعددة،

فمنها الوجه التاريخي الذي نستنبطه من خلال الحديث عن المزارات التاريخية في توات وفزّان وطرابلس ومصر والحجاز وغيرها، وذكر الوقائع والمواقف الحرجة التي تعرَّض لها ركب الحج، والمظهر الجغرافي المتمثل في وصف الجبال والوديان والدروب التي مرَّ بها الركب منذ انطلاقه. والوجه الثقافي الذي جسَّدته الإشارة إلى بعض الشخصيات التي صادفها الحجاج في طريقهم أو حلُّوا ضيوفاً عليها. إلا أنَّ أخبار الركب تقتصر على الذهاب فقط، بسبب وفاة المصنِّف في مصر.

ـ رحلة إبراهيم بن بحمان المصعَبي سنة 1196هـ/1782م، وتتميَّز بكونها قصيدة منظومة، تَعُدُّ واحداً وعشرين ومائتي بيت (221)، سجَّل فيها المصعبي تفاصيل سفر الحجاج إلى الحجاز. وقد استخلصتُ منها بعض الظروف الصعبة التي أحاطت بركب الحج، مثل مشقة السفر، ووعورة الطريق، والتعرّض لقطَّاع الطرق، والحجز من طرف السلطات المصرية، كلّ ذلك وقفَ عليه صاحب الرحلة باليوم والشهر، متحرياً الدقَّة.

ـ رحلة أبي راس الناصري المعسكري سنة 1204هـ/1789م، وعنوانها "فتح الإله ومنَّته في التحدث بفضل ربي ونعمته"، وهي مفعمة بالنشاط الثقافي الملحق بركب الحج، مختلفة عمّا سبق لِغلبة الطابع العلمي عليها أكثر من الطابع الديني. ومنها استنتجتُ ظروف ملاقاة أعلام الركب الجزائري للمشايخ والعلماء المشارقة، حين يحطُّ الركب في حاضرة من الحواضر العلمية، وأيضاً في وصف العلوم والمسائل التي كانت تشغل أبحاث الحجاج، وأوجه التباحث والتحاور بشأنها، رغم تشبُّه هذه الرحلة في أسلوبها بالمقامات المسجوعة.

ـ رحلة عبد القادر بن عومر التنلاني سنة 1232هـ/1817م، وتتميز هذه الرحلة المخطوطة بتغطيتها لأخبار الركب المنطلق من الجنوب الجزائري ذهاباً وإياباً، فاعتمدتُ عليها في تحديد معالم ذلك المسار الصحراوي ومحطاته، وتقدير المراحل الزمنية التي كان يقطعها ركب الحج، وأزمنة مغادرته ووصوله. برغمِ صعوبة قراءة نسخة المخطوط.

وهناك نوعٌ آخر من الرحلات الحجازية الجزائرية وهي الرحلات "الافتراضية"، أي التي صنّفها أصحابُها لأجل النصيحة وتوجيه الحجاج إلى ما يُسهِّل عليهم سفرهم إلى الحجاز، وذلك من منطلق شوقِهم إلى زيارة الحرمين الشريفين، وكذلك بحكم ما اكتسبَه بعضهم من خبرات في رحلات سابقة إلى الحجاز، ومعظمها تمَّ نظمُه شعراً، لمواءمته لحملِ معانيها. ومنها:

ـ رحلة ابن مسايب التلمساني في القرن 12هـ/18م ، وهي رحلة هامة، نظمَها صاحبها بلسان الشعر الملحون، وأسدى لمن يرغب في الحج من الجزائريين جملة من التوجيهات المتعلقة بالمحطات التي كان الركب يتوقَّف بها، ووجَّههم للمخاطر التي قد تعترض طريقهم. ولحسن الحظ فقد نشرَ المفكِّر الجزائري محمد بن شنب نصَّها كاملاً بالمجلة الإفريقية LA REVUE AFRICAINE، بالعدد رقم 44 سنة 1900م.

ـ الرحلة العامرية سنة 1152هـ/1739م، لمحمد بن الحاج بن منصور العامري التلمساني، وهي قصيدة رائقة المعنى رغم بساطةِ ألفاظها وغلبةِ اللغة الدارجة عليها، استفدتُ منها كثيراً لأنَّها توجزُ كلَّ ما يتعلَّق بسفرِ الحاج والركب إلى الحجاز، وتذكر أبسط اللوازم والمعدَّات التي يحتاجها الحاج في طريقه، وتبيِّن أسماء منابع الماء المنتشرة في الطريق، وهي متوفِّرة ضمن ملاحق الأستاذ محمد المنوني في كتابه "من حديث الركب المغربي".

ـ رحلة ولد سيد الحاج القبلاوي مطلعَ القرن 13هـ/19م، وهي قصيدة شوقية شفهية، لأن صاحبها نوى الحج وزيارةَ قبر المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلاَّ أنَّ حاله لم يُسعفهُ لذلك، فنظَم رحلته المأمولة شعراً ملحوناً، صوَّر من خلاله محطاتها المعهودة لدى الحجاج، ابتداءً من منطقة تيدكلت بالجنوب الجزائري، إلى غاية البقاع المقدسة، اعتماداً على الرواية والسماع.

ـ رحلة أبي سالم العياشي الصغرى سنة 1068هـ/1658م، والمعنونة بـ "تعداد المنازل الحجازية" أو "التعريف والإيجاز ببعض ما تدعو الضرورة إليه في طريق الحجاز"، وهي تصنيف موجز، وظَّفتُه في ما له صلة بمحطَّات ومنازل الطريق إلى الحجاز، ومعرفة العُدَّة واللوازم التي كان الحجاج يُنصحون بأخذها معهم، لأنَّ الرحلة جاءت في شكل توجيهات عامة، تهمُّ الحجاج المغاربة جميعَهم.

ومن الرحلات المغربية الأخرى المعتمَد عليها في البحث: رحلة ابن مليح القيسي السراج، ورحلة ابن الطيب الشرقي، والرحلة الناصرية لابن ناصر الدرعي، ورحلة الحضيكي، ورحلة الهلالي السجلماسي، و"الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا" لأبي القاسم الزياني، وكلُّها مصادر ساعدتني في الإلمام بموضوع البحث من مختلف جوانبه.

أمَّا المصادر الأخرى المفيدة لموضوع ركب الحج فقد توزَّعت على المذكرات وكتب التراجم والسير وحوليات تواريخ البلاد المعنية برحلة الركب إلى الحجاز. ومنها:

ـ مذكرات الشريف الزهار نقيب الأشراف بالجزائر أواخرَ العهد العثماني، حيث وردَ فيها بعض الأخبار عن الركب الجزائري البحري، وأسماء بعض الشخصيات السياسية والعسكرية والإدارية التركية والجزائرية التي أدّت مناسك الحج. كما أنّ المفردات الموظَّفة في هذه المذكرات تتقاطع مع المفردات المستخدمة في تدوين الرحلات الحجازية، والدارجة على نطاقٍ واسعٍ في ذلك العصر.

ـ تاريخ الجبرتي المسمَّى "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" بأجزائه الأربعة، وهو من أهم المصادر التي أرَّخت لمصر أواخر العهد العثماني، ومحاولات الوالي محمد علي باشا الاستقلالية، وأشارت لبعض مَن حلَّ بالبلاد من الوافدين ضمن أركاب الحج المغاربية طيلةَ القرن 12هـ/18م وبداية القرن 13هـ/19م. وقد دأبَ المؤلِّف (الجبرتي) على تسجيل أخبار أركاب الحج المغاربية وعلاقاتها بالسلطات المصرية حينئذ في مختلف السنوات التي أرَّخ لأحداثها ضمن كتابه.

ـ كتاب "حسن الصفا والابتهاج بذكرِ من ولِّي إمارة الحاج" لأحمد الرشيدي، اعتمدتُ عليه في تبيان علاقة العثمانيين بتنظيم أمور الحج وتأمين المسالك، خاصة مقطع "درب الحجاز" آخر مقطع يعبره ركب الحج الجزائري قبل الوصول إلى الحرمين الشريفين.

ـ تاريخ مكة لأحمد السباعي، وهو مرجع هام لتاريخ بلاد الحجاز، وفَّر لي الكثير من المعلومات عن أمراء مكة المكرمة (أشراف الحجاز)، وظروف تنظيم مواسم الحج في العهد العثماني، وانعكاس الأوضاع الداخلية بالحجاز على أركاب الحج بما فيها الجزائري.

تلك نماذج عن أهمِّ المصادر والمراجع المعتمدة في البحث، وقد تطلَّبَ مني سِعة مجال الدراسة زماناً ومكاناً الاستعانة بمصادر ومراجع أخرى، على غرار كتب التراجم، ومعاجم الأماكن والبلدان، فضلاً عن أعمال الندوات والملتقيات التي عالجت موضوع ركب الحج، وكلّ ما له صِلة بموضوع البحث من قريب أومن بعيد.

الدراسات السابقة:

من خلال عملية استقرائية لبعض الكتابات والأبحاث والرسائل الجامعية التي تناولت موضوع الحج عند الجزائريين في العهد العثماني، تبيَّنَ لي بأن معظمها لم يكن موجَّهاً لدراسة ركب الحج الجزائري وتفاصيله في حدِّ ذاته، وإنما جاءت في سياق مواضيع لها صلة بالحج، على غرار: العلاقات بين المشرق والمغرب من خلال رحلات الحج، أو رحلات المغاربة إلى المشرق ودورها في

تعزيز ثقافة التواصل بين الجانبين، أو قوافل علماء الجزائر في الحج إلى بيت الله الحرام وآثارهم العلمية والثقافية، أو مواكب الحج في التراث الإسلامي، أو أدب الرحلات الحجية في المغرب العربي. أو في إطار تحقيق رحلة من الرحلات الحجازية، التي لا زال الكثير منها مخطوطاً.

ومن الكتب الهامَّة بخصوص ركب الحج كتاب "من حديث الركب المغربي" لمحمد المنوني، المنشور سنة 1953م، وهو كتاب هام يتناول تاريخ تأسيس الركب المغربي وأقسامه وكثيراً من التفاصيل المرتبطة به. أما الرسائل والأطاريح الأكاديمية الجامعية التي عالجت هذا الموضوع بتفاصيله فهي ـ حسب علمي بما تمَّت مناقشتُه ـ نادرة، منها ما ركَّز على جانبٍ بعينِه مثل:

ـ "ركب الحج للمغرب العربي خلال العثماني"، من إعداد: حمزة رحالي، وإشراف: أرزقي شويتام وهي مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الجزائر 2.

ـ "التفاعل الثقافي بين دول المغرب في العهد العثماني من خلال الرحلات الحجازية"، من إعداد: ليلى غويني، وهي مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الجزائر 2.

خطة البحث:

يتوزَّع هذا البحث الموسوم بـ "ركبُ الحجِّ الجزائريُّ خلالَ العهدِ العثماني (1518-1830م) دراسةٌ تاريخيةٌ من خلالِ الرِّحلات الحِجازية" على مقدمة، ومدخل تمهيدي، وخمسة فصول مجزّأة إلى مجموعة من المباحث، تتوِّجها خاتمة، وتعقبها مجموعة من الملاحق التصويرية والبيانية الإحصائية لتوضيح مضامين المتن. وفيما يلي إيجازٌ لمحتويات تلك الفصول:

يقتصرُ **الفصل التمهيدي** (المدخل) المتعلِّق بـ "ركب الحج مفاهيم وبدايات" على عرض المفاهيم والتعاريف اللغوية والاصطلاحية لمفردة "الركب"، والأبعاد التي أخذتها تلك التسمية، والمصطلحات التي لها علاقة بالركب مثل: الأركاب والرُّكبان والرِّكاب والرواحل والرِّحلات.... والفروق الموجودة بينها. ويستعرض أخبار الحج من بلاد المغرب عامة ومن الجزائر خاصة في الفترات التي سبقت مجيء العثمانيين الأتراك، ومظاهر انبعاث ركب حج جزائري منظّم.

ويتضمَّن **الفصل الأول** بعنوان "ركبُ الحج الجزائري تنظيمُه وإمارتُه" مظاهر خصوصية واستقلالية الركب الجزائري عن بقية أركاب المغرب الإسلامي، والإشارات الواردة في مختلف المصادر، الدَّالة على وجود ركبٍ خاص بالحجاج الجزائريين، ومواطن التقاطع بين ركب الجزائر والأركاب المغاربية. بالإضافة إلى أنواع الركب والجهات التي كان ينطلق منها أو يتجمَّع فيها بالتراب الجزائري، وأصنافه ما بين البري والبحري. وكذا علاقة الركب الجزائري بالسلطات العثمانية القائمة بأمر البلاد وقتئذ، ومدى الاهتمام الذي كان يُوليهِ إيَّاه العثمانيون. وأخيراً كلّ ما يتعلَّق بإمارة أو مشيخة ركب الحج، من ذكرِ أشهر بيوتات الإمارة ومقوِّماتها إلى مهام أمير الركب.

أما **الفصل الثاني** "الإعداد لرحلةِ الحج وتشكيلُ الركب" فيتناول أولاً المشاعر الجيّاشة التي كان موعد الحج يبعثها في الوجدان الجَمْعي للجزائريين، ومظاهر التعبير عن ذلك، وإنفاقهم الأموال من أجل تحصيل ذلك الشرف الغالي، فضلاً عن شيوع ظاهرة الوقف على الحرمين الشريفين بصفةٍ مُلفِتة في الجزائر العثمانية. ويُفصِّل في كيفية تجهيز الركب عُدةً وعتاداً، مع التركيز على الرواحل المستخدمة في السفر، وعلى رأسها الإبل التي كانت تُعتبر أهمَّ وسيلة نقلٍ في ذلك الزمان. ومن شِقٍّ اجتماعي التعرُّف على التشكيل البشري للركب، مع تخصيص جانبٍ منه للحديث عن المرأة الجزائرية وظروف أدائها للحج حينئذ، وإحصاء نماذج عن حاجَّات جزائريات تحدَّينَ الصِّعاب لأجل أداء واجب الحج. ويُختَم الفصل بالحديث عن حجم الركب الجزائري نسبةً إلى بعض الفترات المعلمية في تاريخ الوجود العثماني، وكذا المواعيد السنوية المعتادة لخروجه من الجزائر، وأشهر المراحل الداخلية والخارجية المقطوعة في طريق سفره للحج.

وفي **الفصل الثالث** المعنون بـ "طرقُ الحج محطَّاتُها وإكراهاتُ مجالِها" يتمُّ استعراض كلّ ما يتعلّق بمسيرِ الركب، وما يُحيط به منذ الانطلاق إلى الوصول، من حيثُ المساراتُ والطرق الرئيسية المشهورة، ومحطات العبور والراحة التي تعتبر نقاط تواصل مع أركاب الحج الأخرى (المغربي، التونسي، الليبي، المصري...الخ). وإشكالية عجز السلطات العثمانية وولاَّة أقاليمها عن تأمين طرق الحج، بدليلِ ما كان يتعرّض له الحجاج من سلبٍ ونهب واعتداء من طرف قبائل البدو الرحل في مختلف المقاطع. إضافةً إلى المعيقات الطبيعية والظروف المناخية القاسية التي كان الركب يواجهها، وسبل مواجهتها أو التقليل من آثارها، وكذا التقلبات السياسية والتطورات الأمنية

الحادثة في بعض المحطات وأثرها على ركب الحج. انتهاءً بوصول الحجّاج الجزائريين إلى بلاد الحجاز مَقصدِهم، وردود الأفعال والتعبير حيال ذلك.

ويُخصَّص **الفصل الرابع** "التواصلُ الاجتماعي في رحلة الركب وظروفُ عودتِه" للأبعاد المختلفة التي تشملها رحلة ركب الحج، بدءاً بالمتغيرات الحاصلة على خطّ سيرِ العودة من الحجاز إلى الجزائر، وما يتميَّز به نزول ركب الحج في محطات الطريق أثناء رجوعه، مقارنة بنزوله فيها أثناء طلوعه، مع إبراز بعض المستجدات الحادثة في رحلة العودة. ومن أبعاد الرحلة إلى الحج البُعد التجاري، حيث ساهمتْ الأسواق الموسمية المنعقِدة بمناسبة موسم الحج بالطريق والمحطات الرئيسية في تيسير أعباء السفر، وإيجاد فضاء للتبادل والتواصل بين الحجاج ومرتادي تلك الأسواق. مع توضيح البضائع الرئيسية المتداولة في نشاط ركب الحج بيعاً وشراءً. ومن أهمِّ الأبعاد على الإطلاق البُعد الاجتماعي، فالركب مجتمعٌ متنقِّل، كرَّس العلاقات البينية، وجسَّد تواصل الحجاج المباشر مع فضاء الرحلة إلى الحج، سواء كان ذلك في المدن والحواضر التي يحط فيها الركب، أو كان ذلك في القرى والبوادي والبنادر التي ينزل بها الركب لفترات معدودة. وأخيراً يُختم الفصل بذكر العادات التي كانت تتمُّ في قرى الجزائر ومدنها فرحاً بعودة ركب الحج، والمخاطر الصحية الناجمة عن أوبةِ الحجاج، والدور الذي غدا ركبُ الحج يؤدِّيه في نقل أخبار المشرق إلى بلاد المغرب.

بينما يتناول **الفصل الخامس** الأخير "الإشعاع العلمي والفكري للركب الجزائري"، أي العطاء العلمي والفكري لأعلام ركب الحج الجزائري ثقافةً ومُثاقفةً، و ماهية العطاء العلمي للعلماء الجزائريين المنخرطين في ركب الحج، من خلال مزاوجتهم بين الحج والنشاط العلمي. ثمَّ مدى تأثُّر ركب الحج الجزائري بالميول الصوفي الطاغي على منطلَقِه وطريقِه، ومظاهر ودلالات ذلك التأثّر. وإلى التنوُّع المذهبي الحاصل بالمشرق والذي يُلامسُه الحجاج في رحلتهم. وأخيراً جملة من الطرائف ومظاهر الاستئناس التي كانت تسجّلها يوميات ركب الحج الجزائري.

أمّا الخاتمة فتحوي مجموعةً من النتائج والاستنتاجات التي انتهى إليها البحث حول هذا الموضوع، وعدداً من التوصيات المأمولة من أجل دراسةٍ أوسع وأدقّ في هذا المجال.

صعوبات البحث:

لا يخلو جهدٌ علمي من صعوبات ومُعيقات تعترض سبيل الباحث العلمي، ويتضاعفُ حجم هذه الصعوبات في البحث التاريخي القائم أصلاً على ثُنائية "الزمان والمكان" المعقدة. وهذا البحث في موضوع ركب الحج واجَهتْهُ الصعوبات التالية:

ـ توزُّع المادة المعرفية للبحث على مظانَّ متباينة، وضرورة الإحاطة بكلِّ الضروريات وحتى الجزئيات المرتبطة بتلك الفترة الطويلة، وبذلك الفضاء الجغرافي الشاسع جداً لموضوع البحث، بحكم تعدُّد مسارات ومحطات ركب الحج الجزائري.

ـ إشكالية التسمية أو النسبة للإقليم في كتابات العهد العثماني، وطغيان لقب "المغربي" للدلالة على سكان وأعلام بلاد المغرب كافةً في العديد من المصادر التي اطَّلعتُ عليها، وبسبب ذلك كادت العديد من الشخصيات "الجزائرية" تفقد نسبتها الحقيقية لوطنِ الجزائر، مكتفية بالإشارة على أنها "مغربية" فقط.

ـ ضرورة الإلمام بأحوال وأخبار بلدان متعدّدة (تونس، ليبيا، مصر، الحجاز) خلال فترة العهد العثماني الواسعة، لأنها كلَّها محطات عبور كان الركب الجزائري يمرُّ بها، وقد يمكث في بعضها لفترات طويلة. وذلك من خلال جمع أخبار الحجاج الجزائريين، ومقارنتها بما دوَّنته كتب الرحلات الحجازية، وقد تطلَّب ذلك مني جُهداً مضاعفاً.

ـ عدم التمكّن من التوصُّل إلى جميع مصنَّفات "الرحلات الحجازية الجزائرية"، بحكم إمكانية أنْ يكون بعضها لا زال مخطوطاً بعيداً عن متناول الباحثين، شأنُه شأن بقية المخطوطات الجزائرية المخبَّأة في الخزائن الخاصة.

ـ ندرةُ المادة التاريخية التوثيقية ذات الصلة بركب الحج، مثل مراسيم تعيين أمراء الركب وتجديد العهد لهم، أو رسائل التوصية من طرف الحكام، أو وثائق الجرد المتعلقة بمعدَّات ولوازم الركب... وهي وثائق هامة تميَّز بها أرشيف الركب المغربي دون الركب الجزائري!.

وما أرجوهُ ـ في الأخير ـ هو أنْ أكونَ قد وُفّقتُ إلى حدٍّ ما في كشف بعض الجوانب المتعلقة بركب الحج الجزائري خلال العهد العثماني. ولا شكَّ أنَّ هناك هنَّاتٍ ونقائصَ قد أصابتْ أجزاءَ من ثنايا هذه الدراسة المتواضعة، إذِ الكلام عن ركب الحج الجزائري ـ المتجدِّد في كلِّ موسم حجٍّ طيلةَ ثلاثة قرون ـ مقصِّرٌ لِما معناه وافرٌ مديد. وإنْ كنتُ قصَّرتُ في بلوغ الهدف والغاية فهذا

جُهدُ المقِلِّ وطاقةُ المجتهِد، و"لا تجودُ نفسٌ إلَّا بما تجِد". والحمد لله على كلِّ حال، والشكر الجزيل له ـ وحدَه ـ في الحلِّ والتّرحال، على أن يسَّرَ لي ولغيري حجَّ بيتِه الحرام، وتكحيلَ العينَينِ بزيارة المصطفى خيرِ الأنام، عليه أفضلُ الصلاة وأزكى السَّلام.

مدخل:

ركبُ الحجِّ مفاهيم وبدايات

ـ تمهيد

ـ المبحث الأول: مفهومُ الرَّكب وأبعادُ التسمية

ـ المبحث الثاني: أخبار الركب الجزائري قبل العهد العثماني

مدخل: ركبُ الحجِّ مفاهيم وبدايات

يُعتبرُ هذا المدخلُ بمثابةِ فصلٍ تمهيدي، يتضمَّن شروحاً للمعاني اللغوية والدلالات الاصطلاحية لكلمة "الرَّكب"، والفروق المعنوية بين المفردات التالية: الرَّكب، الرِّكاب، الركائب، الرُّكبان، الأركاب، المطايا، الراحلة، القافلة، وهي جميعُها مصطلحات تمَّ تداولها بكثرة في المصادر المتعلقة برحلة الحج المقدسة في العهد العثماني. ويوضِّح كذلك مختلف أوجه استخدامات مصطلح الرَّكب شعراً ونثراً، ولماذا سادَ هذا المصطلح للدلالة على قافلة الحج دون غيره؟ ورجحَ على مصطلحات متداخلة في معناه، على غرار: الرحلة، القافلة، الحَجّة؟

كما حاولتُ أنْ أُمهِّد للدراسة بذكر بعض أخبار ركب الحج الجزائري قبل مجيء العثمانيين، وخاصَّة في العهد الزياني، بحكم أنَّ ظهور "ركب الحج" في إطارٍ تنظيمي ليس قديماً في بلاد المغرب، رغم ارتباط الجزائريين والمغاربة عموماً بالحج منذ الفتح الإسلامي للمغرب منتصفَ القرن 01هـ/أواخرَ القرن 07م، مع ملاحظةِ وجود ركبٍ جزائري قائم بذاته منطلق من مدينة تلمسان، سواء وهي تحت حكم بني عبد الواد، أو كانت تحت حكم بني مرين المجاورين. ثمّ وصلتُ أخيراً إلى بدايات العهد العثماني، مبيِّناً استمرارية ودورية رحلة الركب الجزائري مع مجيء العثمانيين للجزائر، لأنَّ الذهاب إلى الحج قد يتأثَّر في تنظيمه بالمستجدات السياسية الحاصلة في الجزائر، لكنَّه يبقى في أصله مُنبعَثاً دينياً روحياً، يحرص عليه الجزائريون في كلِّ الظروف.

المبحث الأول: مفهومُ الرَّكب وأبعادُ التسمية

01. الرَّكْبُ لغةً:

يقول الله - عزّ وجلّ - في مُحكمِ التنزيل ((**اِذَ اَنتُمْ بِالْعُدْوَةِ اِلدُّنْيا وَهُم بِالْعُدْوَةِ اِلْقُصْوى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ**))[1]، من هذه الآية الكريمة اهتدى ابنُ منظور في "لسان العرب" إلى أنّ الرَّكْبَ اسمٌ من أسماء الجمع كالنّفر والرّهْط، وتصغيره الرُّكَيْب، وهم أصحابُ الإبل في السفر دون غيرها من الدواب، ويرى الأخفش أنهم العشرة فما فوقهم، وفيه أيضاً أن الرَّكب رُكبانُ الإبل[2]، أي

---

[1]- **سورة الأنفال، من الآية 42.**

[2]- محمد جمال الدين ابن منظور: لسان العرب، د ط، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، د س، مادة: ركب، ص1712.

الذين يمتطون ظهور الإبل فقط. وينحو الفيروز آبادي في قاموسه نحوَ ابنِ منظور، ويرى أيضاً أن الركب رُكْبانُ الإبِلِ في الأصل، لكنه قد يكون للخيل أيضاً، وهم العشرةُ فصاعداً[1]. غير أن ابن منظور استدلَّ كذلك بالآية الكريمة السابقة من سورة الأنفال، واستنتج بأن الركب يحتمل أنْ يكون ركبَ خيل، كما يغلبُ عليه كونُه ركبَ إبل، وقد يجوز أن يكونَ منهما جميعاً[2].

أمّا مرتضى الزَّبيدي صاحبُ "تاج العروس" فيستدلُّ على جواز إطلاق لفظ الركب على الخيل كما يُطلقُ على الإبل بقول السُّلَيك بنِ السُّلُكةِ أحدِ شعراء الجاهلية الصعاليك ـ وكان فرسُه قد عطِب أو عُقِرَ ـ وقد هالَهُ وأحزَنَهُ ألاَّ يجدَ ما يردُّ به الإغارة الخاطفة من "فُرسان" الركب الأعداء، فقال[3]: (الوافر)

ومَا يُدْرِيكَ مَا فَقْرِي إلَيْهِ إذَا مَا الرَّكْبُ في نَهْبٍ أَغَارُوا

والرأي السابق أشار إليه مفسّرو الآية الكريمة من سورة الأنفال سالفة الذكر، إذْ ذكرَ الطبري في تفسيره "جامع البيان" عند الحديث عن الرّكب إلى "العِير" التي ضمَّت أبا سفيان وأصحابه في غزوة بدر الكبرى، وقد كانوا في موضعٍ أسفلَ من المؤمنين بمحاذاة ساحل البحر[4]. وكذا الشأن بالنسبة للقرطبي في "الجامع لأحكام القرآن"، حيث أوردَ رأيين متباينين: أولهما أنَّ المقصود بالركب في الآية الكريمة هو ركبُ المشركين الذي كان يقوده أبو سفيان، وفي الرأي الثاني أشار إلى أن المقصود بالركب إنما هي الإبل التي كانت تحمل أمتعة المسلمين في تلك الغزوة، وقد أنعمَ الله عليهم بأنْ حماها من الكفار وأمَّنَ موضعها[5]. رغمَ ما ذُكر من شواهد وتفاسير قرآنية وغيرها يبقى الإجماع على الرأي الأول هو الغالب.

---

[1]– محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ط08، تحقيق: محمد نعيم العرقسُوسي وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005م، مادة: ركب، ص91.

[2]– ابن منظور، المصدر السابق، مادة: ركب، ص1713.

[3]– محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ط02، تحقيق: علي هِلالي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 2004م، ج02، مادة: ركب، ص522.

[4]– أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ط01، تحقيق: بشار عواد معروف وعصام فارس الحرستاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1994م، ج04، ص43.

[5]– أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القُرطُبي: الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمّنه من السنة وآي الفرقان، ط01، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2006م، ج10، ص36.

وهكذا يذهب معظم اللغويين إلى أنَّ الركب والأركوب لا تكون في الأصل إلَّا على الإبل[1]، فهي الرواحل والمطايا التي تُركب ويُسافَر بها، لكن الأمر اتسع ـ فيما يبدو ـ وأصبح يُطلق على كلِّ من ركب دابة، بعيراً كانت أو خيلاً أو بغالاً أو حميراً ونحوها. يقول الشاعر[2]: (السريع)

كَمْ أنتَ عنْ رَكْبِ مكَّةَ سَاهِي   في شُغلِ دُنياكَ والِهٍ لاَهِي

فالركب هنا يشمل كلَّ وسيلةِ سفرٍ من الدواب المتاحةِ الموصِلة صاحبَها إلى مكةَ المكرمة لأداء فريضة الحج، وإلَّا اعتُبِر المتخلِّف عن الركب ـ كما جاء في البيت ـ ساهياً ومقصِّراً!.

ويمكن أن نميِّز الركب وهو الكلّ عن الرِّكاب وهي الجزء في معرض الحديث النبوي التالي الذي جمعَ المفردتين معاً، وأوضَح كذلك العدد الذي يُشتَرط لتسمية القافلة ركباً. فقد روى أبو يعلى قال: "بينما رسول الله صلى الله عليه وسلّم يُحدِّث أصحابه إذ قال لهم: سَيطلعُ عليكُمْ مِن هاهُنا ركبٌ هُمْ خيرُ أهلِ المشرِق، فقام عمر فتوجَّه نحوهم فلقيَ ثلاثةَ عشرَ راكباً، فقال مَنِ القومُ؟ فقالوا مِن بني عبد القيس، قالَ ما أقدمَكُمْ هذه البلادَ إلَّا التجارةُ، قالوا لا، قال أمَا إنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلَّم قد ذكَرَكُم فقال خيراً، ثمّ مَشى معهم حتى أتوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلَّم، فقال عمر هذا صاحبُكم الذي تُريدون، فرمَى القومُ بأنفسِهم عنْ رِكابِهِم، فَمنهُم مَن مَشى إليهِ ومنهم مَن هروَلَ ومنهم مَن سَعى، حتى أتَوا النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم"[3].

فالرِّكابُ إذاً هي الإبلُ المركوبة، أو الحاملةُ شيئاً، أو التي يُرادُ الحملُ عليها، وواحدتها راحلة، والرّكاب ذُكِرت في القرآن الكريم في قوله تعالى ((**وَمَآ أَفَآءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ**))[4]. وقد نزلتْ في أموال اليهود من بني النضير، مما أفاءَ اللهُ على رسوله، مما لمْ يُوجِفْ عليه المسلمون بِخَيلٍ ولا رِكابٍ، ولم يلقُوا بها حرباً ولا مشقة، إذْ مشوا إليها مشياً، ولم يركبوا خيلاً ولا إبِلاً، إلاّ النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنَّه ركب جملاً، وقيل: ركب حماراً مخطوماً

[1]- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: مجمل اللغة، ط02، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986م، ج01، مادة: ركب، ص396.

[2]- أبو العباس أحمد بن عمَّار الجزائري: نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، ط01، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1902م، ص31.

[3]- علي بن أحمد بن نور الدين العزيزي: السراج المنير شرح الجامع الصغير في حديث البشير النذير، ط01، المطبعة الخيرية، القاهرة، 1887م، ج01، ص477.

[4]- **سورة الحشر، من الآية 06.**

بِلَيف، فافتَتحها صلحاً، وأجْلاهُم، وأخذَ أموالهم[1]. والملاحظ في الآية الكريمة استثناء عنصر الخيل من مجموع ما تحمله كلمة الرِّكاب، بحكم خصوصية ركوب الخيل، إذْ لها صولات وجولات في الغزوات والحروب، لولا أنَّ الفتحَ هنا قد تمَّ صلحاً، دونما حاجة إليها.

وفي السُّنَّة النبوية الشريفة أيضاً، عن جابر بن عبد الله عن النبي ـ صلى الله عليه وسلّم ـ قال: "إذَا سِرتُمْ في الخِصْبِ فأَمكِنوا الرِّكابَ مِنْ أسْنَانِهَا ولا تجَاوَزوا المنِازل"[2]، بمعنى لا تنسوا للركاب (أي الدواب) حقّها من العُشب، فأمكِنوا أسنانَها من المرعى. وإلى معنى الرِّكاب ضمن الركب الحجازي المتكاملِ كذلك يُشير الشاعر في قوله[3]: (مجزوء الكامل)

يَا رعَى اللهُ فُؤادِي كَمْ لهُ للحِمى تُوقُ
كُلّمَا حَثَّ الرِّكابُ بِذُلِّهِ هَزَّهُ الشّوقُ

والشاهدُ في البيتين قوله "حثَّ"، إذْ هو فعلٌ مرتبط بالإبلِ عادة، والمقصود منه الركاب التي تحثُّ السير من أجل بلوغ الحرمين. وهي إشارة لطيفة إلى أنها ألِفتْ وآنست ركب الحجاج المتجّه نحو طيبة، وقد أخذها الشوق أيضاً إلى زيارة قبر المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

وعلى غرار الجِمال يتمُّ إسقاط مصطلح "الرِّكاب" على النُّوق أيضاً، ويتضح ذلك في قول الشاعر محمد الإدَوَعْلي التواتي (ت1198هـ/1784م)*، أثناء حديثه عن رِكاب الحج القاصدة جبل الحجاز المعروف باسم "إلال" مجازاً، وقد خلَّفتْ وراءها المشتاقين لزيارة قبر الرسول ـ صلى الله عليه وسلَّم ـ غيرَ قادرين على الصبر، مُسقِطاً الرِّكابَ على الرَّكبِ بأكملِه[4]: (الوافر)

---

[1]- محمد بن أبي بكر القُرطُبي، المصدر السابق، ج 20، ص 346.

[2]- جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير، د ط، ترتيب: يوسف النبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، د س، ج 01، ص 120.

[3]- أحمد بن عمّار، المصدر السابق، ص16.

* **محمد الإدَاوَعْلي التواتي** (ت 1198هـ/1784م) يُنسبُ إلى قبيلة "إدَاوعل" الشنقيطية، وُلد بشنقيط ودرس بها، ثم خرج منها على رأس وفد من الحجيج يُريد الحرمين الشريفين، ثمَّ استقرَّ لاحقاً بتوات (بقصر اعبابي)، فطارَ صيتُه وأضحى له باعٌ في اللغة والأدب، عُرف باسم "شاعر المديح النبوي". يُنظر ترجمته وآثاره في: أحمد أبا الصافي جعفري: الشيخ سيدي محمد الإداوعلي حياته وشعره، ط01، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2008م، ص13 وما بعدها.

[4]- أحمد أبا الصافي جعفري: المخطوطات الجزائرية وأعلامها في المكتبات الأفريقية، ط خ، دار نور شاد، الجزائر، 2015م ص194.

ومَا قَالَ المشُوقُ وَراءَ نُوقٍ رِكابُ أَحِبَّتِي قَصَدَتْ إِلَالَا
رِكابُ أَحِبَّتِي قَصَدَتْ إِلَالَا فَأَضْحَى الصَّبْرُ بَعْدَهُمُ مُحَالَا
فَقُلْتُ لِصاحِبِي لَمَّا تَوَلَّتْ تَمَسَّكْ بِالسُّلُوِّ فَقالَ لَا لَا

وما يمكنُ استنتاجُه من عرض الشواهد السابقة هو أنَّ مصطلح "الرّكاب" قد يوظَّف للإشارة إلى جميع الدواب في الركب، وليس للإبل فقط، رغمَ أنها هي أساس الرّكب. يقول القاضي محمد عبد الله بن الجوزي القوراري التواتي* في رحلته الحجازية التي تمَّت سنة 1263هـ/1847م[1]: (الطويل)

فَازْدادَ تِسْيارُنا وإِسْراعُ نُوقِنَا وَكُلُّ رِكابِنا عَنْهَا الصَّبْرُ مَحْجورُ

فرغمَ أنَّه سبَّقَ ذكر النوق وقصَدَها بالكلام دون الرّكاب، إلا أنَّه اعتبر النوق جزءاً من الرّكاب في المحصِّلة، وعليه فإنّ هذه الرّكاب المقصودة تحوي أصنافاً أخرى من الرواحل والدواب. كما يُستخدم مصطلح الرَّكائب للدلالة على الرِّكاب بشكلٍ أوسع، إلى ذلك يُشيرُ أبو سالم العياشي في رحلته قائلاً: "...فتفقَّد الناسُ قِرَبَهم وروَوا رَكائِبَهم"[2]، إذْ بعضُ الحجّاج يمتطون البِغال مثلاً، كما أنّ السقي في السفر ليس مقتصراً على الإبل فقط، بل يشمل الدواب جميعَها.

ومن المفردات المتداوَلة في إطار الركب كذلك "الرُّكبان"، وهم كل من يعقِلُ في الركب، أو جمعُ من يضمُّهم الرّكبُ، أو الجماعةُ من أصحاب الرِّكاب، وتُستخدم لركب الحج وغيره، كأن يُقال "...إنّه شاعرٌ مشهور سارتْ بأشعاره وأخباره الرُّكبان"، أو "أمرٌ سارتْ به الرُّكبان"، بمعنى أن ذلك الأمر ذاعَ واشتهر. يقولُ الحاج أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة التلاليسي التِّلمساني طبيبُ

* **محمد عبد الله بن الجوزي القوراري التواتي** قاضٍ وعالمٌ من أسرة الجوزي (أولاد القاضي) الشهيرة بمنطقة قورارة أو تينجورارين (شمالي توات)، ذاع صيتُه في الأقطار القورارية والتواتية منتصفَ القرن 13هـ/19م، تبوَّأ منصب القضاء على إقليم قورارة عام 1233هـ/1818م، أسَّس زاوية بقصر أولاد سعيد، فتدفقت عليها وفودُ الطلاب من كل الجهات، من مؤلفاته رحلةٌ حجازية منظومة. يُنظر المزيد في: حميدة بن زيطة: ترجمة القاضي محمد عبد الله بن الجوزي، ملتقى إسهامات علماء توات في الحركة الفكرية والثقافية إبان العصر الحديث، جامعة أدرار، 19–20 أبريل 2010م، ص29 وما بعدها.

[1]– مولاي التهامي غيتاوي: الفتح الميمون في تاريخ قورارة وعلماء تيميمون، د ط، العالمية للطباعة والخدمات، الجزائر، 2013م، ص130.

[2]– أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العيّاشية (ماء الموائد)، ط01، تحقيق: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2006م، ج01، ص75.

السلطانِ الزياني الشهير أبي حمو موسى الثاني، محليّاً إيّاه بموشّحٍ أندلسي يومَ الاحتفال بالمولد النبوي الشريف لسنة 767هـ/1365م[1]: (الهزج)

لِي مَدْمَعٌ هَتَّانْ يَنْهَلُّ مِثلَ الدُّرَرْ
قَدْ صَيَّرَ الأَجْفانْ مَا إنْ لَهَا مِنْ أَثَرْ
فَسارَتِ الأَظْعانْ يُحْدَى بِها في السَّحَرْ
واسْتَبْشَرَ الرُّكبانْ بِقُرْبِ نَيْلِ الوَطَرْ

وعلى ذكر "نيل الوطر" فإن لفظ الركبان كان يُطلق في القديم كذلك على أصحاب السِّلع في القافلة التجارية، فحين يخرج أهل البلد لملاقاة الرّكب التجاري يشيع بينهم القول التالي: "تلقّي أو مُلاقاة الرّكبان"، أي تفقّد بضائعهم والشراء منهم. وهذا الرحّالة الجزائري أحمد المقّري التلمساني (ت1041هـ/1631م) يُبيِّن لنا الفروق اللغوية بين المفردات الثلاث: الركب، الركبان والركاب، حيث بدأ بالركب الساري إلى أرض الحجاز وهو الأصل، ثمّ عرَّج على جزءٍ منه وهم الرُّكبان الذين يُنيخون الرّكاب في تلك الأرض، وإنْ كانت الإناخة مرتبطة بالإبل فقط، وذلك بحكم عددها وغلَبَتِها في الركب على غيرها، يقول المقَّري في رحلته[2]: (السريع)

وسَرَى الرّكبُ للحِجازِ ولاَ هادِي إلى أَشْواقِهِ والغَرامْ
وأَناخَ الرُّكبانُ في خَيرِ أرْضٍ حَلَّها المصطفَى الرَّسولُ الإمامْ

ويُجمع الرّكب على "أراكِيب"، وأشهر منه "أركاب"، كما يُجمع النّفر على "أنفار"، غيرَ أنّ الركب الواحد يظلّ وحدة مستقلّة مهما كبُر وتضاعف حجمُه، بحكم أنّ مردّ التسمية هو الغرض منه أو البلد الذي ينتمي إليه. مثلاً يوظِّف الرحالةُ العياشي ذلك الجمع مع الإبقاء على خصوصية كلِّ ركب قائلاً: "...ودخلَتْ علينا الأركاب الآتية من المغرب: ركب أهل فاس، وركب أهل مراكش، ولم يقدُمْ علينا أحدٌ من أهل بلدِنا..."[3]. وها هو الرحّالة ابن الطيب الشرقي الفاسي يستخدم كذلك جمع الأركاب للإشارة في حالةٍ مغايرة إلى ركبين من بلدين مختلفين هما الجزائر

[1]- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ط02، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965م، ج02، ص255.

[2]- أبو العباس أحمد المقَّري التلمساني: رحلة المقّري إلى المغرب والمشرق، تحقيق: محمد بن معمر، ط01، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، سيدي بلعباس، 2004م، ص149.

[3]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص501.

والمغرب الأقصى، يقول الشرقي في رحلته الحجازية: "... ووجَّه جنودَه لفحصِ الأركاب وتفتيشِها، فتعرَّضوا أولاً لركبِ الجزائر، ثمّ تعرَّضوا لركبِ فاس...."[1].

يتبيّن لنا مما سبق أن مصطلح "الرّكب" أشملُ في اللغة من الرّكبان والرّكاب، وأوسعُ مِن أنْ يوسَمَ بأنه ركبُ الإبل وفقط. فمجموع الدواب الموظَّفة في الرحلة إلى الحج على اختلافها ـ وإنْ كانت رِكاباً في دلالات ركوبها ـ تظلُّ هي ورُكبانُها جزءاً مضافاً للرّكب في مدلوله الجامع الكلِّي. والتركيز الملاحَظ في كلِّ ما سبق على "الركاب" يعود سببُه إلى كونها المطايا التي لا يُعتبرُ بكيانِ الرّكب دونَ وجودها ضمنَه. يقول الشاعرُ محمد بن أُبَّ المزمّري التواتي (ت1160هـ/1747م)* في إحدى قصائده المدحية، موضّحا ذلك[2]: (الطويل)

سَلامٌ سَلامٌ مَا تَرنَّمَ شَادٍ وَحَثَّ مَطايَا الرّكبِ نَغْمةُ حَادِي

عَلى مَنْ سَما قَدْراً ومَرتَبةً ومَنْ بِمرْآهُ عُنْوانُ العِنايَةِ بَادِي

بلْ ولا زلنا إلى وقتنا الراهن نستخدم مصطلح "الركب" للدلالة على الرّهط أو الصَّحب المرتحِلين لأجل مناسبة معيّنة، على غرار ركب "سيدي الشيخ" الذي يُقام سنوياً بولاية البيض. أو للدلالة على الجَمعِ الحضاري الذي سارَ بعيداً عنَّا وخلَّفَنا وراءه، وودَدْنا لو لحقنا به في إحدى محطاته، ولكنْ هيهات! فنقول مثلاً: أما آنَ لهذه الأمَّة أنْ تلحقَ بِرَكْبِ الحضارة والتقدم؟

02. الرَّكْبُ اصطلاحاً:

نستنتجُ ممّا سبق ذكرُه أن المعنى الموائم لمصطلح "الركب" إجمالاً هو: القافلةُ الجامعةُ لأشخاصٍ (رُكبان) راحلين برواحلهم (رِكاب) ومستلزماتهم، السائرةُ لأداء غرضٍ معيّن. ويمكن إدراك هذا المعنى من خلال ما تحملُه الأبيات التالية في وصف مدرسةٍ زاويةٍ، بناها المرينيون بمدينة تلمسان ـ بعد استيلائِهم عليها ـ لابنِ السبيل والضيفِ الوارد والرّكبِ السائر[3]: (الكامل)

1- ابن الطيب الشرقي الفاسي: الرحلة الحجازية، نسخة مصورة من مخطوط بجامعة ليبزيك، فيينا، رقم: 746، و54.

* **محمد بن أُبَّ المزمّري** من أشهر علماء منطقة توات في القرن 12هـ/18م وأكثرهم تأليفاً، نبغَ في علوم العربية والعروض بشكلٍ مُلفِت، فأبدع فيها وألَّف نثراً ونظماً. يُنظر: سيد عمر محمد عبد العزيز: قطف الزهرات من أخبار علماء توات، ط 02، دار هومة، الجزائر، 2002م، ص ص: 111-117.

2- عبد المجيد قدي: صفحات مشرقة من تاريخ مدينة أولف العريقة، د ط، د م، د س، ص71.

3- المهدي البوعبدلي: الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي (الحياة الثقافية بالجزائر)، ط01، جمع: عبد الرحمن دويب، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م، ص31.

دَارٌ عَلَى الإِحْسانِ شِيدَتْ والتُّقَى فَجَزاؤها الحُسنَى وعُقْبَى الدَّارِ
هِيَ مَلجَأٌ لِلْواردِينَ ومَوْرِدٌ لابْنِ السَّبيلِ وَكُلِّ رَكْبٍ سَارِي
في عامِ أَربعةٍ وخَمْسينَ انْقَضَتْ مِنْ بَعدِ سَبْعِ مِئينَ فِي الأَعْصَارِ

وهناك مثال آخر لتأكيدِ العلاقة بين الرّكب والقافلة، فقد تحدث الرحالة الجزائري الحسين الورثِلاني في رحلته الحجازية عن أحد أشياخهِ الصالحين وجولاته ببعض المدن قائلاً: "... وذاتَ ليلةٍ ذهب لزيارة بجاية، وذهبَ معه ركبٌ كبير"[1].

أمّا المقصود بالرّكب هنا بالذّات ـ في موضوع البحث ـ من حيثُ معناهُ الاصطلاحيُّ فهو جماعةُ الحجّاج الذاهبين إلى مكّة المكرمة، وبالضرورة العائدين منها لاحقاً، أو قافلةُ الحجاج من راكِبِي الإبل وغيرها من الدواب، الذين يحملون معهم زادَهم وأمتعتهم[2]. أو هو مَسيرُ قافلة الحجّاج أو الحجيج، القاصدين بلادَ الحرمين الشريفين: مكة والمدينة، من أجل أداء وإتمام مناسك الحج المقرَّرة والمعهودة[3]. وهناك من يرى بأن الرّكب يحمل كذلك معنى الموكب المتكوّن رأساً من مجموعةِ قوافل الحجّاج المنطلقةِ من وطنٍ (إقليم) معيَّن، وكذا المنضَمّة إليها أثناء السير، والتي تقصِد في سفرها الوصولَ إلى مكة المكرمة لأداء الحج[4]. وهذا ما سنُلاحظه ـ مثلاً ـ في معرض الحديث عن تنظيم الركب الجزائري، أيْ تدعيم قوافل الركب المنطلِق بقوافل أخرى أثناء السير.

وبما أن الذهاب إلى بلاد الحجاز لأداء ركن الحج قد يكون غالباً عن طريق البرّ، وأحياناً تكون بعضُ مراحله عن طريق السفن الحاملة للرِّكاب والرُّكبان على حدّ السواء، فإنّه يمكن القول بأنّ ركب الحج ـ بمعنى أوسع ـ يشمل القوافل التي تقصد بلاد الحجاز براً، وكذا الجماعات التي تركب السفن نحو موانئ مصر وخاصة الإسكندرية، ومنها تُواصلُ سفرها إلى الحجاز برّاً أو بحراً في

---

[1]– الحسين بن محمد الورثِلاني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار (الرحلة الورثِلانية)، تعليق: ابن مهنّا القسنطيني، تقديم: محفوظ بوكراع وعمار بسطة، ط خ، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م، ج01، ص155.

[2]– رينهارت دوزي: تكملة المعاجم العربية، ترجمة: محمد سليم النعيمي، د ط، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1980م، ج05، ص201.

[3]– عبد المجيد القدوري: ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت الخريت، د ط، مطابع منشورات عكاظ، الرباط، 1991م، ص127.

[4]– عبد الرحمن عزي: التواصل القيمي في الرحلة الورثِلانية، المؤتمر الدولي "ثقافة التواصل"، جامعة فيلادلفيا، عَمَّان، نوفمبر 2009م، ص06.

بعض الأجزاء[1]، بما أنَّ المحطّة الأخيرة وهي مكّة المكرمة ليست ميناءً على البحر، وهذا النوع يمكن أن نسميه مجازاً بالركب البحري.

لقد تعددت الاشتقاقات التي أطلقها المغاربة على هذه "الرحلة الجماعية" إلى الحجاز، لأداء فريضة الحج، فهناك من استعمل "ركب الحج" أو "ركب الحاج" أو "ركب الحجيج"، وهناك من وظَّف مصطلح "الركب النبوي"، لأن الركب يزور المسجد النبوي أيضاً. بينما فضَّل آخرون استخدام لفظ "ركب الحجاز" الذي يشمل الحرمين الشريفين المقصودين، بحكم أن القافلة متوجهةٌ لبلاد الحجاز، يتضح ذلك الانتساب في قول الشاعر[2]: (الطويل)

خُذُوا القَلبَ يَا رَكْبَ الحِجَازِ فَإِنَّهُ ثَوَى الجِسْمَ في أَسْرِ البِطالةِ ضائِعَا
ولاَ تَصْرِفوه إنْ فَعلتُمْ فَإِنَّما أَمَانَتُكُمْ أَلَّا تَرُدُّوا الوَدائِعَا

تميَّز الرحالون المغاربة عن غيرهم باستخدام صيغة "الركب النبوي"، فالرّكبُ وإنْ كان هو الجَمعَ الرّاحل أو السائر إلى مكّة المكرمة لأجل أداء مناسك الحج بالإجمال، فإن التركيزَ على زيارة المدينة المنورة حيثُ قبرُ المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أكيدٌ في الذهاب إلى الحج بالنسبة للحجاج عموماً، وللمغاربة خصوصاً الذين لم ينقطعوا عنها في أحلكِ الظروف. يُحَملُ ذلك المعنَى في الشاهِد "الشوقي" التالي[3]: (الرجز)

الرّكبُ نَحوَ الحَبيبِ قَدْ سَارَ يَوَدُّ شَوقاً إِلَيْهِ لَوْ طَارَ
بَلِّغْ كثيرَ السَّلامِ للهَادِي لعَلَّ تُطْفِي مِنَ الحَشَى نارَا

وبما أنَّ لابنِ بطوطة المغربي رحلات شهيرة إلى الحج، فهذا أحد الكتَّاب المشارقة يُعرِّف بطبيعةِ الركب الذي كان ينوي ابن بطوطة السّير في جُملته إلى الحجاز، بأنَّهُ "... قوافل خاصة بالحج، منظمة تنظيماً دقيقاً، وفيها ناسٌ متخصِّصون في كلِّ ما يتصل بالحج، من معرفةٍ بالطريق ومراحله وأوقاته، ومزودة بكلِّ مطالب الحجاج... إنَّه ركب الحاج المغربي"[4].

1- خليفة حماش: الأسرة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة دكتوراه الدولة في التاريخ الحديث، إشراف: أ د/ فاطمة الزهراء قشي، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2007/2006م، ص76.

2- أحمد بن عمّار، المصدر السابق، ص10.

3- المصدر نفسه، ص31.

4- حسين مؤنس: ابن بطوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل، د ط، دار المعارف، القاهرة، 2003م، ص18.

وركب الحج في العهد العثماني هو الإطار الرسمي أو الحيّز المحمي، الذي كان يحرصُ كلُّ مَن رغبَ في أداء مناسك الحج على الانتماء إلى قوافلِه، ومُصاحبة أفراده، لأنّ المنقطعَ عن الركب في رحلة الحج الشاقة والطويلة، أو المسافر من الجزائر إلى بلاد الحجاز بمفرده ما وصلَ إليها قطُّ سالماً، إلاّ من عصمَه الله وصانَه[1]. لذلك فقد أضحى الركب بمثابةِ "المحلَّة" أو "الحامية" المتنقِّلة التي تؤمِّن الحجاج قدر المستطاع، وتجعلُ بعض أمراءِ البلدان الواقعة في طريقها يرتابون منها، فيتجسَّسون على الركب، ويطوفون به ويختبِرونه[2]! حتى إذا ما أيقَنوا أنَّه ركبُ حجاج خَلّوا سبيله.

والركب في نظر رحَّالة آخرين هو "الحملة" المنظّمة التي تتكوّن من مجموعةِ قُطُر، والقُطُر جمعُ قطار kitar، وهو مجموعة من الإبل تُربط ببعضها البعض، مع مُراعاة وضع أربعة جِمال في المقدّمة، ويسير كلُّ قطار وراء قطار آخر، حتى أنَّه يمكن عدَّ المئات منها، بمجموعٍ قد يصل إلى آلاف الإبل[3]. فمن ميزات الركب الترابط والانسجام، كأنَّه وحدة غير قابلة للتجزئة، لذلك نجد الرحالة الورثلاني ـ مثلاً ـ تأسَّفَ لتشتُّت حال الرّكب الجزائري في إحدى محطات الطريق، وذلك بسبب الظروف الطبيعية القاسية التي واجهَتْه[4]. كما أنَّ صعود الركب (ارتحاله) أو نزوله (توقّفه) يعني أنَّ القافلة بحجمها الكبير وبِزَخَمِ مكوّناتها قد ارتحلت أو قد نزلتْ، بمَن فيها وبما فيها. يقول أحد الشعراء الرحالين ـ وقد عاينَ نزول الرّكب الذي ضمَّهُ ـ[5]: (الرمل)

نَزلَ الرّكبُ بِوادِي المنصَرِفْ وعَلَى لُقْياهُ كَمْ مَالٍ صُرِفْ

نَحْمَدُ اللهَ الذِي جِئْنَا لَهُ وجَمِيعُ الهَمِّ عنَّا مُنصرِفْ

وهناك ما يؤَكِّد أنَّ مظاهر الاستعراض والبذخ التي أضحت تُحيط بركبِ الحج بسبب أفعال بعض الحجاج بدأت في الظهور منذ منتصف ق01هـ/07م! فقد رُوي أنَّ الصحابي عبد الله بن

[1]– الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص134.

[2]– أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي (السرّاج): أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيِّد الأعاجم والأعارب، د ط، تحقيق: محمد الفاسي، مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية، فاس، 1970م، ص32.

[3]– جوزيف بتس: رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف) إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة، ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ط01، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، 1995م، ص67.

[4]– الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج01، ص418.

[5]– أبو القاسم الزياني: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برّاً وبحرا، تحقيق: عبد الكريم الفيلالي، ط 02، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، 1991م، ص218.

عمر ـ رضي الله عنه ـ كان إذا نظر إلى ما أحدَثَ الحُجَّاج في زمنِه من كثرة الزينة والهوادج في الأركاب القادمة إلى مكةَ المكرمة لأداء الحج يقول: إنَّ الحجَّ قليلٌ والركبَ كثيرٌ[1]! واستمرَّ ذلك التباهي في تزيين الأركاب وإظهار حجمها وقوتها في كلِّ موسم حج، بسبب التنافس المستمِّر بين الأقاليم الكبرى للعالم الإسلامي مشرقِه ومغربِه.

03. حدود التقاطع بين "الرَّكب" و"الرِّحلة":

تعرّفنا فيما سبق على منظومةِ ركب الحج والزّخم المصاحب لها، هذه المنظومة الحجيّة لا يمكن أنْ نتبيّنَ أبعادَها المختلفة إلا في إطار رحلة الحج الطويلة والشاقة، فهي التي ترسم ملامح الركب وتوّجهات الرُّكبان (الحجّاج) الحضارية. لذا وجبَتْ الإشارة إلى أنَّ مسيرة الركب بعنوان "الرحلة" أبلغُ وأوسعُ تعبيراً ومجالاً من عنوان "الحَجّة"، لأن المغاربة عموماً تعوَّدوا على توظيف هذا المصطلح للدلالة على سفَرِ الركب إلى الحج، والرّحلة تعني عادةً تسجيل الحاج للمشاعر والحوادث والمشاهدات التي تقع له منذ خروجه من بلدته إلى عودته إليه، أمَّا كلمة "حَجَّة" فهي لا تعني بالضرورة تسجيل المشاعر والحوادث والمشاهدات[2].

وإذا ما وازنَّا كذلك بين مصطلحَي "الرحلة الحجازية" و"الرحلة الحجية" نجد الأول أليَق وأنسب لسببين رئيسيين، هما:

أولا: لأن مجال الرحلة الحجازية أوسع من مجال رحلة الحج، إذْ أنَّه يرتبط ـ فضلاً عن الفريضة الدينية وشعائرها ـ بالجوانب السياسية والتعليمية والتجارية، كما تحتاج الرحلة الحجازية إلى مالٍ وجاهٍ وأعباءَ سفر إضافية، والأخطار فيها أكثر. لذلك شاع في كتب التراجم والسّيَر في ذلك العهد القول: "رحلَ إلى المشرق بِقصدِ الحجاز" رغم أنّ المراد هو: "بقصدِ الحج"[3]!

ثانياً: لأن صاحب الرحلة قد يكون غير مسلم، فهو غير معني برحلة الحج أصلاً، وإنما قصدُه الوصول إلى بلاد الحجاز لغرضٍ يبتغيه، سواء صادفَ وصوله موسم الحج أو لم يُصادف. وعليه

---

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص77.

[2]- أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، ط01، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م، ص268.

[3]- كمال فيلالي: الهجرة العلمية والطلابية إلى قسنطينة في عهد عبد الكريم الفقون علاّمة العصر (988-1073هـ)، أعمال الملتقى العلمي الأول "سوسيولوجية الهجرة الجزائرية في تاريخ الماضي والحاضر"، مخبر الدراسات والأبحاث الاجتماعية التاريخية حول الهجرة والرحلة، جامعة قسنطينة، ماي 2008م، ص20.

فإن كلَّ رحلة حجية هي حجازية بالضرورة، بينما العكس غير صحيح. لذلك نجد الكثيرين من الأعلام والرحّالين المغاربة الذين دوَّنوا تفاصيل وحيثيات رحلاتهم لأداء الحج فضَّلوا استخدام العنوان التالي: "الرِّحلة الحجازية".

لقد اهتمَّ بعضُ الرحالين الجزائريين منذ أمدٍ بعيد بتدوين رحلاتهم الحجازية، فكتب الشيخ أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني* منذ القرن 06هـ/12م تفاصيلَها أبياتاً شعرية بِعدد أيام السنة، بدأها بقوله[1]: (الطويل)

عَذِيريَ عُذْراً مِنْ ذواتِ المعاجِرِ ذواتِ العُيونِ النُّجْلِ سُودِ الغَدائِرِ

كما ضَمَّنَ محمد بن محمد المقَّري التلمساني** في القرن 08هـ/14م رحلتَه مراحلَ طريق الحج بدءاً من تلمسان، وأخبار الحرمين والقاهرة ودمشق، وأسماء الأعلام الذين لقيَهم أثناءها[2]. ويرى المرحوم أبو القاسم سعد الله أنَّ أفضلَ الرحلات الحجازية الجزائرية النثرية المدوَّنة في العهد العثماني متناً وأهميةً، وأقربَها محاكاةً إلى نظيراتها الأخرى الشهيرة (مثل رحلات: ابن جبير، ابن سعيد، العبدري، ابن بطوطة، العياشي، الدرعي...)، هي رحلة الحسين الورثلاني ورحلة أبي راس الناصري في القرن الأخير من الوجود العثماني بالجزائر[3].

* **أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم السدراتي الوارجلاني** من أشهر علماء وارجلان (ورقلة) الأباضيين في النصف الثاني من القرن 06هـ/12م، قرأ في عصر شبيبته بقرطبة، فحصَّل فيها علوم اللغة والحديث. ثم انقطع إلى خدمة العلم بوارجلان، فأقامَ سبعةَ أعوام ملازماً دارَه، إمّا ينسخ، وإما يدرس، وإما يقابل، وإما يَبري الأقلام، وإما يطبخ الحبر، وإما يسفر كتاباً. خلَّف قصيدة حجازية أبياتُها عدد أيام العام، بدأ فيها بغزل رقيق، ثم الرحلة عن وارجلان، والتنبيه عمَّن صحبَهم في ذلك الركب، وذكر الطريق منزلةً منزلةً، وذكر المناسك، ثمّ فعل كذلك حتى خرج.... يُنظر: أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني: طبقاتُ المشائخ بالمغرب، تحقيق: إبراهيم طلاي، ط01، مطبعة البعث، قسنطينة، 1974م، ص491 وما بعدها.

[1]- موقع: http://ibadiya-ahlalhaqe.blogspot.com، بتاريخ: 2017/07/02م، 10:30.

** **محمد بن محمد المقَّري التلمساني** من أكابر علماء المذهب المالكي في القرن 08هـ/14م، ولد ونشأ بتلمسان، وتعلم بها وبتونس والمغرب، رحل إلى المشرق وحج، فأخذ عن علماء مصر والحرمين ودمشق والقدس، تولّى القضاء في زمن المرينيين. خلَّف كتباً كثيرة، كما تتلمذَ عليه كلٌّ من لسان الدين ابن الخطيب وعبد الرحمن بن خلدون. يُنظر: عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ط02، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1980م، ص312.

[2]- سميرة أنساعد: الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري من القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر الهجريين، ط01، الوكالة الأفريقية للإنتاج السينمائي والثقافي، الجزائر، 2011م، ص16.

[3]- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ط01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م، ج02، ص390.

والجزائريون ـ رغم ذلك ـ متَّهَمون بنقص التأليف في أخبار ركب الحج الجزائري وتفاصيله[1]. يقول المرحوم سعد الله متحسِّراً على تفريط أحدِ شيوخ الركب في الكتابة عن الحج رغم كثرة تآليفه: "وإذا كنا نأسف لشيء بهذا الصدد، فهو عدم تسجيل الفكُّون مذكراتٍ عن رحلاته إلى المشرق، كما كان يفعل المغاربة على العموم"[2].

ويُلاحَظ كذلك أنَّ أغلبية أصحاب الرحلات الحجازية هم من أهل القرن 12هـ/18م، وذلك بفضل الحركية العلمية الناشئة فيه، والاستفادة من كتب الرحلات المغربية السابقة، ولأجل استدراك ذلك التقصير. لكنْ يُعاب على أولئك الرحالين تركيزهم على تقييد الأخبار الشخصية، مثل تبيان علاقاتهم بالأعلام والعلماء المشارقة، وسيادة نوع من الذاتية مِن قَبيل: "وخرجنا من دار صاحبنا وأخينا" أو "وودّعَنا مُحبُّونا" أو "وممَّن اجتمعتُ معهم من الفضلاء والعلماء".... كل ذلك على حساب أخبار الركب الجزائري والحجاج قاطبة، والتفصيل في ذلك ما أمكنَ عند نقل أخبار يوميات الرحلة إلى الحج.

ويبدو الرحّالون الجزائريون المشهورون مُطَّلِعين على ما دوَّنه الحجاج المرتحلون قبلهم، سواء في الأزمنةِ قريبةِ العهد بهم أو حتى في القرون البعيدة نسبياً. بلْ قد ألَّفَ بعضهم رحلته أسوة بأولئك الرحالين المشهورين، فهذا الرحالة أبو راس الناصري المعسكري يقول بخصوص ذلك أواخرَ القرن 12هـ/18م: "وأسوتي في ذلك رحلة الجهابذة النحارير والأسانيد الجماهير: كرحلة الإمام ابن رشيد السبتي، والخطيب ابن مرزوق، ورحلة الشيخ أبي سالم عبد الله بن محمد العياشي، وكذا رحلة الشيخ أحمد بن الناصر وغيرهم"[3]. وعن الغاية التي يَنشدُها هؤلاء الرحّالون الحجاج من وراء تدوين

---

[1]- من المفارقات بشأن ذلك أنَّ بعض الرحالين المشهورين استلهموا فكرة تدوين رحلاتهم نحو الحجاز بعد مرورهم بتراب الجزائر، ومنهم الرحالة الشهير "العبدري البلنسي" سنة 688هـ/1289م، حيث قال: "وهذه الرحلة بدأتُ بتقييدها في تلمسان، ولم يُمكني إظهارها هنالك، وأظهرتُها بعد خروجنا منها". يُنظر: محمد العبدري البلنسي: الرحلة المغربية، ط01، تقديم: سعد بوفلاقة، مؤسسة بونة للبحوث والدراسات، عنابة، 2007م، ص21. وللتعرُّف كذلك على أشهر الرحلات الحجازية الجزائرية خلال العهد العثماني يُنظر مقدمة هذا البحث.

[2]- أبو القاسم سعد الله: شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ط01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م، ص85.

[3]- محمد أبو راس الجزائري (الناصري المعسكري): فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته، د ط، تحقيق: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص91.

يوميات رحلاتهم الحجازية يقول الرحالة المصعبي: ".... بعثني صدق الهمّة إلى نظم بعض ما لقيتُه في سفري، ليكون تذكرة لي، ولمن يريد سلوك هذه الطريق من بعدي.... "[1].

على أنَّ الحسين الورثِلاني يبقى النموذج الأمثل للرحّالة الجزائري المطَّلع والناقل عمَّن سبقه، فرحلته المحفوظة المكتوبة تتحدث بتفصيلٍ وإسهاب عن أحوال الركب الجزائري[2]، وقد كرَّر ذكر اسمه (أي ركب الجزائر) فيها مرَّاتٍ عدَّة. وتكثر في رحلة الورثلاني النقول والإحالات إلى ما ذكره السابقون من أمثال العياشي في ق11هـ/17م، وابن ناصر في بداية ق12هـ/18م. لكنْ لا تخفى استفادة الورثلاني ـ بل الحجاج جميعاً ـ من تلك الرحلات المطَّلَع عليها، من ذلك مثلاً النص التالي الذي أورده الورثلاني في رحلته، والذي يخصُّ منبع ماء لم يهتدِ إليه الحجاج الجزائريون في صحراء ليبيا الموحِشة إلا بفضل علمِ بعضهم بوجوده إثر قراءة خبرِه في رحلة مغربية سابقة، يقول الورثلاني عن هذا المثال: "وقال شيخُنا سيدي أحمد بن ناصر: إنَّ سانيةً موجودة قربها ماؤها عذب"[3]. وتبقى تلكم الرحلات الحجازية أهمَّ مصدر للتعرف على تاريخ ركب الحج الجزائري، من حيثُ تنظيمُه وتشكيلُه، أو في أخبار أمرائِه وأعلامه، أو في سِيرِه وعلاقاته بمحيطه.

المبحث الثاني: أخبار الركب الجزائري قبل العهد العثماني

01ـ بدايات ركب الحج الجزائري:

إنَّ الحديث عن بدايات الركب الجزائري لا يعني أن الحجَّ كان معطَّلا قبل ذلك لدى الجزائريين، أو أنَّهم كانوا يحجُّون فُرادى، فهذا أمرٌ نادر ومُستبعَد، لأن الظروف المحيطة بالطريق لم تكن تسمح بذلك. وإنّما حديثُنا عن الركب يعني بداية تنظيم شؤون الحجاج، وتشجيع الناس على الحج جماعةً لدرءِ المشقَّة والمخاطر، وجمعهم في قافلة واحدة كبيرة منظَّمة مخصَّصة للحج، بدلاً عن تلك الجماعات أو المواكب الصغيرة، أو المراكب البحرية، أو حتى القوافل التجارية المتَّجهة إلى المشرق، والتي كانوا يستعينون بها لأداء الحج. وتُشير بعض الدراسات إلى أنَّ أول ركب منظَّم للحج ظهر ببلاد المغرب قاطبةً هو "الركب الصالحي"، نسبةً لمؤسِّسه الإمامِ أبي محمد صالح

---

[1]– إبراهيم بن بحمان اليَسْجَني المصعَبي: رحلة المصعَبي، ط01، تح: يحي بن بهون حاج امحمد، العالمية لخدمات النشر، غرداية، 2006م، ص43.

[2]– أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط خ، دار البصائر، الجزائر، 2007م، ج01، ص187.

[3]– الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص232.

الماجري (ت631هـ/1234م)*، المنطلق من مدينة آسفي المغربية، حيث كانت له رباطات ووكلاء في محطات الطريق الرئيسية[1]. فمهَّد بذلك لظهور أركاب لاحِقة في بلاد المغرب.

أمّا في بلاد المغرب الأوسط بالذات (الجزائر حالياً) فإننا نجد إشاراتٍ بخصوص ذهاب الجزائريين إلى الحج في إطار جماعي منظَّم نسبياً منذ القرن 06هـ/12م، أي قبل اشتهار الركب الصالحي المغربي المذكور آنفاً؟ ويتضح ذلك في رحلة أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني للحج، إذْ يقول في أول نظمِها[2]: (الطويل)

خَرَجْنَا نَؤُمُّ الشَّوقَ مِنْ حِيزِ وَارجلانَ   بِفِتْيَانِ صِدْقٍ مِنْ وُجُوهِ العَشَائِرِ

ويتضح أيضاً في وجود رحلات أركاب إلى الحجاز انطلاقاً من مدينة تلمسان في القرن 8هـ/14م، أو توقُّفاً بها، على غرار رحلات: العبدري الحاحي المغربي أو التوجيبي التلمساني أو ابن مرزوق التلمساني. بل نجد أنَّ السلطانَ المريني أبا الحسن (ت752هـ/1351م) كان يعيِّن كلَّ سنة ركباً من تلمسان إلى الحجاز، بقائدِه وشيخِه، وذلك بعد سيطرة المرينيين على المدينة. يقول ابنُ مرزوق التلمساني الجدّ (ت781هـ/1379م) بشأن ذلك في مُسنده: ".... ولما فُتِحتْ تلمسان صارَ (السلطانُ أبو الحسن) يعيِّن في كلِّ سنة ركباً متوجِّها، وسيأتي ذكر المصاحف التي خطَّها بيده ووجَّهها إلى المساجد الثلاثة"[3]. وعلى ذكر تلمسان فقد تميَّزت في العهد الزياني بأوقافِها المخصَّصة لخدمة ركب الحج ومساعدة الحجاج، من ذلك وقفٌ هامٌ كان بزاوية العبَّاد الشهيرة بها، جاء فيه: ".... بِرسمِ إطعام الطعام بزاوية العبَّاد ـ عمَّرهُ الله ـ للفقراء والحجاج والمقيمين والواردين عليها...."[4]، مما يدل على الاهتمام الرسمي والشعبي آنذاك بركب الحج.

---

* **أبو محمد صالح الماجري (ت631هـ/1234م)** من تلامذةِ الشيخ أبي مدين شعيب التلمساني، مهَّد طريق الحج وسبيلَه ببذلِ مالِه ومجهودِه، وجعلَ أصحابه في جميع المراكز التي على طريق بيت الله الحرام، يأخذون بيدِ كلِّ سالك إلى الحجاز، ويمدّونه بكل ما لهم من معونة، ولا يتركون له مجالاً للجلوس بأي بلد حتى يحجّ ويزور، وذلك بعدما تحامى المغاربة الحجَّ لوعورة الطريق ووجود الموانع. يُنظر: محمد بن أحمد الكانوني العبدي: البدر اللائح والمتجر الرابح في مآثر آل أبي محمد صالح، ط01، منشورات جمعية البحث والتوثيق والنشر، الرباط، 2011م، ص12 وما بعدها.

1- محمد المنوني: من حديث الركب المغربي، ط01، مطبعة المخزن، تطوان، 1953م، ص07.

2- موقع: http://ibadiya-ahlalhaqe.blogspot.com، بتاريخ: 2017/07/02م، 10:30.

3- محمد ابن مرزوق التلمساني (الخطيب): المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، د ط، تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم: محمود بوعيّاد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص385.

4- المهدي البوعبدلي، الحياة الثقافية بالجزائر، مرجع سابق، ص30.

أمَّا التصريح بالسفر إلى الحج في إطار ركبٍ منظَّم انطلاقاً من مدينة تلمسان فقد جاء على لسان الشيخ أحمد الغماري (ت874هـ/1470م) نزيل تلمسان (أحد المترجَم لهم في روضة النسرين) جليّاً في العبارات التالية: ".... ثمَّ توجهنا للحرمين الشريفين في ركبٍ عظيم". و"... ولما قضينا فريضة الحج قفَلنا مع الركب، إلى أن وصلنا بونة وهي بلد العناب". و"...كان معنا في ركب الحجاز امرأة فقيرة، لا تعلم شيئاً"[1]، وكلُّها عبارات دالة على شيوع تنظيم ركب الحج في المغرب الأوسط. وعندما نقل ابن مرزوق التلمساني الجد (الملقب بالخطيب) صورة الركب المتكوِّن من حجاج تلمسان والمدن المجاورة لها، ذكر أنَّه ضمَّ ثلاثمائة مسكن ما بين خباء وقيطون (أي خيمة)، بمجموعِ ألف حاج، رافقَتهُم فرقة عسكرية ضمَّت مائتين وثمانين فارساً[2].

رغم أنَّ تحديد الأقاليم والجهات كان أمراً نسبياً في تلك الفترة، متغيِّراً باستمرار في مغربِ "ما بعد الموحدين"، المضطرب بمزاحمةِ المرينيين والحفصيين للدولة الزيانية، إلا أنَّنا وجدنا لركب الحج مكانةً في مدن الشرق، كقسنطينة التي اشتهرت بعائلاتها العريقة الحريصة على تنظيم ركب الحج وقيادته، مثل عائلة "عبد المؤمن"، وكذلك بجاية التي كان ركبُ حجاجها متداخلاً مع ركب أهل تونس، بحكمِ نفوذ الحفصيين في المنطقة[3]. لذلك فقد كان من الصعب تمييز الركب الجزائري عن بقية الأركاب المغاربية، فالركب الواحد منها قد يضم حجاج بلاد المغرب الإسلامي جميعاً.

02. استمرار دورية الركب مع مجيء العثمانيين:

لم يضطرب تنظيمُ ركب الحج الجزائري بانضمام الجزائر الطوعي إلى الدولة العثمانية سنة 924هـ/1518م، بل قد تحسَّنتْ ظروفه في السنوات الأولى للتبعية، حيث عاد النشاط البحري لمدينة الجزائر، التي عانت في السابق من التحرُّشات الأوروبية، وأصبحت المراكب جاهزةً لتُقِلَّ الحجاج نحو ميناء الإسكندرية المصري[4]. وظلَّتْ قيادة ركب الحج في عائلة ابن مرزوق التلمساني

---

[1]- محمد بن صعد الأنصاري التلمساني: روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، ط خ، تحقيق: يحي بوعزيز، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص194.

[2]- نصر الدين بن داود: بيوتات العلماء بتلمسان من القرن 07 إلى القرن 10هـ، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، إشراف: أ د/ محمد بن معمر، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2009/2010م، ص277.

[3]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، مرجع سابق، ج04، ص213.

[4]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص23.

من الجهات الغربية، وكذا في عائلة عبد المؤمن القسنطينية من الجهات الشرقية إلى ما بعد حوالي قرن من وجود العثمانيين[1]، ثم انتقلت القيادة بعد ذلك إلى عائلاتٍ بزغَ فجرُها، على غرار عائلة الفكون القسنطينية وغيرها.

وقد باشَر العثمانيون إشرافهم على شؤون تنظيم الحج، وكذا إجراء بعض التغييرات على مستوى قيادة ركب الحج. مع ملاحظةِ أنَّ ذلك كان في الأقاليم التي خضعتْ لهم، أمَّا في الأقاليم البعيدة عن سلطتهم فقد بقيتْ أمور تنظيم ركب الحج على ما كانت عليه. فنجد ـ على سبيل المثال فقط ـ ركبَ حجٍّ جزائريٍّ قائماً بذاتِه، مُحافظاً على دوريته في كلِّ موسم، بشيخِه (أميرِه) وأعوانِه ومُستلزماته في منطقة "قورارة" من بلاد توات، جنوب غرب الجزائر، خلال القرن 10هـ/16م[2]، أي في السنوات الأولى لانضمام الجزائر للدولة العثمانية.

1- أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، مرجع سابق، ص49.

2- مولاي التهامي غيتاوي، المرجع السابق، ص387.

الفصل الأول:
ركبُ الحجِّ الجزائريُّ تنظيمُهُ وإمَارتُه

ـ تمهيد

ـ المبحث الأول: الركبُ الجزائري استقلاليتُهُ وخصوصياتُه

ـ المبحث الثاني: أصنافُ الركب الجزائري وجِهاتُه

ـ المبحث الثالث: علاقة السلطات العثمانية بالرّكب الجزائري

ـ المبحث الرابع: إمارةُ ركبِ الحجِ الجزائري ومقوِّماتها

ـ خلاصةُ الفصل الأول

الفصل الأول: ركبُ الحجِّ الجزائريُّ تنظيمُهُ وإِمارتُه

أشرنا سابقاً في فصلٍ تمهيدي إلى مدلولات مصطلح "الركب"، وإلى أخبار الركب الجزائري قبل وأثناء مجيء العثمانيين. وفي هذا الفصل الأول سنركّز الحديث على المظاهر الدالة على استقلالية وخصوصية الركب الجزائري، والمناطق أو الحواضر الجزائرية الرئيسية التي كان الركب ينطلق منها متجهاً نحو بلاد الحجاز، على غرار: الجزائر، قسنطينة، بجاية، تلمسان، معسكر، مليانة، الزاب، توات، وارجلان.... دون إغفالِ الحديث عن الركب الجزائري المسافر عبر البحر، والذي شاعَ في تلك الفترة واعتُبِر بمثابة الركب الرسمي لحكّامِ الجزائر من الأتراك.

كما يهتم هذا الفصل بتوضيح علاقة الركب الجزائري بالعثمانيين، وتبيان حدود الوِصاية التنظيمية على شؤون الحج من الجزائر، ومدى إضفاء الطابع الرسمي من لَدُن الحكام الأتراك على تنظيمِ مسيرِ الركب؟ ثمَّ ماذا عن حالات الاضطراب في توجُّه الركب الجزائري نحو الحجاز؟ وأخيراً نستعرض أهمَّ الشخصيات والأسر الجزائرية التي نالَتْ شرف إمارة أو قيادة ركب الحج الجزائري نحو الحجاز، وما هي شروط الاختيار ومقوّمات تلك الإمارة؟ ومَن له السلطة في التنصيب؟ وكذا حدود الصلاحيات التي كانت مُتاحة لشيخِ الركب أو أميرِه!

المبحث الأول: الركبُ الجزائري استقلاليتُهُ وخصوصياتُه

01. دلائلُ تميُّز الركب الجزائري وخصوصيتُه:

لقد تكرَّر استخدام لفظ "الركب الجزائري" أو "ركب الجزائر" في متون الرحلات الحجازية الجزائرية في الكثير من المواضع، ونقلَ الحجاج الرحّالون أخباره باستمرار، طيلة فترة الحكم العثماني للجزائر. مِن ذلك خبرٌ مفاده أنَّ **ركب الجزائر** في موسمِ حجِّ 1063هـ/1653م قد أَمِنَ في رحلته في القِفار ولم يتعرَّض لقطّاع الطرق، على خلافِ ما حدث له في المدن التي مرَّ بها[1]، ومنها كذلك خبرٌ مُؤدّاهُ أن **الركب الجزائري** التقى في موسم حجِّ 1179هـ/1766م بمدينة طرابلس الغرب بالركبَين المغربيين الفاسي والفيلالي (السجلماسي) مغرِّبَين[2] (أي عائدَين من الحجاز). ومن

---

[1]- عبد الرحمن بن محمد بن خروب المجاجي: رحلة منظومة حول الحج إلى مكّة، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر، رقم: 1565، و03.

[2]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص412.

الأخبار المتعلِّقة بطريق الحج كذلك أن أهل صحراء طرابلس الغرب خرجوا من قُراهُم يتسوَّقون **الركب الجزائري** في حَجَّةِ 1188هـ/1774م رجالاً ونساءً وصبياناً بالتمر والزرع والخبز والدجاج[1]. وغيرها من الأخبار التي كانت تقصد "ركب الجزائر" في حد ذاته، وتسمِّيه باسمه.

والأمر لم يكن مقصوراً على الجزائريين فقط في نقلِ أخبار الركب الجزائري والتأكيد على كَيانِه ودوريتِه في العهد العثماني، بل تعدَّاه إلى الرحالين من الحجاج المغاربة، فهذا الرحالة العياشي يُشيرُ إلى موسم حج 1072هـ/1661م قائلاً: ".... وبعد أن خرجنا منها لقينا **ركب الجزائر** القافلين من الحجاز...."[2]، وفي موضعٍ آخر، وفي محطة أخرى من محطات العودة، يُسمِّي العياشي الركب الجزائري قائلاً: "وجدنا **ركب الجزائر** مُقيمين فيه، وكرهنا الورود عليهم لأجل ما بين الركبَين من الشنآن.... فلما أصبحنا ارتحل **أهل الجزائر** وأقام أصحابنا"[3]. وهذا الرحالة الشرقي الفاسي يذكر أحد أقرباء أمير طرابلس بأنه "كان توجَّه للحج مع **الركب الجزائري**، وتأخَّر عنهم في مصر لمقتضيات وأعراض عُرضتْ له"[4]، كان ذلك في موسم حجٍّ 1139هـ/1727م.

تمكَّن الركب الجزائري من أن يحافظَ على شخصيتِه واستقلاليته طيلة الرحلة إلى الحج، وحتى في المقطع الأخير من طريق الحج (أي بين مصر والحجاز)، حيث كانت العادة في ذلك الزمان أنْ يتقدَّم الركب المصري ويَسودَ أركابَ بلاد المغرب كلَّها. لكنَّ الأمور انقلبتْ تدريجياً، وأصبح الركب المصري الضَّخم يحسِبُ للركب الجزائري ألفَ حساب ـ كما يروي الرحالة الورثِلاني في رحلته ـ إذْ كان من عادته احتقار الأركاب المغاربية حين تخرج معه من مصر، إنْ شاء قدَّمها وإن شاء أخَّرها، وإنْ شاء زاد في الكراء، إلا أن الوضع تغيَّر مع "تعصُّب" الركب الجزائري لحقوق حجاجه، ورفضه حُكمَ الركب المصري رفضاً مطلقاً[5]!

قد يظهر في ذلك "التعصُّب" بعضُ الغلظة والجفاء، خاصة إذا نقلنا شهادة الرحالة المغربي أبي سالم العياشي من أنَّ ركب مراكش كان غالباً ما يَجِدُّ في السير أثناء السفر، خشيةً مِن أنْ

---

[1]- عبد الرحمن بن عمر التنلاني التواتي: الرحلة الحجية، مخطوط بخزانة بن الوليد، قصر با عبد الله، تيمي، أدرار، و09.

[2]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص133.

[3]- المصدر نفسه، ج02، ص490.

[4]- ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، و126.

[5]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص174.

يلحق ركب الجزائر به فتكون فتنة[1]! وكان ـ كما ذكرنا آنفاً ـ إذا سبقه الركب الجزائري إلى موضع ما فإنَّه يتعمَّد التأخُّر في ورود ذلك الموضع حتى يرتحل عنه الجزائريون. بل لقد ذكر الرحالة الجزائري الورثِلاني أن بعض الحجاج الجزائريين ـ في إحدى المرات ـ رغبوا بعد خروجهم من مصر متجهين صوب الحجاز في الانفلاتِ عن ركب الجزائر، ومواصلةِ ما تبقَّى من السفر مع الركب المصري المنظَّم أكثرَ من الجزائري، والسبب الذي دعاهم إلى ذلك ـ في تقديرهم ـ هو "ظلمُ الركب الجزائري للناس وكثرة الهرج فيه.... حتى أن الإنسان يتمنَّى لو لم يقدُم معه إلى الحج"[2]!؟

يبدو أنَّ ذلك حكمٌ قاسٍ من طرف فئة قليلة من الحجاج، وكلُّ ما في الأمر أن الركب الجزائري كان حريصاً على إبراز مدى هيبتِهِ وقوته، حمايةً للحجاج الجزائريين، وترهيباً للمعتدين، ونِكايةً في أركاب الحج الأخرى المزاحِمة له. أمَّا طلبُه من ركب مراكش المغربي عدمَ مُزاحمته في المسير، فقد بيَّن العياشي السبب، وهو أن الجزائريين اعتبروهم مجرَّد "حجاج صعاليك"[3]! أي غير ملتزمين بالنظام والانضباط المطلوبين أكثرَ من أي أمرٍ آخر في رحلة الحج الطويلة.

رغم وجود شيخ أو وكيل للحجاج المغاربة أجمعين في الحجاز خلال العهد العثماني، إلا أن الجزائريين كان لهم ممثِّل خاص هو "رئيس طائفة الجزائريين"[4]. وصحيح أن الركب الجزائري كان يتخلَّف عن الركب المصري قليلاً بعد خروجه من مصر ودخوله في آخر مقطع من مقاطع السفر المسمى "درب الحجاز"، حيث جرتْ العادة أنْ ينطلق الركب المصري ثمّ تنضمُّ إليه أركابُ: المغرب الأقصى وتونس والجزائر وطرابلس الغرب، فتتضاعف أعدادهم، ويؤلِّفون ركباً مغاربياً كبيراً[5]. لكنْ كان بالإمكان دائماً تمييز بعضها عن بعض، سواء في الانطلاق أو أثناء السير. يوضّح الرحالة الورثِلاني ذلك الأمر قائلاً: ".... وعدد الأيام على الاحتياط إلى مصر بحسبِ مَشيِنا (الركب)

1- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص496.

2- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص82.

3- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج02، ص496.

4- عائشة غطاس: أوقاف الحرمين الشريفين بالجزائر إبان العهد العثماني من مظاهر التواصل بين الجزائر وبلاد الحجاز، أعمال المؤتمر العلمي الخليجي المغاربي الأول حول "العلاقات بين دول الخليج والمغرب العربيين الواقع والمستقبل"، تقديم: عبد الجليل التميمي وفهد بن عبد الله السماوي، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، 2005م، ص224.

5- عواطف بنت محمد يوسف نواب: كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، 2008م، ص256.

الجزائري لا الفاسي، فإن الفاسي أسرع في المشي لتأخُّره (في الانطلاق)"[1]. إن تلكم الشواهد والإشارات المذكورة سابقاً تؤكِّد بأن ركب الحج الجزائري لم يكن أبداً تابعاً أو مُلحَقاً بركبٍ آخر، بلْ كان ركباً مستقلا، وأضحى هو مَن يفرضُ خطة سيرِه على بقيةِ أركاب الحج الأخرى!

02. تمايزُ أركابِ الحجّ المغاربية في العهد العثماني:

أ ـ التقاطع بين الأركاب المغاربية والمصري:

من السِّمات الغالبة على الفترة العثمانية (وما قبلَها) عدم الاهتمام بتمييز المغاربة عن بعضهم البعض، فمُسلمو أفريقيا الشمالية (سكان بلاد المغرب) كانوا يُسمَّون في المشرق "مغاربة" بلا تمييز[2]. والعثمانيون ما فتئوا يُطلقون لفظ مغربلي (أي مغربي) على جميع السكان القاطنين غرب مصر، بمن فيهم سكان المغرب الأقصى أو "مملكة مراكش" التي لم تخضع لهم[3]. وقد انعكس ذلك الإطلاق في التسمية على الحجاج الجزائريين وركبِهم، فهذا حاج جزائري سألهُ حاج تركي في الحرم المكي عن بلده؟ فأجاب مباشرةً: من المغرب! فأعاد التركي طرح السؤال: من أيِّ بلاد المغرب؟ فقال حينَها: من الجزائر[4]. وحتى الشيخ الورثِلاني نجده يُشير إلى عالم ليبي من طرابلس اجتمع به في حَجَّته الأولى بالحرمين، محلِّياً إيّاه باسم "سيدي محمد المغربي الطرابلسي"[5]!

والظاهر أن إشكالية التسمية تلك قد انتشرت بالجزائر في العهد العثماني[6]، إذْ كان بعض علماء قسنطينة يستخدمون لفظ "المغاربة" للدلالة حتَّى على أهل وسط إقليم الجزائر وما جاورَ ذلك غرباً، أي على مدينة الجزائر وما والاها غرباً، ثمَّ نجدهم أحياناً أخرى يقصدون بذلك اللفظ

---

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص20.

[2]- لوسيت فالنسي: المغرب العربي قبل سقوط مدينة الجزائر 1790-1830م، ط01، ترجمة: إلياس مرقص، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، 1980م، ص110.

[3]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، مرجع سابق، ج01، ص323.

[4]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص63.

[5]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج01، ص89.

[6]- من التسميات المستخدَمة كذلك في تلك الفترة مصطلح "**أهلُ الواسِطة**"، ويُطلق على سكان القطر الجزائري، لتوسُّطهم بين تونس والمغرب الأقصى. ذلك ما بيَّنه الشريف الزهار في مذكراته قائلاً: "عندما كان الفرنسيس بمصر، قام ابن الأحرش هذا، وجمع إليه أناساً من المغاربة وأهل الواسِطة.... ". يُنظر: الشريف الزهار: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر، د ط، تحقيق: أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م، ص85.

أهل المغرب الأقصى فقط[1]! ولما ذكر الرحالة الورثِلاني بعضَ الأركاب المغاربية التي نزلتْ بجوار الركب المصري الكبير في إحدى المحطات ميَّزها بأسمائها قائلاً: ".... ووجدنا الركب المصري نازلاً هناك، فنزلنا حِذاءَهُ: الفيلالي و**الجزائري** والفزَّاني"[2]. ثمّ نجد ـ مرة أخرى ـ إطلاق صفة "المغربي" على جميع أركاب المغرب العربي، فهذا الرحالة نفسُه (الورثلاني) يتحدَّث عن ركب الجزائر وموقعه في المسير، فيستخدم تارة الجزائري وتارة المغربي: ".... والركب المصري نازلٌ هناك، إذْ سبَقَنا من المدينة، ونحن **ركب الجزائر** وراءه، وإنْ كانت عادة الركب المغربي السبق في الإياب!"[3].

إنَّ تميُّز الركب الجزائري لا يعني أبداً أنه لا يحمل سوى الجزائريين، أو أنه يرفض المسير جنباً إلى جنب مع الأركاب المغاربية، إذا ما استثنينا ركب المغرب الأقصى، بسبب التنافر السياسي بينهما، والرغبة في المحافظة على الاستقلالية. فقد انضمَّ بعض الحجاج من إقليم برقة الليبي وثلاثة حجاج مغربيين إلى الركب الجزائري في أحد المواسم[4]، في حين التقى بعض الحجاج الجزائريين بركب بركب فزّان الليبي في مصر، وتعرَّفوا على حاكم فزَّان فرحَّب بهم، وآثروا مواصلة السفر معاً إلى الحجاز[5]. ثمَّ نجد ركب أهل طرابلس الغرب يلحق بالركب الجزائري الخارج من مصر ـ كما ذكر التنِلاني ـ "ووافَقَنا ركبُ طرابلس ونِعمَ الركبُ هُم"[6]. وهذا العياشي الذي طالما اشتكى من حِدَّة وشدَّة الركب الجزائري يُشيرُ إلى عالِمٍ حجَّ مع ركب المغرب، ثم فضَّل العودة مع ركب الجزائر قائلاً: "... ولقيتُ صاحبنا سيدي سحراوي، وكان حجَّ معنا، ثم قدِم قبلَنا مع **ركب أهل الجزائر**"[7].

كما أن التقاء أركاب المغرب العربي في طريق الحج أمرٌ واردٌ، إذْ حدثَ وأن التقتْ خمسة أو ستة أركاب مغاربية دفعةً واحدةً في مدينة طرابلس الليبية، ما بين ذاهبين وآيبين[8]. والتقى كذلك

---

[1]- عبد الكريم الفكون: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، ط01، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م، ص93.

[2]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص241.

[3]- المصدر نفسه، ج03، ص117.

[4]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص403.

[5]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج02، ص83.

[6]- عبد الرحمن التنلاني، الرحلة الحجية، مصدر سابق، و18.

[7]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج02، ص535.

[8]- أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي: الرحلة الناصرية، ط01، تحقيق: عبد الحفيظ ملوكي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2011م، ص172.

الركب الجزائري بالركب التونسي في بعض المحطات، فمثلاً كان التونسي يسبقُ الجزائري ويخرج من مصر قبله، ثم يلحق به الجزائري حتى يُخلِّفَه وراء ظهره وهكذا[1]. وعلى ذكر الركب التونسي فقد خرج معه مرَّةً من المدينة المنورة حجاجٌ مغاربة، لأنهم تخلَّفوا فيها عن أركابهم، وخوفاً من غوائل الطريق اختاروا المسير مع هذا الركب الكبير[2]. والرحالة العياشي كان ممَّن شهدوا بضخامةِ وحسنِ تنظيم ركب تونس فقال: "ودخلَ علينا في طرابلس ركبُ أهل تونس في شارةٍ حسنةٍ وفخامةِ هيئة، في بَشَرٍ كثيرٍ وسَوادٍ عظيمٍ كسوادِ الليل، يفعمُ الطرقات كإفعامِ السَّيل"[3]! فتقاطعُ الأركاب المغاربية وارد جدا، لأنَّ بعض مقاطع الطريق مشتركة، والخصوصيات "القُطرية" لم تكن طاغية وقتئذٍ.

أمّا المحطة التي لطالما تكتَّلتْ فيها أركابُ الحج المغاربية: الطرابلسي والتونسي والجزائري والفاسي، وانضمَّتْ لبعضها البعض، كي تقصد الحجاز مجتمعة بصحبةِ الركب المصري، فهي إثْرَ الخروج من مصر نحو درب الحجاز، وإنْ كان التلاحم التام لا يحدث فيما بينها هناك[4]. والشاهد في ذلك تشوّقُ الحاج المغاربي ـ فيما يأتي ـ وطلبُه من الركب المصري التأنِّيَ كي يلحقَ به "المغاربي" ويصحبه كما جرتْ العادة[5]: (البسيط)

يا رَكْبَ مصرَ رويداً يَلتَحِقْ بِكُمُ   قَوْمٌ مَغاربةٌ لَحْمٌ عَلى وَضَمِ

فِيهِمْ عُبَيْدٌ تَشُقُّ العَيْنَ زَفرَتُهُ   لَمْ يَلْقَ مَولاهُ قدْ ناداهُ في القَسَمِ

إنَّ انضمامَ الأركاب المغاربية إلى الركب المصري مؤقَّت ـ إن صحَّ التعبير ـ تفرضُه ظروف الطريق بين مصر والحجاز، والرغبة في مسايرة الركب المصري الكبير الذي يتقدم بقية الأركاب على جريِ العادة في الذهاب، إذْ أنه يفضِّل المشيَ ليلاً، على خلاف المغاربة الذين يُفضِّلون المشيَ نهاراً[6]. وهذه البقعة ـ أيْ بين مصر والحجاز ـ يظهر فيها التوادُّ والتشاور وبعضُ الاتفاق بين أركاب أركاب بلاد المغرب أكثر مما يظهر سواها من مقاطع الطريق ما بين البلاد المغاربية وبلاد الحجاز.

---

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص159.

[2]- القيسي السراج، المصدر السابق، ص125.

[3]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص503.

[4]- محمد بن الخوجة: صفحات من تاريخ تونس، ط01، تحقيق: حمادي الساحلي والجيلاني بن الحاج يحيى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م، ص264.

[5]- محمد المنوني، المرجع السابق، ص46.

[6]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج02، ص165.

ب ـ عوامل شُهرة ركب المغرب الأقصى:

ذكرنا في الفصل التمهيدي أن أول ركب منظم للحج تأسَّس ببلاد المغرب الإسلامي كان ينطلق من المغرب الأقصى زمنَ الموحدين، ولا شكَّ أن استمرارية ذلك الركب المغربي وقدرته على المحافظة على دوريته السنوية لقرونٍ من الزمن ساهمتا في شهرته التي أطبقَتْ الآفاق، وجعلتا بعض الحجاج من أقاليم المغرب العربي الأخرى يحرصون على الانخراط في رحلته نحو الحجاز. ذلك لأنَّ قوافل الحج المغربية البرية تمرُّ حتماً على الجزائر وطرابلس الغرب، وعلى تونس كذلك غالباً، بلْ نجدُ أكثرَ من ركبٍ مغربي واحد يعبرُ الأراضي الجزائرية في كلِّ موسمِ حجّ، بحكمِ تعدُّد أركاب المغرب الأقصى وتنوُّعها، ولكلِّ ركب منها أميرُه أو قائدُه[1]. لذلك يرى كثيرون بأن قافلة الحج المغربية الكبيرة إنما هي "مضخَّمة" بحجَّاج إيالات: الجزائر وتونس وطرابلس[2].

كان الركب المغربي متكوّنا من مجموعةِ أركابٍ إقليمية شبه مستقلة عن بعضها البعض، أشهرها: الركب الفاسي، الركب السجلماسي (أو الفيلالي)، الركب المراكشي. ويأتي على رأسها الركب الفاسي الذي يتميَّز عنها جميعاً، لكونه هو الذي حلَّ محلَّ الركب الصالحي العتيق، وكان الفاسي هو ركبَ المغرب الأقصى الرسمي في عهد المرينيين والعلويين، بينما حافظ على مركزه ومقامِه وشعبيتِه في عهد السعديين، الذين مالوا إلى تغليب ركب مراكش[3].

يُلاحَظ كذلك بالنسبة للركب الفاسي انفصالُه عن بقية الأركاب المغاربية بعد الخروج من مصر، فهو الركب الوحيد الذي ينضمُّ إلى داخل الركب المصري ويُصاحبه في درب الحجاز في الذهاب والإياب، ويسيرُ معه بالليل خلافاً لبقية الأركاب المغاربية الأخرى التي تفضِّل المشي نهاراً[4]. وقد ظلَّ الركبُ الفاسي ركبَ المغرب الأقصى الرئيس إلى غاية مطلع ق13هـ/19م، حيث حيث كان يخرج من حاضرة فاس، مصحوباً بأعيانها وتجارها وعلمائها على أحسنِ هيأة[5].

---

[1]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص501.

[2]- لوسيت فالنسي، المرجع السابق، ص72.

[3]- محمد المنوني، المرجع السابق، ص10.

[4]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص174.

[5]- أبو عبد الله محمد بن أحمد الكنسوسي: الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، د ط، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، د س، ج01، ص293.

لقد امتلك ركب الحج المغربي إمكانيات تنظيمية ضخمة، لم تتوفَّر لغيره من أركاب بلاد المغرب، ولكي يتمَّ تمييزُه في المشرق عن بقية الأركاب المغاربية غلبَ عليه وصف "الركب الفاسي"، لأن صيغة "المغربي" قد يُشاركه فيها الجزائري والتونسي[1]. كما أن الركب المغربي كبيرٌ آهلٌ بالحجاج والرواحل والأخبية، فَمَا بينَ نزول أولِه وآخرِه في محطة من المحطات لأجل الراحة ساعات من الزمن[2]! ولا أدلَّ على قوته وكثرته من قول العياشي في رحلته: ".... وفي الركبِ نحوٌ من عشرِ مؤذِّنين، فإذا كان الثلث الأخير من الليل ارتجَّ الركبُ بأصوات المؤذِّنين وقراءة القرآن"[3]!

يرى صاحبُ "الاستقصا" بأن الركب المغربي أضحى يُضاهي الركبين المصري والشامي في عهد الدولة العلوية قوةً وتنظيماً[4]. غيرَ أن في ذلك مبالغة، فالمصري لا يُضاهيه ركب من أركاب الحج، بحكم الهالة الرسمية والشعبية التي تُرافقُه في حجِّه، وقد شهد على ذلك الورثِلاني واصفاً إيَّاه بأنه: "حاضرٌ في سفر، ونزهةٌ في كدَر وعبرةٌ في ضرر.... حتى يكاد يجزم الإنسان أن مصر خرجت برُمَّتها وما فيها"[5]! وكذلك الأمر بالنسبة للركب الشامي[6] الذي لا يقلُّ عنه شأناً.

ومن العوامل الأخرى المساهمة في ذيوعِ صيت الركب المغربي مداومةُ حكام المغرب الأقصى السعديين ثمَّ العلويين على التواصل بالمشرق، وخاصة بأشراف الحجاز أبناءِ عمومتهم المتولِّين حُكمَه، وذلك عَبْرَ جسر ركب الحج المغربي المحمَّل بالهدايا والأوقاف والعطايا النقدية والعينية لكلٍّ

---

[1]- يونان لبيب رزق ومحمد مزين: العلاقات المغربية المصرية منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام 1912، ط01، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1982، ص34.

[2]- ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص127.

[3]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص160.

[4]- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، د ط، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997م، ج 08، ص120.

[5]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص146.

[6]- **الرّكب الشامي**: من أعظم أركاب الحج وأكثرها تنظيماً، بلغَ في بعض السنين زهاءَ خمسة آلاف حاج، يقوده الوالي أو أميرٌ معين من قِبل السلطان العثماني. كان الركب يبرحُ عادة مدينة دمشق في منتصف شوال من كل سنة، ويسلك طريقاً قصيرة، من مراحلها: دمشق، الرمثاء، الزرقاء، البلقاء، العقبة، تبوك، مدائن صالح، آبار نضيف، المدينة المنورة، آبار علي، ظهر العقبة، رابغ (الإحرام)، عسفان، مكة المكرمة. ويتمُّ نصب الخيام وتزويدها بما يلزمها في كلِّ مرحلة من طرف العكّامين (الخدّام)، ويضمّ الركبُ المحملَ الشهير والسنجق (لواء الرسول صلى الله عليه وسلَّم). يُنظر: عبد العزيز العظمة: مرآة الشام تاريخ دمشق وأهلها، ط01، تحقيق: نجدة فتحي صفوة، رياض الريس للكتب والنشر، لندن: 1987م، ص110.

من له علاقة بتيسير حجِّ المغاربة من قريب أو بعيد. من ذلك هدية السلطان السعدي الوليد بن زيدان بن المنصور الذهبي للروضة الشريفة سنة 1041هـ/1632م، وهي عشرة آلاف من الذهب المطبوع، وشمعدان من عسجد على يواقيت من زبرجد[1]. ومنها وقفُ السلطان العلوي المولى إسماعيل (ت1139هـ/1727م) مائةَ ألف شجرة زيتون، يوجَّه ثَمنُ غلَّتها كلَّ سنة للحرمين الشريفين[2]. وقد تضاعفت الهدايا الموجَّهة من المغرب الأقصى إلى الحرمين ومصر في العهد العلوي، وتوِّجت سنة 1182هـ/1769م بزواج حاكم مكة المكرمة (الشريف سرور) من ابنةِ السلطان محمد بن عبد الله، وكان سفَر العروس والأمراء والوجهاء والهدايا النفيسة رفقةَ ركب الحج[3].

رغمَ كلِّ ما ذُكِر عن ركب المغرب الأقصى وشُهرته إلا أن ركب الجزائر ظلَّ أكبرَ ركب مغاربي شبيهٍ به، والحجاج المغاربة أنفسهم يعترفون بأن ركب الجزائر كان يُضاهي ركبَهم، ولا يفتأُ يزاحمُه ويُنافسه طيلة الطريق إلى الحجاز[4]. ولطالما حافظ الركب الجزائري على استقلاليته وتميُّزه طوال رحلة الحج، وإنْ كان يبدو ـ أحياناً ـ بعضُ التداخل مع الركب المغربي أو الركب التونسي أو حتى مع الركب المصري، فإن ذلك يتمُّ لفترة محدَّدة بسبب ظروف مُلجِئة، ثم لا يلبثُ أنْ ينفصل عنها. وهذا الرحالة الورثِلاني يتحدث عن قوة الركب الجزائري المتضمَّنِ في المغربي ـ مجازاً ـ وصدى ذلك بالبلاد المشرقية فيقول: "…. فلا تجدُ سارقاً يدورُ بِنا، ولا قاطعَ طريق، خوفاً من الركب المغربي لكثرته وكثرة سلاحه، لا سيما **الركب الجزائري**"[5].

المبحث الثاني: أصنافُ الركب الجزائري وجِهاتُه

01ـ أجزاءُ الرّكبِ الجزائري البرّي إقليمياً:

رغم أن الركب الجزائري في مفهومه يشكِّل وحدة مترابطة قائمةً بذاتها، إلا أنه في أصله نتاجُ تجمُّع وتكتُّل مجموعة من قوافل الحجاج الجزائريين، من مختلف جهات الإيالة الجزائرية، بما فيها الجهات التي لم تخضع للسيطرة العثمانية. ويمكن اعتبار تلك القوافل بمثابة أركاب جزئية (أو

[1]– القيسي السراج، المصدر السابق، ص103.
[2]– محمد الكنسوسي، المصدر السابق، ج01، ص156.
[3]– أحمد الناصري، المصدر السابق، ج08، ص34.
[4]– أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص475.
[5]– الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص125.

إقليمية إن صحَّ التعبير) على غرار أركاب المغرب الأقصى أو أركاب طرابلس الإقليمية. غيرَ أن أسماءها تبقى متداولة على المستوى المحلي فقط، لا تُسقَط على هوية الركب في الخارج، حيث كان يُعرف باسم "الجزائري" غالباً[1].

كانت تلك الأركاب الجزئية أو "الجهوية" تنطلق في رحلتها للحج من كبريات الحواضر الجزائرية المشهورة خلال العهد العثماني وقبله، على غرار: بجاية، قسنطينة، الزّاب، الجزائر، مجّاجة (الشلف)، مازونة، ونشريس، تلمسان، أمّ عسكر (معسكر)، توات، وارجلان.... وذلك لتسهيل تجميع حجاج الركب، وتحفيز الجزائريين على الذهاب إلى الحج حيثما كانوا.

أقام الجزائريون على فتراتٍ مجموعة من الزوايا والمحطات، يجتمع فيها الحجاج بالتدريج، إلى أن يحين وقت مرور الركب المعتاد فيلتحقون به من كل الجهات المجاورة. يقول الرحالة الورثلاني عن إحدى تلكم المحطات ".... وبِتنا فيها ثلاثَ ليال، ليَلْحقَ بنا من بقيَ من التَّالي"[2]. فمثلاً قد اجتمعَ في ركب جزائري واحد في أحد المواسم حجّاجٌ من المناطق والقبائل التالية: قسنطينة، سطيف، بجاية، زواوة، قصر الطير، أهل عامر، أولاد عبد النور، أولاد سعيد بن سلامة، أهل بسكرة، أهل المسيلة، أهل أمدوكال، أهل الزّاب، أهل الصحراء، توات....[3]. وفي ما يلي عرضٌ لأهمِّ الأقاليم التي كان يتشكَّل فيها ركبُ الحج الجزائري:

أ ـ الركبُ من مدينة الجزائر: رغم أن قوافل الحج الجزائرية والمغاربية عموماً برية في الأساس، إلا أن مدينة الجزائر دار الجهاد وعاصمة الإيالة لم تولِ أهميةً كبرى لذلك، بل كانت محطة اختيارية للركب البري العابر نواحيها. وإنما اشتهرتْ بالركب البحري أكثر، حيث كانت مراكب الحجاج تنطلق من ميناء مدينة الجزائر المحروسة نحو ميناء الإسكندرية المصري[4]، وعندما يقترب موعد الحج يأمر الداي بمناداةِ أهل الجزائر بالقول: "من أراد الحجَّ فليتهيَّأ لذلك"[5]!

---

[1]- يمكن الحديث عن حالات نادرة من أخبار ركب الجزائر، استُخدمَ فيها مصطلح "ركب قسنطينة" أو "ركب توات"، وذلك لأهمية مدينة قسنطينة وتركُّز إمارة الركب فيها في العهد العثماني، ولِبُعدِ منطقة توات جغرافياً، حيث كان ركبُها يحملُ معه ركب بلاد التكرور. يُنظر: عواطف بنت محمد يوسف نواب، المرجع السابق، ص255.

[2]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص189.

[3]- المصدر نفسه، ج02، ص84.

[4]- الشريف الزهار، المصدر السابق، ص170.

[5]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص21.

ب ـ الركب من قسنطينة (قسمطينة[1]): مدينة قسنطينة محطة مُهمة في طريق الحج، والركب الذي كان يتجمَّع فيها من أقدم الأركاب وأشهرها، وأكثرها تنظيماً ودوريةً. سبقَ في ذلك مجيء العثمانيين إلى قسنطينة ذاتها، حيث كانت ولايةُ ركب الحج وقيادةُ الحجاج الجزائريين تُعقد بالمدينة في أسرة "عبد المؤمن" من طرف الحفصيين[2]. ثم أصبحت قسنطينة قاعدة بايلك الشرق الأكثر غِنًى والأكبر مساحة، فعُهِد إليها بتنظيم الركب الجزائري، وأضحى الشيخ عبد الكريم الفكون* أميراً على الركب كلِّه منذ سنة 1048هـ/1638م[3].

ويتعزَّز الركب المتشكِّل هناك بقوافل الحجاج المنضمَّة إليه من إمارة آل ابن القاضي (القبائل الكبرى) ومن وادي بجاية (القبائل الصغرى) وغيرهما، وحتى بانضمام بعض الحجاج المغاربة الذين يحلُّون بقسنطينة، ويرغبون في مرافقة حجَّاجها إلى تونس[4].

ج ـ الركب من الجِهات الغربية: يُشير الشاعر الرحالةُ محمد بن مسايب إلى استمرار خروج الركب الجزائري من مدينة تلمسان، على غرار ما كان يحدث في العهد الزياني، فقد ذكر ذلك في رحلته المنظومة منتصفَ القرن 12هـ/18م قائلاً[5]: (المديد)

نَرْسلَكْ مَن بَابْ تلَمسَانْ سِرْ في حِفظ الله مَأْمانْ
بَعدْمَا تْزورْ بلا تْمْنانْ كُلّ مَا مَنْ صَالَحْ فِيهَا

لم يقتصرْ خروج ركب الحج من هذه الجهات الغربية على مدينة تلمسان فقط، بلْ كان يتمُّ أيضاً من حواضر: أمِّ عسكر (أو معسكر) ومازونة ومجَّاجة ومليانة.... ففي موسم حجِّ

---

[1]– **قسمطينة** هكذا كان يردُ ذكرها في العديد من المصادر والوثائق التاريخية خلال تلك الفترة، وقد استمرت هذه التسمية حتى أواخر العهد العثماني بالجزائر، مثلما جاء في رحلة أبي راس الناصري المعسكري (ت1238هـ/1823م) وغيره.

[2]– أحمد بن المبارك بن العطار: تاريخ بلد قسنطينة، ط خ، تحقيق: عبد الله حمادي، دار الفائز للنشر والطباعة والتوزيع، قسنطينة، 2011م، ص125.

* **عبد الكريم الفكون** (ت1073هـ/1662م) بن محمد بن عبد الكريم، أديبٌ نحوي محدث، جمع بين علمي الظاهر والباطن، شيخُ الإسلام وعالم المغرب الأوسط في عصره، كان يَلي إمارة ركب الجزائر في الحج، له تآليف هامة أشهرها "منشور الهداية" و"محدّد السنان". ينظر: عادل نويهض، المرجع السابق، ص254.

[3]– أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، مرجع سابق، ص182.

[4]– أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص158.

[5]– Ben Messaib: Itinéraire de Tlemcen a la Mekke, par: Mohamed Ben Cheneb, Revue Africaine, volume 44, 1900, Alger, p275.

1063هـ/1653م ـ مثلاً ـ حطَّ الركب الجزائري رِحالَه في مدينة مجَّاجة قرب واد الشلف، وذلك بعد إتمام رحلة عودته من الحجاز إلى الجزائر[1].

لقد غابت مدينة وهران عن تنظيمِ الركب حتى تحريرها الأول ثمّ الثاني من احتلال الأسبان في القرن 12هـ/18م. فكان حجاج الغرب الجزائري يجتمعون عادةً عند واد سيق (بين وهران ومعسكر) أولاً في قافلة متوسطة، ثمّ يتجمَّعون بعد أسبوعٍ بالآلاف على بساط سهل الشلف، في منظرٍ مَهيب، وكأنّهم "بحر من الخيام"[2]! ويسلكون الطريق المحاذية لجبال الأطلس التلي. وإذا ما تخلَّف بعضُ الرّاغبين في الحج عن الركب فإنهم يضطرون إلى التوجه جنوباً نحو منطقة الغاسول (قرب البيض)، لمرافقة الركب السجلماسي المغربي، مثلما وقع لعائلةٍ من منطقة غريس[3].

د ـ الركبُ من منطقة توات: كان لمنطقة توات الضاربةِ في أعماق الصحراء الجزائرية عهدٌ بتنظيم الحج منذ بدايات العهد العثماني وقبلَه بقليل، ففي نواحي عام 923هـ/1517م كان قُضاة توات يتردَّدون على الحج، كما تأسَّست كذلك زاوية "تِنِلان" التي دأبَتْ لاحقاً على تنظيم أمور الحج[4]، ثمّ تفرَّعتْ عنها زاوية "المهدية"، التي خرج منها الركب في أحد المواسم، وفيهم الرحَّالة التنلاني: ".... وكنَّا خارجين يوم الاثنين بعد أن قضينا جميع الوطر، وما وهنَتْ قوة عزائمِ أهل الركب.... من زاويتنا المهدية"[5]. وهو ركب صغير، يتضاعف عدد أفراده في محطة أقبلي من بلاد تيدكلت.

تُعتبر محطة أقبلي (نواحي أولف) من أهمِّ محطات ركب الحج بالجنوب الجزائري، ففيها يلتقي الحجاج الجزائريون بحجَّاج بلاد التكرور[6]، ويشكِّلون ركباً كبيراً، يشرع في المسير نحو الحجاز مروراً

---

[1]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و11.

[2]- شارل هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، ط01، ترجمة وتقديم: أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، تونس، 1974م، ص43.

[3]- ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص129.

[4]- المهدي البوعبدلي، التعريف بالكتب والمخطوطات، مرجع سابق، ص152.

[5]- عبد القادر بن عومر التنلاني التواتي: الرحلة إلى الحج، مخطوط بخزانة الشيخ أحمد بن حسان، قصر عريان الراس، تسابيت، أدرار، و04.

[6]- **التكرور** إقليم واسع جنوب الصحراء الكبرى، يمتد من نهر السنغال غرباً إلى منطقة أدغاغ شرقاً (شمالي مالي)، من أهم مدنه تمبكتو وأروان. ينظر: أبو عبد الله الطالب محمد البرتلي: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، ط01، تحقيق: إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م، ص26.

بمدينة عين صالح قاعدة منطقة تيدكلت. فأضحَتْ أقبلي بذلك نقطة تجمُّع لحجاج الصقعين ذهاباً، وعلامة افتراق ووداع بعد أداء المناسك إياباً. ويرجع الفضل في عادة التلاقي تلك إلى جهود الشيخ سيدي امحمد بن عبد الرحمن الكنتي المعروف بأبي نعامة*، مؤسِّس زاوية "شيخ الركب النبوي" بأقبلي[1]، فهو الذي عمل على تجميع القوافل والوفود من توات وتيدكلت والتكرور ابتداءً من سنة 1138هـ/1726م، بعد أن اختفت تلك العادة الحسنة لعقودٍ من الزمن. فأعاد تنظيم دورية ركب الحج من أقبلي، وأصبح الحجاج بفضل ذلك يمكثون فيها أياماً للراحة والتهيُّؤ لمواصلة الرحلة[2]. ولم يكن المجيء إليها يقتصر على حجّاج التكرور العاديين فقط، بل شمل ملوكهم وأمراءَهم، فقد حلَّ بها ركب باشا تمبكتو سنة 1040هـ/1631م[3]، في طريقه إلى الحج، كما شهدت من قبلُ رحلة ملك مالي "منسا موسى" الشهيرة في القرن 08هـ/14م.

وكان يحدث أحياناً أنْ يتقدَّم حجاج توات الوسطى، بينما ينتظر أهل تيدكلت ركب التكرور، وتجتمع قوافل الركب لاحقاً بالأراضي الليبية[4]. أمَّا أهل منطقة قورارة (تيميمون) شمالي توات فيتجمَّعون عادةً في ركب خاص بهم، وقد تنعطف قافلتهم جنوباً بعد أيامٍ من خروجها، وتقصد مدينة عين صالح بتيدكلت، لتنضمَّ إلى الركب الكبير المذكور سابقاً. وقد أشار الرحالة عبد القادر التنلاني إلى ذلك التلاقي الحادث بعين صالح قائلاً: ".... وأقمنا هناك تسعة أيام، عطَّلَنا فيها ركبُ قورارة، كنَّا مفترقين وصالَحونا.... "[5].

وفي حالات استثنائية كان حُجاج توات يصحبون الركب المغربي السجلماسي (الفيلالي) الذي يمرُّ بشمالي توات عبر قصر عريان الراس بتسابيت، ومنه إلى أوكروت ثم تيميمون. يقول

* **أبو نعامة** سيدي امحمد بن عبد الرحمن الكنتي (ت1163هـ/1750م) من أعلام آل كنته بالصحراء الجزائرية، أسَّس زاويةً بأقبلي في منطقة أولف، وكان شيخَ الركب إلى البقاع المقدسة، جامعاً حجاج توات مع حجاج التكرور. ينظر: مبارك جعفري وعبد الله مقلاتي: معجم أعلام توات، ط01، منشورات الرياحين، الجزائر، 2013م، ص338.

1- عقباوي عزيز بن بوبكر الهاملي الكنتي: النفحات البهية في أفنان الشجرة الكنتية، د ط، مطبعة عزي، غرداية، دس، ص138.

2- عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، و03.

3- Bernard Saffroy: chronique du Touat, Ghardaia: Centre de Documentation Saharienne, p06.

4- عبد الرحمن التنلاني، المصدر نفسه، و11.

5- عبد القادر التنلاني، المصدر السابق، و12.

العياشي عن ذلك: "ثم ارتحلنا من توات بعدما لحقَ بنا جملةٌ ممَّن يريد الحج من أهلها"[1]. وقد يُرافقون الركب المراكشي الذي يتوغَّل في توات نحو الركان (رقان حالياً)، ومنها إلى قصر الدغامشة، وصولاً إلى إقسطن أقصى تيدكلت. يقول القيسي في ذلك: "ثم انتقلنا لبلاد كسطن، وهو مدشر منحرف عن الطريق الجادة، قصدناهم لرغبتهم في التوجُّه معنا إلى الحج"[2].

وسببُ حِرص بعض حجاج توات على السفر مع المغاربة إنما ليزيدَ حجم الركب، ويتقوّى كلُّ طرف بالآخر، وخاصة منهم الحجاج المتأخِّرون عن الإقلاع مع الركب المحلي. وبخصوصِ الحج من أقاصي الصحراء الجزائرية فهناك إشارة نادرة إلى ما سُمي "ركب التوارك" أي الطوارق، والذي ذُكر من أخباره بأنه تأخَّر في الوصول إلى المحطة المصرية في إحدى السفريات، وكاد يفوتُه الموسم، ثمّ التحقَ بالأركاب المغاربية بعد خروجها من مصر متجهةً نحو الحجاز[3].

هـ ـ الركبُ من بلاد الزَّاب: مدينة بسكرة هي قاعدة إقليم الزّاب (من بلاد الجريد في تونس شرقاً إلى تخومِ المسيلة غرباً)، ومنطقة الزاب عموماً من أكثر المناطق في الجزائر استقبالاً لأركاب الحج الوافِدة من المغرب الأقصى، كما أن معظم أمراء الركب الجزائري في الفترة العثمانية كانوا ينتمون لتلك النواحي، من أمثال آل المسعود وآل ناجي، وكلُّهم مُداوِمون على الحج، ولهم اهتمام بالغ بشؤون الركب والحجاج[4]، بل إنّ أحد الشيوخ منهم وُصِفَ بأنه "صاحبُ بسكرة، الذي يُنفق على الصالحين والفقراء في الركب من مالِه"[5]. وقد أضحى ركبُ الجزائر ذا شأنٍ كبير بفضلِ اهتمام اهتمام أعيان بسكرة ونواحيها بتنظيمه ودوريته، وحرصهم على أن تكون انطلاقته في رحلته إلى الحجاز من مدينة الجزائر ذاتها[6]، لِما لها من رمزية دينية وسياسية في آنٍ واحد.

و ـ الركب من وادي الساورة: كان بعض سكان واد الساورة والعوينة (القنادسة حالياً) يُفضِّلون الذهاب إلى الحج مع الركب المغربي السجلماسي الذي يمرُّ ببلادهم، لأن قُرى بشار ـ كما سمَّاها

---

[1]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص80.
[2]- القيسي السراج، المصدر السابق، ص ص: 28-30.
[3]- ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص304.
[4]- المصدر نفسه، ص711.
[5]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج01، ص185.
[6]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص40.

العياشي ـ قريبة من "فجيج" المغربية، فينضمُّون للركب السجلماسي الذي يحمِل أهل فجيج معه[1]. لكنَّ اجتماع الركب الجزائري من تلك النواحي كان يتمُّ كذلك في منطقة القنادسة، حيث يجتمع الحجاج عند منزل شيخ الزاوية الزيانية القندوسية (نسبةً إلى القنادسة)، ويقدِّمون من يتوسَّمون فيه القدرةَ والعزيمةَ على أمور الركب وضرورياته، وما يحتاجون إليه من الجمع والفرق[2].

كما أن منطقة بني عباس في واد الساورة اشتهرت كمركز علمي هام في تلك الفترة، وخاصة بعدما حلَّ بها الفقيه الأديب والصوفي الثائر أبو العباس أحمد ابن أبي محلي السجلماسي (ت1022هـ/1613م)*، فقد استقرَّ بها لسنوات، وتزوج من أهلها، وكان الركب الذي حجَّ معه ابنُ أبي محلي السجلماسي نفسُه في موسمين غير متتاليين ينطلق من هناك، أي من مدينة بني عباس، ثمَّ يقطع إقليم الجزائر عرَضياً في مسارين متباينين[3].

ز ـ الركب من وادي مِزاب: اعتادَ ركب الحج في قُرى مزاب أنْ يتجمَّع من نواحي الوادي في غرداية، بالقرب من مقام (ضريح) الشيخ "حمُّو والحاج" أحد علماء وأعلام الأباضية[4]. وأهل مِزاب لهم تجربة عريقة في تنظيم القوافل وتجهيزها، ومن ثَمّ تسييرها نحو الحجاز لأداء مناسك الحج. وأحياناً ينضم إلى ذلك الركب من حجاج مزاب حجّاجٌ من جزيرة جربة التونسية، يلتقون بهم في محطة طرابلس الليبية[5]، وفي حالةٍ أخرى أخرى كانوا يحجُّون مع الركب المغربي، الذي ينتظرونه قرب الأغواط. فقد حدث في أحد المواسم أنْ رحل ستون حاجاً من وادي مزاب إلى تلك المحطة لملاقاة ركب المغاربة، ففرح المغاربة بمقدَمِهم، لحدوث الزيادة العددية في الركب[6].

---

[1]- أبو سالم العياشي: تعداد المنازل الحجازية (الرحلة الصغرى)، ط01، تحقيق: عبد الله حمادي الإدريسي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2013م، ص49.

[2]- ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص124.

* **أحمد ابن أبي محلي السجلماسي** (ت1022هـ/1613م) ادَّعى أنه المهدي المنتظر، بعدما حج وكاتبَ رؤساء القبائل في الصحراء لنصرته، استولى على سجلماسة، ثمّ زحف إلى مراكش ودخلها، لكنَّ السلطان السعدي زيدان تمكَّن منه بدعمٍ من الفقيه الحاحي. يُنظر: خير الدين الزِركلي: الأعلام، ط15، دار العلم للملايين، بيروت، 2002م، ج01، ص161.

[3]- عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص100.

[4]- إبراهيم المصعبي، المصدر السابق، ص44.

[5]- المصدر نفسه، ص70.

[6]- أبو العباس أحمد الهلالي السجلماسي: التوجه لبيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام، د ط، تحقيق: محمد بوزيان بنعلي، مطبعة الجسور، وجدة، 2012م، ص 184.

ح ـ الركب من تكرت (تقرت) ووركلا[1] **(ورقلة)**: واظبَ سكان هذا الإقليم على تنظيم رحلة الحج منذ أمدٍ بعيد، ويبدو أن الركب المتكوِّن هناك كان ذا إمكانيات كبيرة، فقد ذكر الدرعي الرحالةُ المغربي أنَّ ركبَهم التقى حجّاجاً من أهل "تكرت" راجعين من الحجاز، بعد أن تمكنوا من اجتياز السبخة الكبيرة الهائلة التي لم يُسمَع مثلها في الأرض، في الطول والعرض، وقد كانت الأركاب تحِيرُ فيها، وربما تهلك فيها الرواحل[2]. كما كان بعض الحجاج من ورقلة وتقرت يمرُّون على تونس، فيحصلون هناك على هدايا من الباي[3]، إكراماً لهم وتوطيداً لعلاقات الجوار.

يُشارُ في آخر حديثنا عن تلكم الأركاب الجزئية إلى أن نسبة الركب إلى جهة معينة لا يعني أن الحجاج المكوِّنين له ينتمون بالضرورة إلى موطن تلك النسبة انتماءً كلياً، بل قد يتجمَّع فيه حجاج من جهات متعددة، من المدن والأرياف، ولاسيما إذا كانت الجهات متجاورة. فيتكاثر عددهم، ويتعارفون فيما بينهم، وينخرطون في رحلة الركب إلى الحجاز ذهاباً وإياباً. وحين ولوج الجزائر بعد الحج تُوَلِّي كلُّ مجموعة من الحجاج وجهَها شطرَ موطنها أو إقليمها. فمثلاً يقول الرحالة المجاجي عن مآل الركب بعد العودة من حَجَّة 1063هـ/1653م[4]: (الطويل)

هناكَ افْترَقَ الرَّكبُ عندَ صَباحِنا   وارقَلِي وريغِي ثُمّ عُنّابِي نِسبةِ
وغَيرُهُمْ مِنَ النواحي ذكَرتُهُ   قُسَنْطيني ثُمّ تونِسي في صَحِيفَةِ
وبَعضٌ مِنْ أَهْلِ الزّابِ فارَقَ عندمَا   أتَى مَعَنا أياماً مِن قَفْصَةِ

وبالتالي فإنَّ تجزئة الركب الجزائري إقليمياً إنْ بَدَتْ فإنما تكون في الانطلاق لأجل التشكُّل، ثمّ يتوحَّد الركب في محطات الطريق الخارجية، ثمّ تظهر التجزئة مرة أخرى على مشارف الوصول إلى الجزائر في العودة، لضرورةِ الفراق. فمثلاً في موسم حجِّ 1179هـ/1766م ضمَّ الركب عدة أقاليم وقبائل، لكنه رحل موحَّداً ثُمّ عاد موحَّداً، وفي الإيالة التونسية انقسم إلى ركبين: ركب التل الذي رغبَ في المرور على مدينة تونس، ودخول الجزائر من شرقِها، وركب الهضاب والصحراء الذي

---

[1]- **وركلا** ومِن قبلُ اشتهرت باسم "**وارجلان**"، من الأسماء التاريخية القديمة الشائعة في المصادر التاريخية، والتي تسمَّتْ بها مدينة ورقلة الحالية، الواقعة جنوبَ شرق الجزائر.

[2]- ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص161.

[3]- خليفة حماش: كشاف وثائق تاريخ الجزائر في الأرشيف الوطني التونسي، ط02، منشورات كلية الآداب والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2016م، ج01، ص407.

[4]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و06.

رغبَ في المرور على مدينة توزر (قاعدة بلاد الجريد) ودخول الجزائر من جنوبها الشرقي، وقد توَّج ذلك الفراقَ شديدُ التأسُّف والحزن من طرف الحجاج، بعدما جمعهم الركب ووحَّد كلمتهم لشهورٍ[1]. والمهم في الأمر أنَّ رحلة الحجاج الجزائريين من حيثما تمَّت في ذلك العهد، فإنها كانت توسمُ في الأخير باسم "الركب الجزائري".

02ـ الرّكبُ الجزائري البحري أو الحجُّ بحراً:

لم يقتصر ركب الحج من الجزائر على البرِّ فقط، بل أخذ حظَّه من البحر والسفن كذلك، مصداقاً لقوله تعالى: ((**وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ**))[2]. ويُقصد بالركب البحري جماعات الحجاج التي تسافر عبرَ البحر، ممتطيةً السفنَ الشراعية ذائعة الصيت وقتئذٍ. على أن الركب البحري لا يمكن قطعُ صلتِه بالركب البرّي، فرحلةُ الحج من الجزائر قد تبدأ براً ثمّ تؤولُ إلى البحر، والعكس صحيح[3]. من أمثلة ذلك أن حجاجاً جزائريين واصلوا رحلتهم من ميناء طرابلس إلى ميناء الإسكندرية بحراً، بعدما انطلقوا فيها برا من الجزائر، وذلك بتدخُّلٍ وتوصيةٍ من حاكم طرابلس، ثمّ واصلوا ما تبقَّى من الطريق في ما وراءَ الإسكندرية براً[4]. فركبُ الحج الجزائري قد يضطرُّ إلى سلوك المسارين في رحلة حجٍّ واحدة.

لقد تمكن الجزائريون بفضل انضمامهم للدولة العثمانية من ضمان ممرٍّ إضافي لرحلاتهم نحو الحجاز، على خِلاف الركب المغربي الذي ظلَّ برياً في الأساس[5]. إنه ممرٌّ مُهم قد يُضطرُّ إلى اجتيازه بصفةٍ جماعية أثناء الطوارئ والنكبات، مثلما حدث في أحد المواسم، حيث تعذَّر السفر إلى الحج براً، بسبب وباء شديد فَشا في الجزائر جُلِّها، فلجأ الناس ـ على غيرِ عادة معظمهم ـ إلى

---

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص305.

[2]- **سورة غافر، من الآية 80**.

[3]- لم تكن هناك رحلات بحرية مُباشِرة إلى الحجاز في ذلك العهد (قناة السويس لم تُحفَر سوى في عام 1869م/1286هـ)، وإنما رحلات عبور إلى الإسكندرية غالباً، ومنها إلى مصبِّ نهر النيل في مدينة رشيد شرقاً، ثمّ عَبْر نهر النيل جنوباً نحو مدينة بولاق القريبة من القاهرة، ومن القاهرة براً إلى ميناء السويس، ومن السويس إلى ميناء ينبوع القريب من المدينة المنورة، أو إلى ميناء جُدَّة القريب من مكة المكرمة. يُنظر: جوزيف بتس، المصدر السابق، ص ص 24-44.

[4]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج01، ص335.

[5]- بيير سيمون جيرار: وصف مصر موسوعة الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر، ط03، ترجمة: زهير الشايب، دار الكتب، القاهرة، 1978م، ج04، ص258.

الذهاب للحج بحراً[1]. وعندما تكون السفن جاهزة للإبحار نحو ميناء الإسكندرية، يُنادي المنادي في مدينة الجزائر مُعلناً ميعاد إقلاعها، فينتهز كلُّ من نوى الحج في ذلك العام الفرصة بسعادةٍ للسفر بحراً[2]. لكنَّ تلكَ السعادة مَشوبةٌ بحَذَر، فالمسافر بحراً قد يستذكِرُ ـ مثلما استذكر الرحالة المقَّري التلمساني ـ رأيَ الشاعر الجزائري "ابن رشيق المسيلي" في ركوب البحر[3]: (الوافر)

البَحْرُ صَعْبُ المرامِ جِداً   لاَ جُعِلَتْ حَاجَتِي إلَيْهِ
أَلَيْسَ مَاءً ونَحْنُ طِينٌ   فَمَا عَسَى صَبرُنَا علَيْهِ

ورغم أن الأسطول الجزائري كان أعظم قوة بحرية في حوض البحر الأبيض المتوسط خلال تلك الفترة، إلا أن وحداته لم تُستغَل كثيراً في نقل الحجاج الجزائريين، وذلك لغَلَبةِ الجانب العسكري الجهادي عليها. فكانت الجزائر تلجأ إلى كراء السفنِ الأوروبية ذات الأحجام الكبيرة التي تصلح لنقل الحجاج الجزائريين، سفنٍ فرنسية وإنجليزية وسويدية وهولندية ويونانية.... فمثلاً في موسم حج 1091هـ/1680م امتطى الحجاجُ سفينة فرنسية لنقلهم من الجزائر إلى الإسكندرية، وكانت ترفع بين الفينة والأخرى أعلاماً تحمل الألوان الفرنسية (Frènch Coulours)[4]، وفي عام 1096هـ/1685م تمَّ استئجار سفينة هولندية لحمل الحجاج من العامَّةِ والمسئولين الأتراك، وفي عام 1127هـ/1715م كان سفر بعض الأتراك ومعهم مجموعةٌ من الجزائريين على متن سفينة إنجليزية، وفي عامي 1131هـ/1719م و1140هـ/1727م تمَّ الاتفاق مع سفينتين فرنسيتين[5]. على أنَّ دايات الجزائر في آخر العهد كانوا يُفضِّلون كراء المراكب الإنجليزية على غيرها[6]، وذلك

---

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص101.

[2]- المصدر نفسه، ص23.

[3]- أبو العباس أحمد المقَّري التلمساني: نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرطيب، د ط، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988م، ج01، ص33.

[4]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص24.

[5]- عائشة غطاس، أوقاف الحرمين، مرجع سابق، ص221.

[6]- مدح الرحَّالون إلى الحجاز عبر البحر المراكب الإنجليزية لوفائِها، وذَمُّوا المراكب الفرنسية لغدرِها، فنظَمَ السوسي: (الرجز)

وإنَّ ذَا المرْكَبَ إنْكْليزِي   وإنَّهُ في الطَّبْعِ ذُو التَّمْييزِ
وَهْوَ يُدارِي لَيْسَ يَكْلَحُ وَلَا   يَغْدِرُ في وُعودِهِ كُلَّ المَلَا
وأَغْدَرُ النَّاسِ الفَرَنْسِيسُ فَمَا   يُوجَدُ مِنْهُ مَنْ يَفِي إنْ كَلَّمَا

يُنظر: محمد المختار السوسي: أصفى الموارد في تهذيب نظم الرحلة الحجازية للشيخ الوالد، د ن، الرباط، 1959م، ص54.

بحكم العلاقات الدبلوماسية الحسنة في الغالب مع الإنجليز[1]. كما كانت المراكب السويدية أيضاً دائمةَ التردُّد على الموانئ الجزائرية، حيث يتمُّ كراؤها كذلك في نقل العساكر[2].

لئِنْ كان الناقِلون البحريون للحجاج أوروبيين في الغالب، فإن ميناء "حلق الوادي" بمدينة تونس قد تفوّق على بقية الموانئ في استقبال ونقل الحجاج الجزائريين والمغاربة، وأضحى هذا الميناء في أواخر القرن 12هـ/18م يُضاهي موانئ أزمير واسطنبول والإسكندرية، فيستقبل سنوياً اثني عشرَ سفينة مخصَّصة لنقل الحجاج والتجار منه إلى ميناء الإسكندرية، في حين لا يستقبل ميناء مدينة الجزائر سوى أربع سفن فقط لذلك الغرض[3]، وذلك بسبب موقع ميناء الجزائر وبُعدِه النسبي، وكذا تحرُّش بعض البلدان الأوروبية به باستمرار.

تمَّ في إحدى الرحلات البحرية كراء مركبين كبيرين أحدهما إيطالي والآخر إنجليزي لنقل الحجاج الجزائريين المسافرين عبر ميناء تونس، وجميعهم حجاجٌ من الجهات الغربية[4]. وذلك رغم أنَّ أنَّ حجاج الجهات الشرقية كانوا أكثر الجزائريين توافداً على ميناء تونس، نظراً للقُرب الجغرافي، وللعلاقات المتميِّزة بين باي تونس وباي قسنطينة. وقد شاركَ الرحالة الورثِلاني في توديع ركبٍ كبير من حجاج الجزائر المنطلقين من "جبلِ زواوة"، والمتجمِّعين لاحقاً بقسنطينة، القاصدين تونس لركوبِ البحر[5]. وأحياناً كان حجاج الشرق ومن انضمَّ إليهم يمكثون بمدينة قسنطينة حتى يتعيَّنَ سفرُ المراكب من تونس فيتمّ إخبارهم، فيقصِدونها في يومي الاثنين والخميس[6].

لقد اشتهرت الجزائر العثمانية بأسطولها الحربي ذائعِ الصيت، وكان من ضمنِه عشرات السفن الخاصة بالنقل والشحن، كانت توجَّه في الغالب للأغراض الدبلوماسية أو العسكرية. ومن بواكير نشاط البحرية الجزائرية في العهد العثماني أن سفينةً جزائرية هي مَن حملتْ مبعوثي السلطان المغربي السعدي أحمد المنصور الذهبي وهديته ورسالته إلى السلطان العثماني مراد الثالث في سنة

---

[1]- الشريف الزهار، المصدر السابق، ص119.

[2]- خليفة حماش، كشاف وثائق، مرجع سابق، ص349.

[3]- لوسيت فالنسي، المرجع السابق، ص89.

[4]- المهدي البوعبدلي، التعريف بالكتب والمخطوطات، مرجع سابق، ص22.

[5]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص87.

[6]- أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص158.

997هـ/1589م، انطلاقاً من ميناء تِطوان باتجاه ميناء اسطنبول[1]. كما يسوقُ الرحالة الزياني مثالاً عن النشاط العسكري قائلاً: "فنزلتُ من مصر للإسكندرية، إذ أخبروني أنَّ مراكباً وردت من الجزائر، موسوقة بالزرع لأزمير، ومنه تحمل العسكر للجزائر"[2]. لكن ذلك لا يعني انتفاء السفن الجزائرية المخصّصة لنقل الحجاج، بدليل وجود ناقلين جزائريين "خواص"[3]! مثل الرايس "الحاج أحمد بن سماية" الذي امتلكَ مركباً سعتُه 230 فرداً، والرايس "الحاج أحمد بن غانم" الذي سخَّر سفينته لحمل الحجاج وصدقات فقراء الحرمين الشريفين سنة 1105هـ/1693م[4].

وقصدَ تسهيل عملية سفر الحجاج الجزائريين بحراً وضمان تنقُّلهم من ميناء لآخر بكلِّ يُسرٍ امتلكتْ الجزائر مجموعة من الوكلاء في المحطات (الموانئ) التي كانت ترسو فيها السفن بانتظام، وهي ـ على التوالي ـ موانئ: تونس، جربة، طرابلس، الإسكندرية، ورشيد. واشترك معظم أولئك الوكلاء في حمل لقب "الجزيري" (أي الجزائري) لتمييزهم.

اشتهر من بين أولئك الوكلاء الوكيلُ مصطفى الجزيري بإشرافه على نشاطات النقل من وإلى ميناء حلق الوادي[5]، والوكيل الحاج علي الجزيري الذي اهتمَّ بأمرِ نقل الحجاج الجزائريين من ميناء تونس، وقد كان خليفة باشا الجزائر فيها، يقصده كلُّ من نوى السفر بحراً[6]، ومنهم كذلك الوكيل الحاج أحمد بوجيدة الذي كانت له علاقات طيبة مع حكام تونس[7]. وللجزائر في الإسكندرية ورشيد وكالتان تعتنِيان بالحجاج، وقد كان وكيلُ الجزائر بالإسكندرية يستغلُّ سفن الحجاج لإرسال بعض الشباب الطموحين للعمل بالجزائر في النشاط البحري، طمعاً في الثروة والمجد[8]؟

[1]– علي بن محمد التمكروتي: النفحة المسكية في السِّفارة التركية، د ط، تحقيق: عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية، الرباط، 2002م، ص07.

[2]– أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص265.

[3]– حول ظاهرة ملكية السفن والمراكب من قِبَل الجزائريين ـ رجالاً ونساءً ـ في العهد العثماني يُنظرُ: خليفة حماش، الأسرة في مدينة الجزائر، مرجع سابق، ص ص: 762-766.

[4]– عائشة غطاس، أوقاف الحرمين، مرجع سابق، ص221.

[5]– خليفة حماش، كشاف وثائق، مرجع سابق، ص359.

[6]– أبو القاسم الزياني، المصدر نفسه، ص165.

[7]– خليفة حماش، كشاف وثائق، مرجع نفسه، ص377.

[8]– جميلة معاشي: الإنكشارية في الجزائر بين الهجرة والتهجير، ملتقى سوسيولوجية الهجرة، مرجع سابق، ص79.

وعليهِ فإن الركب البحري لم يشتهر مثلما اشتهرَ الركب البري، رغم أنه أقلُّ إرهاقاً ومدةَ سيرٍ منه! وذلك بسبب العزوف الشعبي عنه في معظم المواسم، خوفاً من هجومِ القراصنةِ طوارقِ البحر الفُجائيين[1]، ومن تداعيات تقطُّع الرحلة البحرية في المحطات المصرية، ومن خطرِ الإبحار في البحر الأحمر بسبب كثرة الصخور[2]. ومن عدم ضمان توفُّر السفن اللازمة للنقل في الأوان المناسب، في ظلِّ فرض ضرائب باهضة على إرساء السفن في الموانئ والخلجان الجزائرية[3].

ومن أسباب العزوف الشعبي عن البحر كذلك الخوفُ من غدرِ الرياح وتلاطمِ الأمواج وسوءِ المآل. ففي موسم حجِّ 1239هـ/1824م ـ مثلاً ـ صحِبَ ألفَا حاج الأميرَ عبد القادر ووالده محي الدين، انطلاقاً من ميناء تونس، لكنَّ السفينة التي أقلَّت الحجاج الجزائريين في هذه الرحلة رجعتْ إلى الميناء بعد إبحارِ ستة أيام كاملة، وذلك بسبب هبوب الرياح الشرقية الهوجاء[4]، التي عطَّلتْ عمل الأشرعة وحالتْ دون تقدُّم السفينة، فما كان على قائدها سوى الانتظار حتى تهبّ الرياح الغربية الموائِمة، وألَّا يُغامرَ فتتقاذَفهُم الأمواج، وتغرق السفينة بمن فيها، فيصدُق فيهم قول الشاعر الحاج[5]: (الرجز)

وَكَمْ وَكَمْ مِنْ سُفُنِ الحُجَّاجِ   أَتَى عَلَيْهَا البَحْرُ بِالأَمْواجِ

والملاحَظُ ـ رغم ذلك ـ أن رحلات الحج بحراً شاعتْ بصفة ملحوظة أواخرَ العهد العثماني لأسباب سياسية وأمنية، فقد تمَّ الحج بقوة سنة 1217هـ/1803م، بعد انحسار الحملة الفرنسية عن مصر، وحضرَ الكثير من الحجاج إليها من طريق البحر[6]. لكنَّ العودة إلى الجزائر بعد انقضاء الحج ظلَّت برية في معظمها! ربما مردُّ ذلك كثرة السلع والأحمال التي يجلبها معهم الحجاج، أو

[1]- لم تَسلمْ سفنُ الحجاج الجزائريين من اعتداءات القراصنة الأوروبيين في رحلتها الحجية المقدسة. يُنظر: الفصل الثالث، المبحث الثاني (إشكاليةُ تأمين مسالك الحجاج ومعابرِهم).

[2]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص42.

[3]- وليم سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، ط خ، ترجمة وتقديم: عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007م، ص148.

[4]- هنري تشرشل، المصدر السابق، ص45.

[5]- محمد المختار السوسي، المصدر السابق، ص69.

[6]- عبد الرحمن بن حسن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ط02، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1998م، ج03، ص369.

بسبب عدم العجلة للوصول في وقت مضبوط، مثلما هو الأمر بالنسبة لرحلة الذهاب. وجدير بالذكر في الأخير أنَّ السفرَ إلى الحج بحراً قد سادَ في الجزائر أواخرَ القرن 13هـ/19م، أي بعد تعرُّض كلٍّ من الجزائر وتونس للاحتلال الفرنسي، وبعد شقِّ قناة السويس، وكان ركوب حجاج شمال أفريقيا يتمُّ من مينائي عنابة وتونس[1].

المبحث الثالث: علاقة السلطات العثمانية بالرّكب الجزائري

01. اهتمامُ سلاطين آل عثمان بأمور الحج:

الأتراك العثمانيون مكوِّن مُهم من مكوِّنات الأمة الإسلامية في العصر الحديث، والركب التركي مثلُه مثل بقية الأركاب الإسلامية واظبَ على أداء الحج بصفة دورية، فكان يخرج عادة في شهر رجب من كل سنة، ويمرُّ ببلاد بالشام، بعد أنْ يُعيِّن له السلطان الخيام والأنعام لحملِ الأثاث والمحامل والأثقال[2]. وعندما ضمَّ السلطان العثماني سليم الأول مصر إلى دولته في عام 923هـ/1517م خُطِب له على المنابر بأنَّه "مالكُ البحرَين، وكاسرُ الجيشَين، وخادمُ الحرمَين الشريفين"[3]، ثمّ وجَّه أنظاره صوب الحجاز، وعَني بضمِّه للخلافة الإسلامية العثمانية الناشئة، فتمَّ له ذلك بعد أنْ أقَرَّ حاكمَ مكة المكرمة على إمارته مقابل الدعاء للسلطان العثماني المنَصَّبِ خليفةً، والذي أصبح يوسَم من يومها بـ "أمير المؤمنين وخادم الحرمين الشريفين"[4].

اهتمَّت السلطات العثمانية بتنظيم الحج بشكل يسهِّل على المسلمين القيام به، من خلال تحسين شبكة الحصون التي تحمي طريق القوافل، المنطلقة من القاهرة ومن دمشق بشكل خاص، وتهيئة نقاط التزود بالمياه، وتقديم إعانات مالية للبدو قصد توفير الجِمال في المحطات، وإنفاق أموال طائلة لتمويل القافلة ورواتب الجنود للحراسة. لقد كان الحجُّ في كل عام مناسبة تنتهزها

---

[1]- هواري قبايلي: مسألة الحج في السياسة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر 1894-1962م، أطروحة دكتوراه في التاريخ، إشراف: بوعلام بلقاسمي، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2013/2014م، ص509.

[2]- محمد بن عبد الوهاب المكناسي: إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب، ط01، تحقيق: محمد بوكبوط، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2003م، ص136.

[3]- أحمد الرشيدي: حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولّي إمارة الحاج، د ط، تحقيق: ليلى عبد اللطيف أحمد، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1980م، ص13.

[4]- أحمد السِّباعي: تاريخ مكّة دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، ط05، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، 1999م، ج02، ص394.

الدولة العثمانية لتأكيد سلطتَيها الدينية والدنيوية باعتبارها القوة الإسلامية الرئيسية[1]. كما عمَّمَ العثمانيون عادةَ "الصُّرَّة العثمانية"[2] المرسلة سنوياً إلى فقراء الحرمين الشريفين على جميع الأقاليم الخاضعة لهم، وأمروا مندوبيهم وحكام الأقاليم بمساعدة الحجاج الفقراء الذين يسيرون مع الركب دون مالٍ أو مئونة[3]. وكان للعثمانيين كذلك اعتناء عظيم بحَرَمي مكة والمدينة، يُعيدون بناء ما سقط، ويجدِّدون ما تلاشى منه. فمثلاً أرسلَ السلطان العثماني في إحدى السنوات مائة ألف دينار ذهباً لتجديد ما يحتاج إلى التجديد في معالم الحرمين، بعد تعرضها لسيول جارفة[4].

رغم كلِّ ما ذُكر من جهود السلاطين العثمانيين لخدمة الحجاج والحرمين الشريفين، إلا أن المفارقة الغريبة هي أنَّهم لم يحجُّوا منذ فتح القسطنطينية عام 857هـ/1453م! ولم يُغادروا اسطنبول سوى للقيام بالغزوات والفتوحات[5]. ثمّ إن السلطات العثمانية لم تُولِ لإمارة الحج وتنظيم قوافله في البلاد المغاربية نفس الأهمية التي نالَتْها القوافل المشرقية؟ حيث كان التركيز مُنصبّاً على القافلتين الكبيرتين في موسم الحج: الشامية والمصرية، فقد حظيَ الركب المصري بصفة خاصة باهتمام بالغ ومعامَلة تفضيلية من طرف السلطات العثمانية[6]. وربما كان الإنفاق العثماني السخي السخي على ركب الحج المصري ـ مثلاً ـ يرجع إلى احتوائه المفترَض على أركاب الحج المغاربية، منذ خروجها من مصر ودخولها في آخر مقطع من طريق الحجاز.

02ـ ارتباطُ أتراك الجزائر بالحج ومستلزماتِه:

نجد في الجزائر العثمانية أنَّ الكثيرين من الدايات والبايات والوزراء والقادة الأتراك والمنتسبين إلى الدواوين قد حُلِّيتْ أسماؤهم بِوَسمِ "الحاج"، من أمثال: الداي الشهير الحاج حسين ميزومورتو،

---

[1]- روبير مانتران: تاريخ الدولة العثمانية، ط01، ترجمة: بشير السباعي، دار الفكر، القاهرة، 1993م، ج01، ص561.

[2]- **الصُّرّة**: مصطلح مشرقي في الأصل، وهي المقدار من المال الذهب من حصيلة الأوقاف، الذي يُرسَل كلَّ عام مع ركب الحج، ليوزَّع على فقراء الحرمين الشريفين وفقَ نظام محدَّد. يُنظر: الشريف الزهار، المصدر السابق، ص183.

[3]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص70.

[4]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص141.

[5]- عزيز سامح التِر: الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ط01، ترجمة: محمود علي عامر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1989م، ص444.

[6]- إسماعيل حقي جارشلي: أشراف مكة المكرمة وأمراؤها في العهد العثماني، ط01، ترجمة: خليل علي مراد، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2003م، ص107.

الذي تلقَّب بالداي حجي[1]، والداي الحاج علي باشا. وعلى منوالهما نجد: الحاج حسن باشا، الحاج أحمد باي، الحاج محمد بن محمود، الحاج أحمد بلكباشي بن ولي التركي، الحاج حسن آغا بن محمد التركي، الحاج محمد التريكي، الحاج خليل معزول آغا، الحاج علي أرناءوط، الحاج عمر باش كاتب، الحاج يوسف وكيل الحرج، الحاج مصطفى كاهية، الحاج عبد الله صاري عسكر، الحاج محمد الشريف الزهار.... [2].

والملاحظ كذلك هو إصرار قادة الأسطول البحري الجزائري ـ من الأتراك والجزائريين ـ على أداء ركن الحج، من أمثال: الحاج علي رايس، الحاج عثمان رايس، الحاج مصطفى رايس ولد عيسى، الحاج أحمد الحداد رايس، الحاج محمد رايس، الحاج سليمان رايس وغيرهم[3]، وذلك رغم التزامات الجهاد البحري المضنية في حوض المتوسط. وقد يساعدهم على ذلك امتلاكُ السفن، وتواجدهم أحياناً كثيرة بالمشرق، وقربهم من الشام ومصر مَدْخلَي بلاد الحجاز.

أحياناً كان حاكم الجزائر يُرسِل من يُمثِّله في رحلة الحج، فقد أرسلَ الداي حسين ـ مثلاً ـ شخصاً يسمى "أحمد أفندي" نيابةً عنه إلى الحج، وكلَّفه بتوزيع صدقاته على فقراء الحرمين الشريفين، وكانت رحلته مع مرافقيه بحراً عبر ميناء الإسكندرية ذهاباً وإياباً[4]. كما يتبيَّن حرصُ بعض مَنْ حجَّ من البايات الأتراك على تخليدِ أسمائهم مقرونةً بلفظِ "الحاج". نقرأ ذلك ـ مثلاً ـ في النص التالي المنقوش على حجارة الجامع الأعظم بمعسكر، المبني عام 1160هـ/1747م من طرف باي بايلك الغرب، فقد جاء فيه: "الحمد لله حمداً لا نهايةَ لطولِه، وصلى الله على سيدِنا محمد نبيِّنا عبدِه ورسولِه، أما بعد: فقد أمر ببناءِ هذا المسجد المباركِ المحمودُ المعظَّمُ الأرفعُ القامِعُ للعِدا.... حاجُّ الحرمين.... مولانا الحاج عثمان باي.... "[5].

---

[1]- سامح التر، المرجع السابق، ص426.

[2]- يمكن عدُّ المئات من أسماء شبيهة بتلك، بالاطِّلاع على سجلات المحاكم الشرعية وغيرها من المصادر الجزائرية في الفترة العثمانية، وعلى رأسها مذكرات "الشريف الزهار" نقيب أشراف الجزائر أواخرَ العهد العثماني، فقد حرص على إظهار صفة "الحاج" في أسماء الكثيرين ممَّن ترجمَ لهم.

[3]- الشريف الزهار، المصدر السابق، ص ص29-129.

[4]- رسالة من أحد الحجاج إلى حسين باشا، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 3190/01/256.

[5]- محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، ط خ، تحقيق: المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م، ص256.

وعلى ذكر الصدقات فقد دأب الحكام العثمانيون المحليون على إرسال الصُّرة الجزائرية (أي محصِّلة أموال أوقاف الجزائريين على الحرمين الشريفين) إلى مستحقيها بالحرمين الشريفين سنوياً، والوقوف شخصياً على إعداد قوائم الفقراء المستفيدين منها، أما العون المكلَّف رسمياً بإيصالها إلى الحجاز فهو في الغالب "أمين بيت المال"[1]. ويتمُّ إرسال الصرة الجزائرية وأمينها على متن سفينة الحج المتجهة إلى ميناء الإسكندرية، وتُرافقها مجموعة من المراكب القتالية لحمايتها وضمان وصولها[2]. وكان منصب وكيل مؤسسة الحرمين الشريفين بالجزائر ذا أهمية وقدسية، يتولّاه مجموعة من الأمُناء، ويُشترط في ما يُشترط في ذلك أداءُ ركنِ الحج[3].

كان الركب البحري الحاملُ للصُّرة بمثابة الركب الرسمي لرحلة الحج من الجزائر، لذلك اهتمت السلطات العثمانية بكراء أجود السفن لنقل المحظوظين من الحجاج على متنها إلى الحرمين الشريفين[4]. وكان للموظَّف المتولِّي إدارةَ أموال الأوقاف الحقُّ في الرحلة مجاناً رفقة أفراد عائلته[5].

أمّا الأتراك المنخرطون في الوظائف الإدارية والعسكرية فلا يجرؤون على السفر للحج دون إذنِ الداي، وإنْ سُمِح لهم بالحج وجاوزَ غيابهم سنةً كاملة تمَّ تغريمُهم بعد عودتهم للجزائر راتبَ سنة، وحُرموا راتبهم بقيةَ تلك السنة[6]. لذلك كان بعض ضباط الفرق العسكرية (الأوجاق) يقومون بجمع الأموال من عناصر الأوجاق أثناء ذهابهم إلى الحج، بِداعي الصلة التي تربطهم مع بعضهم البعض، والرغبة في المضاربة بتلك الأموال، ويأخذون معهم بعض المصنوعات والتحف الثمينة لبيعها في بلدانهم الأصلية عند زيارتها، لاعتقادهم أنها مُعفاة من الرسوم الجمركية[7]. وبالتالي وبالتالي ضمان مورد مالي مُهِّم يعوّض تبِعات فترة الغياب الطويلة عن الجزائر.

---

[1]- عائشة غطاس، أوقاف الحرمين، مرجع سابق، ص220.

[2]- الشريف الزهار، المصدر السابق، ص170.

[3]- خليفة حماش: دكان الحرمين الشريفين في مدينة الجزائر في العهد العثماني، مجلة الدارة، العدد 01، السنة 2009م، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ص141.

[4]- ناصر الدين سعيدوني: دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية الفترة الحديثة، ط01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001م، ص177.

[5]- هواري قبايلي، المرجع السابق، ص129.

[6]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص23.

[7]- سامح التر، المرجع السابق، ص517.

لطالما فضَّل أتراكُ الجزائر الراغبون في أداء الحج التكتل في قافلة خاصة بهم، بحكم طبيعةِ وجودهم، وخصوصيةِ مناصبهم. ومن نماذج مواكِبهم الحجية: موكب "الحاج إسماعيل" آغا صبايحية الترك سنة 1185هـ/1771م، مروراً بمدينة عنابة وميناء تونس[1]. وموكب "محمد خوجة" حفيد باي قسنطينة سنة 1193هـ/1779م، المنطلق براً من قسنطينة، العابر نحو ميناء تونس، وقد ضمّ الكاتب والخزنجي والباش سراج، الذين استفادوا من الزّاد والإكراميات مع حريمهم وأتباعهم، طيلة إقامتهم بتونس في ذهابهم للحج ثم في عودتهم[2]. كما حجَّ القاضي والمفتي الحنفي "ابنُ العنابي" سنة 1236هـ/1821م ضمن وفد رسمي من مدينة الجزائر، رفقةَ شقيق الداي حسين داي الجزائر[3]. والأمر ذاتُه بالنسبة لأهل مخزن وهران من الأتراك، الذين سافر معهم الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر سنة 1240هـ/1825م، فقد انتقلوا بحراً من وهران إلى تونس، ومن تونس استقلُّوا مركباً إنجليزياً مخصَّصاً لنقلِهم إلى مدينة الإسكندرية[4].

ما يمكن استنتاجه من النماذج السابقة هو أن كبار القادة والموظفين العثمانيين بالجزائر كانوا يفضِّلون السفر إلى الحج بحراً عبرَ تونس، إذْ يحظون فيها بعد وصولها بمعاملة تمييزية، فيتلقون فيها الهدايا والمئونة اللازمة للإقامة أولاً، ثمَّ للسفر في الذهاب وكذا في الإياب. أمَّا عن بقية سفرهم ما بعد ميناء الإسكندرية فقد يكون أولاً عبر البر من القاهرة إلى السويس، ثمَّ عبر البحر الأحمر من ميناء السويس وصولاً إلى ميناء جدة، وذاك أمر يُطيقون تكاليفه. أو يكون ما تبقَّى من سفرهم اندماجاً في الركب الجزائري البري، الذي يُرافق بدوره المصري في ذلك المقطع.

تلك الخصوصية لا تعني أن أتراك الجزائر كانوا يستنكِفون عن مرافقة الحجاج الجزائريين ومخالطتهم، بل كانوا يحجُّون مع العوام من الحجاج الجزائريين في رحلة البرِّ الشاقَّة. فمِمَّن ضمَّهم الركب الجزائري الذي حجّ ضمنَه الرحالة الورثِلاني نجد شخصيات تركية، على منوال: الحاج خليل بن قاصد علي التركي، والحاج محمد بن معمر اللمداني الكورغلي صهر داي الجزائر[5]. وإنْ كان

---

[1]- خليفة حماش، كشاف وثائق، مرجع سابق، ص363.

[2]- المرجع نفسه، ص370.

[3]- أبو القاسم سعد الله: رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنّابي، ط02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م، ص08.

[4]- المهدي البوعبدلي، التعريف بالكتب والمخطوطات، مرجع سابق، ص21.

[5]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص258.

الأتراك في سفرهم إلى الحج يأنَفون من مزاحمة الحجاج المغاربة لهم في الطريق! ذلك ما عايَشَه الرحالة المغربي العياشي وأكَّده قائلاً: ".... وكان أهلُ الجزائر قد طلبوا من أصحابنا أن يتأخَّروا عنهم يوماً يُقيمونه بالجابية، مُعتلِّين بأنَّ معهم من أكابرِ تُركِ الجزائر طائفةً لا يرضون أنْ يتقدَّم عليهم صعاليكُ المغاربة"[1]!؟

03. حدودُ الوِصاية العثمانية على شؤون الحج بالجزائر:

إنَّ الحديث عن وِصاية العثمانيين على حجِّ الجزائريين يندرج أصلاً ضمن إشكالية تحديد الهوية الجزائرية في ظل الوجود العثماني، وحدود التقاطع بين "البلاد الجزائرية" و"الإيالة العثمانية"؟ حيث يرى بعض المؤرخين أنَّ مجال السلطة العثمانية لم يتعدَّ سدس البلاد الجزائرية[2]. وهذا الرحالة الورثِلاني ـ وهو شاهدٌ من القرن 12هـ/18م ـ يصفُ موطنَه غيرَ البعيد جغرافياً عن مراكز السلطة العثمانية بالشمال بأنَّه "سائبٌ وخالٍ من السلطان وأحكامه"[3]! إنَّ ذلك نتاج طبيعة العلاقة القائمة بين أهل الجزائر والحكام الأتراك المنصَّبين، إذْ لم يكن للجزائريين دخلٌ في الأمر، فالذي يولِّي ويعزلُ الحكامَ هم العسكرُ، سواء كانوا من طائفة الرياس، أو من الانكشارية[4].

وعملية تنظيم ركب الحج هي "جزءٌ من كلٍّ"، لا يمكن الحديث عنها خارج سياقِها التاريخي والسياسي. فإنْ كان حكم "السلطان" غير نافذ في أهل جبل زواوة (أي منطقة القبائل) بمناسبة استعدادِ ركبِهم للذهاب إلى الحج ـ كما شهد الورثلاني ـ[5]، فما بالك بمناطق الهضاب والأرياف أو أو الصحراء الشاسعة البعيدة؟ والتي اضطرَّ بعض سكانها أحياناً إلى مرافقة الركب المغربي العابرِ أرضَهم للحج. لذلك اجتهد الجزائريون في سبيل إيجاد بدائل تنظيمية خاصة بأمور الحج، اعتماداً على "نظام الجماعة" القائم في الأرياف، وعلى تأثير الزوايا والطرق الصوفية السائد وقتَها. إنَّها نماذج عن التنظيم "الذاتي" أو "الشعبي" لرحلة الحج، في ظلِّ التقاعس الرسمي العثماني.

[1]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص496.

[2]- رشيدة شدري معمر: العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر فترة الدايات (1671-1830م)، رسالة ماجستير في التاريخ، إشراف: د. فلة موساوي القشاعي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2005-2006م، ص30.

[3]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص87.

[4]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، مرجع سابق، ج02، ص330.

[5]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج01، ص45.

رغم ما ذُكر مِن تقاعسٍ ومِن تركيز العثمانيين على الركب البحري الرسمي، إلا أنه لا يمكن نفيُ اهتمامهم بشؤون حجِّ الجزائريين على الإطلاق، فمنذ حلُّوا بالجزائر أدركوا أهمية عملية تنظيم الحج عند الجزائريين، فكانت مكافأةُ جَدِّ "آل الفكون" الذي انتصر لهم على الحفصيين هي تعيينَه في منصب أمير ركب الحج[1]. كما أنهم ما فتئوا يُهيِّئون أماكن خاصة لنزول الركب الجزائري البري في المناطق التلية الخاضعة لسيطرتهم، ويُداومون على استقبال ركب الحج من جهة الغرب الجزائري، ويُكرمون وِفادته ويجهِّزونه بما يحتاج[2]. وقد اشتهر بعض البايات ـ على غرار صالح باي ومحمد بن عثمان الكبير ـ بإجلالِ العلماء ووصلِهم بما يُعينهم على الذهاب إلى الحج.

كان الداي حسين إذا اقترب موسم الحج يعقدُ اجتماعاً مع أعضاء الديوان المعنيين، ثمّ يأمر بتسريح المراكب للذهاب إلى الحج[3]. كما استجاب الباب العالي لطلبه المتعلِّق بحماية الحجاج الجزائريين، فأصدرَ أمرَه إلى مختلف الإيالات العثمانية باحترام الحجاج الجزائريين، وتسهيل مرورهم، وعدم مطالبتهم بأداء الرسوم الجمركية في الموانئ[4]. وقد اتخذ العثمانيون من مدينة الإسكندرية مقراً رسمياً لوكيل الجزائر في مصر، هذا الوكيل الذي يساعده في مهامه ناظرُ بيت مالِ الحجاج الجزائريين، المكلَّفُ الأول برعاية شؤونهم في مصر، سواء كانوا قادمين إليها عبر البحر أو عبر البر. ومن الشخصيات التي تقمَّصت هذا الدور المدعو "الحاج عثمان جنبلاط"، حيث أصبح لاحقاً وكيلاً للجزائر في مصر أواخر العهد العثماني[5].

لقد استغلَّ العثمانيون تحضيرات الجزائريين للسفر إلى الحج من أجل تلميع صورتهم في مخيّلة "الأهالي" سكانِ البلد، لأنَّهم أدركوا مدى قدسية تلك الشعيرة في نظر الجزائريين. واستغلُّوا موسم الحج كذلك لفرض ما يُمكن اعتباره وِصاية أمنية "مخابراتية"، وذلك من خلال مراقبة تحرُّكات بعض الشخصيات الجزائرية "الشعبية" المقبلة على أداء مناسك الحج، وإبداء التحفُّظ على ظروف تحضيرها لذلك، وصولاً إلى قرار منعها من الحج في آخر المطاف.

---

[1]- المهدي البوعبدلي، الحياة الثقافية بالجزائر، مرجع سابق، ص110.

[2]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و11.

[3]- الشريف الزهار، المصدر السابق، ص144.

[4]- رسالة من وكيل الجزائر لدى الباب العالي إلى الداي حسين باشا، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 3190/01/137.

[5]- رسالة من "الحاج عثمان جنبلاط" وكيل الجزائر في مصر إلى الداي حسين باشا، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 3190/01/249.

مِن الجزائريين الذين كانوا ضحايا لتلك الوِصاية الأمنية في أواخر العهد العثماني بالجزائر الشيخ محمد التيجيني نجلُ مؤسِّس الطريقة التيجانية، فقد حاولت السلطات العثمانية مَنْعَه من الذهاب إلى الحج خشيةً من كثرة أتباعه، وأوعزتْ إلى باي قسنطينة باعتقاله إذا حلَّ بالمدينة مع الركب، لكن تلك المحاولة باءت بالفشل[1]. ونفس الموقف تعرَّض له الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر، فقد احتجزَه باي الغرب ومَنَعَه من الذهاب إلى الحج، بعد أنْ كان هيَّأ له أسبابه وودَّع أحبابه، وأسكنَه بوهران ولم يُخلِ سبيله إلا بعد مدة طويلة[2]. والسبب وراء ذلك الإجراء هو توجُّسُ الأتراك من حجم الركب المتنامي حوالي كلِّ واحد منهما، والذي تجاوز آلاف الأتباع، ومخاوفُهم من احتمال انبعاث حركة تمرُّدٍ أو عصيان ضدهم.

لئِنْ كان محمد التيجيني تمكَّن من الذهاب إلى الحج، ثم الرجوع إلى الجزائر وإعلان الثورة التي انتهت بمقتلِه، فإنَّ الشيخ محي الدين رضخ للأمر الواقع، وظلَّ رفقةَ ابنه الأمير عبد القادر حبيسَي وهران لمدة سنتين[3]، ثمّ ارتأتْ السلطات العثمانية السماح لهما بمواصلة الرحلة إلى الحج منفصلَين، رفقةَ الوفد الرسمي انطلاقاً من وهران بحراً بالنسبة للشيخ محي الدين، ومع ركب الحج البري الذي انطلق من منطقة سيق بالنسبة لابنِه الأمير عبد القادر[4].

04. حالات الاضطراب في توجُّه الركب الجزائري للحج:

لا نستطيع الجزم بتخلُّف الركب الجزائري عن الحج في سنواتٍ بعينها، بحكمِ تنوُّع جهاته وتعدُّد أُمرائه، لكن يمكن القول أن عدد الحجاج المنتسِبين إليه كان يقلُّ عن المعتاد بشكل واضح أحياناً، لأسباب منها: الثورات الداخلية، وحركات التمرد والعصيان المتجدِّدة باستمرار ضد حكم

---

[1]- الشريف الزهار، المصدر السابق، ص159.

[2]- ابن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص320.

[3]- ضاقتْ على الشيخ محي الدين الأرضُ بما رحُبتْ بعد منعِهِ من أداء الحج تلك السنة، فراسلَه الشاعر الشيخ السنوسي بن عبد القادر الحسَني الراشدي بقصيدة رائعة يُسلِّيه بها، جاء في مطلعها: (البسيط)

عَوِّلْ علَى الصَّبْرِ لا تَفْرَعْكَ أَشْجَانُ ... ولا تَرُعْكَ بِما فَاجَتْكَ وهرانُ

أمَا هِيَ الدّارُ لا تُؤمَنْ غَوائِلُها ... بَلَى هِيَ الدّارُ أغْيَارٌ وأَحْزانُ

يُنظر: محمد بن عبد القادر الجزائري: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ط01، المطبعة التجارية، الإسكندرية، 1903م، ج02، ص302.

[4]- المهدي البوعبدلي، التعريف بالكتب والمخطوطات، مرجع سابق، ص21.

العثمانيين في الجزائر من فترة إلى أخرى[1]، فينجم عن تلك الثورات فقدان الأمن فقداناً بيِّناً، أو بسبب انتشار الطاعون والأوبئة في عموم الجزائر من مدنها إلى بواديها. فتُقطَع الطريق على ركب الحجاج ويتعطَّل الكثيرون عن الذهاب إلى الحج. أو بسبب حدوث مستجدَّات سياسية وأمنية خطيرة على مستوى الحكم بالجزائر، أو على مستوى محطتَي مصر والحجاز المفصليتَين.

من الأحداث السياسية التي أثَّرت تأثيراً سلبياً على تنظيم الحج صدور فَرَمان عثماني (أمر سلطاني) سنة 1070هـ/1659م موجَّه إلى البحارة في جميع السواحل العثمانية، وإلى والي مصر وحاكم مكة المكرمة، يطلب منهم منع الجزائريين من الذهاب إلى الحج؟ والسبب وراء ذلك القرار هو غضب الصدر الأعظم العثماني من تمرُّد وطغيان إنكشاريي الجزائر، ورفضهم أمرَ تعيين الباشا الذي أرسله السلطان العثماني حاكماً على الجزائر، بعدما ألقوا القبض عليه وأهانوه مع أتباعه[2]. غيرَ أن ذلك "الفرمان" لم يُؤدِّ إلى تعطيل حجِّ عامةِ الجزائريين، لأنه ركَّز على أتراك الجزائر فقط، وعلى المنافذ البحرية التي يمكن أن يمرَّ بها الركب الجزائري دون سواها.

أمّا الحدث الذي أدى إلى شبهِ انقطاعٍ لركب الحج لسنوات متتالية فهو الحملة الفرنسية على مصر ما بين 1212-1216هـ/1798-1801م، إذْ أثَّرتْ على خروج الركب المصري من القاهرة، وبالتالي على خروج الأركاب المغاربية التي اعتادت على السَّير بسيرِهِ من هناك[3]. لكنَّ الحجاج المغاربة عامةً توافدوا على مصر بشكلٍ مذهلٍ مباشرةً بعد جلاء الحملة، ثمَّ ارتحلوا منها بالآلاف قاصدين الحجاز براً وبحراً، بين أواخر شوال وبداية ذي القعدة 1217هـ/1803م[4]. ومن تصاريف الأقدار أن بعض الحجاج الجزائريين والمغاربة الذين تزامنَ حجُّهم مع الحملة الفرنسية شاركوا في الجهاد ضد الفرنسيين، ومنهم محمد عبد الله بن الأحرش* الذي عاد بعد سنةٍ من تحرير

---

[1]- مثل ثورات: ابن الصحري، القبائل، الكراغلة، ابن الشريف الدرقاوي، ابن الأحرش.... التي طبعتْ فترة الوجود العثماني.

[2]- سامح التر، المرجع السابق، ص387.

[3]- يونان لبيب رزق ومحمد مزين، المرجع السابق، ص56.

[4]- عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج03، ص370.

* **ابنُ الأحرش محمد عبد الله** داعيةٌ وثائرٌ من أصلٍ مغربي، اشتهر بعد سفرِهِ إلى الحج ومكوثه في مصر مجاهداً الحملة الفرنسية، ثم انتقل إلى الجزائر وخرجَ على باي قسنطينة بدعمٍ من باي تونس سنة 1218هـ/1803م، وتمكَّن من تحقيق انتصارات كبرى، ثم انهزم جيشُه ففرَّ إلى الجهة الغربية. يُنظر: محمد بن عبد القادر الجزائري، المصدر السابق، ج01، ص77.

مصر إلى الجزائر عبر سفينة إنجليزية، ليقودَ ثورةً عنيفةً في الشرق الجزائري ضد أتراك الجزائر استمرت أربع سنوات، وساهمتْ في قطع الطرق على المسافرين والحجاج[1]!

ثمَّ كان اضطراب سفر الحجاج مرةً أخرى في بداية القرن 13هـ/19م، مع اشتداد أمر الحركة الوهابية التي تبنَّتْ دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ت1206هـ/1791م)*، وتحوُّلها من الجانب الدعَوي إلى المواجهة العسكرية الحربية مع حكّام مكة المكرّمة، وذلك ابتداءً من موسمِ حجِّ 1217هـ/1803م، بعدما استبشر فيه الحجاج خيراً بنسيانِ خطر الفرنسيين.

وكانت مكة المكرمة قد ازدحمت في ذلك الموسم بالحجاج ازدحاماً شديداً، فباتَ الناس فيها خائفين أن يدهمَهم المتحاربون في داخل مكة أو في عرفة، إلا أن المهاجمين من أتباع تلك الحركة ظلوا ماكثين في معسكراتهم لا يتقدمون حتى قُضيَ الحج[2]. ولأنَّ الحرب استمرت إلى سنة 1233هـ/1818م سجالاً بين سعود ثمَّ ابنِه عبد الله والقبائل الموالية للوهابيين من جهة، وبين حكام مكة وحلفائهم المصريين من جهة أخرى، فقد انقطع المصريون والشاميون عن الحج، وامتنعتْ معظم البلاد الإسلامية عنه، وأصبح الحج يكاد يكون مقصوراً على أقطار الجزيرة العربية الخاضعة للسعوديين، وبعض المغاربة الجريئين في بعض السنين[3].

ورغمَ كلِّ ما سبق ذكرُه من فِتن وموانع، إلا أن الحجاج الجزائريين خصوصاً والمغاربة عموماً ظلُّوا أكثر الحجاج المسلمين مداومةً على الوصول إلى الحجاز وأداء شعيرة الحج. ويُمكن أن نستدلَّ على ذلك برأي أحد الكُتَّاب المصريين وإعجابِه بهم قائلاً: "... كان الحجاج المغاربة من أنشط المسلمين في المداومة على رحلة الحج إلى الحرمين سنوياً. وحتى في السنوات التي كانت الأحداث

---

[1]- سامح التر، المرجع السابق، ص586.

* **محمد بن عبد الوهاب** (ت1206هـ/1791م) بن سليمان التميمي النجدي، زعيم الحركة الدينية الحادثة في جزيرة العرب، وُلِد في العيينة بنجد، زار الشام والبصرة فأوذي فيها. قامت حركته على الدعوة إلى التوحيد الخالص، وإتباع منهج السلف الصالح ونبذ البدع، وتحطيم ما علق بالإسلام من أوهام. عُرف من والاه وشدَّ أزره في قلب الجزيرة بأهل التوحيد، ومنهم آل سعود الذين تبنّوا دعوته وعملوا على نشرها، فجهرَ بها سنة 1143هـ/1730م، وكثُر أتباعه فأطلق عليهم خصومهم اسم الوهابيين نسبة إليه، وشاعت تلك التسمية وانتشرت لاحقاً. يُنظر: خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج06، ص257.

[2]- أحمد السباعي، المرجع السابق، ج02، ص561.

[3]- المرجع نفسه، ج02، 570.

فيها تحُول دون ذهاب الحجاج المصريين، مثل الفتنة التي حدثت في مكة سنة 1040هـ/1631م وكذلك الأمر أيام ظهور الوهابيين، فقد خرج الحجاج المغاربة فقط"[1]!

وأيضا عشيةَ الحملة العسكرية الفرنسية للزحف على الجزائر أواخرَ سنةِ 1245هـ/بدايةَ صيفِ 1830م، لم يُثنِ ذلك الجزائريين عن تلبية نداء الحج إلى بيت الله الحرام حينَ آنَ أوانُه، فاختار المئات من الحجاج ركوب البحر من ميناء الجزائر، رغم حصار وتربُّص الأسطول الفرنسي بالسواحل الجزائرية. وأمرَ الداي حسين القبطان مصطفى رايس قائدَ السفينة بأنْ يوصلَ الحجاج إلى ميناء الإسكندرية ثمَّ يرجع. ذلك ما عايَنَه نقيبُ الأشراف قائلاً "فلما ذهبوا (أي الحجاج) وقعتْ الحرب من ورائهم، فبقوا في الإسكندرية إلى أنْ نفَّذ اللهُ قضاءَه في الجزائر"[2]!.

وباحتلال الجزائر انقطعَ ركبُها عن الحج، بل كادت تنقطع رحلة الركب المغربي كذلك، فقد كان آخر عهدٍ للمغاربة بالحج براً عبر تراب الجزائر في سنةِ سقوطها! وآثرَ الركب المغربي بعدها بأمرٍ من السلطان العلوي ركوبَ البحر من ميناء العرائش للذهاب إلى الحج، متجنِّبين الأراضي الجزائرية. يقول الرحالة أحمد ابن طوير الجنة الشنقيطي ـ وقد عايش ذلك الحدث في سفره ـ: "…. فلمَّا قدمنا فاساً وجدنا الجزائر أخذَتْها النصارى إفرَانسيس، كَتبْنا إلى مولاي عبد الرحمن وهو بمكناسة الزيتون أنَّ البرَّ لا يمكن السيرُ فيه، لأنَّه صار أرضاً سائبة، وأنَّا نُحبُّ الركوب في البحر، فَبقِينا في حيرة…. فكتبَ هو ـ نصره الله ـ إلى قائده بالعرائش مكتوباً"[3].

نستنتج ممَّا سبق أن تَوالي الاضطرابات والمستجدات السياسية والأمنية، وعدم الاستقرار الإداري في سدة الحكم العثماني بالجزائر في صفوف الولاة العثمانيين، رغم أنهم أضحوا يتمتعون بصلاحيات واسعة تمكِّنهم من تنظيم شؤون الحج باستقلالٍ شبه تام عن الباب العالي منذ سنة 1129هـ/1717م، بعد أنْ أُلغي المنصب الشرفي للباشا الممثِّل الشخصي للسلطان لفائدة الداي، كلُّ ذلك أثَّر سلباً على محاولات إيجاد تصوُّر ثابت لمسألة تنظيم الحج. ولا أدلَّ على ذلك من عدم إعطاء منصب "أمير الركب" العناية التي يستأهِلُها مقارنةً مع الأقاليم الأخرى. فقد كان

---

[1]- أحمد الرشيدي، المصدر السابق، ص52.

[2]- الشريف الزهار، المصدر السابق، ص170.

[3]- Et-talib Ahmed Ben Towair Al-ganna: Rihlat elmona wel minna (Pèlerinage à La Mekke), Revue Africaine, volume 55, 1911, Alger, p219.

أمير الحاج المصري ـ مثلاً ـ يذهب لمقابلة الباشا بعد عودته من رحلة الحج، ويحدِّثه عمَّا لاقاهُ الحجاج في رحلتهم من راحةٍ أو تعب، وكلما كان دور أمير الركب عظيماً في العناية بالحجاج، كلما كانت الخِلعة التي يخلعُها عليه الباشا في ذلك الموسم ثمينة وقيِّمة[1]. فأميرُ الركب في نظرهم هو رأسُ الأمرِ كلِّه في ضمان نجاح عملية تنظيم الحج.

المبحث الرابع: إمارةُ ركبِ الحج الجزائري ومقوّماتها

01ـ أشهر بيوتات إمارة الركب الجزائري:

بما أن السفرَ إلى الحج في ذلك الزمان طويلٌ وشاق، وعدد الحجاج كبير وأصولهم شتَّى، كان لا بدَّ لركبِهم من قائدٍ أو شيخٍ أو أمير. ففي حديثٍ مرفوعٍ، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: "إِذا كانَ ثلاثَةٌ في سَفرٍ فَلْيُؤَمِّروا أَحدَهُم"[2]. وأميرُ الركب ـ في نظر المرحوم سعد الله ـ يعني رئيس الحجاج المسؤول عن قافلتهم[3]. وأمير الركب الجزائري هو قائد رحلة الحجاج الجزائريين منذ بدءِ التحضير لها إلى غاية عودتهم إلى مُنطلَق رحلتهم، ولا تنتهي مهمتُّه بمجرَّد وصوله هو إلى موطنِه أو مسقط رأسه[4]. وفي الجزائر غلبَ مُسمَّى "شيخ الركب" في الفترات المتأخِّرة من العهد العثماني. وفي تونس شاع كذلك لقب "شيخ الركب" أولاً، ثمَّ "رئيس الركب" لاحقاً، أما في مصر فعُرِف بأمير الحج أو أمير الحاج[5].

والغالبُ على منصب إمارة الركب في الجزائر توريثُه بين أفراد العائلة الواحدة المتنفِّذة، نقرأ ذلك في نصوص بعض السندات والشهادات، ومنها النص التالي: ".... ومن الأعيان الحاضرين المذكورين شيخُ الركب بنُ شيخِ الركب الأكرم سيدي الحاج أحمد بن البركة.... "[6]. فهذا المنصب أضحى نعتاً معرِّفاً بصاحبه، يسبقُ اسمَه وقد يُغني عن ذكره حتَّى، إلا من بابِ التعريف التَّام به. ومن أشهر بيوتات إمارة الركب في الجزائر:

1- أحمد الرشيدي، المصدر السابق، ص18.

2- أبو داود الأزدي: سُنن أبي داود، ط خ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، دار الرسالة، دمشق، 2009م، ج04، ص249.

3- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج04، ص402.

4- عبد الرحمن الجاجي، المصدر السابق، و06.

5- محمد بن الخوجة، المصدر السابق، ص263.

6- مولاي التهامي غيتاوي، المرجع السابق، ص260.

أ ـ آلُ الفكُّون (الفقون): بيتُ الفكون أو الفقون من أشهر بيوتات إمارة الركب الجزائري، وقد بدأتْ شُهرتُه مع سيطرة العثمانيين على مدينة قسنطينة، وتقريبهم لهذا البيت، واعترافهم بفضل وأيادي آل الفكّون عليهم. حيث كان لهم دور كبير في تقديم بيعة سكان قسنطينة لباشا الجزائر والقضاء النهائي على النفوذ الحفصي بالمنطقة منتصفَ القرن 10هـ/16م، فكافأهم العثمانيون بإسناد الوظائف السامية إليهم ومنها إمارة ركب الحج[1]. إلا أنَّ المؤرِّخ المرحوم سعد الله يرى بأن إمارة ركب الحج ظلَّت في عائلة بن عبد المؤمن المتنفِّذة من قبل، ولم تبدأ في عائلة الفكون سوى مع الشيخ عبد الكريم الفكون الحفيد (ابن محمد بن عبد الكريم) صاحب كتاب منشور الهداية، بأمرِ تعيينٍ رسمي صادر عن السلطات العثمانية عام 1048هـ/1638م[2].

انتقلت إمارة الركب من شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون بعد وفاته إلى ابنه الشيخ محمد الفكون (ت1114هـ/1702م) لأزيدَ من أربعين سنة، وقد التَقى به أبو سالم العياشي في رحلته الثانية بطرابلس، وأشارَ إليه بأنَّه "قدِمَها حاجاً، وهو أمير ركب الجزائر وقسمطينة وتلك النواحي على نهجِ أبيه وعادتِهِ في ذلك"[3]. ثمَّ حلَّ محلَّه أخوه بدر الدين بن عبد الكريم الفكون، الذي وسَمَه الرحالة الورثلاني بهذه الصفة "أمير الركب الحجازي"، وكان قد نزل مع مجموعةٍ من الحجاج العائدين من الحجاز في داره بقسنطينة في ضيافةِ ابنِه دون أن يُسمّيَه، مكتفياً بالإشارة إليه بـ "ولد سيدي بدر الدين"[4]. والظاهر ـ قياساً ـ أنه عبد الكريم بن بدر الدين، بحكمِ أن آخر من تولَّى إمارة الحج من أسرة الفكون هو محمد بن عبد الكريم بن بدر الدين (ت1256هـ/1840م)، وقد أدركَه الاحتلال الفرنسي لقسنطينة وهو في سنِّ الثمانين[5].

ب ـ آلُ المسعود: على غرار آل الفكون اعتاد هذا البيت أيضاً إمارةَ الركب الجزائري في الفترة العثمانية، وآل المسعود أصلهم من قرية أمدوكال (تتبع ولاية باتنة حالياً) نواحي إقليم الزاب، حسبما ورد في رحلة العياشي سنة 1072هـ/1662م، الذي أشاد باثنين من أمراء الحج من

---

[1]- المهدي البوعبدلي، التعريف بالكتب والمخطوطات، مرجع سابق، ص42.

[2]- أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، مرجع سابق، ص47. يُنظر أيضاً: نصّ وثيقة رسمية صادرة عن السلطات العثمانية بشأنِ تعيين الشيخ عبد الكريم الفكون أميراً لركب الحج الجزائري في الملاحق المرفقة.

[3]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص514.

[4]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص364.

[5]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج04، ص402.

ذلك البيت قائلاً: "وأمير ذلك الركب سيدي محمد ابن الولي الصالح سيدي محمد بن المسعود من بلاد مدوكال، وله رِباع ببسكرة، وربما استوطنها، وكان والد الأمير المذكور من أهل الصلاح، وممَّن كان يتردَّد بالركب إلى الحج الشريف"[1]. أمَّا أمير الركب من ذلك البيت في النصف الثاني من القرن 12هـ/18م فهو محمد المسعود نجل أمير الركب الشيخ سيدي الموهوب نجل الشيخ "سيدي محمد الحاج"، ولعلَّ سيدي محمد الحاج هذا هو نفسه "سيدي محمد" أمير الركب الذي أشار إليه العياشي سابقاً، لأنَّ نسلَه يُعرفون باسم "أولاد الشيخ سيدي محمد الحاج"[2].

ج ـ بيتُ ابنِ ناجي: نُسِبتْ لهذا البيت منطقة الخنقة البسكرية فعُرفت باسم "خنقة سيدي ناجي"، وأقدمهم في الإمارة عبد الله ناجي، فقد زار الرحالة الشرقي ضريحه في رحلته، ووصفه بأنه كان أمير ركب الحاج، وكان صالحاً[3]. ثم توارثت العائلة إمارة الحج في حفيدَيْه الشيخين سيدي مبارك وسيدي التواتي. ومنهم كذلك أبو الحسن علي بن ناجي أمير الركب في القرن 11هـ/17م، الذي كان يتلقَّى وثائق الإمارة بالطابع الرسمي من حاكم الجزائر على عادة أسلافِه[4]. ومنهم سيدي عبد الحفيظ بن الطيب وكذا أولاده المشهورين بحرصهم على أمور الحج والحجاج[5]. ومن بسكرة كذلك أمير الحج "سيدي بركات نجل سيدي عبد المؤمن شيخ الركب فيما مضى"[6]؟

د ـ بيتُ الملياني: أبناءُ الولي الصالح "أحمد بن يوسف الراشدي الملياني" الذي انتسبتْ إليه إحدى الطوائف وغالَتْ في تقديسِه، وقد عاصر مجيء العثمانيين مطلعَ القرن 10هـ/16م، وآزرَهُم على الزيانيين. وتحقَّق بذلك وعدُ عرُّوج بربروس له لاحقاً: لن ننساك؟ بِتعاقُب نَسلِه على إمارة الركب الجزائري في العهد العثماني، بدءاً بابنِه محمد بن مرزوقة الذي نصَّبه خير الدين بربروس أميراً على ركب الحجاج[7]، ثمّ حفيدِه أبي زيان شيخ الركب في حَجَّة 1072هـ/1662م[8]. وفي

[1]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص133.
[2]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص225.
[3]- ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، و129.
[4]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و11.
[5]- ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص711.
[6]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج03، ص225.
[7]- رشيدة شدري معمر، المرجع السابق، ص17.
[8]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج02، ص403.

غضون القرن 12هـ/18م اشتهرَ من أحفاد الملياني في إمارة الركب كلٌّ من: الحاج محمد بن السيد الخلاّدي[1]، ثمَّ أمير الركب الجزائري لسنوات متتالية أحمد بن الطيب (المدعو بوطيبة)[2]. وقد حافظ حافظ بيتُ ابن يوسف الملياني على مكانته وحظوته لدى العثمانيين في مدينة الجزائر بصفة خاصة، إلى غاية زوال حكمهم ومجيء الاحتلال الفرنسي.

هـ ـ بيتُ المرازقة: المرازقة هم سلالة الشيخ ابن مرزوق التلمساني، اعتادوا الإشراف على إمارة الركب الجزائري، ومداومة السفر إلى بيت الله الحرام لأداء الحج، على عهدِ أسلافهم المشهورين بتلمسان منذ العهد الزياني، فأصبحوا يُعرفون فيها باسم "أولاد الحاج"[3].

و ـ بيتُ الجوزي: سكنَ آل الجوزي قصر أولاد سعيد بقورارة شمالي منطقة توات، واشتهروا فيها باسم "أولاد القاضي"، وفضلاً عن احتراف القضاء تولَّوا مشيخة ركب الحج. ومن أشهرهم في هذا المجال الشيخ سيد الحاج بلقاسم القوراري التواتي (ت997هـ/1589م)، الذي قاد الركب الجزائري من منطقة قورارة، وورَّث إمارة الرّكب في أبنائه وأحفاده إلى غاية القرن 13هـ/19م. وقد أشار إلى ذلك القاضي محمد عبد الله بن الجوزي القوراري (الحفيد) قائلاً[4]: (الطويل)

وأولادُهُ مِنهمْ شُيوخٌ أَكابِرُ فَمِنهمْ مُرَبٍّ في الطَّريقةِ نِحريرُ
ومِنهمْ أميرٌ بَلْ تسَلْسَلَتْ فيهِمُ وأعلامُهمْ للآنَ باللهِ منصورُ

ز ـ بيتُ أبي نعامة: ينتسب هذا البيت إلى الشيخ امحمد أبي نعامة بن عبد الرحمن الكنتي شيخ ركب الحج، الذي أحيى سُنَّة تجمُّع وإقامة قوافل الصحراء من الحجاج في محطة "أقبلي" بأولف جنوب منطقة توات، قبل سيرِها في ركبٍ واحد كبير نحو البقاع المقدسة، وذلك ابتداءً من سنة 1138هـ/1726م، بعدما رأى أن تلك العادة الحميدة قد اندرستْ منذ قرون[5]. فقد أصبحت وفودُ بلاد التكرور وتوات وتيدكلت تجتمع لديه، ليقودَها جميعاً نحو الحجاز. يقول صاحبُ "فتح

---

[1]- خليفة حماش، الأسرة في مدينة الجزائر، مرجع سابق، ص76.
[2]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص237.
[3]- نصر الدين بن داود، المرجع السابق، ص276.
[4]- مولاي التهامي غيتاوي، المرجع السابق، ص ص127 و387.
[5]- محمد باي بلعالم: الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، د ط، دار هومة، الجزائر، 2005م، ج02، ص570.

الشكور" متحدِّثاً عن تنازل الحاج أحمد التواتي الغلاوي أميرِ ركب التكرور عن القيادة لأبي نعامة القبلاوي: ".... وهو شيخ الركب من أرضِنا حتى يصلَ إلى توات فيكون الأمر لأبي نعامة"[1].

اعتلى الشيخ أبو نعامة إمارة الركب في سبعِ حجّات، إلى أن أخذَ منه الكِبَرُ وعجز عن السفر، فعهد بذلك إلى أبنائه: سيد أحمد لحبيب وسيد أحمد البكاي وسيد محمد الأمين، وكلُّهم ساروا على خُطى والدهم، بل على خُطى جدِّهم عبد الرحمن السائح بن سيد امحمد أبي نعامة (الجد)[2]، الذي سبقت له قيادة ركب الحجاج قبل ولده أبي نعامة، لكنَّه لم يشتهر مثله. ومنهم كذلك سيد الحاج جدّ الشاعر المعروف باسم "ولد سيد الحاج القبلاوي"، الشاعر الشعبي ذائع الصيت في تيدكلت، صاحب القصائد المدحية في الشوق إلى حج بيت الله الحرام، وما تتطلَّبُه الرحلة من زاد، ومراحل السفر ومحطَّاته.

ومن الأسماء الأخرى التي نالتْ شرف إمارة ركب الحج الجزائري نجد: العالم الجزائري يحي الشاوي الملياني (ت1096هـ/1685م)، فقد ذاعَ صيتُه بالمشرق بعد أن تخلَّف عن ركب الجزائر في إحدى الحَجَّات، و"ترَقَّتْ به الحال إلى أن تولَّى إقامة الحاج المغربي، وحجَّ بالركب مرتين"[3]. ومنهم سيدي عبد القادر بن عومر (ت1121هـ/1709م) أحد علماء توات، الذي أسَّس زاوية حملتْ اسمَه، وأوقفَ جميع ما يملك لابن السبيل، وتولَّى مشيخة ركب الحجيج[4]. ومنهم الشيخ عمر بن عبد الرحمن (ت1221هـ/1806م) صاحب الزاوية المهدية في توات، حيث ".... لا زال مواظباً على زيارة حرَمِ الله وحرَمِ رسوله عليه أكملُ الصلاة والتحيات، بمشيخةِ ركب الحجيج من توات، سبعَ حِجَجٍ متواليات"[5]. ومنهم الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر، الذي كان مُقدَّماً على ركبٍ كبير، أقلقَ باي الغرب ـ كما رأينا سابقاً ـ في أواخر العهد العثماني.

والسؤال الجدير بالطرح هو: هل يجب على أمير الركب أنْ يقودَ ركب الحج بنفسه ويتردد على الحجاز سنوياً؟ يبدو الأمرُ صعبَ التحقيق، نظراً لمشقَّته الظاهرة من جهة، ولاستحالتِه فيما

1- محمد البرتلي: المصدر السابق، ص48.

2- عقباوي عزيز الهاملي، المرجع السابق، ص144.

3- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص487.

4- مبارك جعفري وعبد الله مقلاتي، المرجع السابق، ص208.

5- محمد عبد العزيز سيد عمر، المرجع السابق، ص89.

لو تعطَّل الركب في العودة عن موعده لسببٍ من الأسباب من جهة أخرى. وفي مناسبات كثيرة لم يكن ركب الحج العائد يصلُ إلى الجزائر إلَّا بعد أن يكون ركب الموسم الجديد قد غادرها! لذلك كان يتمُّ اللجوء إلى ما يمكن اعتباره "تداولاً" بين الأسر المذكورة سابقاً على إمارة الركب الجزائري الواحد[1]. ومن الصدف النادرة أنَّ أخَوَين قادا ركبَين للحج، أحدهما قاد الركب الطالِع، والآخرُ قاد الركب الهابط، نعم فقد التقى الركبُ القادم من الحجاز بإمارة سيد أحمد البكَّاي بن الشيخ أبي نعامة بالركب الذاهب إليه بإمارة أخيه سيدي محمد في سنة 1188هـ/1774م، تمَّ ذلك في إحدى قُرى منطقة فزَّان الليبية[2]!

02. مقوّماتُ الإمارة وصلاحياتُ أمير الركب:

إمارةُ ركب الحج أو مشيختُه أمانة عظيمة، لا توسدُ إلا لمن هو أهلٌ لها، يقوم بمقامها ويَفِيها حقَّها، لذلك ارتبط لقب "شيخ الإسلام" في الجزائر بمنصب أمير ركب الحج، فهو رمز التَّجِلَّة والاحترام. ولا تَجِلّةَ أو إذعاناً إلا لمن شاع علمُه وفضله بين الناس من أمراء الركب، على غرار بيت ابن الفكُّون، فهو من البيوتات التي ضربت الرقم القياسي في محافظتها على توارث العلم والجاه، واشتهر المنتسبون إليه داخلَ إقليم الجزائر وخارجَه.

لقد كان المرشّح لإمارة الركب الجزائري ينشغلُ بأمور الحج انشغالاً، حتى لا يجد وقتاً للإقراء أو التأليف، بلْ ويعتذر عن معظم المسؤوليات العلمية والاجتماعية الموكلة إليه، لاشتغاله بالحج الذي يقتضي منه التغيُّب عن بلاده شهوراً طويلة[3].

ويجب أن يكون شيخُ الركب قدوةً في أخلاقه وصفاته لحجَّاج الركب، متحلياً بالصلاح والتُّؤدة والحلم والوقار، تُحِبُّه القلوب وتميل إليه النفوس، عطوفاً على الحجاج، وملتزماً بـ".... الرفق بالرفيق والسائق المزمِّل للبيت العتيق، يسيرُ على قدرِ سعيِهم، ولا يؤثِر البعضَ على بعضِهم"[4]،

---

[1]- من أمثلة ذلك التناوب في إمارة ركب الحج أنَّ الركب الجزائري العائد من الحجاز في أحد المواسم بإمارة محمد المسعود التقى في مدينة قسنطينة ببدر الدين بن الفكون، وهو كذلك من أمراء ركب الحج الجزائري؟ يُنظر: الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص364.

[2]- عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، و و 10-11.

[3]- أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، مرجع سابق، ص182.

[4]- المرجع نفسه، ص226.

يأخذ بخواطر الحجاج ويواسي جميعَهم على قدر حالهم، إماماً للحجاج قبل أن يكون أميراً عليهم[1]. وقد لخَّص أحدُ الحجاج الرحالين شمائل ومآثر أمير الركب قائلاً[2]: (الطويل)

وشَيْخُ الحَجيجِ نَجلُ عبدِ قادرٍ أبو القاسِمِ الأصيلُ بَدرٌ مُنوَّرُ

إمامٌ خَطيبٌ للقرآنِ مُرَتِّلٌ سَخيٌّ نزيهُ النفسِ لا متكبِّرُ

وعدلٌ أديبٌ خيِّرٌ مُتهجِّدٌ وجيهٌ طليقُ الوجهِ مُستبشِرُ

تلك الصفات الحسنة لا تعني أنْ تكون شخصية أمير الركب ضعيفة أثناء قيادته للركب، وليس له طاقة على الحماية والمدافعة، فيلجأ في غالب مراحل السفر إلى تطييب خاطر الحجاج، وغضِّ الطرف عن بعض التجاوزات الصادرة من بعضهم، أو إلى مُداراة اللصوص قطَّاعِ الطرق بالعطايا والهدايا، ممّا يجعلهم أكثرَ طمعاً وجُرأةً على الركب في طريق عودته من الحجاز[3]. فينتج عن ذلك اضطرابٌ في أحوال الركب، يؤثر سلباً على أمن وراحة الحجاج. وهذا نموذج عن الأثر السلبي الناتج عن ضعفِ شخصية أمير ركب الجزائر، ساقَه العياشي قائلاً: "…. بيدَ أنَّه ليس في الركب في هذه السَّنة مَن يدفعُ، بلْ ولا مَن ينفعُ، وكان شيخ الركب سيدي أبو زيان حفيد سيدي أحمد ابن يوسف الملياني، وهو رجلٌ ليِّن وليست له عُصبةٌ قوية"[4]!

فالأمر يتطلَّبُ أن تكون لأمير الركب الجزائري شخصيةٌ قوية وعُصبة وهَيبة، فلا يتعدَّى أحدٌ على حرمته، ولا يُقاسُ بما يُقاسُ به غيره، ويُذعِنُ جميع الحجاج لطاعته، منذ خروج الركب إلى عودته، خاصةً إذا عايَنوا ما عرفوه وما خَبَروه من أخلاقِه وسيرته وسُمعته[5]. على غرار أميرِ الركب الشيخ أبي الحسن بنِ ناجي، فقد كان له صيتٌ ومحفلٌ كبيران في منطقة الزّاب خاصة، وبلاد الجزائر عامة، وكانت القبائل تَهابُه وتحترم جنابَه[6].

والمكانةُ الاجتماعية والجاه العريض والغِنى المشتهَر من الأمور التي تسهِّل على أمير الركب أداء الواجب المنوطِ به بِثقةٍ عالية، فلا يطمع في أحد من الحجاج لأنَّ الله أغناه عمَّا في أيديهم،

[1]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و10.

[2]- مولاي التهامي غيتاوي، المرجع السابق، ص126.

[3]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص88.

[4]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص403.

[5]- أحمد بن المبارك، المصدر السابق، ص125.

[6]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر نفسه، و07.

بل يؤازرهم ويُنفق على بعضهم من ماله الخاص. مثلما تضمَّنتْهُ الشهادة التالية لأحدِ الحجاج الصالحين في أمير الركب الجزائري سيدي محمد الحاج ـ على لسان الرحالة العياشي ـ "…. وقد حجَّ هذا السيد مراراً عديدة مع سيدي محمد الحاج صاحب بسكرة، وكان يُثني عليه كثيراً. وقال لي: لو عاشَ ما تخلَّفتُ عن الحج، فقلتُ له ألَا تحجُّ معنا؟ فقال لي: إنَّه لا مالَ لي، وأنتم لا تشاركونني في دُنياكم، وكان هو يُشاركني في دُنياه"[1]! إنها أخلاق وممارسات ترفع قدر أمير الركب في عيون الخاصَّة والعامَّة من الحجاج، وكذلك في عيون قبائل البدو المتربِّصة بالركب الموزَّعة على طول طريق الحج، فيُذعِنُ الجميع لسلطته التنظيمية.

ومن الأمور الفعَّالة التي تميَّز بها أمراءُ ركب الحج الجزائري تنويعُ علاقاتهم واتصالاتهم بالأسر المشهورة في المدن التي يمر بها الركب، مثلما فعل الأمراء من آل المسعود، فقد تأكَّدت بنهم وبين عائلة "سيدي محمد الصيد" الطرابلسية الليبية الصحبة والمحبة، وورَّثوها لأبنائهم وأحفادهم، مما سهَّل قضاء حوائج الركب في تلك المحطة[2]. تلك العلاقة استمرّت في أبناء عائلتَي الصيد الطرابلسية وآل المسعود من الزاب، حيث لم يكن الركب الجزائري ينزل في طرابلس إلا بالقرب من منازل آل الصيد، وقد اشتهر ذلك لدى الخاصة والعامة من الحجاج[3].

ومن المهام الموكلة إلى أمير الركب حملُ "صُرَّة" ما وفَّرته أوقاف الحرمين الشريفين بالجزائر إلى الفقراء هناك[4]، خاصةً في الحالات التي يتعذَّر فيها إرسالها عبر البحر من ميناء الجزائر إلى ميناء الإسكندرية، حيث كان يتسلمها أمير الركب من وكيل الجزائر في مصر. وهي الحالات التي كان كبار الموظفين الأتراك يُقبِلون فيها على أداء الحج رفقة الركب المنطلِق من الجزائر براً.

وأميرُ الركب هو الوحيد المخوَّل له توجيه الأوامر المتعلقة بارتحال الركب أو نزوله في منازل الطريق المتعدِّدة، كأنْ يأمرَ ـ مثلاً ـ بالتوقف عن المسير من أجل الصلاة المكتوبة، أو لأجل الراحة، أو إعداد الغذاء، أو التزوُّد بالماء….[5]. ويستغلُّ أمير الركب ذلك التوقف فينعزل أحياناً عن

[1]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص185.

[2]- المصدر نفسه، ص133.

[3]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص260.

[4]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج04، ص402.

[5]- القيسي السراج، المصدر السابق، ص38.

الحجاج بمعيةِ مستشاريه، للتشاور في غرضٍ خاص، أو في غرضٍ عام يعود نفعُه على الركب بأكمله[1]. ومن مهام الأمير كذلك أن يُسهِّل على الحجاج عملية كراء الدور أو الغرف في الخانات، حين نزولهم الطويل في بعض المدن[2].

بما أنَّ ضمانَ وصول الحجاج إلى الحرمين الشريفين سالمين هي الغاية الأولى، كان أمير الركب يتخلَّف الحجاج مع بعض الفرسان من أصحابه بين الفينة والأخرى بمقدار كبير، حتى يطمئنَّ على سلامتهم، وعدم بقاء أحد منهم في الطريق، ثم يلحق بهم عند النزول[3]. بل قد يتدخل أمراء الحج في الشؤون الداخلية للحجاز، تحقيقاً لمصلحة الحجاج والمسلمين عامة، من ذلك محاولتهم إقامة الصلح بين المتنافسين على إمارة مكة المكرمة في موسم حجِّ 1094هـ/1683م[4].

وأمراءُ الركب الجزائريون لا يعدمون في غالبهم مقدرة أو كفاءة على قيادة الركب، لكنَّ ظروف السفر الصعبة والشاقة على مختلف الأصعدة هي من يحدِّد في واقع الأمر التوجه العام لسيره وتطوراته. وقد يُعرِّض أمير الركب حياته للخطر من أجل حمايةِ الحجاج والذّود عنهم، في مواجهة اعتداءات اللصوص وردِّ الطغاة، كما أشار إلى ذلك الرحالة المصعبي[5]: (الطويل)

وَقَد كانَ ذَا صَبرٍ وحِلمٍ ورحمَةٍ   عَلينَا ومِنهَا رَدُّهُ لِلطَّوَاغِيَا

وقد وقع ذلك فعلاً في أحد المواسم، حيث كان أمير الركب يتفقَّد مؤخّرة الركب، وهو راكب على فرسه، فأصابته رصاصة غادرة من أحد اللصوص، وجرحَتْه جرحاً غائراً، مات على إثره[6].

رغم ذلك فقد ظلَّت إمارة ركب الحج في الجزائر العثمانية دون مستوى ما كانت عليه في بقية البلاد الإسلامية، بسببِ تقاعس الحكام العثمانيين في إيفائها حقَّها من الاهتمام والإنفاق المالي من جهة، وبسبب ضعف بعض شخصيات أمراء الحج وعدم تحكمهم في زمام الركب من جهة أخرى. ولا شكَّ أنَّ ذلك التقصير انعكس انعكاساً سلبياً مباشِراً على الركب والحجاج

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص405.

[2]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و04.

[3]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج02، ص08.

[4]- أحمد السباعي، المرجع السابق، ج02، ص441.

[5]- إبراهيم المصعبي، المصدر السابق، ص68.

[6]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج03، ص134.

الجزائريين. أمَّا في بلاد المشرق فللإمارة شأنٌ عظيم لدى العامة والخاصة. وخاصة في مصر، حيثُ كان منصبها هو المنصب الأعلى في الواقع، حسب رأي القائل[1]: (الطويل)

إمَارةُ حَجِّ البَيْتِ في سَالِفِ العَصْرِ هِيَ المنصِبُ الأَعلَى وَحَقِّكَ في مِصْرِ
وخِدمَةُ وَفْدِ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ هِيَ النِّعمَةُ العُظمَى لمغتنِمِ الأَجْرِ

إنَّ نظرة المصريين لمنصب إمارة الحج هي ما يفسِّر نزولهم ـ مرؤوسيهم ورئيسهم ـ لاستقبال الشيخ عبد الكريم الفكون أمير الركب الجزائري، وتعظيمِه ومُهاداتِه والتبرّك به، عندما دخل الركب مصر في أحد المواسم. يقول في ذلك أحد تلاميذه: ".... ولقد سِيقَتْ إليه بمصر أموالٌ ضخام وهدايا نفيسة حين قفولِه من الحج، وأقبلَ عليه أهلُها على اختلاف طبقاتهم، ونزل إليه الباشا فمَنْ دونَهُ، فما استفزَّه شيءٌ من ذلك ولا اكترثَ به، ولم يَقبلْ منه ديناراً ولا درهماً"[2].

وعلى كلِّ حال فقد ربطَ الشيخ سيد الحاج بلقاسم القُوراري التواتي (ت997هـ/1589م) مهامَ أمير الركب ـ وكان ورَّثها لأبنائه وأحفاده من بعده ـ بهدايةِ الحجاج وتعليمِ الطريق لهم روحاً ومعنىً، وليس فقط شكلاً ومبنىً. فقال في كلمات معبِّرات: ".... الناسُ يُعلِّمون طريقَ الحجِّ بالحجارة، وأنا أعلِّمُها بأحفادي، ذهاباً وإياباً لقبرِ المصطفى ـ صلى الله عليه وسلَّم ـ"[3].

خلاصةُ الفصل الأول:

من خلال ما تمَّ استعراضه في مباحث هذا الفصل المتعلِّق بتنظيم ركب الحج في الجزائر وإمارته خلال الفترة العثمانية نستنتج أن ركب الحج الجزائري كان كياناً وظيفياً قائماً بذاته، ينطلق من الجزائر في رحلته لأداء الحج، ثمّ يكون مُنتهاهُ إليها بعد أداء الحج والعودة من الحجاز. ولا أدلَّ على ذلك من كثرة ورود أخباره في المصادر الحديثة عامة، وفي كتب الرحلات الحجازية بصفة خاصة، ومنها على سبيل الذكر لا الحصر رحلتا العياشي والورثِلاني، حيث تكرَّر الحديث عن "ركب الجزائر" فيها عشرات المرات. وقد حافظ الركب الجزائري على هويته واستقلاليته رغم مزاحمةِ الأركاب المغاربية له في نقل بعض الحجاج الجزائريين، أو انضمام بعض الحجاج المغاربة إليه في

[1]- عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج02، ص399.
[2]- أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، مرجع سابق، ص85.
[3]- مولاي التهامي غيتاوي، المرجع السابق، ص387.

بعض الأحيان عبرَ محطات الطريق، أو شهرة الركب "المغربي"، رغم أن تلك التسمية كانت تشمل الحجاج الجزائريين أيضاً.

ونظراً لشساعة مساحة الجزائر، وعدم تمكُّن العثمانيين من فرض سيطرتهم على كاملِ أرجائها، فإن ركب الجزائر كان يبدو مجزَّأً في انطلاقته إلى مجموعة من الأركاب الجهوية أو الإقليمية الكبرى، لكن تلك التجزئة ظرفية، تزول بمجرد مغادرة الركب إقليم الجزائر شرقاً، حيث تتوحَّد قوافل الحجاج في ركبٍ كبير. وقد شاع في الجزائر خلال العهد العثماني الركب عبر البحر، كما هو الشأن بالنسبة للركب البري الأكثر شهرة، فكانت السفن تُقلُّ الحجاج الجزائريين من ميناء الجزائر أو من ميناء تونس، باتجاه ميناء الإسكندرية المصري، ومنه نحو الحجاز براً في غالب الأحيان، رفقة الركب الجزائري البري المرافق للركب المصري من هناك.

لم يكن السفر إلى الحج يقتصر على الجزائريين فقط، بل شمل كذلك الأتراك العثمانيين الذين كانوا يُفضِّلون ركوب البحر، أو التكتل في جماعات ضمن الركب البري. ورغم ملاحظة عدم الاهتمام اللازم من لدن السلطات العثمانية بركب الحج ومتطلباته، كما هو الشأن بالنسبة لسلطات المغرب الأقصى - مثلاً - إلا أنها حرصت على إرسال الصدقات إلى فقراء الحرمين الشريفين مع الركب سنوياً، والإشراف على منصب "إمارة الركب" المتداول بين بعض الأُسَر.

من الأسر الجزائرية التي نالت شرف إمارة ركب الحج: آل الفكون وآل المسعود وآل بن ناجي وآل المرازقة وآل الجوزي وغيرهم، فقد كان هذا المنصب يورَّث في البيت الواحد لعقودٍ من الزمن، ويتصف مَن يتولَّاه بمجموعة من الخِصال المطلوبة، بعد تزكيتِه من طرف السلطات العثمانية غالباً. وأمير الركب هو قائد الرحلة نحو الحرمين الشريفين، يسهر على توفير الظروف الموائمة لذلك، ويعود إليه الأمرُ في سيرِ الركب ورعاية الحجاج.

الفصل الثاني:
الإعدادُ لرحلةِ الحجّ وتشكيلُ الرَّكب

ـ تمهيد

ـ المبحث الأول: الحجُّ عند الجزائريين ومظاهرُ التعبير عنه

ـ المبحث الثاني: تجهيزُ الرّكب وعاداتُ التحضير للسَّفر

ـ المبحث الثالث: الرواحِلُ المستعمَلة للحج ومصادرُ غذائِها

ـ المبحث الرابع: التشكيلُ البشري للرّكبِ الجزائري

ـ المبحث الخامس: حجمُ الركب الجزائري ومراحلُ سيرِه

ـ خلاصةُ الفصل الثاني

الفصل الثاني: الإعدادُ لرحلةِ الحجِّ وتشكيلُ الرّكب

بعدما تعرَّفنا على الإطار التنظيمي لركب الحج الجزائري، فإن هذا الفصل يُسلِّطُ الضوء على مظاهر فرحِ الجزائريين بالحج، ومِن ثَمّ إعدادهم العدَّة اللازمة للسفر إلى الحجاز، وما شاع في العهد العثماني من كثرة أوقافهم وصدقاتهم على الحرمين الشريفين، المعبِّر على تعلقهم بهذه الشعيرة وبكلِّ ما يرمز إليها زماناً ومكاناً. ويُعرِّج على آليات التحضير للحج بدءاً بالنداء إليه، ثم العادات المتَّبَعة في إطار تجهيز الركب واختيار موعد سفره، بعد استكمال جمع المال والمؤونة والعتاد.

كما يُركِّز هذا الفصل على عنصرٍ مُهمٍّ من عناصر الإعداد لسَفرِ الحج الشاق، وهو الرواحل أو الرِّكاب المسخَّرة لأجله، وبصفة خاصة الإبل، المطايا الرئيسية في نقل الحجاج آنذاك. كيف يتمّ توفيرُها واستبدالُها إنْ ضعُفَت وتأمينُ غذائها؟ إضافة إلى الدواب الأخرى التي لا تقلُّ عنها أهمية، مثل الخيول والبغال الواجبِ توفُّرُها داخل الركب، لاستخدامها لأغراض معينة.

ويبحثُ الفصل الثاني كذلك في التشكيل البشري لركب الحج، من خلال استعراض أهمّ المكوِّنات البشرية الوظيفية الموجودة فيه، على غرار: الأمير، الدليل، الجمَّال، العلَّام، صاحب الراية.... فضلاً عن عامَّة الحجاج الذين هم قِوامُه وأساسُه. وما هي المهام الموكلة إلى كلِّ عونٍ من أعوانه؟ مع تخصيص جانبٍ منه للحديث عن المرأة الجزائرية وظروف أدائها للحج حينئذ، وإحصاء نماذج عن حاجَّات جزائريات تحدَّينَ الصِّعاب لأجل أداء واجب الحج كما الرجال!

وأخيراً نتساءلُ عن التباين الحاصل في حجم الركب الجزائري من فترة إلى أخرى؟ ما هي عوامله؟ ولماذا يصعب إعطاء أرقام بذاتها عن عدد الحجاج الجزائريين في ذلك العهد؟ على خلاف المراحل الزمنية والمسافات التي أَلِفَ الركب قطعَها، والتي تكاد تكون متقاربة. وبالمراحل التي كان الركب يقطعها يُختَمُ هذا الفصل لربطِه بالموالي، عند الحديث على طريق الركب ومحطَّاته.

المبحث الأول: الحجُّ عند الجزائريين ومظاهرُ التعبير عنه

01ـ تعلّقُ الجزائريين بفريضةِ الحجِّ:

تعلَّقَ الجزائريون بالحج مُذْ هداهم الله لدينه الحنيف، فبعد فتح بلاد المغرب غدَا المشرق الإسلامي قبلةَ أنظار أهل المغرب الإسلامي قاطبةً، ومطمحَ أفئدتهم وآمالهم، ففيه بيت الله الحرام، وقبر النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلَّم ـ وفيه مواطن الحنين إلى ذكريات الرسالة الإسلامية في

مطالع انتشارها. فوجّهَ الجزائريون المطايا نحو الديار المقدسة وشدُّوا الرِّحال إليها، رغم أن بينهم وبين بلاد الحجاز مسافات كبيرة ومهامَه موحِشة ومفاوز خطيرة، متحَدِّين كل العوائق التي من شأنها أنْ تُثبِّطَ عزائمهم، كأخطار الطريق وبُعدِ المسافة وضُعفِ ذاتِ اليد وغيرها. فصدقتْ فيهم المقولة السائدة ـ السائرة في بلاد المغرب عامة ـ "مكة في الشرق ورجالها في الغرب"[1]!

ومِن دُرَرِ كلام الجزائريين القُدامى بشأن الحج وفضلِه ما نقَلَه الرحَّالة العبدري البلنسي (ت720هـ/1320م) عن الشيخ أبي علي حسن بن بلقاسم بن باديس القسنطيني* أواخرَ القرن 07هـ/13م. يقول العبدري ـ بلسان ابن بلقاسم القسنطيني ـ "سمعتُ الشيخَ الصالح المسِنَّ حسن الحلفاوي يقول: عمَّرتُ خمساً وثمانين سنةً ما تمَّ لي بها سرورٌ قَطُّ إلا ثلاثة أيام، يوم دخولي مكة، ويوم وقوفي بعرفة، ويوم دخولي مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم"[2]. ومِن حُسنِ التصريف أنَّ تلك الأيام الثلاثة لا تحصل إلا بالرحلة إلى الحجاز.

وما أجملَ وصفَ المرحوم أبي القاسم سعد الله لصورة الجزيرة العربية وما حوته لدى الجزائريين، حين قال: "إنَّ ترابَ الجزيرة العربية في نظر الجزائريين ترابٌ طاهر مقدَّس، لأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد مشى عليه، وماءَها عذبٌ زُلال ولو كان مِلحاً أجاجاً، لأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد شرب منه أو تغسَّل فيه، وهواءَها نقيٌّ منعش ولو كان حاراً كلهيب النار، لأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد استنشقه وتنفَّسَه. وكل بئر أو صخرة أو جبل فيها يحمل في نظرهم ذكرى عطرة وصوتاً واعظاً ومَشهداً حياً لن يموت"[3].

فالجزائريون غالباً ما يلهجون بالحرمين الشريفين، ويترنَّمون بذكرهما، ويُؤمِّلون السعيَ إليهما، على غرار الشاعر الشعبي الرحالة ابن مسايب[4]: (المديد)

قَلبِي بَاغِي ارْكَابْ بَيْت الله   زَايْرَة وَمْشَرّْقَة لِلنَّبِي المخْتَارْ

[1]– عبد الهادي التازي: أمير مغربي في طرابلس (ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي)، د ط، المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 2006م، ص11.

*– **حسن بن بلقاسم بن باديس القسنطيني** من أهلِ العلم بقسنطينة أواخرَ القرن 07هـ/13م، قرأ الموطأ على الشيخ أبي يعقوب يوسف بن موسى الغماري حين خطرَ على قسنطينة راجعاً من المشرق. يُنظر: العبدري، المصدر السابق، ص59.

[2]– المصدر نفسه، ص59.

[3]– أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، مرجع سابق، ج01، ص179.

[4]- Ben Messaib, Op.cit, p288.

قد نجدُ في العهد العثماني عائلاتٍ بأكملها تُقبِلُ على أداء الحج، كما في حالة **الحاج** عمر بن محمد وأولاده **الحاج** محمد و**الحاج** أحمد، وفي حالة عائلة **الحاج** محمد كذلك في حَجَّة 1097هـ/1686م[1]. بل نجد حتى العقود المبرَمة على اختلافها كانت تميلُ إلى تمييز "الحاج" الجزائري بهذه الحظوة أو التحلية دون سواها، بغضِّ النظر عن مكانته أو وظيفته. فمثلاً نقرأ في عقد إرثٍ ما نصُّه: ".... وتوفي السيد **الحاج** محمد بن الطالب المالك المذكور عن زوجِه شاشة المغربية.... وأولاده منها، وهم **الحاج** عبد الكريم و**الحاج** أحمد وعبد الرحمن"[2].

ومن دلائل تعلُّق الجزائريين بالحج كثرةُ تردُّد الواحد منهم على بلاد الحجاز، رغم صعوبات الحج ومعيقاته ومخاطره في ذلك الزمان، نقرأ ذلك ـ على سبيل المثال فقط ـ في تقديم الرحالة الورثلاني لبعض الشخصيات التي ضمَّها ركب الحج المسافر على النحو التالي: ".... من الفضلاء: سيدي عبد الكريم، وسيدي عيسى الشريف، و**الحاج** محمد بن علي، و**الحاج** عمر بن يوسف، و**الحاج** عبد الله بن عمر.... "[3].

ويظهر التعلُّق والشوق للحرمين الشريفين أيضاً في مآثر بعض الأعلام الجزائريين من العهد العثماني، فمنهم **الحاج** مصطفى المختاري الغريسي مؤسِّس الزاوية القادرية بالقيطنة قرب مدينة معسكر، فقد كان يتردَّد على الحرمين الشريفين حتى بلغت حجَّاته أربع حجَّات[4]. ومنهم **الحاج** امحمد أبو نعامة القبلاوي الكنتي الذي بلغ عدد حجاته ورحلاته إلى الحرمين الشريفين سبع حجات، وما أقعَدَه عن الزيادة إلا المرض والعجز[5]. ومنهم **الحاج** أبو حفص بن بوسماحة من أبناء سيدي الشيخ، الذي أعجِبَ الرحالة العياشي من نشاطه وهمَّتِه العالية في أداء الحج، ووصفَه بأنَّه ".... مُثابرٌ على فعل الخيرات من جهادٍ وحجٍّ، فقد أفنَى عُمرَه في التردُّد على الحرمين الشريفين، وربما رجعَ من الطريق قبلَ أن يصلَ"[6]!

---

[1]- خليفة حماش، الأسرة في مدينة الجزائر، مرجع سابق، ص76.

[2]- عائشة غطاس: الحِرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830م، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، إشراف: مولاي بالحميسي، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، 2000-2001م، ص 425.

[3]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص234.

[4]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج01، ص514.

[5]- عقباوي عزيز الهاملي، المرجع السابق، ص140.

[6]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص111.

وكمْ كان يحدثُ للمتخلِّف عن السير مع ركب الحج الجزائري لسببٍ قاهرٍ أو عذرٍ شرعي ـ في ذلك الزمان ـ من حُرقة واشتياق، إذْ يغدو قلبُه وعقلُه متعلقَّين بالركب، بينما هو ثاوٍ حبيسٌ بأرض الجزائر. تلك المشاعر المعبِّرة أبدعَ الرحالة ابنُ عمَّار في نقلها على لسان حاجٍّ من مدينة تلمسان قائلاً[1]: (البسيط)

وقُلْ غَرِيبٌ بِأَقصَى الغَرْبِ أَقْعَدَهُ   سَهْمُ البِعَادِ فهَلْ لِلقُربِ مِنْ آنِ
نَائِي المَحَلِّ بَعِيدُ الدَّارِ شاسِعُها   هَامِي الجُفونِ مَشُوقٌ رَهْنُ أَشْجانِ
فُؤادُهُ صُحبَةَ الرُّكبانِ مُرتَحِلٌ   لِطِيبَةَ وَهْوَ ثَاوٍ فِي تِلمسَانِ

لكنَّ عزاءَ من لم يستطع الحج أنْ يطلب من الحجاج الرّاحلين ألا ينسوه من خالص الدعاء، خاصة في المشاعر والمواقيت التي تواترت بشأنِ الاستجابة فيها الآياتُ والأحاديث، وكذا تبليغ السلام للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام. ومن مظاهر التعلُّق بالحج لدى الجزائريين وبمناسكه الزمانية والمكانية كذلك، إطلاقُ تسمية "الحاج" على كلِّ مولود يولد في موسم الحج، وخاصة يوم الحج الأكبر عرفة، وكمثالٍ على ذلك والدُ الشاعرِ "ولد سيد الحاج"، شاعرِ المديح النبوي من صحراء الجزائر، سُمِّي "سيد الحاج" لأنه وُلد بمكة أيامَ الحج في بداية القرن 12هـ/18م[2].

02ـ شيوعُ الوقفِ على الحرمَينِ الشريفينِ بالجزائر العثمانية:

تعود أصول مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين في البلاد الإسلامية إلى فترة متقدمة نسبياً، حيث ارتبطت نشأتها بتنظيم الوقف لصالح الحرم النبوي الشريف ولصالح آل البيت الأشراف في المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة، وبتشجيعِ وتيسيرِ المذهبِ الحنفي المذهبِ الرسمي للدولة العثمانية ولأقاليمها للوقف عموماً.

وفي الجزائر ازدهرت مصلحة إدارة وتسيير أوقاف الحرمين الشريفين ازدهاراً كبيراً مع مطلع القرن 11هـ/17م[3]، بهدفِ توصيل ما يُجنى من عائداتٍ إلى فقراء الحرمين. وأضحتْ أوقافُ الحرمين الشريفين هي الغالبةَ على مشهد الوقف بالجزائر العثمانية، حيث مثَّلت ثلاثة أرباع (75%) الوقف الإجمالي، توزَّعت على 1500 ملكية عقارية، من منازل ودكاكين ومخازن

1- أحمد بن عمّار، المصدر السابق، ص147.

2- عبد المجيد قدي، المرجع السابق، ص133.

3- عائشة غطاس، أوقاف الحرمين، مرجع سابق، ص209.

ومطاحن وأفران خبز وفنادق ومقاهي وبساتين وضِيع وأفران جير.... وغيرها، بمداخيل تجاوزت قيمتها أربعة ملايين (4.000.000) فرنك فرنسي قديم[1].

اندرجت عائداتُ أوقاف سكان الجزائر على الحرمين الشريفين سالفة الذكر ضمن مجموع الهدايا والأموال التي كانت الجزائر (الإيالة العثمانية) ترسلها سنوياً إلى الحرمين الشريفين بمناسبة سفر ركب الحج، والتي تخصَّص هناك للإنفاق على دعمِ المجال العلمي، أو على الأعيان والأشراف، وعلى الفقراء والمساكين والمجاورين بالحرمين.

ولإنجاح عملية الوقف (أو التحبيس) كان يتم تعيين موظف لهذا الغرض يُطلق عليه اسم "وكيل الحرمين"، أو "شاوش مكة والمدينة"، على غرار المدعو "العربي القزاز" صهر أحد نقباء الأشراف بمدينة الجزائر[2]. هذا الوكيل المعيَّن كانت تقع على عاتقه مهمة تأمين وصول هذه الهدايا والأموال بنظامٍ ودقَّة، لذلك كان يضع قائمة مفصَّلة للمعنيين بها، ثم يرسلها مع ركب الحج. وحدثَ لأكثر من مرة أنَّ بعض ساكني المدينة المنورة قاموا بمراسلة الباشا داي الجزائر، طالبين إدراجَ أسمائهم في قائمة المستفيدين من أوقاف الحرمين الشريفين، فتمَّت تلبية طلبهم من طرف الوكلاء، الذين تعهَّدوا بإيصال الصدقات للمسجَّلين الجدد[3].

وقد شاع في الجزائر العثمانية وغيرها من بلاد المغرب لفظ "الصُّرَّة" المحدَث، للتعبير عن المال الموجَّه للحجاز في كل موسم حج، لأن هذا الاسم في الأصل مما اعتاده أهل المشرق وتداولوه فيما بينهم، وكانوا يُعبِّرون عنه تارةً بالصُّرَّة وتارةً بالأمانة[4]. أمَّا قيمة مبلغ الصُّرَّة أو الصدقة فإنها بَدَتْ متباينة من موسمِ حجٍّ لآخر، ففي موسم 1089هـ/1678م بلغت قيمتها مائتين وألف دينار سلطاني، وفي موسم 1104هـ/1693م بلغت ستة وستين وستمائة وألف دينار سلطاني، وفي موسم 1193هـ/1779م بلغت خمسمائة وألف دينار[5]. وتذكر المصادر أسماء بعضِ أمناء الصُّرَّة المبعوثة من الجزائر إلى الحرمين الشريفين، ومنهم "الحاج محمد أفندي" الذي حمل "الصُّرَّة الجزائرية"

[1]- ناصر الدين سعيدوني، دراسات تاريخية.... ، مرجع سابق، ص235.
[2]- عائشة غطاس، الحرف والحرفيون، مرجع سابق، ص433.
[3]- رسالة إلى باشا الجزائر، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 3190/01/48.
[4]- محمد بن الخوجة، المصدر السابق، ص259.
[5]- عائشة غطاس، أوقاف الحرمين، مرجع سابق، ص222.

في موسم حج 1240هـ/1825م، وأشرفَ على عملية توزيع الصدقات على الفقراء، وأيضاً على الأشخاص الموصَى بهم في القائمة[1].

ولولا جهودُ المحسنين من أهل الجزائر الدَّالة على تعظيمهم لشعائر الله لما قامت لأوقاف الحرمين الشريفين بالجزائر قائمة، فلطالما وردتْ في آخر كلِّ عقد من عقود الوقف (التحبيس) المدوَّنة بالمحكمة الشرعية العبارة الشهيرة "…. وجعلَ المرجعَ لفقراءِ الحرمينِ الشريفينِ". بل إنَّ العامة من الحجاج كانوا يوقفون على الروضة النبوية الشريفة نُسَخاً من المصحف الشريف ومصنَّفات فقهية وصوفية شائعة في ذلك العهد مثل: الشفا للقاضي عياض والشمائل للترمذي ودلائل الخيرات للجزولي….[2].

وعلى الروضة النبوية الشريفة كذلك أوقفَ أحدُ علماء الصحراء الجزائرية وهو محمد بن إسماعيل المسناوي القوراري التواتي (ت1064هـ/1654م)* مائةً وسبعين سِفْراً (كتاباً كبيراً) من مكتبتِه العامِرة بمئات المصنَّفات، بعثَ بها من صحراء الجزائر إلى المدينة المنورة، وهي كتب نفيسة جداً استفاد منها طلبة العلم هناك كثيراً[3]!

لقد غَدَا دكان الحرمين الشريفين بالجزائر يسمَّى "الدكان الشريف" لشرفِ مهمته، وهي جمع أموال أوقاف الجزائريين الموجَّهة للحرمين الشريفين، فلا يجرؤ أحد من اللصوص أو المعتدين على الاقتراب منه، لأنه كما وصفه قنصلٌ فرنسي "مكانٌ مقدَّسٌ UN LIEU SACRÉ"[4]. تلك القدسية المرادِفة للحرمين الشريفين وما يرتبط بهما جعلت بعض العساكر الأتراك المعزولين من

---

[1]- رسالة من شريف عبد الله قرمانلي إلى حسين باشا، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 3190/01/151.

[2]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و02.

* **محمد بن إسماعيل المسناوي القوراري التواتي** (ت1064هـ/1654م) نسبةً إلى منطقة قورارة (شمالي توات)، أعجوبةُ زمانه ونادرةُ وقته وأوانه، حصَّل العديد من العلوم الشرعية وجال البلاد شرقاً وغرباً، من المغرب الأقصى إلى إفريقية وبلاد السودان، وأقام بمصر والحجاز واليمن والعراق وتركيا، حيث التقى العديد من المشايخ، وجاور مدة هامة بالحرمين الشريفين. ثمّ انتسب إلى الطريقة القادرية ودخل في جملة أتباعها، اشتهر بالسخاء والدهاء وعلوِّ الهمة، لولا ما ابتُلي به من وسوسة الإمارة وادِّعاء المهدوية. امتلك بفضلِ رحلاته مكتبةً عامرة بلغتْ حوالي ألفٍ وخمسمائة (1500) مخطوط في مختلف فروع المعرفة. يُنظر: محمد باي بلعالم، المرجع السابق، ج02، ص567.

[3]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص108.

[4]- خليفة حماش، دكان الحرمين الشريفين، مرجع سابق، ص99.

مناصبهم ينتقمون من قرارات عزلهم بِغصْبِ دورِ أوقاف الحرمين، فيُهاجمونها ويُخرجون فقراء البلد منها[1]، لإدراكهم بأن هتكَ ما نُسِب إلى الحرمين الشريفين أمرٌ عظيم في نظر الجزائريين، لا يترامَى لأحد به الحال أنْ يفعلَه، إلَّا في مثلِ حالهم من شدَّة الغضب والطيش!

إن شيوع الوقف على الحرمين الشريفين في الجزائر العثمانية بهذا الحجم لم يكن خوفاً من السلطات الحاكمة، ولا تهرُّباً من سطوة القاضي الحنفي المسلَّطة على أثرياء الجزائر، كما زعمَ القنصل الأمريكي وليام شالر WILLIAM SHALER في مذكراته[2]. ولكنَّه الإقبال الروحي للجزائريين على كلِّ ما له صلة بالحرمين، مما جعل القنصل الفرنسي فاليير VALLIER يذكر في تقريرٍ له حول الجزائر عام 1195هـ/1781م: "إنَّ أوقاف مكة والمدينة في مدينة الجزائر ذات قيمة كبيرة، وليس بعيداً أن يأتيَ اليومُ الذي تصبح فيه كلُّ أملاك أهل الجزائر موقوفةً على فقراء الحرمين الشريفين!"[3]. ليس غريباً على الجزائريين الذين كانوا يَفْدُون الحرمين الشريفين بأرواحهم، رجاءَ الوصول إليهما في رحلة الحج الشاقَّة، أن يَفْدُوهما ـ حينئذٍ ـ بأموالهم وأملاكهم.

المبحث الثاني: تجهيزُ الرّكب وعاداتُ التحضير للسَّفر

01ـ الأذانُ في الجزائريين بالحج ومصادرُ التمويل:

بما أنَّ أمير الركب الجزائري هو قائد الرحلة إلى الحج، فإنه المسؤول الأول عن إعلامِ الجزائريين باقترابه، ومِن ثَمَّ تأكيدِ موعده السنوي المعتاد، وإعلانِ النفير في عموم البلاد، والأذانِ في الناس بالحج. مثلما جاء في معرض تكليف الشيخ عبد الكريم الفكون بإمارة الركب: "وأذِنَّا له بحسبِ التنفير حيث أرادَ المسير، لزيارة قبرِ المصطفى البشيرِ النذيرِ، يؤذِّن في النَّاس بالحجِّ بضربِ الطَّبل سعياً لمن أراد أن يؤدي الفريضة إلى الأماكن العلية الشريفة"[4].

وقد تجلَّتْ تلك المسؤولية بجلاء في إحدى السنوات التي عمَّ فيها الوباء بلاد الجزائر، وانقطعتْ سبُل البرّ بسبب ذلك، فتدخَّل أمير الرّكب وحسَمَ في أمر الذهاب إلى الحج، بعد تردُّد

---

[1]- الشريف الزهار، المصدر السابق، ص103.

[2]- وليام شالر: مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824م)، د ط، ترجمة وتقديم: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص49.

[3]- خليفة حماش، الأسرة في مدينة الجزائر، مرجع سابق، ص906.

[4]- أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، مرجع سابق، ص229.

الناس وانزعاجهم، وميلهم إلى تغليب عدم الحج. ذلك الحسمُ في الأمر من طرف أمير الركب أدّى أخيراً إلى فرح الجميع فرحاً لا يوصف[1].

كان يتمُّ النِّداء في الناس بالحج قبل موعد السفر بأسابيع، حتى يتهيّأ مَن ينوي الذهاب إليه خلال تلك السنة ويُعِدَّ العُدّة. ويُذاع خبرُه في المدن الكبرى، وأماكن التجمعات كالأسواق اليومية والأسبوعية، وفي الأرياف والقرى المجاورة للمدن، فينادي المنادي: "من أرادَ الحجَّ فليتهيَّأ لذلك"[2]. وفي التجمعات المتباعِدة مثل قصور توات بالصحراء يتم إعلام الناس مكاتبةً، من خلال مراسلةِ شيوخ الركب لأعيان القصور وزعماء القبائل وأهل البلد، مخاطبين إيَّاهم: "مَن يُريد الحجَّ فليعوِّل عليه"[3]. وما أحسنَ تعبير النداء الذي حفظَتْهُ المصادر بخصوص دعوة قبائل الغرب الجزائري إلى الحج، والتجمُّع حول أمير الركب الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر، وقد تناقلتْ الأفواه عبارة: ".... إلى مكة.... إلى مكة.... " في كل الجهات[4].

والحاجُّ الجزائري هو الخلية الأساسية في تكوين الركب، وجهودُه الفردية هي مصدر تمويل رحلته إلى الحج، فيُحضِّر كلُّ حاج مالَه ودابته ومُؤَنَه وفراشه وماءه. وعادةً ما يتجمَّع كلُّ ثلاثة أو أربعة حجاج قبل السفر قصد التحضير الجماعي لذلك[5]. ويظل توفير المال اللازم للسفر إلى الحج هو الشغل الشاغل للحجاج، لكنْ إذا ما عقدَ أحدهم العزم على الحج ضحَّى لأجله بالطارف والتالد من أملاكه وأرزاقه. وقد يَفضُلُ لديه بعض المال عن القَدْر المطلوب، فيحفظُه أمانةً في دكان الحرمين الشريفين إلى حين الرجوع من الحجاز[6].

ومن الجزائريين مَن يعوِّل على الحج في آخر المطاف، رجاءَ زيارة تلك البقاع، وطمعاً في مصاحبة الأخيار من الأصدقاء والشيوخ، فيجد كل الدعم والتيسير من حيث لا يدري. مثلما حدث للرحالة التنلاني، الذي شجَّعَهُ على الإقدام دعوةُ شيخين من أصدقائه له لمرافقتهما، معبِّراً عن ذلك في رحلته بالقول: ".... فطلبا مني المرافقة، فاعتذرتُ لهما بِقلَّة ذات اليد، فقالا لي كم

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص101.

[2]- الشريف الزهار، المصدر السابق، ص170.

[3]- أبو عبد الله الفلاني القبلاوي: رحلة الفلاني القبلاوي، مخطوط بخزانة مولاي عبد الله سماعيلي، أدرار، و02.

[4]- هنري تشرشل، المصدر السابق، ص43.

[5]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص70.

[6]- خليفة حماش، دكان الحرمين الشريفين، مرجع سابق، ص124.

تحتاج لذلك؟ فقلتُ لهما إنْ وجدتُ سلف مائة مثقال، فالتزما لي ذلك.... وخيَّرني (أحدهما) بين ما طلبتُه وبين أن يُعينَني بنصفها تبرعاً وطلباً للثواب، فاخترت الإعانة"[1]. فركبُ الحج لا يعدم وجود الموسرين، لذلك كان بعض المحسنين منهم يُعينون الشيوخ والفقهاءِ الراغبين في الحج.

والأتراك الراغبون في أداء الحج من الجزائر مثلهم مثلَ بقية السكان الجزائريين، يبحثون هم كذلك عن مصادر للمال من أجل تمويل رغبتهم تلك. فمثلاً قامَ المدعو "أحمد خوجة التركي" وهو كاتب الداي ببيع بستانه الواسع الزاهر لقائد العرب في سهل متيجة المدعو "ابن سحنون"، فعلَ ذلك بِنيةِ الذهاب إلى الحج[2].

لكن الملاحظ هو تعوُّد الحجاج الأتراك الذين يقصدون تونس للسفر منها إلى الحج بحراً على الاستفادة من الدعم والتموين في تونس، وكمثالٍ عن ذلك استلم وفدٌ منهم ينتمي لبايلك الشرق كمياتٍ كبيرةً من: طعام وخضار ودجاج وبيض وعسل ونشا وعدس ولوبيا وجلجلان وسمن وزبيب وشمع وزيت وليمون وقهوة وشاي وفاكهة، فضلاً عن العلف المخصَّص للكِباش التي حملوها معهم إلى السفينة. كلُّ ذلك أثناء إقامتهم في تونس، في ذهابهم للحج ثمَّ بعد عودتهم[3]؟ كما كانوا يعتمدون على الإيالة في كراء السفن لنقلهم بمعيةِ بعض الحجاج الجزائريين إلى الإسكندرية، وذلك لتميُّز القادة الأتراك عن غيرهم، بكثرة متطلباتهم في سفرهم ـ إنْ تمَّ عن طريق البر ـ من مستلزمات خاصة مثل: الطبول والرايات والفساطيط والأخبية .... [4].

لقد كان التحضير للحج ومتطلباته عملية صعبة في ذلك الزمان، تقتضي التفرغ التام والسرعة في إعداد عُدَّته، وإلَّا داهَمَ الوقتُ من ينوي الذهاب إليه، بسبب صعوبة الاتصال ما بين الناس، ومفاجأة التطورات المعيقة عن الخروج إليه. فنجد ـ مثلاً ـ أحد القضاة المشهورين في منطقة توات يعتزل القضاء مبكراً، لكي يتفرغ لشؤون الحج وتنظيمه[5]، والاعتزال نفسه كان يقوم به ـ كما رأينا ـ الشيخ عبد الكريم الفكون القسنطيني أمير الركب الجزائري.

---

[1]- عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، و02.

[2]- الشريف الزهار، المصدر السابق، ص89.

[3]- خليفة حماش، كشاف وثائق، مرجع سابق، ص370.

[4]- ابن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص250.

[5]- Bernard Saffroy, Op.cit, p05.

إن امتلاك المال والراحلة فقط ليس كافياً في العزم على الحج، ويبقى أهمُّ شيء في ذلك هو ضمان الرفقة المأمونة، التي يقول عنها الورثلاني: "وليعلَمْ الإنسانُ أنَّ الزاد وإنْ كان ركناً في الذهاب إلى الحجِّ وشرطاً فيه، فالركنُ القويُّ هو الرفقة المأمونة من وطنِك وغيرِهم، ومَن وجدَ مالاً ولم يجِدْ رفقةً من وطنِه فلا يغُرَّ بنفسِه"[1]. وهي نصيحة صادقة، أكَّد عليها جميع الرحالين.

02ـ الزَّاد والمؤونة في الرحلة إلى الحج[2]:

يقول الله عزَّ وجلَّ: ((**الحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى واتَّقُونِ يَأُوْلِي الالْبَبِ**))[3]. فالتقوى خيرُ زادٍ للحاج المسافر، يُجسِّدها في نية عظيمة، وصدق قوي، وهمة عالية، وإخلاص كبير. والحجاج مهاجرون تَكْلؤُهم عنايةُ الحافظِ الرحمن من الجزائر إلى الحجاز، وعلى رأي أحد شيوخ الصوفية: "سرُّ الله مع وفدِ الله"[4]. ولا يفترُ الحاج الجزائري عن مداومة التلاوة والذكر والدعاء طيلةَ سفره، بل يُذكِّرُ نُظراءَه من الحجاج إذا نسوا. وكذلك أثناءَ خروجهم من البلد، مثلما فعل إمام المسجد العتيق بقسنطينة، حيث نصحَ الحجاج المسافرين عبر البحر قائلاً: "إنْ أردتمْ ركوبَ البحر فعندما تضعون أرجلَكم في المركبِ فاذكروا التعوُّذ بالله والبسملة والفاتحة، واذكروا الفاتحة خصوصاً سبعاً، فإنها أمانٌ من الغرَق والحرْق والأسرِ"[5].

ويتحرَّى النَّاوي على الحج من الجزائريين أحلَّ ما يملك من مالٍ ليُعطيَ به نفقات حجِّه، ويجتهدُ في ذلك خصوصاً من يومِ إحرامِه، وإنْ قدرَ على ذلك في جميع سفره كان أفضل له، جاعِلاً الأولوية من مصاريف نفقته للقوت، وما يليهِ للِّباس، وما يليه للدواب والعلَف[6]. ممتثِلاً أمرَ وتحذير الشاعر "الحاج" الذي قال[7]: (الطويل)

1– الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص230.

2– فصَّل العامري التلمساني بدقَّة في الأشياء التي يحتاجها المسافر إلى الحج. يُنظر: محمد المنوني، المرجع السابق، ص89.

3– **سُورةُ البَقَرَةِ، الآية 197**.

4– الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج01، ص414.

5– أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص153.

6– أبو سالم العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص95.

7– محمد بن أبي بكر بن رشيد البغدادي: القصيدة الذهبية في الحَجة المكية والزورة المحمدية، ط03، تحقيق: محمد بن إسماعيل المقدم، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006م، ص90.

وَحُجَّ بِمالٍ مِنْ حَلالٍ عرَفتَهُ وإيَّاكَ والمالَ الحَرامَ وإيَّاهُ
فَمَنْ كانَ بِالمالِ المحَرّمِ حَجُّهُ فَعَنْ حَجِّهِ واللهِ مَا كَانَ أَغْنَاهُ

كان بعض الحجاج المغاربة عموماً يأخذون معهم كميات من التِّبر[1] في رحلتهم للحج، لصرفها في مقتنياتهم، أو استبدالها متى احتاجوا المال، لإمكانيةِ ذلك في جميع المحطات. وكذلك الشأن بالنسبة للنقودِ من صنف "الريال"، العُملةِ الشائعة في إيالات الدولة العثمانية من الجزائر إلى الحجاز، فالريال ـ في رأي الرحالة العياشي ناصحاً الحاجَّ ـ "نافقٌ في كل بلدة"[2].

ويتمُّ وضع النقود في حزامٍ جلدي، أو في صُرَّة مصنوعة من جلد السعدان[3]. والتِّبر والنقود يُغنيانِ عن حمل بعض البضائع للمتاجرة فيها، لأنَّ في حمل السلع الظاهرة خطراً على الركب من اللصوص، مثلما أشار إلى ذلك الرحالة العامري التلمساني[4]: (الخفيف)

لَا تُكلّفْ بِسِلْعةٍ إنَّ فِيهَا خَطَراً وَهْيَ مِحْنَةٌ وبَلَاءُ
بلْ دَنانِيرُ جيِّدٌ مِنْ نُضَارٍ فِي حِزامِكَ حَبَّذَا الرُّفَقَاءُ

وبخصوص مواد التغذية التي كان الحجاج الجزائريون يَحملونها معهم عادةً غداةَ رحيلهم فأهمُّها: البشماط[5]، الكسكس (الطعام)، الخلِّيع (اللحم المملَّح المجفَّف)، السّويق (مدقوق الحِنطة والشعير)، الإدام (السّمن أو الزبد أو الشحم)، زيت الزيتون، الأرز، العسل، التمر، الزبيب، التين، الخلّ، البصل، الملح، العطرية (التوابل)....[6]. ومن المعدَّات: الصابون، الشمع، الفانوس، القِدر، الصحن، السفرة، الطنجرة[7]. إضافةً إلى الحطب والتبن وأعلاف الدواب.

[1]- **التِّبْرُ**: الذَّهَبُ كلُّه. وقيل: هو من الذّهب والفِضّة وجميع جواهر الأرض من النُّحاس والصُّفْر....مما استُخرج من المعدن قبل أن يُصاغ ويُستعمل. وقيل: الفُتاتُ من الذّهب والفضّة قبل أن يُصاغا. يُنظر: ابن منظور، المصدر السابق، ص416.

[2]- أبو سالم العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص60.

[3]- لوسيت فالنسي، المرجع السابق، ص119.

[4]- محمد المنوني، المرجع السابق، ص91.

[5]- **البشماط (أو البقسماط)**: هو الخبز أو الكعك (البسكويت) المجفَّف. شاعَ بكثرة في الجزائر العثمانية، وكان يُقدَّم على رأس المؤونة التي تُعطى للعساكر الأتراك في إقامتهم أو سفرهم، على غرار "**البرغل**" المستخلَص من حبوب الحِنطة المسلوقة المجروشة. يُنظر: الشريف الزهار، المصدر السابق، ص163.

[6]- أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص159.

[7]- محمد المنوني، المرجع السابق، ص90.

أمَّا الماء فكان يُحمَل في القِرَب الجلدية ذات الأحجام المختلفة، تبعاً لجلود الأغنام. وذلك بعد أن يتمَّ إتقان دباغتِها، حتى لا يضيعَ ماؤها النَّفيسُ جداً في السفر، ولتتحمَّلَ طول المسافة وتقلُّب الأجواء. وتُملأ القِرب بالماء من العيون والآبار والغُدران التي يُصادفها الركب، وتُشَدُّ أوكيتُها بإحكام، وتُثبَّت على جوانب الإبل [1].

وهذا الرحالة العياشي الذي اعتاد السفر إلى الحجاز ينصح الحاج باتخاذ أكثرَ من قميصين، ثلاثةٍ أو أربعةٍ عند خروجه من بلده، لأن قميصين غيرُ كافيين، فربما يتنجَّس أحدهما، أو يتوسَّخ، ولا يتيسَّرُ غسله [2]. فالاحتياط واجب في الملابس، لأنها تَبلى ويُضنيها السفر الطويل. والبدلة التي درج الحاجُّ الجزائري على ارتدائها عادية جداً، تتكوَّن أساساً من القطع التالية، بأسمائها المتداولة آنذاك: قميص، سروال، قلنسوة، حائك (برنس)، وبشماق (نعل بلاستيكي متين) [3].

بما أن الركب يُداوم الانتقال من مكان لآخر في سفره، وقد يستغرق نزوله في بعض المنازل (المحطات) ساعات طويلة، فإن الحجاج يحملون معهم الخيام الصغيرة والأخبية (الخِيام الكبيرة) ذات الأشكال المتنوعة، للسكن والوقاية من الحرّ والقَرّ، ومنها: القوراء والمستطيلة والقياطين المثلَّثة [4]. فهم لا يلتحِفون السماء أو يتوسَّدون الغبراء. ولا يغفل الحجاج عن أخذ أبسط الأدوات معهم في سفرهم، مثل: الحناء، الدواة، الأقلام.... بل ذكر العامري التلمساني [5]! (الخفيف)

مِقْرَضٌ ومِشْطٌ ومَوْسَى ومِرآ ةٌ ويَحفَظُ كُلَّهُنَّ غِشاءُ

وخُيوطٌ مِنْ كلِّ نُوعٍ وإِبْرَا تٌ ومِنْ بعدِ مِخْيَطٍ إِشْفاءُ

ثُمَّ مُكْحَلَةٌ بِكُحْلٍ وميلٌ ثُمَّ لَقَّاطُ شَوْكٍ بِيسَ الدَّاءُ

إن التزود بالمؤونة أو "الميرة" ـ كما كانت تُسمى وقتَها ـ لم يكن يقتصر على مدنِ الجزائر مُنطلقِ الركب فقط، وإنما يتم كذلك من المدن والقرى والبوادي التي يتوقف بها ركب الحج، فطريق الحج كانت عامرة نسبياً، وكانت البلدات (القُرى) والمدن الواقعة في مسار رحلة الحج تتجهَّز بالمواد

[1] – جوزيف بتس، المصدر السابق، ص70.
[2] – أبو سالم العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص91.
[3] – الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص265.
[4] – محمد المنوني، المرجع السابق، ص15.
[5] – نفسه، ص90.

والسلع التي يحتاجها الحجاج في سفرهم، لبيعها لهم أو مقايضتها بسلع أخرى، وبالتعبير المعاصر فإن بعض البلدات الأساسية كانت بمثابة محطات عبور (transits) في الطريق إلى الحج[1].

من أمثلة التزود بالمؤونة في المحطات حملُ الحجاج للدقيق المرْحي في أرْحِيَة مدينة طرابلس، بمقدار زاد ثلاثة أشهر إلى مصر إنْ كان الفصل شتاءً، أو زاد شهرين إنْ كان الفصل صيفاً[2]، وذلك لمواجهة الصحاري القاحلة التي يندرُ فيها التموين. وقيامُ بعضهم كذلك بشراء ثياب الإحرام والنعلين من مصر أو من قُرى الحجاز، كما جرتْ به العادة[3]. والتزودُ في محطة مصر العامرة بمؤَنٍ تكفي مدة أربعة أشهر، لتُغطيَ رحلتي الذهاب والعودة منها وإليها، مع استغلال القلاع والحصون المحمية بين مصر والحجاز في عملية تخزين بعض المؤن لحين العودة، نظراً لقلة الزاد في تلك النواحي وغلاء أسعاره[4].

أما أثناء فترات مكوث الركب الطويلة بالمدن الكبرى، فالتموين بالأكل ليس بالأمر الصعب، وقد يستغلُّ بعض الحجاج علاقاتهم الشخصية في ذلك. فهناك ـ مثلاً ـ مجموعة من الحجاج الجزائريين مكثت بالقاهرة اثني عشر يوماً، يأتيها غَداؤها وعشاؤها من دار مُضيفِها[5].

ولا يغفل بعض الحجاج الجزائريين عن "التسلُّح" ببعض الأسلحة الخفيفة قبلَ خروج الركب من الجزائر، من قَبيلِ الخناجر والبنادق والبارود[6]. فهي مطلوبة في سفر الحج لأسبابٍ، منها ما ذكره الرحالة العامري التلمساني ناصحاً الحاجَّ[7]: (الخفيف)

واتَّخِذْ يَا لَبِيبُ آلةَ حَرْبٍ رُبَّمَا عَرَضَتْ لَكَ الأَعْدَاءُ

1- عبد الرحمن عزي، المرجع السابق، ص07.

2- ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص172.

3- أبو سالم العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص95.

4- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص41.

5- المهدي البوعبدلي، التعريف بالكتب والمخطوطات، مرجع سابق، ص23.

6- شرحَ الرحّالة الحاج ابن الدين الأغواطي طريقة صنع البارود في رحلته قائلاً: "يُجمع التراب المالح من الأرض أو من الملاط، ويوضع في ماعون ويُصبُّ عليه الماء، بنفس الطريقة التي يُعالَج بها الرماد عند صناعة الصابون، ثم يغلي الماء إلى أن يصبح خاثراً، ثم يؤخذ رطلٌ منه ويُخلط مع أربعة أرطال من الكبريت وأربعة أرطال من الفحم المستخرج من شجرة الدفلى، هذه العناصر المختلفة تُخلط جميعاً في غضون أربع ساعات، فتصير باروداً"! يُنظر: الحاج ابن الدين الأغواطي: رحلة الأغواطي، ط خ، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م، ص90.

7- محمد المنوني، المرجع السابق، ص91.

ويُذكر أنَّه في أحد مواسم الحج امتلَكَتْ مجموعةٌ مسلحةٌ من الحجاج الجزائريين ثلاثَ بنادق كِبار طِوال وبندقيةً صغيرة ويَطغاناً (خنجراً طويلاً)، وقد اضطرَّت تلك المجموعة لاستخدام الأسلحة المذكورة التي أثبتتْ جدوى حملِها وفعاليتها، بعدما أحاط اللصوص ببعض الحجاج في موقع صعب، بسبب تخَلُّفهم وبُعدِهم عن الركب[1].

03. العادات غداةَ إزماعِ السفر إلى الحج:

من ميزاتِ الوجود العثماني في الجزائر اهتمامُ الحكام والمحكومين بإحياء المناسبات الدينية الكبرى، على غرار مناسبتَي المولد النبوي الشريف وموسم سفرِ الجزائريين إلى الحج غيرِ المتباعدَين زماناً. يقول الرحالة ابنُ عمّار في ذلك: "هذا وقد جرتْ عادةُ أهلِ بلادِنا الجزائر، حرسَها اللهُ من الفِتن وحَاطَها من الدوائرِ، أنَّه إذا دخلَ شهرُ ربيع الأول، انبرَى من أدبائها وشعرائها مَن إليه الإشارةُ وعليه المعوَلُ، إلى نظمِ القصائدِ المديحيات، والموشَّحات النبويات"[2].

في واقع الأمر تُعتبر تلك الاحتفالات الضخمة بالمولد النبوي الشريف في الجزائر بمثابة استعداد روحي لموسم الحج غير البعيد، حيث يتغنَّى فيها المدَّاحون بالشوق لزيارة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع ركب الحج المغادر للجزائر قريباً. وإذا اقترب موعد سفرِه شرعَ خطباء المساجد في الدعوة للحجِّ والحضِّ عليه، فتشتاق مُهَجُ العينين إلى مشاهدة الحرمين الشريفين، وتبرزُ الآهات والأنين، ويتضاعفُ الوجدُ والحنين.

كان بعض الراغبين في الحج من الجزائريين في ذلك العهد يُكثِر من مشاورة الشيوخ والأفاضل بشأن ذهابه إلى الحج، ومن تكرار الاستخارة في ذلك. ليسَ تردُّداً أو زهداً فيه، ولكنْ إخلاصاً ورجاءَ نجاح رحلته إليه. يقول الورثِلاني معبِّراً عن دلالات الاستخارة لمن ينوي الحج: "وهذه الاستخارة لا تعود إلى نفسِ الحج، لأن الاستخارة في الواجب والمكروه والحرام لا محلَّ لها، وإنما تكون الاستخارة هنا: هل يشتري أو يكتري؟ وهل يُرافق فلاناً أم لا؟ وهل يسيرُ في البرِّ أو البحر؟"[3]. وعلامةُ الإذن للحج بعد الاستشارة والاستخارة ـ كما يقول التنلاني ـ التيسير[4].

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص145.

[2]- أحمد بن عمّار، المصدر السابق، ص15.

[3]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج01، ص96.

[4]- عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، و01.

والجزائريُّ الرَّاغب في الحج آنذاك كان غالباً ما يتحلَّى بآداب السفر إليه، بأنْ يجدِّدَ التوبة والاستغفار، ويردَّ المظالم والودائع إلى أصحابها، ويقضي الديون المترتِّبة عليه، ويُخلِّفَ وراءه النفقة لكلِّ من تَلزَمهُ نفقته إلى وقت رجوعه من الحجاز، ويستصحب من المال الحلال الطيِّب ما يكفيه ذهاباً وإياباً، ويُكثر من الأذكار والدعاء[1].

وأثناء انضمام الحجاج من مختلف الجهات المتقاربة إلى ركب الحج المتشكِّل بالتدريج، فإنَّ أهاليهم وأحبابَهم لا يكتفون بتوديعهم من أحيائهم ومضاربهم، بل يتبعون الركب إلى قُرى بعيدة جداً عنها، ويضطرُّون إلى المبيت هناك في ضيافة سكَّانها، الذين يُحسِنون استقبالهم ويُكرمونهم مثلما فعلوا مع الحجاج[2]. أمَّا النسوة فإنَّهن يتزاحمنَ فوق أسطح المنازل التي يمرُّ الركب بجنبِها ويُزغرِدن، وهُنَّ في غاية السرور برؤية ذلك المنظر البهيج[3].

كانت تُخصَّصُ ساحات كبيرة في معظم المناطق التي اعتاد الركب الجزائري الخروج منها، تكون على مشارف القرية أو المدينة جهةَ القِبلة، يلتقي فيها الحجاج بمن جاء يُشيِّعُهم ويودِّعهم. فعادةُ تخصيص الساحات الكبرى لتوديع الحجاج عادةٌ متأصِّلة في صحراء الجزائر خاصة، ولا زال بعضها يُعرف بـ "رحبة الحجاج"، رغم اندراس معالمها الأصلية. ولعلّ ذلك الزَّخم الاجتماعي المحيط بتوديع الحجاج هو الذي ساهم في تنامي مشاعر الحنين، يقول المصعبي[4]: (الطويل)

فَفَارقْتُ فِي حَقِّ الرَّحِيمِ قَرابَتِي وَشَيْخِي وَوِلْدَاناً عَزِيزاً وَمَالِيَا

فَأَبْكَى فِراقِي إِخوَةً لِي أَعِزَّةً وَمَنْ كَانَ دَانِياً وَمَنْ كَانَ قَاصِيَا

ومن العادات المتوارَثة غداةَ سفر الركب زيارةُ الأولياء والصالحين المشهورين، وبصفة خاصة أضرحة الشيوخ: أبي مدين شعيب (ت594هـ/1197م) بتلمسان، ومحمد بن عمر الهواري (ت843هـ/1439م) بوهران، وعبد الرحمن الثعالبي (ت875هـ/1471م) بالجزائر، ومحمد بن عبد الكريم المغيلي (ت909هـ/1503م) بتوات، وبن يوسف الملياني (ت931هـ/1524م) بمليانة، وعبد الرحمن الأخضري (ت953هـ/1546م) ببسكرة.... وغيرهم.

[1]- عبد القادر التنلاني، المصدر السابق، و06.

[2]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص188.

[3]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص21.

[4]- إبراهيم المصعبي، المصدر السابق، ص67.

كان الحجاج يجعلون آخر عهدهم بالبلد زيارة المسجد الجامع، وصلاة ركعتين به والدعاء فيه. محبِّذين أنْ يكون الخروج من البلد يومَ الاثنين أو يومَ الخميس. كما صوَّر ذلك الورثلاني عن الركب الذي حجَّ ضمنَه: ".... وذكَرْنا بعض ما وردَ ذِكرُه، وختَمْنا بالصلاة في المسجد، وخرَجْنا يومَ الخميس لِما فيه من التيمُّن والبركة، في كلِّ سكونٍ وحركة"[1].

ويتمُّ تجميعُ الأمتعة والرواحل (الدواب) خارج البلد، ونصبُ الخيام في مشارفه وساحاته، ليتمكن ركب الحج من التبكير للسفر في اليوم المحدَّد سلَفاً، كما يُزيَّنُ الموكب بالرايات والأعلام، وتُضرب الطبول إيذاناً بِقُربِ الرحيل[2]. ذلك الرحيل الذي كان يؤثِّر في حجاج الركب، فلا يسَعُهُم سوى الافتخار بوطنِهم والدعاء له، مثلما فعل الرحالة المقّري التلمساني، وهو يُغادر وطنَه الجزائر متوجِّها إلى الحجاز[3]: (البسيط)

جَزائِرَ الغَرْبِ لَا تَطْرُقْكِ أَحْزانُ يَا بَهْجَةَ الدَّهْرِ طَابَتْ مِنْكِ أَزْمَانُ

وَزَادَكِ اللهُ يا أَرْضَ الجِهادِ عُلًى فَكَمْ عَلَا فِيكِ إِسْلامٌ وإِيمَانُ

المبحث الثالث: الرواحِلُ المستعمَلة للحج ومصادرُ غذائِها

يقول الله عزَّ وجلَّ في كتابه العزيز: ((**اللهُ الذِي جَعَلَ لَكُمُ الانْعَمَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَاكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنفِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ**))[4]. ويقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلَّم ـ "مَنْ مَلكَ زَاداً ورَاحِلةً تُبلِّغُهُ إلَى بيتِ اللهِ ولمْ يَحُجَّ فلَا عَلَيهِ أنْ يموتَ يهودياً أو نصرانياً"[5]. لذلك يُقال في الأمثال "الحجُّ زادٌ ومَرَكَبٌ".

01ـ الإبلُ المطيّةُ المُثلى لرحلة الحجّ:

الجملُ أصلُ رِكاب الحج، سفينةُ الصحراء أو "سفينة الأسفار في القِفار"، رمزُ التحمُّل في مواجهة مشاقِّ الطريق القاسية، والتعوُّد على قناطير الأثقال والأحمال، والصبر على العطش لأسابيع وشهور. وبخصوص هذه الميزة الأخيرة فإن الإبل إذا وجدت الكلأ الرطب لا تشرب ولو

---

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص188.

[2]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص21.

[3]- أحمد المقّري، رحلة المقّري، مصدر سابق، ص74.

[4]- **سُورةُ غَافِرٍ، الآيتان 79-80**.

[5]- رواه الترمذي والطبري والبزار والبيهقي، وقيل بإسنادٍ ضعيف.

أقامتْ ما عسى، حيث نقلَ أبو سالم العياشي في رحلته أن إبل الركب لم تشرب ماءً بفضل ذلك مدةَ تسعين يوماً (ثلاثة شهور)، في أرضٍ صحراءَ ما بين مصر وليبيا[1]!

والخاصية الثانية المميِّزة التي جعلت الحجاج يعتمدون على الإبل بالأساس في سفرهم هي قدرتها المذهلة على حملِهم وحملِ متاعهم وبضائعهم بِراحة وأمان. ويتمُّ أحياناً تخصيص بعض النُّوق دونَ الجِمال لحمل الأمتعة فقط، فتوضع في مقدمة الركب، لتكون أمام أعين الحجاج[2].

لا يمكنُ تحديد مقدار ما يحمله الجمل من أمتعةٍ بدقَّةٍ متناهية، غير أن معدَّل حمولة الجمل الواحد بالمعيار أو المكيال السائد في طريق الحج آنذاك هو "أردبان" من القمح، وإذا علمنا أن كل 09 أرادب تعادل طنّاً واحداً (أي 10 قناطير أو 1000 كغ)[3]، فإن الأردبين من القمح الذين يحملهما الجمل الواحد يساويان تقريباً 222 كغ، على أنَّ حِملَ البعير قد ينقص عن ذلك المقدار أو يزيد بقليل. وتُرتَّب أمتعة الحجاج في أكياس خاصة متقنةِ الصناعة تُسمَّى "غرائر"، ثم توضع على الأقتاب (أي الرّحال الصغيرة) المشدودة على سَنام الجمل[4].

يَسيرُ الجمل في اليوم الواحد من 10 إلى 16 ساعة، وتتعدَّى المسافة التي يمكن أن يقطعها في اليوم 40 كلم[5]، حسبَ تأثيرِ أثقال الأحمال وجغرافية الطريق. هذه الأرقام التقريبية المتعلِّقة بالمسافة والزمن جعلت الارتياب واضحاً في السرعة المعتادة عند الجمل، لكنْ يبقى معدَّل السرعة المحتملة للجمل ـ المحمَّل بتلك الأثقال التي تصحَب الحجاج طيلة السفر ـ في حدود أربعة آلاف متر في الساعة الواحدة[6] (أي 04 كلم/سا). وقد تتهادى قوافل الجِمال عبر الصحراء بمعدل الميلين والنصف في الساعة الواحدة[7] (أي 04,6 كلم/سا). وهو معدَّل ضعيف، يفرضه سيرُ الركب الكبير، وتكرارُ نزوله ثمَّ ارتحاله في المحطات المتعاقبة.

---

[1]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص208.

[2]- عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، و15.

[3]- بيير سيمون جيرار، المصدر السابق، ج04، ص285.

[4]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج01، ص270.

[5]- عقباوي عزيز الهاملي، المرجع السابق، ص54.

[6]- سميرة فهمي علي عمر: إمارة الحج في مصر العثمانية 1517-1798م، د ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2001م، ص249.

[7]- وليم سبنسر، المرجع السابق، ص143.

تتميَّز المهاري أو النجائب من الإبل بمشيتِها المريحة لراكِبيها من الحجاج، فهي أقلُّ إجهاداً للرُّكبان، مقارنة مع مشية الجِمال العادية[1]. وقد تفنَّن الحجاج في صنعِ ما يُريح أجسامهم ويَقيهم الصدمات والاهتزازات الناجمة عن تمايل الإبل في بعض المسالك الصعبة، من ذلك ما عُرف في بعض البلاد باسم "الشقدف"، وهو "محمَلٌ خشبي كبير ذو شِقَّتين، توضع كل واحدة منهما على جنب البعير، ويُقرَن بينهما بحبال وثيقة على ظهره، ولا بدَّ للراكب فيه من شخصٍ معادلٍ له في الجهة الأخرى، مقارباً له في الرزانة، ثم يوصل بين الشقتين من أعلى بحبال، يُظلَّل عليها بغطاء يَقي الحرَّ والبرد، وهو من أشهى المراكب وأهناها"[2].

لكنَّ ذلك "الشقدف" لم يكن يتوفَّر سوى للموسرين من الحجاج، لأنَّ سعره غالٍ، كما أنَّه يتطلَّب جِمالاً مهيَّأة لوضعِه. وفي ما عداهُ كان بعض الحجاج الجزائريين يتعرَّضون للسقوط من على ظهور رواحلهم أحياناً، إمَّا بسبب شدَّة الاهتزاز، أو بسبب الغفلة والنعاس، ذلك ما وقع للرحالة التنلاني التواتي الذي نقلَ صورةً معبِّرة عن بعضِ ما يُعانيه الحاج: ".... فسقطتُ من الراحلة وأنا ناعسٌ على جنبي الأيمن في أرض صلبة.... فقمتُ وركبتُ راحلتي، ولما نزلتُ لصلاة الظُّهرين ثقُلَتْ عليَّ عظامي، ولما وصلتُ منزل المبيت تعذَّر عليَّ المشي"[3]!

وتتمايز الإبل وتتفاضل فيما بينها بالنظر إلى قوتها ومقدرتها على تحمُّل أطوار رحلة الحج المتعِبة، فهذا حاجٌّ من منطقة توات الجزائرية نوَى الحج مطلعَ القرن 13هـ/19م، فأرسلَ إلى أحد أصدقائه طالباً منه جملاً يَفِي بذلك الغرض قصدَ معاينتِه قائلاً: ".... سمعتُ بأنَّ عندك جملاً أو جملين، أرسَلْتَهُما إلى الخنافسة* للرعي، فإنْ أردتَ أن تبيعَه فابعَثْهُ لي عَزْماً يومَ الاثنين الآتي، أنظُرُ

---

[1]- ليون روش: اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام مذكرات ليون روش عن رحلته إلى الحجاز، ط01، ترجمة: محمد خير محمود البقاعي، جداول للنشر والتوزيع، بيروت، 2011م، ص53.

[2]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص136.

[3]- عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، و09.

* **الخَنَافِسَةُ** (أو الخنافيس) اسمُ قبيلة عربية، وهي بطنٌ من بني راشد، من الحميديين، من هَلْباء سُوَيد، من جذام، من عرب القحطانية. كانت مساكنهم في بلاد الحوف الشرقية (ضواحي مدينة بلبيس) من الديار المصرية. انتشروا في الصحراء الجزائرية الشرقية إثر مجيء بني هلال إليها، وفي شمالي قصور منطقة توات، مثل زاوية الدباغ وأوكروت، منذ القرن 6هـ/12م. ينظر: عمر رضا كحّالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ط08، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997م، ج01، ص363. وأيضاً: محمد حوتية: توات والأزواد خلال القرنين 12 و13هـ دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، ط01، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007م، ج 01، ص71.

فيه إنْ كان يَليقُ بي فآخُذه، وإنْ لم يلِقْ بي فَنردُّه لك، وأَعلِمْني بقيمتِه، فأنا أريدُ ذلك لزيارة قبرِ النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام"[1].

وللدلالة على أنَّ الإبل القوية هي وسيلة النقل الأولى للحجاج، فقد تمنَّى أحد الراغبين في الحج من الشعراء السفرَ إلى الحجاز في ذلك العهد على ظهرِ بعيرٍ قويٍّ، طويلِ القوائم، واسعِ الصدر، عريضِ المناكبِ، يتساقطُ وَبْرُهُ على حوافرِه، يَمرُقُ كالطَّير، ويجري في سيره نحو الحجاز جرياً! يقول الشاعر الحاج عن أمنيته تلك بِلُغةٍ شعبيةٍ دارِجة ومعبِّرة[2]: (المديد)

مَتْمَنِّي مْدَرَّبْ دْرُوقُو نَعْت الْقَبَّه غايَسْ في لُوبَرْ لَلضْفَرْ

يَمْشِي مَا هُوْ اقلِيَّلْ في ذْرَاعُو شَلْبَه بالتَّشْبَارْ وَاسَعْ الصْدَرْ

وَمْرَافَقْ بِينْ الاكْتَافْ أوْسَاعْ اللَبَّه يَمْرَقْ طِيرْ مَنْ لَوكَرْ

امتلكتْ الجزائر في العهد العثماني عدداً لا بأس به من رؤوس الإبل، في التَّل فضلاً عن الهضاب والصحراء الشاسعة. فمثلاً تميَّزتْ سوق مدينة قسنطينة باحتوائها على جناح مخصَّصٍ للإبل سُميتْ "رحبةُ الجِمال"[3]، للبيع أو الكراء على السواء[4]، فكان الحجاج يرتادونها كلَّ موسمٍ للتزوُّد بالإبل. أمَّا الذين يرغبون في ركوب البحر من تونس فإنهم يبيعون ما اشتروه من جمال وغيرها بمجرَّد وصولهم إليها. وبحكمِ وجود ما يمكن اعتباره فائضاً من الإبل بالجزائر، كان يتمُّ نقل أعداد منها إلى الخارج، مثلما حدث سنة 1192هـ/1778م، حيث نُقِل 1473 بعيراً من قسنطينة إلى تونس، دُفعتْ فيما بعد لمربِّي الإبل من طرابلس[5].

---

[1]- مولاي التهامي غيتاوي، المرجع السابق، ص355.

[2]- عبد الله كروم: الرحلات بإقليم توات دراسة تاريخية وأدبية للرحلات المخطوطة بخزائن توات، ط خ، دار دحلب، الجزائر، 2007م، ص130.

[3]- الجمل سفينة الصحراء، لكنَّ استخدامه في المناطق الشمالية التلية كان شائعاً في العهد العثماني لغرض الحج، ولغيره من الأغراض. منها استخدامه ـ مثلاً ـ في ثورة ابن الصحري ضد الحكام الأتراك في الشرق الجزائري سنة 1048هـ/1638م، إذْ هيَّأ ابنُ الصحري ومن معَهُ عدداً من الإبل، وجعلَ على ظهورها أكياساً من الرمل كمتاريس، وبعد تهييجها صوَّب وجهتَها إلى مقدمة جيش البايلك، فاضطرب جنود البايلك ودخلهم الرعب والفزع! فانهالَ عليهم الثائرون وأثخَنوهم قتلاً وتشريداً. يُنظر: المهدي البوعبدلي، الحياة الثقافية، مرجع سابق، ص50.

[4]- كمال فيلالي، المرجع السابق، ص15.

[5]- خليفة حماش، كشاف وثائق، مرجع سابق، ص375.

والغالبُ في ركب الحج أن يكون عدد الإبل يفوقُ عدد الحجاج! لأنَّ الركب الجزائري يأخذ معه المئات من الإبل لبيعها أو استبدالها في محطتي طرابلس ومصر، إضافةً إلى المئات الأخرى الموظَّفة في حمل الأمتعة والسلع. فمثلاً ضمَّت إحدى قوافل الركب الجزئية فقط ما لا يقلُّ عن أربعمائة حاج وألف جمل![1] ويتمُّ في السفر الطويل بيع أو تبديل ما ضعُفَ من الرواحل في المحطات المتوالية، فإذا أحسَّ الحاج أن إبِلَه لم تعُدْ تقوَى على مواصلة المسير، قامَ بتبديلها أو بشراء إبل أخرى، لأنها متوفِّرة في المدن والبوادي، حيث تسوِّقها القبائل المنتشرة على طول الطريق[2].

لكنَّ أجودَ الإبل وأصلبها وأكثرها نفعاً للحجاج الجزائريين والمغاربة في سفرهم هي إبل طرابلس الليبية. فإبلُها تشتهر بكثرة الخدمة وقوة التحمُّل، لأنها تمرَّنت على المشاق العظيمة، لذلك قيل في الأمثال بخصوصِ ما يتمنَّى الحاجُّ أنْ يَكسِبَه: "جملٌ طرابلسي وقِرْبةٌ مصرية"[3]. وكانت تُقام بمدينة طرابلس سوقٌ أسبوعية في كلِّ يوم جمعة، تسمى "سوق العمروس"، وهي من أعظم أسواق الإبل بتلك النواحي، تُجلب إليها الإبل من كلِّ مكان، ويقصدها الحجاج المغاربة في ذهابهم للحج بصفة خاصة[4]. أمَّا الحجاج المارُّون بمنطقة فزَّان الليبية (صحراء ليبيا) فإنهم ينتظرون قدوم قافلة كبيرة محمَّلة بالإبل من مدينة طرابلس من أجل الشراء[5].

وعلى غرار طرابلس الليبية فإن الحجاج الجزائريين كانوا يُقدِمون على استئجار الإبل المصرية في خط مصر–الحجاز ذهاباً وإياباً، لأن إبلَهم لا تُطيقُ ما تؤدِّيه إبلُ مصر، فتجد الرُّعاة المصريين (أو الجمَّالين) يُحضِرون معهم عديداً كبيراً من الإبل الاحتياطية، لوعورة السير الذي يتمُّ هناك ليلاً، فينتج عنه نفوقُ عدد كبير منها أثناء الطريق[6]. وهكذا تُباعُ إبل الركب مرة أخرى في مصر، بينما يُفضِّل بعض الحجاج إيداعها عند الفلاحين المصريين إلى حين الرجوع، وإذا احتاج الحجاج المغاربة إلى الإبل في الحجاز فإنهم يكترونها من عند الجمَّالين، أو آغا المغاربة (وكيل المغاربة)[7].

---

[1]- ليون روش، المصدر السابق، ص45.

[2]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص412.

[3]- ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص172.

[4]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص502.

[5]- القيسي السراج، المصدر السابق، ص33.

[6]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص66.

[7]- أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص192.

وتُنظَّم الإبل الموجودة بكثرةٍ في الركب بربطِ ذيول كلِّ أربعة جِمال بعضها ببعض، ووضعها في المقدمة كقاطرة للقافلة، وتعليق أجراس كبيرة حول أعناقها أو أرجلها، فتُحدِث صوتاً موسيقياً مع تعاقب خطوِها، كي تحثَّ الإبل الأخرى في السَّير. فموسيقى الأجراس المعلَّقة أو المحمولة ورنين صوتها تجعل الجِمال نشِطة، فتسير الأمور بانتظام حتى الوصول إلى المحطة الموالية[1].

وخيرُ دليل على أهمية الجِمال ومكانتها في ركب الحج مقولة الحجاج "شيخُهُ جملٌ"! أي أنَّه إذا غاب الاتِّفاق في الركب بسبب ضعف شخصية شيخ الركب، فإنَّ رُغاءَ الجمل يُعدُّ إيذاناً بارتحال الركب أحياناً من غير إذنِ شيخه، فأول من يسمع رغاء بعيرٍ يظنُّ أن الناس يرتحلون فيقوم إلى بعيره، فإذا رآه الذي بجنبِه قام، وهكذا حتى يرتحلَ الركب كلُّه بِرُغاء جمل![2]

ومن أجل ضمان السير الحسنِ للركب كان الحجاج الذين يمتطون الدواب الأخرى يمشون الهوينى من غير سرعة، قصدَ مواكبة ومساعدة الإبل المثقَلة بالأحمال في سيرها. ومن آداب معاملة الحاج لدابته أن يُريحها بالنزول عنها غدوةً وعشيةً، وعند كلِّ عقَبة، ويتجنَّب النّوم على ظهرها، وينبغي ألَّا يمكث على ظهرها زماناً طويلاً وهي واقفة[3]. وغيرها من شروط السقي والعلف، وإلَّا ماتتْ الرواحل، لبُعدِ وصعوبةِ المراحل. وما أجملَ نصيحة الشاعر الجزائري ابن الونَّان التواتي (ت1187هـ/1773م) المتضمَّنة في شمقمقيتِه*: (الرجز)

مَهْلاً علَى رِسْلِكَ حَادِي الأَيْنُقِ   ولَا تُكلِّفْهَا بِما لَمْ تُطِقِ
فَطَالَما كَلَّفتَها وسُقْتَهَا   سَوْقَ فَتًى مِنْ حَالِها لَمْ يُشْفِقِ

ويكفي للتأكيد على أهمية الجمل القصوى لركب الحج في ذلك الزمان أنَّ بعض سكان الجزائر نسَبُوه للحج، فأطلقوا عليه اسم: بابا الحاج Baba Hadjji أي "أبو الحجيج"[4].... كأنَّه هو!

---

[1]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص67.

[2]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص277.

[3]- القيسي السراج، المصدر السابق، ص11.

* **ابن الونَّان التواتي** أبو العباس أحمد بن محمد (ت1187هـ/1773م)، التواتي الأصل، الفاسي الدار، كان والده صاحبَ نوادرٍ وملَحٍ، من نُدماء السلطان العلوي محمد بن عبد الله، فكنَّاهُ بأبي الشمقمق، تشبيهاً له بالشاعر الكوفي الماجن. وتخطَّت هذه الكنية إلى ابنِه أحمد، وإلى أرجوزتِه القافية الشهيرة "الشمقمقية"، التي تعدَّدت أغراضها الشعرية بين الغزل والفخر والحكم. يُنظر: عبد الله كنون الحسني: شرح الشمقمقيّة، ط05، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979م، ص05.

[4]- وليم سبنسر، المرجع السابق، ص142.

02. رواحلُ أخرى مستخدَمة في الذهاب للحج:

بالإضافة إلى الإبل استُخدِمتْ البِغال والخيول والحمير على نطاق واسع في الجزائر العثمانية، فكانت من وسائل النقل الرئيسية في المسارات الداخلية والخارجية، ولا أدلَّ على ذلك من وجود منصب "كبير الحمَّارين" أو "الحَمَّار"[1] في عواصم البياليك (المقاطعات الإدارية الأربع)، للقيام بتجهيز الدواب أو تسليمها أو كرائها.

تميَّز بايلك الشرق بامتلاك ثروة حيوانية معتبرة، وبكثرةِ أسواق البِغال، خاصة في مدينة قسنطينة التي وصفها الرحَّالة المكناسي سنة 1199هـ/1785م قائلاً: "ما رأيتُ بلدة أكثرَ وارداً منها.... وهي منبعُ البِغال فمنها تُفرَّق في البلاد، ولو تَرى ما يدخلُ منها إلى السوق في كلِّ يوم لَتقضّيتَ العجب. يأتي العربُ بها أي بالبغال، يَسُوقونها كأنَّها القطيع من البقر!"[2].

وقد زاحمت البغالُ الصوفَ والجلود والعسل والقمح على رأس الصادرات الجزائرية في القرن 12هـ/18م[3]. أمَّا الخيول فلم تكن بتلك الوفرة مثل البغال والحمير، وكاد امتلاكها يقتصر على البايات والجند والأثرياء من أصحاب الضِّياع، رغم تزويد داي الجزائر لباي تونس بأعداد كبيرة منها في إحدى السنوات، نُقلت من الجزائر إلى تونس في مركب أجنبي رفقةَ خُدَّامها[4]!

تأتي البغال في مقدمة الدواب الموظَّفة في السفر للحج بعد الإبل، نظراً لوفرتها وخصائصها. وكان تجميع البغال وإحضار الخيام بمثابة إيذان بِسفر الركب. وامتلكَ عددٌ لا بأس به من الحجاج هذه المطايا، بل إن أحد الحجاج الجزائريين ـ وهو من وُجهاء الركب ـ أخذ معه في سفره إلى الحج خمسَ بِغال[5]؛ وذلك لكونه من الموسرين، لأن هذا العدد لا يتأتَّى لجميع الحجاج. ويُطلق أحياناً

---

[1]- **الحَمَّارُ**: أو أمينُ الحمّارين، من الوظائف الإدارية في الجزائر العثمانية، ويسمى أيضاً "**باش الحمَّار**"، وهو المسؤول عن الدواب (الحمير بصفة خاصة)، فيتولَّى ضبط أعدادها، وتجهيزها عند القيام بحملةٍ ما. وتذكر بعض المصادر أنَّ داي الجزائر بابا علي بوصبع (ت1179هـ/1766م) شغلَ تلك الوظيفة قبل وصوله إلى سدة الحكم. يُنظر: أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص159. وأيضاً: أندريه ريمون: المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ط01، ترجمة: لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1991م، ص124.

[2]- محمد المكناسي، المصدر السابق، ص329.

[3]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، مرجع سابق، ج02، ص317.

[4]- خليفة حماش، كشاف وثائق، مرجع سابق، ص361.

[5]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص432.

لفظ "البَغَّالة" على من يمتطون البِغال، فقد سمَّى الرحالة الورثِلاني رِفقتَه من راكِبي البغال المتقدِّمين عن الركب قائلاً: ".... نحن البَغَّالةُ تَقدَّمنا إلى القرية"[1].

وتقوم البِغال في السفر إلى الحج بمهام محدَّدة لا تقدر عليها الإبل، إذْ تنفعُ في الإسراع في سقي الماء، أو للبحث عن عيونِ المياه والمواجن (البِرك)، أو تفقُّد ظلٍّ، أو معاينة مكان مناسب لنزول الركب....وغيرها. وكذلك يحتاج ركب الحج إلى من يمتطون البِغال أثناء السفر في مواقف أخرى، من بينها مثلاً: استخدامُها في مناورةِ وإخافةِ اللصوص المعتدين أو المتربصين بالركب في رحلته، أو أثناء نسيان بعض الحجاج لبعض مَتاعهم في منزلٍ معيَّن، يكون الركب قد غادره وابتعد عنه، أو للتخلُّف عن مسير الركب لزمنٍ يسيرٍ بسبب أمر طارئ.... فتؤدي هذه المطايا في مناوراتها وحركاتها السريعة دور السيارات الصغيرة في عصرنا![2].

والملاحظ هو قلَّة أسواق البغال في محطات الطريق، على خلاف الإبل، المتوفرة في أسواق طرابلس الليبية ومصر وغيرهما. لذا اعتاد حجاج المناطق التلية الجزائرية على استبدال أو بيع أعداد من البغال والحمير في أسواق طرابلس بالإبل، التي يحتاجونها بصورة أكبر[3]. كما أنَّ بعض الحجاج الجزائريين كانوا يُريحون خيولهم وبِغالهم بين الفينةِ والأخرى، فينزلون من على ظهورها، ويركبون الإبل المتوفرة بكثرة في الركب[4].

ويستغلُّ الحجاج الجزائريون امتلاك البِغال أيضاً للتجول بالمدن الكبرى التي يحلُّ فيها الركب، مثل مدينة القاهرة المصرية، من أجل قضاء مصالحهم وشراء بعض المستلزمات. أمَّا الذين لا يحوزونها أو الذين قدموا إلى مصر عن طريق البحر فيضطرون إلى كراء حميرٍ مميَّزة بالمدينة، خطواتها أوسع وأسرع من خطوات الخيول! يركبونها ويتجولون بها في أطراف القاهرة الشاسعة، وذلك بسعر 01 بارة (عملة مصرية) للميل الواحد[5]. وقد احتوت القاهرة آنذاك على آلاف المكاريين (سائقي الحمير)، الذين يؤجِّرون الحمير لنقل الأشخاص والبضائع، فكان يمكن استئجار هذه الدواب من

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص234.

[2]- عبد الوهاب التازي، المصدر السابق، ص115.

[3]- ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص173.

[4]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص403.

[5]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص35.

محطات (مواقف) محدَّدة قريبةٍ من مداخل المدينة، وفي الشوارع الرئيسية والأسواق، وقد تصلُ تسعيرة الكراء إلى 30 بارة، إذا ما احتفظ الراكب بالدَّابة التي يمتطيها طوال اليوم[1].

ونظراً لكثرة أعداد الحجاج المتوافدين على بلاد الحجاز، فإنَّ معظم ما يتوفَّر من البغال والحمير في الأقاليم المجاورة لها يتمُّ توجيهُه إليها، كلَّما اقترب موسم الحج، لاستخدامه في التنقل بين أرجائها كِراءً. وهذا الرحالة العياشي يصف الحمير الموجودة هناك بإعجابٍ قائلاً: "ولم أرَ أسرعَ مشياً من حمير الحجاز ولا أوطأَ مركباً، ولا أقلَّ تعَباً مع السرعة المفرطة في المشي، فلقد كنتُ أنظر وأنا راكب إلى أطرافي هل يتحرَّك منها شيء مع الإسراع في المشي، فلا تكاد تتبيَّن لي حركةُ شيء منها"[2]! وذلك رغم أنَّ ركوب الحمير أمرٌ لم يألفه معظم الحجاج المغاربة عموماً.

03. صعوبات تأمين العلَف والكلأ للدواب:

كان التزوُّد بأكبر كمية من العلَف وتأمينُ الوصول إلى الكلأ الشغلَ الشاغل للحجاج، فالعلفُ والكلأُ للرواحل بمثابة الوقود للسيارات في زمننا. لذلك كان الحجاج الجزائريون يتجهَّزون بِعلَف الدواب منذ خروج الركب، ويشترون كميات كبيرة منه في محطات الطريق المشهورة به. فالأصل في تغذية الدواب هو التزوُّد وأخذ الاحتياط، بينما الرعي في الطريق فهو توسعةٌ وإضافة. ويتمُّ عَلْفُ الدواب بعد ارتوائها تبناً أو تمراً أو شعيراً مرتين في اليوم على الأكثر. يقول الرحالة العامري التلمساني ناصحاً للحاج[3]: (الخفيف)

واسْقِهَا مُروِياً لَهَا إنَّمَا تُعْ لَفُ بَعدَ أَنْ يَحصُلَ الإرواءُ
واعْلِفَنْهَا عَشِيَّةً بَلْ وَزِدْهَا عَلَفاً قَبْلَ أَنْ يَلُوحَ الضِّياءُ
وإذَا عَلَفْتَ وأَمْكَنَ تِبْنٌ فَنِعَمْ ثُمَّ شِيحٌ أَوْ حَلْفاءُ

كما اعتاد الحجاج إرسال الإبل إلى المراعي خارجَ البلد الذي يحطُّ فيه الركب، لكي تستريح وتقوى، وذلك إذا انتفى النَّهب والسرقة. وأثناء السفر كان الحجاج يفرحون ويسعَدون حين يَرِدون مرتعاً مليئاً بالحشائش، وعُشب "الحاد"، الذي تُقبِلُ عليه الإبل إقبالاً[4]. وفي مناسبات قليلة كان

---

[1]- أندريه ريمون، المرجع السابق، ص115.
[2]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص153.
[3]- محمد المنوني، المرجع السابق، ص93.
[4]- عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، و05.

أهل القرى أو المدن يقومون بإمداد الحجاج بالشعير لدوابهم، بعد أداء الضيافة[1]، إلا أنَّ ذلك لا يكفي غالباً، فعددُ الدواب التي يضمُّها الركب بالمئات أو حتى بالآلاف!

بالإضافة إلى كلأ الإبل من عشب "الحاد"، انتشرتْ في طريق الحج عشرات الشجيرات من النباتات الرعوية، منها شُجيرة "الضمران"، وهي ذات رائحة زكية، تأكلها الإبل كثيراً ويصلح حالُها بها[2]. كما توجد بعض النباتات السامَّة التي قد تُسبِّب موت الدواب، إنْ أُهمِلت ولم تتمّ مراقبتها، مثل الدفلى والدرياس. لذلك كان الركب يتجنَّب المرور بالأودية التي تنمو فيها هذه النباتات الضارة بالإبل، وإذا تعذَّر ذلك قام الحجاج بتكميم أفواه الإبل ريثما تبتعد عنها[3].

وبحكمِ طبيعة التُّربة ما بين مصر والحجاز فإنَّ الكلأ نادر فيها، لذلك تنشط هناك حركة كِراء أعلاف الدواب للحجاج، إذْ يقوم المؤالون من القبائل العربية بإيصال أحمال دقيق الفول كراءً من مصر إلى بندرٍ أو محطَّةٍ متفق عليها في منتصف الطريق، فيأخذ منها الحجاج ما يكفي الدواب ويُخزِّنون الباقي للعودة. ولتأمين منطلق خطِّ العودة، كان الحجاج يقومون بشراء العلف المتمثِّل في طحين الفول غالباً بالمدينة المنورة، ووضعه على الجِمال المملوكة لسماسِرة الكراء، فتُوصِله إلى نفس المحطات التي تمَّ فيها تخزين الفول سابقاً[4]، وذلك من باب الاحتياط في تغذية الرواحل.

المبحث الرابع: التشكيلُ البشري للرّكبِ الجزائري

01. مكوِّنات الركب الرئيسية واختصاصاتُها

أضحى ركبُ الحج بمثابة قرية نشيطة، تُصبحُ وتُمسي، لكنَّها متنقِّلة، مُرتحِلةٌ نازلةٌ، مساكنُها الأخبية والخيام، وساكِنتُها مجتمع الحجاج المؤقت، المتكوِّن من فئات متباينة، مرتبة ضمن محالِّ الركب بانتظام، على حسب المكانة والوظيفة والاختصاص. ومن أهمِّ تلك المكوِّنات:

أ ـ أميرُ الركب ونخبةُ العلماء والأعيان: أمير الركب أو شيخُ الركب هو ببساطةٍ شيخ القافلة أو رئيس الحجاج، فهو قائد الرحلة أو المهمَّة، له من الحقوق ما له، وعليه من الواجبات ما عليه، كما رأينا ذلك سابقاً. أما العلماء والأعيان فهم ذوو الحل والإبرام، لا يُقطعُ أمرٌ من أمور الركب

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص194.

[2]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص78.

[3]- ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص720.

[4]- يونان لبيب ومحمد مزين، المرجع السابق، ص49.

وشؤون الرِّحلة دون استشارتهم والرجوع إليهم. ووجودُهم في الركب مدعاةٌ لإقبال العامَّة وتشجُّعهم على الذهاب إلى الحج. يقول الرحالة الورثِلاني عن دور العلماء التحفيزي لبقية السكان: "…. فلما سمع الناسُ من عَمالة الجزائر بحجِّ هؤلاء الفضلاء، ونخبة العلماء، حرَّكهُم ذلك إلى شدِّ الرِّحال إلى بيت الله الحرام من كلِّ بلد"[1]، وذلك بعد أنْ عدَّ الورثلاني أسماء العشرات من العلماء وأعيان المداشر ورؤوس الجماعات، الذين جمعهم ركب الحج.

ولتبيانِ أهمية احتواء ركب الحج الجزائري على العلماء والفقهاء في ذلك العهد، يكفي أنْ نذكر أنَّ بعض العلماء الجزائريين كانوا يُرافقون قوافل الحجاج عند مرورها على المداشر والقرى النائية، أو على الأقاليم شبه المستقلَّة عن سلطة العثمانيين، وذلك لحمايتها من أي اعتداء قد يقوم به بعض اللصوص، بفضل الحُرمة والهيبة التي تشكَّلتْ عن العلماء والأولياء الصالحين في مخيِّلة زعماء البدو من القبائل المتمرِّدة آنذاك [2]!

وهناك من الشيوخ من كان يأخذ معه طلبته أو تلامذتَه إلى الحج، فيما يشبه التربُّص الميداني، وحينَ يزور عالماً أو شيخاً صالحاً في الطريق يكونون برفقته. وكذلك يُساعدونه في تعليمِ الحجاج أحكامَ مناسك الحج. واحتواءُ الركب على العلماء والشيوخ والطلبة يُساهم كذلك في تكريس معاني الإيمان والتقوى طيلةَ السفر، وعدم التهاون في أداء الصلوات المكتوبة في جماعة. وقد عبَّر عن ذلك أحد الحجاج قائلاً: "وما فاتَتْني ركعةٌ في جماعة منذُ خرجنا من بلادنا إلى أنْ رجعنا إلى بيوتِنا، وذلك مع الفضلاءِ في أكثرِ الأوقات، والحمدُ لله"[3]. وهذا الرحالة المجاجي يفتخر بوجود العلماء العاملين في الركب الجزائري قائلاً[4]: (الطويل)

وَفِي رَكْبِنَا مِنَ الأفاضِلِ جُمْلَةٌ ... مِنَ العُلَمَاءِ العَامِلِينَ الأَجِلَّةِ
أطَالَ الإِلَهُ لِلأَنامِ بَقاءَهُمْ ... وأَلبَسَهُمْ مِنْ عِزِّهِ خَيْرَ حُلَّةِ

والقضاة ـ كما العلماء ـ لهم شأن واحترام، فهم من نُخبة الركب، يُقدَّمون ويُستشارون، وغالباً ما يُعرَّفون أثناء رحلة الحج بتلك الوظيفة، على منوال قاضي قورارة المدعو "عبد الحكيم بن عبد

---

[1]- الحسين الورثِلاني، المصدر السابق، ج01، ص44.

[2]- المهدي البوعبدلي، التعريف بالكتب والمخطوطات، مرجع سابق، ص144.

[3]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج03، ص122.

[4]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و08.

الكريم القوراري" الذي ضمَّهُ ركب الحج سنة 1000هـ/1592م[1]، وقاضي مدينة المدية المدعو "سيدي ابن نوَّة"، الذي صاحبَ الركب في حَجَّة 1179هـ/1766م[2]. وغيرهم من القضاة الجزائريين على المذهبين المالكي والحنفي المعتمَدَين بالجزائر وقتئذٍ.

وقد اشتهر الركب الجزائري بوفرة علمائه وشيوع ذكرهم في الطريق إلى الحج، وغدَا الحجاج المغاربة يطلبون مرافقة الركب لأجلِهم. حيث ذكر الشيخ الرحالة العياشي أنَّه عزمَ ـ هو شخصياً ـ على الذهاب مع ركب أهل الجزائر، رغبةً في مرافقة فقهائه ونجباء طلبته، ورجاءَ المذاكرة في بعض العلوم، لولا أنَّ أصحابه من أهل مراكش جاءوهُ بأكابر الركب المغربي مستشفعين[3]!

والإقبالُ نفسُه أبْداهُ عددٌ كبير من علماء إقليم فزَّان الليبي، حيث انضمُّوا إلى الركب الجزائري في أحد المواسم، لأنَّ شيخاً جليلاً من شيوخ منطقة توات كان ضمنَه[4]. وهذا فضلاً عن حجاج الركب الجزائري في حدِّ ذاته، الذين يُجِلُّون العلماء، ويطلبون تدخُّلهم في حالات الخلاف، أو لحلِّ بعض الإشكالات، ويقصدونهم لحفظ أموالهم وأماناتهم ووصاياهم.

ويُلاحَظ في رحلات الحج أن العلماء لم يكونوا مُلزَمين بالتقيد بضوابط الركب الإجرائية، من صعودٍ وهبوطٍ وملازمةٍ له.... فنجدهم أحياناً يتقدَّمون الركب، وأحياناً أخرى يتخلَّفون عنه، وذلك بسبب علاقاتهم الشخصية بنُظرائهم في بعض البلدان، وارتباطاتهم العلمية، التي مثَّلَ الحج رافداً من روافدها. فقد كان الذهاب للحج بالنسبة للعلماء مناسبة دينية ومنقبة علمية في آنٍ واحد، يحرص المؤرِّخون والمترجِمون على ذكرها لمترجَمِيهم منهم[5].

ب ـ عامَّةُ الحجَّاج: وهم الحجاج المنتمون إلى الركب منذ انطلاقه من الجزائر، أو الذين انضمُّوا إليه في مسارات الطريق، سواء الداخلية منها أو الخارجية. وما يمكن ملاحظته هو تنوُّع أصول الحجاج، وذلك تبعاً لحجم الركب وشُهرة أميره. وكذلك قيام عائلات بل قبائل بأكملها بالسفر إلى الحج مجتمعة. من أمثلة ذلك ما تضمَّنه النص التالي: ".... ومعنا سيدي أحمد الطيب، ونجلاه

[1]– عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص188.

[2]– الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص264.

[3]– أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص475.

[4]– الفلاني القبلاوي، المصدر السابق، و02.

[5]– أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، مرجع سابق، ص48.

سيدي محمد الكبير وسيدي محمد السعيد، وأخوه سيدي بلقاسم، وابنُ عمِّه سيد الصديق، وابنُ خاله سيدي محمد السعيد... وسيدي أحمد عياض، وأخوه وابنُ أخيه وولدُه... "[1].

ج ـ الحُرَّاس: وجود العساكر الحرّاس في ركب الحج أمر وارد، لكنه ليس ثابتاً في جميع المواسم، ويتأكَّد حضورهم إذا حجَّ مع الركب بعض القادة أو كبار الموظفين الأتراك، وتتوفَّر الحماية للركب بصفة خاصة في الطريق بين مصر والحجاز[2]. ويمكن أن تتبعَ الركبَ قوةٌ عسكرية لحماية التجار وبضائعهم، إذا كان عددهم فيه كبيراً. والمتعارفُ عليه في مواسم الركب الجزائري أنْ يعتمدَ الحجاج على أنفسهم في ضمان الحراسة ليلاً، وحماية أمتعتهم ورواحلهم.

د ـ التجّار[3]: لا يخلو الركب من التجار الحجاج، الذين يستغلُّون رحلة الحج لممارسة نشاطهم التجاري، طمعاً في تعويض الإنفاق وجني الأرباح. ويساعدهم في ذلك وجود وكالات وأسواق للجزائريين والمغاربة عموماً في مصر، تُسهِّل عليهم عملية المبادلات التجارية[4].

هـ ـ "صعاليكُ" الرّكب!: صعاليك الركب ليسوا شعراءَ متمرِّدين على قبائلهم وأعرافِها، من قَبِيل: السّليك أو الشَّنفرى أو تأبَّط شرّاً وغيرهم، ولا يُقصد بهم قطاع الطرق من اللصوص. وإنما هم في أعراف رحلة الحج المغاربية ـ في ذلك الزمان ـ الحجاجُ الفقراء غيرُ النظاميين، الذين لا يملكون تكاليف السفر، ويعتمدون على إحسان الآخرين إليهم[5].

فالصعاليك حجاج كغيرهم، يرغبون في الوصول إلى الحجاز، لكنَّهم عالةٌ على الركب، ينزلون وسطَه احتماءً بظهور مَن معهم، ليأتمنوا على أنفسهم! لا ينفعون الركب بسلاحٍ ولا حراسةٍ بالليل، ولا يحضرون الجماعة، بلْ منهم شرذمةٌ غريبة الأطوار، تحجُّ للتسوُّل واكتساب الفلس والدينار، ولا تميِّز الحلال عن الحرام[6]! وقد حجَّ هذا الصنف بأعداد هائلة ضمن الركب الجزائري في

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص221.

[2]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص68.

[3]- لمعرفة تفاصيل النشاط التجاري المصاحِب لرحلة الحج، والسلع المحمولة، والأسواق الموسمية، يُنظر: الفصل الرابع، المبحث الثاني (ركبُ الحج والنشاطُ التجاري).

[4]- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: المغاربة في مصر في العصر العثماني 1517-1798م، د ط، منشورات المجلة التاريخية المغربية، تونس، 1982م، ص52.

[5]- جوزيف بتس، المصدر نفسه، ص70.

[6]- الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص196.

أحد المواسم، لكنَّ أمير الركب استطاع التخلُّص من بعضهم في محطة طرابلس، حيث اقترح عليهم السفر إلى مصر بحراً، بعدما تعهَّد والي طرابلس العثماني بالتكفُّل بنقلهم إليها[1].

و ـ **"ضيوفُ" الركب؟**: إنَّهم ضيوف بالمعنى المجازي، وهم الحجاج أو غيرهم من الأفراد الذين ينضمُّون إلى ركب الحج أثناء سفره، لمرافقته للحج أو لغرضٍ آخر من الأغراض. ففي إحدى الحالات ـ مثلاً ـ حطَّ عشراتُ الحجاج من مدينة طرابلس رِحالهم في الركب الجزائري، ورافقوه في صُعوده، مستغلِّين صداقاتهم مع بعض علمائه وأعيانه[2]. وفي حالة أخرى أَقْدمَ عشرات الأتراك الفارِّين من حاكم الجزائر على اللجوء إلى الركب خفيةً، واندسُّوا وسط الحجاج، انطلاقاً من منطقة "الخنقة" شرقي مدينة بسكرة[3]. ولم يعُد الأمر يقتصر على تلك الحالات فقط، بل أصبح كلُّ من اشتدَّ عليه المغرَم من الرعية في بلدٍ وعزمَ على الخروج والفرار منها يتوارى بين حجاج الركب[4]! لِتيقُّنِه بِسعةِ صدور الحجاج، واحترام الحكام والعساكر لقافلتهم.

غير أنَّ بعض هؤلاء "الضيوف" النازلين على ركب الحج الجزائري كان وجودهم يتسبَّبُ أحياناً في حدوث اضطرابات في الركب، ومشاكل للحجاج الجزائريين، هم في غِنى عنها. فقد حدث أن انضمَّت طائفة من الفلاحين المصريين الفقراء العازمين على الحج إلى الركب الجزائري، هروباً من احتقار وجَور عساكر الركب المصري لهم، لكنَّ وجودهم أدَّى إلى كثرة الضجيج والخصومات في الركب، لأنهم لا يعرفون نظاماً ولا انضباطاً[5]!

والأسوأ من ذلك حادثةُ تعرُّض الأركابِ المغاربية كلِّها للتفتيش والتعطيل في صعيد مصر، من طرف الجنود الأتراك، بحثاً عن أحد القادة الكبار، الذي كان عُزل من منصبه ولجأ إلى الجزائر، فخافَ المصريون من أنْ يعود ذلك القائد إلى مصر بِنية الانتقام، متخفِّيا بين الحجاج المغاربة، وتعرَّضوا أولاً لركب الجزائر، وفتَّشوا ما استطاعوا، فلم يقفوا له على خبر[6]!

---

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص337.

[2]- المصدر نفسه، ج02، ص13.

[3]- نفسه، ج01، ص236.

[4]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص178.

[5]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج02، ص165.

[6]- ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، و54.

ز ـ دليلُ الرّكب أهميتُه وأجرتُه: الدليل في ركب الحج بمثابة أميرٍ ثانٍ له، فهو المسؤول المباشر عن سلامة خطِّ سير الركب، واستصحابُه ضروري للغاية. يقول الرحالة الهلالي عن أهمية الدليل: "....على الحجاج استصحابُ دليلٍ خِرِّيتٍ ماهرٍ، وإنْ لَا يفعلوا فقد جَعَلوا أعناقَهم في رِبقةِ الضلالِ المبين والعناءِ الباهر"[1]! والحجاج يثِقون في الدليل الماهر، باعتباره سائقَ الركب وهم الركاب المسافرون، ويتغنَّون به في أشعارهم[2]: (الطويل)

سُرِرْنا وطِبْنا حِينَ سِرنَا لِطِيبةٍ ولمْ نَخْشَ مِن طُولِ المسِيرِ التَّمَادِيَا

وَقُلنا اجتهِدْ يَا سَائِقَ الرّكبِ إنَّما تَهُونُ المنايَا إنْ بَلَغْنا الأمَانِيَا

ولأنَّ اختصاص الدليل هو أخطر اختصاصٍ في ركب الحج، كان لزاماً على الحجاج اختيارُه من أهل المناطقِ صعبةِ الاجتياز التي يمرُّ بها الركب، فأهل مكَّة أدرى بِشِعابها. ولم يكن ركب الحج يكتفي باستئجار دليل واحد طولَ السفر، فربما وظَّف العشرات منهم في أقاليم مختلفة، لمعرفة الطريق أو للبحث عن الماء ومواطن الكلأ.

مثلاً أثناء العودة من الحجاز وحين خرج الركب من صعيد مصر متجهاً غرباً استأجر خبيراً لكي يُوصلَه إلى حدود برقة الليبية[3]. وحين توغَّل الركب بين الجبال الليبية المتماثلة اكترى دليلاً من تلك الناحية، لكي يُخرجَ الحجاج من متاهاتها ويدُلَّهم على عيون الماء[4]، لأنَّ في تلك النواحي سبخات كثيرة الوحل ومقاطع صعبة الاجتياز، ولا يعرف ذلك إلا الخبراء بمسالكها.

وهناك مسارات لا يُحتاج فيها إلى الدليل، مثل الدرب المصري أو الحجازي (المقطع ما بين مصر والحجاز)، بفضل مرافقة الحرّاس والجمَّالين الرعاة للركب من جهة، ووجود عدد لا بأس به من الأعمدة المبنية من جهة أخرى، ذلك ما وضَّحه التنلاني في رحلته قائلاً: ".... وسلكنا طريق الصانع، وهي أعمدة مبنية علامةً على الطريق، بين كلِّ عمودين نحو فرسخ أو أقل أو أكثر، وإنما فعلوا ذلك لأنَّ تلك الطريق كلَّها سبخة ورمل، لا يظهر فيها أثر سالكها غالباً"[5]. وعليه فإنَّ

[1]- الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص166.
[2]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص81.
[3]- المصدر نفسه، ج03، ص230.
[4]- عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، و12.
[5]- المصدر نفسه، و18.

الركب يمكن أن يستغني عن الدليل في بعض المقاطع المعلَّمة، أو في بعض المحطات والمسارات التي ألِفَ الحجاج عبورها من تلقاء أنفسهم، خاصةً وأنَّ عدداً معتبراً منهم قد كانت لهم حجَّات سابقة، استفادوا منها في هكذا أمور.

وممَّن اشتهر بوظيفة الدليل في صحراء الجزائر الشاسعة بعضُ عرب "الخنافسة"، الظاعنين بين القليعة (المنيعة) وواركلا (ورقلة)، الخبيرين بدروب الصحراء ومتاهاتها. فكان ركب الحج المغربي ـ وبين صفوفِه حجاج جزائريون ـ يقوم بِكرائهم في تلك النواحي، يقول الرحالة العياشي: "…. قاصدين إلى واركلا، وخرج معنا جملة من أهلها قاصدين الحج، وأخذنا على طريق وادي امكيدن، ومعنا رجلٌ من عرب الخنافسة، اكتراهُ أمير الركب، يدلُّهم على الطريق"[1].

ويُساعد بعضُ الحجاج الدليلَ أحياناً في البحث عن الماء، إنْ كانوا من أهل الخبرة والحِنكة في ذلك، فيذهبون معه لتحرِّي مناهل الماء، المحتمل وجودها بالقرب من المكان الذي يكون الركب قد نزل فيه. وقد يكون الدليل حاجاً من حجاج الركب في حدِّ ذاته، صالَ وجالَ في البلدان من قبل، فيتأثَّر بالفراق، ويحنُّ للوصول إلى الحرمين الشريفين مثلَ بقية الحجاج، كما جاء في توصيف الرحالة الشاعر الشعبي ابن مسايب التلمساني[2]: (المديد)

تَبَّعْ طريق الرَّكب ورُوحْ دَمْعتَكْ فوق الخَدّ تلُوحْ
والدَّليل مليَّعْ مَفْروحْ لِيعْتَهْ وَاشْ يبَرِّيهَا

ويشترك الحجاج في جمع بعض المال لدفع أجرة الدليل والمنادي والعلَّام، وغيرهم من أعوان الركب، ثمَّ يُسلِّمونه لأمير الركب. وأحياناً كان يقع الاختلاف على مبلغ المساهمة، هل يكون على الشخص الواحد، أو على عدد إبِلِه، أو على أحماله من السلع؟ ومهما كان من أمرٍ فإنَّ أجرة الدليل الواحد لا تُعدُّ مُكلفة، ويمكن أنْ لا تتعدى الريال الواحد لدلالةِ خمسة أيام[3]! وسواء بَخُسَ ثمنُها أو غلَا فإن الحجاج لا يضنُّون بها عليه، بلْ هُم يعتبرونها بِشارةَ السلامة، ودليلَ بلوغِ المرام بالوصول إلى البيت الحرام. كما صوَّر أحمد المقَّرِي في رحلته[4]: (البسيط)

---

[1]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص107.

[2]- Ben Messaib, Op.cit, p279.

[3]- ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص159.

[4]- أحمد المقّري، نفح الطيب، مصدر سابق، ج01، ص40.

قَالَ الدَّلِيلُ: أَلَا هَاتُوا بِشَارتَكُمْ فَمَنْ نَوَى كَعْبَةَ الرَّحمَنِ قَدْ بَلَغَا

لكنْ قد يتبادر إلى الذهن التساؤل: هل يمكن أن يَتِيهَ الركبُ بوجود الدليل؟! فعلاً هناك حالة أثبتَتْ ذلك، وهي أن الحجاج الجزائريين مرُّوا بموضعٍ في صحراء ليبيا، بَدَا لهم غريباً، وكأنَّهم ما رأوهُ قطّ، فاختلفوا فيما بينهم، هل دليلُهم حصل له تيهٌ أم لا؟ ولم يقطعوا أمرهم ويتأكَّدوا من أنَّهم قد تاهوا فعلاً إلَّا بعد مسيرة أربعة أيام من الميلان جنوباً نحو الصحراء! ولحسنِ حظِّهم فقد رجعوا إلى الطريق بعد بحثٍ وتحرٍّ، اهتداءً بآثار البِغال التي تركَتْها أركابٌ سَبقَتْهم[1].

ح ـ حاملُ الراية (العلَّام): العلَّامُ هو الشخص الذي يتكفَّل بحمل العَلَم أو الراية طيلة سفر الركب، ومهمتُه رفع الراية عالياً أو نشرها في أوقات معينة معتادة، أو في أوقات استثنائية. ومِن ثَمَّ يمتثِل الحجاج لإشارته بعد رؤيتهم للراية، ويقصدون موضعها. ويُعتبر توقُّفُ العلام عن المشي أو نزولُه عن مركوبِه ـ وهو يرفع الراية الكبيرة ـ إيعازاً للركب بالتوقُّف والنزول، ومن رأى الراية من الحجاج مرفوعةً فما عليه سوى الامتثال[2]. وكان اللونُ الأخضر هو لونَ العلم المحمول من طرف الركب الجزائري في أغلب الأحيان. مثلما نُصِّب في ركبِ حجٍّ، هذا شاهدُه[3]: (المديد)

مَنْ اقْصُورْ أَقَبْلِي نْرُوحْ يَا خَاوْتِي سِرْبَة بطبَلْنَا وَعْلاَمْنَا اخضَرْ

ط ـ المُنادِي (البرَّاح): يُعرف المنادي في العُرف الشعبي المغاربي بالبرَّاح، وهو من أعوان الركب الموظَّفين في مجال الإعلام آنذاك. يُنادي البرَّاح بأعلى صوته بين الفينة والأخرى لإخبار أكبر عدد ممكن من الحجاج بما يقع في الطريق من مستجدَّات، منها هذه النماذج التي وقعتْ في بعض المواسم: دعوةُ الحجاج قبلَ رحيل الركب من أحد المنازل إلى حمل الماء ليومين متتاليين[4]. ومنها ـ في حادثٍ طارئ ـ حصول المناداة و"التباريح" على أنَّ الركب قد ضلَّ الطريق ووقع في التِّيه[5]! كي ينتبهَ الحجاج لذلك الأمر الخطير. ومنها ـ في حالة أخرى ـ تذكير الحجاج بالوصول إلى الميقات المعلوم من أجل الإحرام، ذلك ما عبَّر عنه الرحالة الشاعر في قوله[6]: (الطويل)

---

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص433.
[2]- المصدر نفسه، ج03، ص231.
[3]- عبد الله كروم، المرجع السابق، ص131.
[4]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و07.
[5]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج01، ص433.
[6]- ابن رشيد البغدادي، المصدر السابق، ص30.

وَنَادَى مُنَادٍ للحَجِيجِ لِيُحْرِمُوا فَلَمْ يَبْقَ إلَّا مَنْ أجَابَ وَلَبَّاهُ
وَصِرْنا كأَمْواتٍ لَفَفْنَا جُسُومَنَا بِأَكْفانِنا كُلٌّ ذَلِيلٌ لِمَولَاهُ

بالإضافة إلى "البراح" لم يَخْلُ ركب الحج الجزائري من المؤذِّنين، الذين يصدحون بصوتِ الحق لتنبيه الحجاج إلى مواقيت الصلاة، ودعوتهم لحضور الجماعة ليلاً ونهاراً. وكان منهم ـ مثلاً ـ مؤذِّن من منطقة القرارة بوادي مِزاب، يُدعى "سعيد بن قاسم"[1]. وأصبحَ بمقدور الحاج أن يؤدِّيَ الصلوات كلَّها في جماعة، رغم ضخامة الركب ومشاقِّ السفر ومخاطره! وخاصة إذا علمنا أنَّ عدد المؤذنين في الركب يزداد بازدياد عدد الحجاج، حيث يذكر العياشي أنَّ ركبهم المراكشي الكبير ضمَّ عشرة مؤذِّنين، يَرتَجُّ بأصواتهم الركب في الثلث الأخير من الليل[2]! ولعلَّ عددهم في الركب الجزائري أكثر، قياساً على عددهم في المغربي، ونظراً لِما كان بين الركبين من تنافس وعِناد.

ي ـ صاحبُ الطَّبل: الطَّبل وسيلة من وسائل الإعلام المتاحة في ذلك الزمان، وهو ضروري في ركب الحج، بلْ هو يرمز في دلالته المعنوية إلى سلطة أمير الركب، الذي واظَبَ ـ بادئَ ذي بدءٍ ـ على ضرب طبله في المدينة المحروسة "الجزائر" وفي غيرها من المدن، لإعلام الناس بِقُرب موعد سفر ركب الحج، على عادة أمراء الأركاب في ذلك الشأن.

ويُستخدم في سفر الركب طبلٌ كبير من نحاس، يضربه صاحبُه وقت قيام الركب ووقت نزوله، ضربةَ الإعلام بالتهيُّؤ. ويوضع بعد العودة من الحج في خباءٍ مخصَّص له، حيث أنه يُعتبر من الأوقاف العامة[3]. وقد يتناوب مجموعة من الأعوان على دقِّ الطبول الضخمة، بعد انقضاء فترة الراحة، إيذاناً بجمع الخيام وتحميل الجِمال لمواصلة رحلة الحج[4].

ك ـ الجمَّالون والرُّعاة: الجمَّالون هم سائِقو الجِمال، الذين يقومون بكرائها للحجاج لنقل البضائع أو لنقل الأشخاص. وهم طائفة خدماتية انتشرت وازدهر نشاطُها في معظم المدن العربية في العصر العثماني[5]. أمَّا الشخص الذي يقود البِغال ويتولَّى ربطها في مَربط الدواب فيُدعى

1- إبراهيم المصعبي، المصدر السابق، ص83.
2- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص160.
3- محمد المنوني، المرجع السابق، ص14.
4- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص69.
5- أندريه ريمون، المرجع السابق، ص115.

"السَّائِس"، وكبيرُ تلك الطائفة يُدعى "رئيس السُّيَّاس"[1]. والرُّعاة هم مَن كانوا يقومون بإخراج إبل الركب إلى ضواحي المدن الكبرى ومراعيها، بحكمِ أنَّ الحجاج قد يمكثون فيها لأيام أو أسابيع، على غرار مدينتي طرابلس والقاهرة.

لكنْ يبقى الجمَّالون أشهر الأعوان في طريق الحج من الرُّعاة، رغم أنهم لا ينضمُّون إلى الركب ـ في معظم الحالات ـ إلَّا بعد وصوله إلى المحطة المصرية، فيسوقون الجِمال أثناء إنزال حمولتها للراحة وتقديم العلف لها سَوْقاً قاسياً. ويبدو أنَّ عددهم كان كبيراً في الركب، حيث ذكر الورثلاني في رحلته أنَّ بعض الحجاج الجزائريين ضلُّوا الطريق في أحد المقاطع، ولم يهتدوا إلى مكان الركب إلا بعد سماعهم صوت سائقةِ الإبل، وذلك من وراء أحد الجبال[2]!

لَطالما اشتكى الحجاج المغاربة عموماً من هؤلاء الجمَّالين الذين يضطرُّون لمرافقتهم اضطراراً، نظراً لاحتكارهم بيعَ وكراءَ الإبل وأعلافها في تلك الجهات، إذْ يصعب على الحجاج ضمان ذلك، لضيق الوقت وندرة التموين. وأصبح الحجاجُ يَعُدُّون الجمَّالين من مصائب الطريق المسلَّطة على الإبل، ومِن ثَمَّ على مستخدِميها من الحجاج، كما نقلَ الشاعر[3]!: (الرجز)

كَمْ جَمَلٍ مُنْتَصِبٍ لِلشَّقَا   مَا جَرَّهُ الجَمَّالُ إِلَّا انْكَسَرْ
وَكَانَ فِي الرَّكْبِ يُرَى مُبْتَدَأً   فَمَا لَهُ مِنْ بَعْدِ هَذَا خَبَرْ

وفي مواسمَ حجٍّ كثيرة كان الحجاج الجزائريون يقعون ضحية تحايل وطمع الجمالين، حيث يتفقون معهم على كراء الإبل من مصر إلى بلاد الحجاز، أو العكس، ثمَّ إذا ما وجدوا فرصة للهروب في إحدى محطات الطريق التي خَبَروا مسالكها، هربوا بالإبل وما تحمله، تاركين الحجاج وراءهم في حيرة كبيرةٍ من أمرهم. بل إنَّ مِن الجمَّالين من كان يرفض الاستمرار في نقل الحجاج ومتاعهم، إذا وجد العلف في الطريق غاليَ الثمن[4]. وذلك رغم اتفاقهم المسبق مع الحجاج، والوعود المقطوعة من طرفهم بعدم التحايل أو الخديعة!

---

[1]- محمد بن عمر التونسي: تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، د ط، تحقيق: خليل محمود عساكر ومصطفى محمد مسعد، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1965م، ص20.

[2]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص134.

[3]- ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، و65.

[4]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج03، ص136.

ل ـ أعوانٌ آخرون[1]: بالإضافة إلى مَن تمَّ ذكرهم، ضمَّ ركب الحج أعواناً آخرين أقلَّ شهرة، مثل الشخص المكلَّف بإيقاد النيران في المشاعل للإضاءة، وتزويدها بالحطب كلما أوشكتْ على الانطفاء[2]، والمعروف في المشرق باسم "المشاعلي". وأيضاً العون الخبير المتخصِّص في معاينة مياه الآبار المنتشرة على طول الطريق، فيُرسله الحجاج لتلك المهمة، كلما وقفوا على عَينٍ من عيون الماء[3]. وهناك مِن الحجاج مَن وطَّنوا أنفسهم على تقديم خدمات عامَّة لزملائهم طيلة السفر، تطوُّعاً منهم، وتجسيداً لمعاني المودة والتآلف بين أفراد الركب.

02ـ المرأة الجزائرية وأحوالها مع رحلة الحج

أ ـ المرأة والحجّ...تحدّيات وخصوصيات:

لم تعدَمْ الجزائر في الفترة العثمانية وجود نساء رائدات فاضلات، ارتبطتْ أسماؤهن بالنبوغ في مجالات شتّى، ويكفيهن فخراً أنهنَّ كنَّ يعتنين بتربية أبنائهن تربية دينية، ويُمهِّدن لهم طريق العلم والريادة. ذلك ما قامت به ـ كمثال فقط ـ والدة الشيخ سعيد المقَّري شيخ الرحالة أحمد المقَّري، وكذا عمَّة الشيخ المصلِح الإمام محمد بن علي السنوسي[4]، وغيرهما.

أمّا المرأة المحسِنة "ستي مريم" فقد أنفقَت من مالها الخاص على بناء مسجد حمل اسمها، في أواخر القرن 11هـ/17م[5]. وكذلك السيدة "الدايخة بنت بن قانة" التي كانت كثيرة الفضل والخيرات، وتركتْ وراءها وقفاً طائلاً لسُبُل العلم والخير[6]. وكانت السيدة "خديجة بنت عبد السلام" قد أوقفتْ بستاناً بمدينة الجزائر، وجعلت مرجعه الأخير لفقراء الحرمين منذ عام

---

[1]- يتباينُ عدد الأعوان أو الخُدَّام من ركبٍ لآخر، حسب حجمه ومدى تنظيمه وشخصية أميره. كما نجد موظَّفين يحملون أسماء غريبة في أركاب بلاد المشرق، ولا نجدها في أركاب بلاد المغرب. مثل: الدوادار، العكّام، السيروان، المشاعلي، الزدركاش، الفرَّاش، القبائي، الجرائحي، السيَّاف، كاتب الأمير، الشعَّارة، مبشِّر الحاج، أمير آخور، قافلة باشي، المخبزي.... يُنظر: سميرة فهمي علي عمر، المرجع السابق، ص207.

[2]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص68.

[3]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و05.

[4]- المهدي البوعبدلي، الحياة الثقافية بالجزائر، مرجع سابق، ص101.

[5]- حسين بن رجب شاوش بن المفتي: تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، ط01، تحقيق: فارس كعوان، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، سطيف، 2009م، ص93.

[6]- الشريف الزهار، المصدر السابق، ص92.

994هـ/1586م. وعلى خُطاها ـ في تعظيم الحرمين الشريفين ـ سارت السيدة "مريم بنت حبيب" التي حبَّستْ عام 1058هـ/1648م بستاناً على الروضة النبوية الشريفة بالمدينة المنورة[1].

لقد تميَّزت بعض النساء الجزائريات بامتلاك البساتين والعقارات والأموال آنذاك، لكنَّ الأهمَّ من ذلك ـ فيما يتعلَّق بالسفر للحج ـ وجود نساء امتلكن عدداً من الحِصص في المراكب والسفن بالشراكة مع الرجال، عُرفتْ باسم "الخروبات"[2]. على منوال كلٍّ من: فاطمة بنت الحاج محمد بن الحاج حميد، وآمنة بنت الحاج مصطفى جرادو[3]. بل إن إحداهنَّ وهي السيدة "زهرة باي" امتلكت بمفردها سفينتين من نوع "الغليوطة"، ساهمت بهما في عمليات نقل الغنائم والعساكر[4]. ولا يخفى أن السفينة هي الوسيلة الأيسر في النقل، والمركوب المناسب لسفر المرأة إلى الحج.

رغم ظروف الحج الصعبة في ذلك الزمان إلا أن النساء كنَّ حريصات على مرافقة الرجال ضمن الركب، فنساءُ شيوخ الركب كنَّ يُرافقن أزواجهن، بل ويذهبن إلى الحج بأولادهن الصغار[5]. وهذا الرحالة العياشي يصف أحد الشيوخ الجزائريين الذين لقيَهم في طريق الحج بأنه "كان يسير غالباً للحجاز بنسائه وأولاده"[6]. ومن أدلة إقبال النساء على الحج أن الشيخ الورثِلاني ذهب إلى الحجاز بعِياله وهنَّ ثلاث نسوة: زوجتَيه: بنت سيدي عبد الله بن رحاب وبنت سيدي السَّعد، وزوجة ابنه البِكر محمد[7]. وكان معهم في الركب المدعو "سيدي محمد بن قسوم"، وهو من أصحاب المخزن (أي السلطة)، وقد حجَّ هو كذلك بعيالِه وأولاده جميعاً[8].

تستخدمُ المرأة لسفرها إلى الحج الهودج أو المحمل المهيَّأ لها، الموضوع على الأقتابِ المخصَّصة، المشدودةِ على سنام البعير، وقد يحمِل الهودج الواحد امرأتين اثنتين في آن واحد. ويقوم الحجاج طيلةَ السفر بمراقبة الجِمال الحاملة للنساء وحراستها، واستبدال ما بَدَا عليه الضعف منها،

---

[1]- عائشة غطاس، أوقاف الحرمين الشريفين، مرجع سابق، ص213.

[2]- **الخروبات**: (مفردها الخروبة) تعني الحصص أو الأنصبة، وتقابلها "الأسهم" في عصرنا الحالي.

[3]- خليفة حماش، الأسرة في مدينة الجزائر، مرجع سابق، ص763.

[4]- ابن المفتي، المصدر السابق، ص13.

[5]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و06.

[6]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص112.

[7]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص198.

[8]- المصدر نفسه، ج01، ص407.

ويلجؤون إلى تخصيص بعض مجاري عيون الماء المعزولة والمستورة لاغتسال النساء ليلاً، بعد مراقبتها وإعدادها لذلك[1]. وتنزل النساء في الحرمين الشريفين وغيرهما من المدن مع محارمِهن في بيوتٍ يتمُّ كراؤها خصيصاً. ويقُمْنَ بأداء مناسك الحج المعهودة، لكن مع تفضيلهن القيام بطواف القدوم ليلاً[2]، لتجنُّب الازدحام المحتمل في النهار، وتلافي أوقات الحرِّ الشديد.

غير أنَّ محارم النساء من الحجاج الجزائريين ينشغلون دائماً بمتطلبات نسائهم في السفر، ويسعون جُهدهم لصون حُرمتهِنَّ، نظراً لِفظاعة وهول ما قد يلحقُ بهنَّ من قطاع الطرق، في رحلة الحج المحفوفة ـ أصلاً ـ بالمخاطر، والتي تُصيب النساء كما الرجال.

لكنَّ هول الحادث المروع التالي الذي تعرَّضت له نساءٌ حاجَّات من مصر وبلاد المغرب في رحلة العودة قد يُغني عن التعليق: ".... وفي يومِ الأحد نزلَ الحجاجُ ودخلوا مصر على حينِ غفلة، وهم في أسوأ حال من العُري والجوع، ونُهِبتْ جميعُ أحمال أمير الحاج، وأحمال التجار وجِمالهم وأثقالهم وأمتعتهم، وأَسَرَ العربُ جميعَ النساء بالأحمال، وكان أمراً شنيعاً جداً.... وخرجتْ الناسُ (من مصر) أفواجاً، كلُّ من وجدَ امرأتَه أو أخته أو أمَّه أو بِنتَه وعرفها اشتراها ممَّن هي في أَسْرِه"[3]!؟. وقد تكرَّرت تلك الأحداث المسيئة الشنيعة في درب الحجاز بصفة خاصة.

لا شك أنَّ ذلك الحادث الفظيع وأمثاله قد ساهم في امتناع الكثيرات من النساء عن السفر إلى الحج في ذلك الزمان العصيب، وتناقص أعدادهن في الركب. ولعلَّ تلك الأعمال المشينة هي التي جعلت أحد الحجاج يكتب على حجارة ضخمة في طريق الحجاز العبارة التالية: "إنَّ أقبحَ الناس من أتى إلى الحجِّ بامرأة"! وقد شاهدَها حجاجٌ جزائريون وحاولوا تأويلها[4].

ب ـ نماذج لنساء جزائريات حاجَّات:

دأبتْ النساء الجزائريات على زيارة الحرمين الشريفين في كلِّ موسم حج، وخاصة عندما يسود الأمن في الطريق لسنوات متتاليات، فإنَّ العزم على الحج يقع ـ كما ذكر الورثلاني ـ من عامة الجزائريين ومن خاصتهم، من أهل الحاضرة وأهل البادية، لدرجة أنَّ معظمهم يذهبون إليه بنسائهم

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص268.
[2]- المصدر نفسه، ج02، ص265.
[3]- عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج02، ص202.
[4]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج02، ص377.

وأولادهم[1]. ويصبح اسم المرأة بعده متحلِّياً بِوسمِ "الحاجَّة"، على منوال: الحاجة عائشة بنت سيدي السعيد، والحاجة شريفة والدة الحاج أحمد باي، والحاجة فاطمة بنت أحمد السلاوي، والحاجة عويدة بنت محمد، والحاجة فاطمة بنت عبد الله، وأختها الحاجة عويشة.... [2].

بالإمكان تمييزُ صنفين من النساء الجزائريات من اللائي كنَّ يُداومن على الذهاب إلى الحج، ويُسجِّلن حضورهن في الركب بجلاء. نساء قريبات للولَّاة والموظفين الأتراك، محظوظات بما يتلقَّينَه من دعم وعناية في السفر من لدن ولَّاة الأقاليم والإيالات. فمثلاً استفادت إحدى قريبات باي قسنطينة من هدايا معتبرة في تونس، وذلك بمناسبة عبورها وذهابها إلى الحج، وجُوزيَ التركي الذي أحضر الهدايا لتلك المرأة بمبلغ مالي[3].

والصنف الثاني يشمل نساءَ وقريباتِ الشيوخ وأمراء الركب، حيث كنَّ ينتهزن الفرصة لمرافقتهم في أسفارهم المتوالية، مثل "عويدة بنت محمد بن علي أبهلول" عمَّة أميرِ الركب الشيخ أبي الحسن بن ناجي البسكري، والتي اشتهرَ وجودها في الركب ذلك الموسم، وأثنَى عليها مُرافقوها من الحجاج، ووُصِفت بأنَّها امرأةٌ صوَّامةٌ قوَّامة صالحة، موسرةٌ تُنفق من مالها الخاص[4]!

ومن نماذج النساء الرائدات كذلك في ركب الحج حاجَّةٌ جزائرية اسمُها "عويشة" بنت الشيخ سيدي عبد الله بن رحاب، وأصلها من عرش أولاد درّاج (نواحي الحضنة)، حيث أضحت محلَّ إعجابِ وتقديرِ الحجاج بمعيةِ أختها، لكونها ".... غايةٌ في الأدب والفهم والفطانة، تقرأ نحو الربع من القرآن، وتحفظ العقيدة الصغرى للشيخ السنوسي، وبعض الرسالة لابن أبي زيد القيرواني، وكذا وظيفة الشيخ زروق البرنسي من الأذكار، وكذا أختها فاطمة لا تقلُّ عنها قدراً"[5].

وممَّا يُؤثر عن النساء الجزائريات المقبلات على الحج وقتئذٍ أنهن كنَّ يسافرن وهنَّ حوامل، ويَضعْنَ أولادهن في ظروفٍ صعبة للغاية. فيُذكر أنَّ زوجة أحد الشيوخ المسمَّى عبد الرحمن الذويبي العمري من نواحي بجاية وضعتْ مولودها في أشدِّ المناطق قساوةً على الحجاج، وهي صحراء برقة

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص44.

[2]- يمكن إحصاء عشرات الأسماء لنساء جزائريات حاجَّات من كتب الرحلات وغيرها، لكنْ دون ذكر تفاصيل وافية عنهنَّ.

[3]- خليفة حماش، كشاف وثائق، مرجع سابق، ص343.

[4]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و01.

[5]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج03، ص112.

الليبية[1]. بينما أنجبت زوجة أحد الشيوخ من صحراء الجزائر ولدها في مكة المكرمة أثناء الموسم[2]. وهي حالات تدلُّ على إقدام النساء الجزائريات، وتحدِّيهن الصعاب والمخاطر المتوالية.

يُذكر أن عدداً من النساء الجزائريات الحاجّات قد مكثنَ مع عوائلهنَّ بالحرمين الشريفين، وساهَمنَ في تشكُّل جالية جزائرية معتبرة بالمدينة المنورة خاصةً. لكنَّ صِلتَهُنَّ بالجزائر لم تنقطع بسبب ذلك، فأصبحنَ يتلقَّينَ حِصصاً من الأموال الموقوفة على الحرمين الشريفين، وقد تراوحتْ قيمة الحِصَّة الواحدة بين دينارٍ وثلاثةِ دنانيرَ ذهبية. وفيما يلي نماذج عنهنَّ: الحاجة مستورة بنت موسى التواتي، والحاجة مباركة بنت الحلاب الجزائرية، وعايشة بنت محمد الخياط الجزائرية، وفاطمة بنت محمد الجزائرية، وآمنة بنت الجيلالي الشريف الجزائرية....[3].

المبحث الخامس: حجمُ الركب الجزائري ومراحلُ سيرِه

01. حجمُ الركب وأسباب التباين في عدد الحجّاج:

إنَّ إقبالَ الناس على الحج أو عزوفهم عن السفر إليه تبعاً لعدَّة عوامل داخلية وخارجية هو الأساسُ في تحديد حجم الركب، فالشخص الذي يعزم على الحج ويُرافق الحجاج يكون قد انتظم في سلك الركب، وعُدَّ من مكوِّناته. لأنَّه بعد انضمامه إلى الركب يصطحبُ معه رواحله ولوازمه ومؤونته وخيمته، وأحياناً بضائعه. ووجود التجار مع جِمالهم بأحمالها ضمن القافلة يزيد في ضخامة ركب الحج[4]. وكذلك عزمُ الحكام وكبار الموظفين الأتراك على الانضمام إلى الركب البرّي يزيد في حجمه، فهم غالباً ما يُسافرون في أبَّهة كبيرة، فيُضاعِفون عدد الرواحل والمعدَّات.

كان حجم الركب الجزائري قُبيل مجيء العثمانيين الأتراك معتبراً، حيث يُذكر أنَّه ضمَّ في أحد المواسم ثلاثمائة مسكن، ما بين خباء وقيطون (أي خيمة)، وكلُّ خيمة ضمَّتْ جماعة من الحجاج[5]! ومنه نستنتج أنَّ هذا الركب عامرٌ بآلاف الحجاج وآلاف الإبل وغيرها من الدواب. ثمَّ

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص434.

[2]- عبد المجيد قدي، المرجع السابق، ص133.

[3]- عائشة غطاس، أوقاف الحرمين الشريفين، مرجع سابق، ص223.

[4]- حسام محمد عبد المعطي: البيوت التجارية المغربية في مصر العثمانية، د ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2008م، ص221.

[5]- نصر الدين بن داود، المرجع السابق، ص277.

تناقصَ حجم الركب في القرن 10هـ/16م، أي في مرحلة تثبيت الوجود العثماني بالجزائر وتونس وطرابلس، بسبب فقدان الأمن في الطرق البرية والبحرية، واستمرار عملية بسط النفوذ العثماني على الحجاز مقصد الحجاج، بعد التمكن من ضمِّ مصر سنة 923هـ/1517م. لذا فإن أعداد الحجاج في العقود الأولى للوجود العثماني بالمنطقة كانت قليلة، والذين حجُّوا في تلك الظروف لقوا مشقة كبيرة، بسبب الغلاء وندرة الجمال وهجوم البدو في الحجاز[1].

أخذ حجم الركب الجزائري يتزايد بشكل ملحوظ مُطَّردٍ في بعض مواسم القرن 11هـ/17م، وبدأت ملامح تضخُّمه تظهر للعيان، من خلال اتِّساع الأبعاد والمسافات بين مقدِّمة الركب ومؤخِّرته، ومن خلال احتياجه لمساحات إضافية أكبر لنزوله أو عبوره. ذلك ما أقرَّ به الرحالة المغربي العياشي عن ركب الجزائر، وصوَّره في المشهد التالي: "..... وقصَدنا الجابية، والركبُ الجزائري أمامَنا، يتراءى لأولِنا آخِرُهم، وفي اليوم الثالث نَزَلنا الجابية عصراً، ومررنا بهم وهم نزول، فبعثوا إلينا أنْ تأخَّروا عنَّا حتى نرتحلَ أمامَكم"[2]!

لكنَّ مواسم القرن الموالي 12هـ/18م مثَّلتْ مرحلة التنامي والتزايد في أعداد الحجاج، بحكم الانتعاش الأمني والاقتصادي والثقافي الذي عرفتهُ الجزائر عامةً، حينَ جمعتْ لها الأقدارُ ثلاث شخصيات قوية حاكمة هي: الداي محمد بن عثمان باشا (ت1205هـ/1791م) وصالح باي قسنطينة (ت1206هـ/1792م) ومحمد الكبير باي وهران (ت1206هـ/1792م). ولا أدلَّ على ذلك من كثرة مذكِّرات الرحلات الحجازية الجزائرية المدوَّنة في ذلك القرن، وورود أسماء العديد من العلماء والموظفين والطلبة والنساء، الذين أدّوا مناسك الحج في مواسمه.

لقد قدَّر الرحالة الورثِلاني عدد الحجاج الوافدين على الركب مع قافلةِ منطقة زواوة ـ مثلاً ـ قائلاً "وجاءنا الرّكبُ من جبلِ زواوة، نحو الثلاثمائة رجل"[3]! لكنْ هل خلَا ذلك الركب من النساء؟ أمْ أنَّ الورثلاني قد غفلَ عن ذكرهم، ومِن ثَمَّ عن عدِّهم؟ وكم يكون عدد حجاج ذلك الركب الإجمالي، إذا علمنا أنَّ العدد المذكور (300) هو حصَّة منطقة زواوة فقط، وسوف تنضمُّ إليهم قوافل أخرى من جهاتٍ مختلفة، برواحلها وعتادها ومستلزماتها؟

---

[1]– أحمد الرشيدي، المصدر السابق، ص16.

[2]– أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص496.

[3]– الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص87.

بناءً على ما ذُكر يمكن تقدير أعداد الحجاج المكوِّنين للركب الجزائري بالآلاف أو يزيدون. وهناك وقائع تُشير إلى ذلك، من بينها الواقعة التالية: في أحد المواسم وقعَ انفصال عددٍ من فقراء الحجاج فقط عن الركب في محطة طرابلس، واتَّجهوا لمواصلة رحلة الحجِّ بحراً، وبلغَ عدد هؤلاء المنفصلين حوالي الثلاثمائة، ورغم ذلك فقد وُصفوا بأنَّهم جزءٌ يسير[1]. فإنْ كان اعتبار الثلاثمائة من الحجاج جزءاً يسيراً في الرّكب، فما بالك بالعدد الإجمالي للحجاج؟

إنَّ ما يُعضِّد تلك التقديرات لعدد الحجاج الكبير هو تواترُ الأخبار والشهادات عند معظم الرحالين بشأن طول المدة الزمنية التي أضحى ركبُ الحج يستكمل فيها عمليتي النزول ثمَّ الارتحال المترادفتَين عند كلِّ محطة أو منزلٍ، وكثيراً ما تُصادفنا في المصادر العباراتُ التالية: "ونزل أولُ الركب مع الغروب، ولم ينزل آخِرُه إلا بعد العشاء"! أو "وانتظَرْنا الركب، فلمَّا تلاحَقَ سِرنا"! أو "ولَحَقْنَا أواخرَ ركب الجزائر"!....[2]. وكلُّها عبارات دالةٌ على حجم الركب وكثرة الحجاج.

وهذا الرحالة الورثِلاني يصف ركب الجزائر الذي حجَّ ضمنَه بأنَّه لم يكن أعظم منه، وما طلعَ ركبٌ من بلاد المغرب مثله في الكَثْرة. بل إنَّ أهل طرابلس وأهل مصر اندهشوا من حجم الركب في موسم 1179هـ/1766م، وخاطبوا الحجاج الجزائريين: "منذ حصلَ لنا التمييزُ ما طلعَ ولا جاءَ ركبٌ من المغرب مثلَ هذا الركب، إذْ فيه ألوفٌ مؤلَّفة"[3]!؟ إنَّ هذه الشهادة بمثابة اعتراف صريح بضخامة عدد وعُدَّة ركب الجزائر، وبلوغه ذروة سنام التنامي في ذلك الموسم.

وشبيهٌ بذلك ما حدث في موسم حجِّ 1193هـ/1779م، فبعد وصول الأركاب المغاربية في أزمانٍ متقاربة إلى مصر.... "ماجتْ مصر وهاجت في أيام خروج الحج، بسبب الأطلاب، وجمع الأموال، وطلب الجمال والبغال والحمير.... ولم يُعهَد حجٌّ مثل هذه السنة في كلِّ شيء، وسافرَ فيه خلائق كثيرة من سائر الأجناس"[4]!

وفي أواخر سنين الحكم العثماني للجزائر أقبلَ الناس على الحج إقبالاً، مثلما كان في السابق، وذلك بفضل استتباب الأوضاع الأمنية في المشرق، وتمكُّن والي مصر "محمد علي باشا" من بسط

---

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص377.

[2]- يُنظر هذه النماذج وأمثالها في كتب الرحلات المغاربية، خاصة رحلات: الورثلاني والعياشي والدرعي....

[3]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج02، ص07.

[4]- عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج02، ص74.

سيطرته على الحجاز وطريقِه، إثرَ قضائه على السعوديين. فتوافدَ الحجاج بأعداد كبيرة على مصر في موسم 1233هـ/1818م، بعدما انتقلوا للحج أفواجاً من الجزائر في هذه السنة[1]. وقبيلَ الاحتلال الفرنسي للجزائر تضاعفَ عدد الحجاج، فقد أصبحوا يتجمَّعون في مراكز الانطلاق من الغرب الجزائري بالآلاف، ويُقيمون "بحراً" من الخيام حول خيمة أمير الركب[2]!

تبدو الإحصاءات بخصوص حجم الركب الجزائري تقديرية، نظراً لتعدُّد منافذ الحجاج، ولصعوبة ضبط الأعداد قبل الوصول إلى الحجاز، فبعضُ الراغبين في الحج من خارج الجزائر كانوا ينضمون إلى الركب أثناء مسيره. حيث كان يتوقف في كلِّ محطة، ليتيح الفرصة لمن يرغب في الحج للالتحاق به[3]. أمَّا الأعداد الإجمالية للحجاج المسلمين، الواقفين في صعيد عرفات سنوياً في ذلك العصر، فقد كانت تتراوح ما بين سبعين ألفاً ومائة ألف حاج[4]. ولو افترضنا أنَّ معدَّل أعداد الحجاج الجزائريين في حدود سبعة آلاف فقط، بناءً على ما نُقِل من شهاداتٍ صنَّفَتْهم بالألوف، فإنَّنا نجد حجَّاجنا قد حقَّقوا نسبة مُذهلة: 10% ممَّن وقفوا بِعرفة! أيْ عُشُر الحجاج المسلمين قاطبة! فعلاً أصابَ المؤرِّخ المغربي "المنوني" في مقارنته لأعداد الحجاج بين عصرين متباينين: "لقد تضخَّم عددُهم في دولة الإبلِ والشِّراع.... بقدرِ ما قَلُّوا في عصر البُخارِ والطَّيران!؟"[5].

02. تباينُ مواقيت خروج الركب الجزائري[6]:

إنَّ الحديث عن مواعيد خروج ركب الحج في ذلك الزمان أمرٌ نسبي، يخضع لعدة عوامل، منها: جهة تجمُّع الركب، إتمام التحضيرات، حجم الركب، شخصية أمير الركب، طريق السفر في المقاطع الأولى (براً أو بحراً).... لكنَّ الخروج المألوف في معظم المواسم كان عقِب انقضاء شهر ربيع الأول، أي بعد حضور احتفالات المولد النبوي الشريف بالجزائر تيمُّنا وتبرّكا. يُشير الرحالة

---

[1]- الشريف الزهار، المصدر السابق، ص144.

[2]- هنري تشرشل، المصدر السابق، ص43.

[3]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص21.

[4]- روبير مانتران، المرجع السابق، ج01، ص ص: 562-563.

[5]- محمد المنوني، المرجع السابق، ص09.

[6]- يُنظر التضارب الواضح الحاصل في مواعيد ذهاب الركب الجزائري ومواعيد إيابه ـ تبعاً لعوامل عديدة ـ في الجدول المعَدِّ ضمن الملاحق المرفقة بالبحث.

الفلاني القبلاوي إلى خروج الركب في الشهر الموالي لربيع الأول قائلاً: "وخرجنا من عين صالح ضُحَى يومِ الاثنين الموفى أحدَ عشرَ ربيع الثاني...."[1].

وكان الخروج من منطقة القبائل الصغرى في أحدِ مواسم الحج في ركبٍ كبيرٍ مع بداية شهر جمادى الثاني[2]، وأيضاً شبيهٌ بذلك الخروج في موسم حجٍّ آخر، عندما غادر الركب منطقة توات أقصى الجنوب الجزائري يوم الاثنين الأخيرة من شهر جمادى الثاني السابق لشهر رجب[3]. بينما تأخَّر خروج الركب من منطقة وادي مِزاب في موسمٍ آخر إلى منتصف شهر رجب، حسبما وردَ في رحلة المصعبي[4]؟: (الطويل)

وَقَدْ كَانَ فِي يَومِ الخَمِيسِ خُروجُنَا   لَدى نِصْفِ رَجَبٍ مِنْ شُهورِ الإِلَهِيَا

يُعتبَر خروج الركب من الجزائر في شهر رجب توقيتاً متأخِّراً لمن ينوي الحج عبر الطرق البرية، فالأنسبُ غالباً لهؤلاء التبكير، ومغادرة الجزائر قبل انتهاء شهر جمادى الأول كأقصى حدٍّ. فتكون معهم فُسحةٌ من الزمن، ويسيرون سيراً معتدلاً لا يُرهقهم. أمَّا من يؤخِّرون الخروج إلى شهر رجب فلا يسعُهم إلَّا إزماعُ السير إزماعاً، وإلَّا عُوِّقوا فيفوتهم الحج[5].

كان الحجاج الجزائريون الذين يرغبون في الانتقال إلى مصر عبر البحر مُطالَبين بمغادرة المدن والمناطق الداخلية باتجاه الموانئ، مع تقدير فترة تجهيز المركب ومِن ثَمَّ موعد إقلاعه، والذي كان يتمُّ في الغالب في شهر رجب. فمثلاً أمرَ الداي حسين في موسم حج 1233هـ/1818م بتسريح المراكب للذهاب إلى الحج في مستهلِّ شهر رجب[6]. ووصلت قافلة رسمية إلى تونس تضمُّ حجاجا من قسنطينة يوم 15 رجب 1193هـ/1779م، لكي تُسافر من مينائها لاحقاً[7]. إذنْ الخروج

---

[1]- الفلاني القبلاوي، المصدر السابق، و02.

[2]- توقيت تقريبي، استنتاجاً من كون الركب الذي انطلق من نواحي بجاية وسطيف ـ والذي سافر معه الرحَّالة الورثلاني ـ عرَّج جنوباً، فوصل مدينة بسكرة في شهر رجب، بعد أيام قضاها في ضيافة أهل القُرى والمدن الواقعة في طريقه. يُنظر: الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص213.

[3]- عبد القادر التنلاني، المصدر السابق، و04.

[4]- إبراهيم المصعبي، المصدر السابق، ص67.

[5]- ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص172.

[6]- الشريف الزهار، المصدر السابق، ص144.

[7]- خليفة حماش، كشاف وثائق، مرجع سابق، ص370.

من الجزائر في شهر رجب يُوائم الركب البحري، الذي يصل إلى مصر في وقت كافٍ لِما تبقّى من الطريق، ولا يُوائم الركب البري الذي يحتاج إلى شهور من السير كي يصِلَها.

نستنتج ممّا سبق أنَّ موعد خروج ركب الحج الجزائري لم يكن مضبوطاً بدقَّة، وإنما شملَ مجال ثلاثة أشهر تقريباً (من منتصف ربيع الثاني إلى منتصف رجب)، ويكون ذلك بالنظر لجهة صدورهِ، أي الإقليم الذي يتجمَّع فيه. مع محاولة التحكم في مدة السفر قدر المستطاع، حتى يتمكن الركب من الوصول إلى مصر مع اقتراب شهر شوال لأجل الراحة، ففي أواخره يُغادرها الحجاج الجزائريون والمغاربة والمصريون جميعاً نحو الحجاز، في احتفالات موسمية مَهيبة.

03. المراحلُ المألوف قطعُها في سير الركب:

شاعَ في العصور الماضية استخدام وحدات خاصة لقياس الأبعاد والمسافات مثل: "البريد"[1]، و"الفرسخ"[2]، عوضَ الأميال أو الكيلومترات. لكنَّ الوحدة الرئيسية المستخدَمة بكثرة في حساب أبعاد الطريق إلى الحج هي "المرحلة"، فيقال غالباً عن محطة من محطات الطريق، وصَلَها الركب بعدَ زمنٍ من السير: "..... ووصلناها بعد كذا مرحلة".

تُعادل المرحلة المسافة التي كان يقطعها المسافر في يومٍ مشياً على الأقدام، أو على الدواب سيراً معتدلاً معتاداً، أمَّا حسابياً فتقدَّر بعشرةٍ (10) من الفراسخ[3]. وبما أن الفرسخ ثلاثةُ أميال، والميل تقريباً 1,6 كلم (أو 1,8 كلم) فإنَّ المرحلة بضربِ الأبعاد 10×03×1,6 = 48 كلم. وهي مسافة تقريبية، بسبب وجود بعض الارتياب في المعطيات المعتمَد عليها.

كان ركب الحج يسيرُ من مُنطلقه إلى نقطة وصوله بحساب المراحل، ويجعل بين كلِّ مرحلتين فترة نزول للاستراحة، من ليلٍ أو نهار. وكان الحجاج العارفون بالطريق يعتبرون المسير بإدماج

---

[1]- **البَريدُ**: كان العرب يقدِّرون به المسافات قديماً، والبريد عبارة عن أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال. قال النَّاظم: (الرجز)

إنَّ البَرِيدَ مِنَ الفَرَاسِخِ أَربَعُ   وَلِفَرْسَخٍ فَثَلاثُ أَمْيَالٍ ضَعُوا

يُنظر: محمد بن الخوجة، المصدر السابق، ص157.

[2]- **الفَرسَخُ**: معناه في اللغة السكون. واحدٌ من الفراسِخ، وهو لفظ فارسيٌّ مُعرَّب، يُعادل ثلاثة أميال وقيل ستّة. وسمي بذلك لأن صاحبه إذا مشى قعدَ واستراح من ذلك، كأنما سكَنَ. يُنظر: ابن منظور، المصدر السابق، ص3381.

[3]- عبد الرحمن بن خلدون: رحلة ابن خلدون، ط01، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م، ص189.

مرحلتين في مرحلة واحدة دون فاصلٍ بينهما ـ بقصدِ الإسراع ـ أمراً غير مقبول، لأنَّ فيه ضرراً كبيراً ومشقَّة شديدة على النفوس والأبدان والجمال[1]. كما أنَّ قطع نصف مرحلة فقط في اليوم كلِّه يُعدُّ سيراً ضئيلاً، لا يتناسب مع طول طريق الحج[2]. وعليه فقد أَلِفَ الركب الجزائري أنْ يسير في اليوم الواحد مقدار مرحلتين، يأخذ قسطاً من الراحة في ما بينهما[3]، بشرط أن تكون ظروف المسير مهيَّأة، والعوامل الطبيعية موائمة لذلك.

اعتاد ركب الحج أن يبدأ مسيره اليومي بعد طلوع الفجر وأداء صلاة الصبح، ولا ينزل حتى اقتراب موعد العصر، وذلك لأداء صلاتَيِ الظهر والعصر جمعاً وقصراً، وبعد الاستراحة وتناول الطعام يظعنُ الحجاج مرة أخرى، ويُواصلون السير ـ غالباً ـ حتى موعد تناول العَشاء ثمَّ المبيت، عقِب جمع صلاتَيِ المغرب والعِشاء[4].

ويمتنع الحجاج عن النزول مِن على متونِ رواحلهم إذا طُلِب منهم ذلك في محطةٍ من المحطات أولَ النهار. وكلُّ من أخذ منهم موضعاً في الركب يظلُّ ذلك موقعُه طيلةَ الرحلة[5]. ويشرعون عند نزولهم في الأشغال المعتادة من: بناء الخيام، وحطِّ الرِّحال، ورعي الإبل، وجلب الماء، وإعداد الطعام، وتأمين الحراسة....

وعلى العموم فإن الركب الجزائري لا يمكن ضبطُ مدة رحلته للحج بزمنٍ دقيق، بلْ تبقى الأمور تقديرية. بسبب مجموعة من العوامل والمؤثِّرات التي يتباينُ حجم تأثيرها على الحجاج من ركبٍ لآخر. نذكر من تلك العوامل: مدة الركون إلى الراحة قبل وبعد قطع المراحل المشهورة بصعوبتها. وكثرة محطات طريق الحج التي يُعرِّسُ فيها الركب، من أجل قضاء حوائج الحجاج واستبدال رواحلهم، سواء منها المدن الكبرى المشهورة، أو المعابر والمنازل التي تزدهر بمناسبة موسم الحج فقط. فجميعها لها نصيب من مسيرةِ ركب الحج. كلُّ ذلك يؤدِّي في مُحصِّلته إلى إطالة سفر الركب وغِيبة الحجاج عن وطنهم وأهاليهم أزمنةً مديدة.

---

[1]- ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، و19.

[2]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص112.

[3]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص12.

[4]- عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، و و: 05-13.

[5]- أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص174.

خلاصة الفصل الثاني:

رأينا في هذا الفصل الثاني مدى تعلُّق الجزائريين بأداء فريضة الحج، وكيف كانوا يعبِّرون عن ذلك الشوق للحرمين الشريفين باقتحام المخاطر والصعوبات من أجل الوصول إليهما، رغم بُعد الديار وصعوبات السفر التي لا تخفى في ذلك الزمان، ومرَّت عليهم مواسم حجٍّ ذهبوا فيها إليه أفواجاً بنسائهم وأولادهم. وقد ترجم الجزائريون ـ عامتهم وخاصتهم ـ ذلك الحنين لتلك الديار بأنْ جعلوا مرجعَ ما يملكونه من عقارات وبساتين وقفاً على فقراء الحرمين الشريفين، إيثاراً منهم لساكنيهما على أنفسهم، حتى قيل في الأمثال: "مكة في الشرق ورجالها في الغرب".

وكان النداء للحج يتمُّ في التجمعات الكبرى داخل المدن، وفي الأرياف التي يقطنها أغلب السكان، فيشرع من قد عزم عليه في إعداد عدَّته وجمع مؤونته، مِن أخبيةٍ وطعام وملابس وأدوات مختلفة. ويحرص الحجاج قبل السفر على توديع أقاربهم ومحبِّيهم، وزيارة المرضى والعلماء والصالحين، والتحلِّي بآداب السفر وسلوكياتها، وعلى أن يكون المسجد آخر مَزارٍ لهم بالبلد.

وبما أنَّ "الحج زاد وراحلة" فإن اختيار الراحلة المناسبة للسفر اعتُبر من أولَى الضرورات، وكانت الإبل هي الوسيلة المفضَّلة لجلِّ الحجاج، نظراً لوفرتها وإمكانية استبدالها في طريق الحج، مع توظيف البغال ثمّ الخيول على نطاقٍ ضيِّق. ويقوم الحجاج بحمل أعلاف الدواب على ظهورها من باب أخذ الاحتياط اللازم، بينما يُطلقونها على عواهِنها لترعى وتأكل ما توفَّر من عشب وكلأ، أثناء نزول الركب للراحة.

وضمَّ ركب الحج الجزائري تشكيلة بشرية متنوعة، على رأسها أمير الركب قائد الرحلة، الذي درجَ على استشارة العلماء والقضاة والأعيان المصاحبين له في القضايا المتعلِّقة بالسفر. وفيه الحجاج المتمرِّدون على الانضباط المطلوب ونظام الجماعة، الذين عُرفوا باسم "صعاليك الركب". وفيه شخصيات وضيوف ينضمون إليه في المحطات التي يتوقّف بها. وما يُميز الركب هو وجود مجموعة من الأعوان الموظفين لأغراض مختلفة، مثل دليل الركب الواجب اصطحابه، ورافع رايات الركب وأعلامه، وصاحب الطبل الكبير المستخدم للتواصل بين الأمير وعامة الحجاج. أمَّا المرأة الجزائرية فكانت على خطى الرجل، انخرطت في ركب الحج، وسجَّلتْ حضورها في رحلته بقوَّة.

تؤكِّد معظم كتب الرحلات أن ركب الجزائر كان ذا شأن من حيث القوةُ والكثرة والنجدة، وضمَّ بين جانبيه ألوفاً من الحجاج والرواحل والعتاد. لاسيما في مواسم حج القرن 12هـ/18م بفضل استقرار الأوضاع في الجزائر، وتوفُّر الأمن في بلاد الحجاز وسُبُلِها. أمَّا مواعيد خروج الركب فكانت تتراوح بين شهري ربيع وجمادى في الغالب، وذلك بتقدير الوصول إلى مصر في الوقت المناسب. وتُحسَب المسافات التي يقطعها الركب بوحدة قياس خاصة هي "المرحلة"، ويستفيد الحجاج من أوقاتٍ للراحة واسترجاع القوى بين المرحلة والتي تليها. وهكذا يواصلون رحلتهم التي يرجون أنْ يكون مُنتهاها تكحيل العينين برؤيةِ الحرمين الشريفين.

الفصل الثالث:
طرقُ الحجِّ محطَّاتُها وإكراهاتُ مجالِها

ـ تمهيد

ـ المبحث الأول: مساراتُ الركب ومحطاتُ العبور الرئيسية

ـ المبحث الثاني: إشكاليةُ تأمين مسالك ركب الحج ومعابره

ـ المبحث الثالث: المعيقاتُ الطبيعية وسبُلُ مواجهتِها

ـ المبحث الرابع: أثرُ المستجدَّات على سيرِ الركب للحرمين

ـ خلاصةُ الفصل الثالث

الفصل الثالث: طُرقُ الحجِّ محطَّاتُها وإكراهاتُ مجالِها

يأتي هذا الفصل الثالث ليستكمل ما ذكرناه سابقاً عن المعطيات المتعلقة بسيرِ ركب الحج الجزائري وظروف خروجه من الجزائر ومراحله المقطوعة نظرياً، بدءاً بإحصاء الطرق والمسارات الداخلية والخارجية التي كان الركب يسير فيها، واستعراض أهم المحطات التي كان يتوقف بها من أجل الراحة واستجماع القوى لتجديد العهد بالطريق، مع محاولة تبيان أهمية كل محطة على حِدة، ومَكمنِ خصوصيتها بالنسبة للركب الجزائري.

كما خصصنا المبحث الثاني منه لإشكالية غياب الأمن في تلك الأزمنة وتأثيره على ركب الحج، وفي ماهية قطَّاع الطرق المعتدين على الركب ومسوِّغات ترهيبهم للحجاج ضيوف الرحمن؟ وكيف تخطَّت الاعتداءات طرق البر لتصلَ إلى مسلك البحر، من خلال قرصنة السفن المقِلَّة للحجاج الجزائريين. وما هو ردُّ فعل الحجاج على ذلك وجهودهم الذاتية في حماية الركب؟ فضلاً عن الجهود العامة التي كانت تبذلها الدولة العثمانية وحكام الإيالات من أجل ذلك.

وحاولنا من خلال المبحث الثالث استقصاء مجمل الصعوبات الطبيعية التي كانت تواجه الركب الجزائري منذ مغادرته الجزائر إلى غاية وصوله للحجاز، سواء منها المظاهر التضاريسية صعبة الاجتياز، أو التقلبات المناخية التي تواجهُ الركب بسبب توالي الشهور والفصول. والأخطر فيها مواجهة العطش، الذي لا يقلُّ خطره عن خطر الاعتداءات ذاتها. وكيف كان الحجاج يتَّقون تلك الصعوبات ويتعاملون مع مخاطرها؟

أمَّا المبحث الأخير فخصصناه للحديث عن نوعٍ آخر من الإكراهات المحيطة بسفر الركب، وهو جانب علاقاته بالسلطات القائمة في الأقاليم العثمانية التي يسلكها ركب الحج، بحكم أن مواقف الجزائريين من الأتراك لم تكن كلها إيجابية. وبيَّنا أثر تلك العلاقات في ما كان يواجه الحجاج في محطة مصر من تحديات وصعوبات. وما هي سبُل الوقاية من ارتدادات الأحداث الطارئة على الركب هناك؟ وكذلك ظروف وصول الركب الجزائري إلى بلاد الحجاز، وموقع الركب الجزائري ضمن منظومة الأركاب الأخرى. خاصة وأن الأركاب المغاربية كانت تصحب الركب المصري في آخر الطريق إلى الحجاز. وحاولنا فيه كذلك تصوير مشاعر الحجاج الجزائريين إثْرَ معاينة الحرمين الشريفين وظروف أدائهم لمناسك الحج؟

المبحث الأول: مسارات الركب ومحطات العبور الرئيسية[1]

01. الطرق الداخلية الرئيسية لركب الحج:

لا يمكن الحديث عن وجود منظومةِ مواصلات مهيَّأة قائمة في الجزائر العثمانية، مثلما كان عليه الأمر في بعض الدول الأوروبية، أو حتى بعض الأقاليم العثمانية، لأن التركيز الرسمي كان مُنْصبّاً على الطرق التجارية الكبرى الرابطة بين عواصم البياليك، مروراً بالمدن والحواضر الجزائرية المشهورة آنذاك، والتي عُرفت باسم "الطرق السلطانية"[2]. بينما تباينتْ مسارات ركب الحج نظراً لتباين الجهات التي كان ينطلق منها، والنقاط التي كان يمرُّ بها. وعليه يمكن إحصاء ثلاث طرق رئيسية للركب، تصبُّ جميعها في مداخل إيالة تونس أو إيالة طرابلس الغرب، وهي:

أ ـ الطريق التلية "العرضانية": وهي الطريق الشمالية لركب الحج، بدءاً بتلمسان غرباً، مروراً بمدينة الجزائر دار السلطان، وصولاً إلى قسنطينة شرقاً، ومنها يَلِجُ الركب البلاد التونسية لاحقاً. وقد نظمَ ابن مسايب التلمساني معظم محطات هذه الطريق الأفقية (أو العرضانية كما كانت تسمَّى) في رحلته الحجازية، وذكر أن الركب كان يستريح فيها ويزور معالمها وأعلامها. وهي مرتبة كما يلي:.... تسالة، تليلات، يلل، جديوية، مجّاجة، واد الفضة، العطاف، مليانة، متيجة، البليدة، بوفاريك، الجزائر، أربعاء بني سليمان، برج حمزة، بني منصور، البيبان، مجّانة، قصر الطير، سطيف، ميلة، قسنطينة، واد الشارف.... وصولاً إلى مشارف مدينة الكاف التونسية[3].

وبسببِ صعوبة تضاريس هذه الطريق وكثرة شِعابها ووديانها فإن ركب الحج كان يسير فيها سيراً بطيئاً نوعاً ما، لا يكاد يتجاوز مقدار المرحلة الواحدة في اليوم الواحد. والدليل على ذلك هو أنّ معدل المسير من مدينة تلمسان إلى مدينة الجزائر كان يصلُ قُرابة اثني عَشرَ يوماً[4]، رغم بعض التباين في ذلك من فصلٍ لآخر. وكان ركب الحج يبلغ مدينة قسنطينة قادماً إليها من مدينة الجزائر

---

[1]- للتعرف على طرق ركب الحج الجزائري ومحطات عبوره، يُنظر الخريطة التوضيحية في الملاحق المرفقة بالبحث.

[2]- محمد العربي الزبيري: التجارة الخارجية للشرق الجزائري، د ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د س، ص67.

[3]- Ben Messaib, Op.cit, p p 276-278.

[4]- **مسافةُ يوم**: هي مسافة زمنية نسبية غير دقيقة، تتأثّر بطبيعة الفصل السائد (صيفاً أو شتاءً)، وكذا بما تحمِلُه الدواب على ظهورها من أثقال. وهذا مثال توضيحي لذلك أوردَه الورثلاني في رحلته قائلاً: ".... والمدةُ بينهما نحوٌ من مسافة يومٍ بالأحمالِ المثقّلة، في الأيام القِصار، أو نصف يوم في غير ذلك"! يُنظر: الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص169. وأيضاً: محمد المكناسي، المصدر السابق، ص331.

على اثنتَي عشَرَ مرحلة[1]، بمعدَّل مسيرٍ يُقارب أحدَ عَشرَ يوماً[2]، أي بقطعِ مرحلة واحدة في كلِّ يوم تقريباً. وإذا أضفنا إلى تلك المسافات مسير بضع مراحل ما بين مدينة قسنطينة وحدود الإيالة التونسية، فإننا نستنتج أن المجموع العام أو معدَّل المسير الكلِّي من أقصى غرب الجزائر إلى أقصى شرقها في تلك الطريق كان يُلامِسُ زمنَ الشهر بقليل.

وجديرٌ بالذكر أن حجاج هذه الطريق ـ في معظمهم ـ هم أصحاب بغال وحمير، يضطرون لبيع دوابهم في قسنطينة وشراء الإبل من أسواقها، أو مواصلة السفر بها ثمّ استبدالها في طرابلس الليبية بالإبل ذات النوعية الجيّدة[3]. كما أن الركب قد ينعطف أحياناً بعد قطع نصف هذه الطريق باتجاه الجنوب الشرقي، وذلك من محطة برج حمزة (البويرة)، مروراً بمنطقة الحضنة (المسيلة)، وصولاً إلى مدينة بسكرة[4]، متحوّلاً إلى "الطريق العرضانية" الوسطى، أو طريق السهوب.

ب ـ طريق السهوب الجزائرية (الوسطى): طريقُ الهضاب أو السهوب الداخلية، الممتدة أفقياً بين الأطلسين التلي والصحراوي، ذات المراعي والكلأ الوفير. وهي أشهر طرق الحج من داخل الجزائر، وأكثرها مسلكاً من طرف الحجاج، خاصة في مقطعها الشرقي ببلاد الزّاب.

تجمع هذه الطريق العرضية المحطات التالية على الترتيب ذهاباً (نحو الشرق): العوينة (القنادسة)، بوسمغون، الغاسول، عين ماضي، تجموت، الأغواط، العسافية، سيدي خالد، أولاد جلال، طولقة، بسكرة (قاعدة الزاب)، سيدي عقبة، الزرايب (زريبة حامد وزريبة الوادي)، خنقة سيدي ناجي، واد غِسران.... وصولاً إلى الشبيكة مدخل البلاد التونسية، ومنها إلى مدينة توزر أولى المحطات الخارجية المهمة في رحلة الأركاب المغاربية كلِّها[5].

ومعظم أركاب الحج وقوافله الجزئية المتجمّعة تجتاز هذه الطريق سنوياً، حتى وإنْ لم تكن انطلاقتها من أحد مقاطعها. وذلك لشهرتها بين الحجاج، واستوائها تضاريسياً، وكثرة غُدرانها وكلأها، ووقوعها في مستوى واحد تقريباً مع طريق الحج الخارجية الرئيسية. وهي كذلك طريق

[1]- أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص152.
[2]- محمد المكناسي، المصدر السابق، ص329.
[3]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص136.
[4]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و10.
[5]- ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص ص: 127-160.

أركاب المغرب الأقصى: السجلماسي والمراكشي، والفاسي في معظمها. حيث تسلكُها تجنُّباً للتصادم مع حكام الجزائر الأتراك، المتمكّنين بصفة أخصّ في الشمال وطريقه التلية.

لقد دأب بعض الرحالين على تسميتها باسم "طريق الصعاليك"؟ بسبب مرافقة فئة "الصعاليك الحجاج" المتمرِّدين على نظام الركب والمستنكِفين عن أداء مهامهم لأركاب الحج من خلالها. ومنهم الرحالة ابن أبي محلِّي الذي سلكَها سنة 1000هـ/1592م، منطلقاً من بني عباس بوادي الساورة، قائلاً: ".... فكانت الحَجّة مع طريق الصعاليك، لفَقْدِ الركب يومئذ مع هجوم الحال...."[1]. في حين سمَّاها الشريف الزهار "طريق الصحراء" مجازاً، لكونها تقع دون طريق التّل، وذلك في معرض حديثه عن ثورة محمد التيجيني على الأتراك، إثر عودته من رحلة الحج. وكان انطلاق ركب التيجيني من مدينة عين ماضي، إحدى المحطات الأساسية في تلك الطريق. يقول الزهار في مذكراته: ".... فذهب السيد محمد للحج، على طريق الصحراء"[2].

ج ـ **الطريق الصحراوية انطلاقاً من توات:** طريقٌ ذات طبيعة جافَّة قاسية جداً، لا يَقدر الضعفاء من الحجاج على سلوكها. لكنها آمنة نسبياً، وهي فرعان علوية وسفلية:

تتميز الطريق العُلوية منها بكثرة الحمادات، وبوجود أرجام (أحجار) مبنية على مقاطع معينة من الطريق، تُغني عن كراء الدليل[3]. ومبدأ هذه الطريق بلدة "تسابيت" شمالي منطقة توات، وبعدها تتوالى المحطات: أوكرت، قورارة (تيميمون)، القليعة (المنيعة)، واركلا، تماسين، تقرت (قاعدة وادي ريغ)، سُوف، الرباح، وادي العلندة.... وهي محطات خاضعة لجماعات محلية مستقلة عن العثمانيين، بيدَ أنَّ تقرت خضعت لهم آخر المطاف سنة 1203هـ/1788م[4]. وتنتهي هذه الطريق بالوصول إلى منطقة نفزاوة (قبِلِّي حالياً)، في المدخل الجنوبي الغربي التونسي.

أمَّا الطريق السفلية فهي طريق تيدكلت أسفل بلاد توات. وهي طريق جنوبية مُوغِلة في الصحراء، واقعة على خطٍّ مستقيم يوصِلُ الحجاج إلى إقليم فزّان جنوب ليبيا. ينطلق فيها ركب الحج من بلدة "تيمي" عاصمة توات، لينزل بمدينة تمنطيط العريقة، ثمّ يزور الزوايا الموزَّعة على طول

---

[1]– عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص94.

[2]– الشريف الزهار، المصدر السابق، ص159.

[3]– أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص113.

[4]– الشريف الزهار، المصدر نفسه، ص52.

الطريق بمثابة محطات. وهي توالياً: زاوية سيدي عبد القادر، زاوية الجديد، زاوية سيدي علي بن حنيني، زاوية الشيخ ابن عبد الكريم المغيلي. ومن هذا المنزل الأخير يُشرِّق الركب قاصِداً بلاد تيدكلت، في فضاءٍ واسعٍ يقطعه في يومين ونصف، ليصل إلى زاوية أبي الأنوار التنلاني (زاوية مولاي هيبة) للراحة، ثم يقصدُ زاوية حينون بأولف، وبعد مسيرة يومٍ يصل إلى بلدة أقبلي.

ومحطة أقبلي هي مُلتقى حجاج الجنوب الجزائري بحجاج بلاد التكرور، فهي محطة مفصلية، يلتئِم فيها ركب الجزائر بركب أهل "السودان". ومنها ينتقل إلى بلاد اينغر، وصولاً إلى مدينة عين صالح، التي يتلقَّى أهلُها الركب رجالاً ونساءً، ويفرحون به غاية الفرح والسرور[1].

وهذه الطريق البعيدة عن معظم حجاج الجزائر يسمِّيها الحجاج الوافدون من بلاد التكرور بالطريق الوسطانية[2]؟ ربما لأنَّها تتوسط طريقَ حجِّ الأفارقة وطريقَ الهضاب المشهورة. ومن مدينة عين صالح قاعدة تيدكلت إلى غاية مدخل إقليم فزّان جنوبي ليبيا تنقطع الأخبار، ويُواجه الركب صحراءَ قاحلة وهضاباً صخرية.... "لا تنفع فيها التفاتاتٌ إلى الوراء، ولا يهتمُّ المرءُ فيها إلَّا بنفسه وراحلته وعصاه"[3]! ورغم ذلك فقد اشتهرت هذه الطريق الصعبة بعبور أركاب الحج في كلِّ موسم، كما اشتهرت من قبلُ بقوافلها التجارية العابرة للصحراء.

02. محطات عبور الركب الجزائري الخارجية:

أشرنا في ما سبق إلى أهمِّ الطرق والمحطات داخلَ الأراضي الجزائرية، التي يسلكها ركب الحج أو يتجمَّع فيها الحجاج في انتظار انضمامهم للركب. وهي متباعدة ومتباينة، على خِلاف ما يمكن ملاحظته بالنسبة للمحطات والمنازل الخارجية، التي ينزل فيها الركب من أجل الاستراحة، واسترجاع النفَس والقوى. حيث يكاد يكون عبور هذه الأخيرة ثابتاً موسمياً في مسيرِ معظم الأركاب المغاربية، بما فيها الركب الجزائري.

إذا استثنينا معدَّل الشهر الذي يصِلُ خلاله الركب الجزائري إلى المنافذ الشرقية للإيالة، فإنَّ الوصول إلى الحجاز يمكن أنْ يتمَّ ـ نظرياً فقط ـ خلال ثلاثِ أربعينات من الأيام، سيراً بلا إقامة:

---

[1]– عبد القادر التنلاني، المصدر السابق، و و: 10–12.

[2]– الفلاني القبلاوي، المصدر السابق، و02.

[3]– عبد القادر التنلاني، المصدر نفسه، و12.

الأربعين يوماً الأولى من تونس إلى طرابلس، والثانية من طرابلس إلى مصر، والثالثة من مصر إلى الحجاز[1]. لكن ذلك يُعدُّ صعباً، لأن الركب يضطر إلى المكوث في بعض المحطات لأسابيع. وفيما يلي رصدٌ لمحطات الركب الموزَّعة على الأقاليم التي يسلكها، مرتَّبةً حسبَ زمنِ حلولِه بها[2]:

أ ـ عبور الركبِ البلادَ التونسية: تميزت البلاد التونسية في ذلك العصر بسيادة النظام، وتوفُّر أمن الأشخاص وأملاكهم، مقارنةً بما سواها من البلدان[3]. وكانت لها علاقات تجارية قوية مع الإيالة الجزائرية. يكفي أنْ نشير ـ مثلاً ـ إلى القافلة الشهرية المتكوِّنة من 300 بغل، التي كانت تغادر قسنطينة نحو تونس، محمَّلة إليها بالثياب المطرزة والأقمشة، حاملة في عودتها السجاد والبُّن[4]. ممّا كان له دورٌ في تيسير سيرِ قافلة الحج السنوية. أمَّا محطات الركب في تونس فهي:

01. توزَر: مدخلُ الركب القادم من طريق السهوب، يتزوَّد فيها الحجاج بالعلَف، مقدارَ ما يُوصِلهم إلى مدينة قابس على سبعِ مراحل[5]. وجنوبيَّها "**نفزاوة**" مدخلُ ركب طريق وادي ريغ.

02. الكاف: وهي المدينة المحاذية لبايلك الشرق من إيالة الجزائر. كانت زيارتها واردة في حالات قليلة للقادمِ من الجزائر عبر طريق التَّل.

03. تونس: عاصمة الإيالة التونسية، وَصَفَها أحد الحجاج المغاربة بأنَّها: "مدينة كبيرة مقصودة للمراكب البحرية، مؤسَّسة في بسيطٍ من الأرض، على ساحلِ بحيرة صغيرة، أُدخِلت إليها من البحر"[6]. لذلك فهي مقصد حجاج الركب الجزائري البحري، لأنهم يُسافرون من مينائها، أو تحطُّ مراكبهم القادمة من ميناء الجزائر بها في كلِّ موسم حج، مستغلِّين علاقاتهم الجيدة بحكامها الأتراك، حيث يُسهِّلون عليهم إجراءات السفر، ويزودونهم بالأموال والهدايا[7].

---

[1]- حماه الله ولد السالم: رحلات الحج من شنقيط وإسهامها في التواصل المشرقي المغربي، أعمال المؤتمر الدولي الأول لندوة الرحالة العرب والمسلمين، الدوحة، 2010م، ص11.

[2]- مدنٌ، قُرى، بنادر، منازل، معابر.... ذكرناها في إطار علاقة الركب بها. أمَّا تعاريفها فقد حَوَتْها كتب المسالك والبلدان.

[3]- هابنسترايت: رحلة العالم الألماني ج. أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1145هـ-1732م، د ط، ترجمة وتقديم: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2007م، ص107.

[4]- لوسيت فالنسي، المرجع السابق، ص72.

[5]- أبو سالم العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص68.

[6]- محمد المكناسي، المصدر السابق، ص325.

[7]- خليفة حماش، كشاف وثائق، مرجع سابق، ص402.

ومدينة تونس مقصد الركب الجزائري المشتمِل على حجاج المناطق التلية في رحلة العودة، أمَّا في الذهاب إلى الحج فقد كانت زيارتها غير ثابتة. وذلك بسبب موقعها الجانبي المجانِب لطريق الشرق البرية، وبسبب عجلة الركب في الطلوع. ورغم ذلك هذا الرحالة ابن مسايب يحضُّ الحاج الجزائري على زيارة تلك المدينة، لأسبابٍ ذكرَها قائلاً[1]: (المديد)

قُمْ يَا طَّيْرْ ادْخَلْ تُونَسْ   زُرْ البَاجِي وبَنْ يُونَسْ
تْبَاتْ طُولْ اللِّيلْ موَنَّسْ   بِهِمْ النَّفسْ تزَهِّيهَا

04. صفاقس: مدينة صفاقس الواقعة على خليج قابس من أهمِّ مدن تونس في العهد العثماني، غير أن ركب الحج الجزائري كان يرتادها في حالات نادرة، في شِقِّ الهبوط (الرجوع). والدافع لذلك هو مَزاراتها الدينية والعلمية الكثيرة، فهي ـ في وصفِ حاجٍّ ـ "مدينةٌ عظيمة، يَستحْلِيها الناظرون ويستحسِنها المسافرون، جمعتْ بين البر والبحر، تجتمعُ فيها الخيرات وتعمُّها البركات"[2].

05. قابس: هي محطة مهمَّة جدا لركب الحج الجزائري وغيره، لا يُستغنَى عنها. فقد كانت الأركاب الوافدة من المغرب الأقصى، والمغرب الأوسط، الداخلة من منافذ الكاف أو توزر أو نفزاوة تلتقي في قابس، ثمّ ينضمُّ إليها الركب التونسي لمرافقتها في الطريق[3]. وكان بعض الحجاج يستغلُّون وجودهم في مدينة قابس للانتقال إلى جزيرة جربة الواقعة في خليجها، فيشترون من الجزيرة الزيت والزبيب والثياب[4]. ومن قابس ينتقل الركب إلى قرية "**عرام**" الصغيرة الواقعة شرقَها، قاصداً طرابلس الغرب على طريق الساحل، قاطعاً المسافة في ستة أيام[5].

ب ـ إيالة طرابلس لاستجماع القوى: كان ركب الحج يمكث أياماً كثيرة في إيالة طرابلس الغرب. لكي يجدِّد الحجاج قِواهم، ويستعدون لقطع مراحل قادمة شاقة، أصعب من تلك التي قطعوها من الجزائر. وقبل الوصول إلى مدينة طرابلس عاصمة الإيالة قد يتوقف الركب في بعض البَلداتِ الواقعة غربيَّها مثل: **الزوارات** (زوّارة) أو **صبراتة،** أو الزاوية الغربية القريبة منها.

1- Ben Messaib, Op.cit, p278.

2- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص308.

3- محمد بن الخوجة، المصدر السابق، ص265.

4- أبو سالم العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص72.

5- ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص266.

06. الزاوية الغربية: يفصِلها عن طرابلس الغرب مسيرُ مرحلة واحدة، وهي بلدةٌ ذات فواكه وأشجار ومزارِع وعمارة كبيرة، كان أهلها يفرحون بمقدمِ ركب الجزائر، ويتكرَّمون عليه بالشعير والطعام واللحم ورؤوس الضأن[1].

07. طرابلس: مدينة طرابلس أهمُّ محطة خارجية للأركاب المغاربية كلِّها، يصلُ إليها الركب الجزائري ما بين رجب ومستهلّ شعبان كزمنٍ أقصى من كلّ سنة على الغالب[2]، بعد قطع شهرين أو ثلاثة أشهر من السفر. ويمكث الركب في طرابلس مدة سبعة أيام على الأقل، أو شهراً على الأكثر، من أجل الراحة والتزوُّد لما هو آتٍ، لذلك فإن إقامته بها في الذهاب تطول عن نظيرتها في الإياب[3]. وفي طرابلس يشتري الحجاج الوافدون من غيرِ طريق الصحراء الإبل القوية بالزيادة احتياطاً، إنْ كانت نيتهم عدم الكراء في مصر. وجرت العادة أن تُغادر جميع الأركاب المغاربية المشرِّقة والمغرِّبة مدينة طرابلس في نهاية شهر رجب من كلِّ سنة[4].

08. تاجوراء: نظراً لأهميتها وقربها من طرابلس فقد اعتُبرت بمثابة بوابتها الشرقية، لذلك اعتادت الأركاب المغاربية السائرة جنباً إلى جنب على المبيت بها، بعد الخروج من طرابلس[5]. ومنها يحطُّ الركب ـ أحياناً فقط ـ في بلدة "**مسلاتة**" الواقعة على طريقه إلى مدينة مصراتة.

09. مصراتة (مسراتة): يتوقف بها الركب الجزائري في كثيرٍ من المواسم، بحكم العلاقات الوطيدة التي تجمع أهلها بأعلام الركب، وبسبب رغبة معظم الحجاج في زيارة قبر الشيخ أحمد زرُّوق الفاسي (ت899هـ/1493م)*. ومن ضواحي مسراتة الشرقية ينقطع العمران، ويستعد الحجاج لاستقبال مسافة برقة الشاسعة، فلا يُصادفون لاحقاً سوى بعض البدو، وآبار مياه راكدة.

---

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص288.

[2]- المصدر نفسه، ج01، ص274.

[3]- إبراهيم المصعبي، المصدر السابق، ص71.

[4]- أبو سالم العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص75.

[5]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص178.

* **أبو العباس أحمد زرُّوق البرنسي الفاسي (ت899هـ/1493م)**: فقيهٌ مالكي رائدٌ في علم التصوف. ولِد بالمغرب الأقصى، وطافَ المغرب والمشرق، أخذ عن أشهر علماء الجزائر في عصره مثل: المشدالي والسنوسي والثعالبي، وأخذ عنه العالم الصوفي أحمد بن يوسف الملياني. أحدثَ ثورة تصحيحية لضبطِ علم التصوف وممارساته، وألَّف لذلك الغرض كتباً كثيرة، منها "قواعد التصوف" و"أصول الطريقة". يُنظر: المهدي البوعبدلي، الحياة الثقافية، مرجع سابق، ص263.

10. فزّان: وهي محطة خاصة بالحجاج الوافدين على الأراضي الليبية من طريق الحج الجنوبية الصحراوية. تحوي عدّة قُرى أشهرها: مرزق وزويلة وغات، يصِلُ إليها الركب الآتي من أقبلي وعين صالح بعد قرابة شهرين من المسير[1]. أما مدينة **غدامس** الواقعة قرب مثلث تلاقي الإيالات الثلاث: طرابلس الغرب والجزائر وتونس، فقد كانت ملتقى القوافل التجارية في العصور السابقة. وهي محطة استثنائية نادرة للركب القادم من الصحراء الجزائرية.

11. مفازة برقة: كان إقليم برقة يشمل المقطع الشرقي من الأراضي الليبية في الفترة العثمانية، ممتداً من الساحل إلى أقصى الصحراء، وهو الحدُّ الفاصل بين مصر وإفريقيَّة. لا يُواجِهُ الحجاجُ فيه إلا السَّبَخات والمفَاوِزَ والفَلَوات[2]. وبذلك اشتهر إقليم برقة لدى الحجاج، رغم وجود مدن آهلة في شماله مثل: أجدابيا وبني غازي (بنغازي) ودرنة وطبرق.

وإقليم برقة الليبي هو أخطر مسالك ركب الحج من الناحية الطبيعية بالدرجة الأولى: سبخات وصحارى وحمادات، وقيظ في الصيف، وبرد شديد في الشتاء، ومن ناحية أخرى: انعدام العمران، واعتداءات البدو قطاعِ الطرق. ويُضرب بصعوبة عبور برقة المثلُ عند الحجّاج المغاربة، فيقولون بالدَّارج الشعبي عن الحاج الذي يجتاز برقة سالماً: "حَجّْ وجَازْ علَى بَرقَة"! ويقولون في مثَلٍ أغرب "غَرْقَة وحَرْقَة وْلَا بَرقَة"! وهذا الرحالة ابن مسايب التلمساني يؤكِّد المشقَّة العظيمة التي يجدها الحجاج في اجتياز إقليم برقة، إلى درجة استحالة ذلك أحياناً[3]: (المديد)

قُمْ يَا طَيّرْ ادْخُلْ بَرْقَة حَزَّمْ حزَامْ بْلَا شَفْقَة

لَوْطَنْ فِيه تَعبْ وَشْقَا حَدّ مَا يَقْدَرْ يَلِيهَا

ج ـ تجمُّع الحجاج في البلاد المصرية: يبلغُ الركب الجزائري حدود مصر الغربية بعد سفرٍ أزيدَ من خمسين يوماً داخل الأراضي الليبية. والمحطةُ المصرية هي ملتقى جميع قوافل حجاج بلاد المغرب الإسلامي، الآتية براً والآتية بحراً، يتجمَّعون فيها للمسيرِ لاحقاً بمعية الركب المصري الضخم، في اتجاه بلاد الحجاز، وذلك في العشرِ الأواخر لشهر شوال من كلِّ سنة. وينتابُ الحُجَّاجَ الجزائريين فرحٌ كبير إثر رؤيتها، ذلك ما عبَّر عنه الرحالة المقَّري التلمساني بعد وصول رَكبِه البحري إلى مصر،

---

[1]- الفلاني القبلاوي، المصدر السابق، و02.

[2]- محمد الحُضَيْكي: الرحلة الحجازية، ط01، تحقيق: عبد العالي لمدبر، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، 2011م، ص89.

[3]- Ben Messaib, Op.cit, p279.

بلسانِه ولسانِ مَن قدِمَها براً كذلك: ".... ثُمَّ وصلنا بعد خَوض بِحار، يَدهشُ فيها الفكر ويَحَار، وجَوْبِ فَيافٍ مَجاهِل، يَضِلُّ فيها القَطا عن المناهل، إلى مصرَ المحروسة، فَشُفِينا برؤيتِها من الأوجاع"[1]. مما يدلُّ على أهميةِ الوصول إلى هذه المحطة، ومفصليتِها بالنسبة للحجاج.

12. الإسكندرية: مدينة الإسكندرية الساحلية محطة اختيارية للركب الجزائري في ذهابه إلى الحج، وكثيراً ما كان الركب يتنكَّبُها عندما يصل إلى مشارف مصر، مائلاً نحو اليمين جهةَ الريف، قاصداً القاهرة مباشرة. وبخصوص الركب البحري المسافر من ميناء الجزائر فإنَّه يصل إلى ميناء الإسكندرية بعد حوالي خمسةٍ وثلاثين يوماً[2]، أمَّا الركب الجزائري المنطلق من ميناء تونس فإنَّ مراكبه ترسو بميناء الإسكندرية بعد حوالي خمسةَ عشرَ يوماً أو يزيد[3].

لم يكن الحجاج الجزائريون يفِدون على ميناء الإسكندرية قادمين إليه من ميناء مدينة طرابلس إلَّا في حالات قليلة، وذلك بسبب موقع هذا الميناء غير المناسب وبُعدِه عن الجزائر. فتذكر المصادر ـ مثلًا ـ أنَّ حجاجا جزائريين امتطوا مركباً من هذا الميناء في إحدى الحالات الاستثنائية، وبتوصيةٍ من والي طرابلس الغرب[4].

لميناءِ الإسكندرية مرسيان: مرسى خاص بمراكب المسلمين ومرسى خاص بمراكب النصارى، وقد تعرَّض هذا الميناء إلى هبوب ريح غربية نكباء سنة 1174هـ/1760م، أدَّت إلى غرق ثلاثة وثلاثين مركباً في مرسى المسلمين، وثلاثة مراكب فقط في مرسى النصارى[5]. ولعلَّ ذلك راجع إلى كثرة مراكب المسلمين، أو بسبب إهمال حكام الإيالة المصرية لذلك الجانب من الميناء؟ خاصةً إذا علمنا أنَّ اليهود كانوا يسيطرون على الجمارك بميناء الإسكندرية في ذلك العصر، ويقدِّمون الامتيازات والتسهيلات للمراكب الأوروبية[6].

1- أحمد المقّري، نفح الطيب، مصدر سابق، ج01، ص35.

2- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص24.

3- هنري تشرشل، المصدر السابق، ص45.

4- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص337.

5- عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج01، ص409.

6- كارستن نيبور: رحلة إلى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى مجاورة لها، ط01، ترجمة: عبير المنذر، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، 2007م، ج01، ص46.

وبالإضافة إلى تعيين وكيلٍ دائم للجزائر بمدينة الإسكندرية، ليسهر على تقديم الدعم اللازم للحجاج، اشتهرت هذه المدينة بوجود جالية مغاربية نشِطة تجارياً، سكنتْ خمس حارات (أحياء) من أصل تسع حارات كبيرة بالمدينة[1]. ذلك ما شجَّع بعض الحجاج الجزائريين على المكوث فيها زهاءَ عشرين يوماً في أحد المواسم، قبل الانتقال منها متجهين شرقاً إلى مصبِّ رشيد، أقربِ فرعَي مصبِّ نهر النيل، لأجل امتطاء قوارب صغيرة تمخُرُ بهم نهر النيل إلى جهة الجنوب، قاصدين مرسى بولاق، القريب جداً من مدينة القاهرة[2].

13. واحة سِوى (سيوة): هذه الواحة هي مدخلُ مصر من جهة صحرائها الغربية، المحاذية لإيالة طرابلس الغرب، يتوافد عليها الحجاج الجزائريون الذين يسلكون الطريق الجنوبية القاطعة للصحراء الليبية، مروراً بإقليم فزّان أولًا، ثمَّ بجنوبِ برقة ثانياً. ويَعتبِر الحجاج وصولهم إلى هذه الواحة قبل انقسام شهر شوال فألَ خير في رحلتهم، خاصةً بعد المشقة الكبيرة التي تكبَّدوها في إقليم برقة. وكان الركب الجزائري يمكث في واحة سيوى لمدة يومين، متمتِّعاً بعيون مائها العذب، وبثمَرِها الكبير ذي النوعية الرفيعة والمميَّزة[3].

14. المنصورية: قريةٌ من قُرى الريف المصري، تقع شمال غرب القاهرة، وهي مختلفة عن مدينة "المنصورة" الواقعة في طريق "دمياط" المصبِّ الشرقي لنهر النيل. كان الحجاج يبيتون فيها استعداداً لركوب نهر النيل، الذي يمكِّنهم من دخول مدينة القاهرة من مَنفذ مرسى بولاق، بحكم صعوبة دخول القاهرة عن طريق البر، للحجاج القادمين من الجهة الغربية. فالقاهرة توجد وراءَ نهر النيل إلى جهة الحجاز، بالنسبة للركب الطالع (أي في ذهابه)[4].

15. كرداسة: من قُرى ريف مصر، تقع أسفل قرية المنصورية المذكورة سابقاً، ينزل بها الحجاج الجزائريون بعد المرور بوادي الرهبان، المنسوب إلى ديرِ الرهبان النصارى المتعبِّدين فيه. وفي كرداسة كان بعض الحجاج يتركون إبلهم وبِغالهم ودائعَ عند الفلاحين المصريين، على عادتهم في تلقِّي الحجاج المغاربة، وذلك إلى غاية الرجوع من الحج. رغم تحذير الحجاج ذوي الخبرة من ذلك،

---

[1]- حسام محمد عبد المعطي، المرجع السابق، ص34.

[2]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص27.

[3]- عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، و14.

[4]- محمد الحضيكي، المصدر السابق، ص91.

وتفضيلهم بيع ما فَضُلَ من الإبل على الإيداع لدى هؤلاء الفلاحين غير المؤتَمَنين[1]. ومن قرية كرداسة يعبُر الحجاج الجزائريون نهر النيل لأجل دخول القاهرة.

16. القاهرة: مفتاحُ المشرق للمغاربة، ومقصدُ المسلمين من جميع الأقطار والأجناس[2]. نُسِبتْ إلى "مصر" وحملت اسمَها في "عُرف" الحُجاج. كانَ يدخلها ثلاثون ألف حاج مغاربي مع حلول شهر رمضان من كلِّ سنة[3]. ويكتري الحجاج الجزائريون لنزولهم في خانات (فنادق) قريبة من جامع الأزهر الشريف، بسعرٍ غالٍ: خمسين بارة للغرفة عند دخولها أول مرة، بالإضافة إلى بارة واحدة أخرى متجدِّدة أسبوعياً، في غُرف عادية، خالية من الأثاث، دون المستوى اللائق[4].

بينما يفضِّل الحجاجُ الفُرادى أو الذين لا يقدرون على غلاء الكراء ساحةَ جامع ابن طولون، أو فِناء جامع الأزهر لهذا النزول الذي قد يطول، فينصِبون فيهما الخيام، ويصومون رمضان، ويقيمون هناك أياماً معدودات[5]. في حين يُقيم بعض الحجاج علاقات ودية أو تجارية مع عائلات جزائرية متنفِّذة بمصر، مثل عائلتي: الحاج عثمان القسنطيني وابن منديل التلمساني[6]، وغيرهما من العائلات الجزائرية والمغاربية.

وأثناء إقامة الحجاج الجزائريين الطويلة نسبياً في مصر، والتي تتعدى الشهر أحياناً، يُعيدون ترتيب الأمور وتقدير الأوضاع، وتدبير أمر الذهاب إلى الحجاز ثمَّ العودة منه. وسببُ تلك الإقامة الطويلة هو انتظارُ مرافقة الركب المصري في هذا المقطع الأخير الصعب للغاية، المسمَّى "درب الحجاز"، بناءً على ما جرتْ به العادة، لأنَّ القافلة المصرية مدعاةٌ للسرور، في انتظام سيرِها وإحكام أمرِها وجودة رواحلها، فتلتحق بها الأركاب المغاربية في الذهاب كونها أكثرَ أمناً[7]. كما أنَّ

---

[1]– ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص255.

[2]– سألَ ابنُ خلدون عالميْن جزائرِيَّيْن عن مدينة القاهرة: صاحبَه أبا عبد الله المقَّري كبيرَ العلماء بالمغرب، وشيخَه أبا العباس بن إدريس البجائي كبيرَ العلماء ببجاية، وذلك قبل رحيله إليها أواخرَ القرن 08هـ/14م، فكان جوابهما على التوالي: "مَنْ لم يرَها لم يعرفْ عِزَّ الإسلام" و"كأنَّما انطلقَ أهلُها مِنَ الحسابِ"! يُنظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ص200.

[3]– حسام محمد عبد المعطي، المرجع السابق، ص352.

[4]– جوزيف بتس، المصدر السابق، ص34.

[5]– الفلاني القبلاوي، المصدر السابق، و04.

[6]– حسام محمد عبد المعطي، المرجع نفسه، ص72.

[7]– جوزيف بتس، المصدر نفسه، ص22.

أنَّ الركب المصري هو الركب الوحيد القادر على استمالة شيوخ القبائل العربية المتمكِّنة في ذلك المقطع الخطير من طريق الحج، خاصة عندما يُغدِقُ عليهم أمراؤه العوائد والعطايا والهدايا[1].

عندما يحلُّ منتصف شهر شوال من كل سنة تكون الترتيبات والتحضيرات قد انتهت لخروج الركب المصري، ومعه الجمل المزيَّن المنتقَى الذي يحمل كسوة الكعبة المشرَّفة داخل المحمل[2]. فتبدأ الاحتفالات السنوية الرسمية والشعبية البهيجة لحضور مراسيم تسليم المحمل لأمير الحج المصري من طرف الباشا الحاكم العثماني، وتبلغ الاحتفالات ذروتها في الواحد والعشرين من شوال، فيكون خروج المحمل الكبير أتمَّ احتفالاً وأكثرَ جمعاً.

ويمرُّ المحمل وسائر العسكر والإبل وسط القاهرة، والناس ينظرون إلى ذلك المشهد من شرفات الديار والمساجد، ويتعطَّل غالبُ الأسواق في ذلك اليوم[3]. ثمّ يتحول المحمل إلى فضاءٍ واسع خارج القاهرة يُسمى "بِركة الحاج"، تُعسكِرُ فيه أركاب الحج ـ بما فيها ركب الجزائر ـ لكي تغادر ذلك الموقع على عادتها السنوية، في السابع والعشرين من شهر شوال[4].

إنَّ خروج المحمل إلى موضع "بِركة الحاج" هو بمثابة آخر تحذير للحجاج كي يُهيِّئوا أنفسهم للسفر، باتّخاذ الزاد، وشراء الإبل أو كرائها. والشراءُ أو الكراءُ من مصر كلاهما أمران محيِّران للحجاج الجزائريين، وذلك بسبب طمعِ الباعةِ المصريين وجهل الحجاج لميزات ما تبقى من الطريق من جهة، وجشع سماسرة الكراء وابتزازهم للحجاج من جهة أخرى.

أمَّا حمل الفول المطحون (علَف الدواب) من مصر إلى بندر "المويلح" فيتمُّ من طرف عرب درب الحجاز كراءً بمبالغ يُتَّفق عليها في مصر، وأحياناً كان الركب الجزائري يُفضل عدم الكراء، بل

---

[1]– عبد الغني بن إسماعيل النابلسي: الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، د ط، تقديم: أحمد عبد المجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986م، ص156.

[2]– **المَحْمَلُ**: هو في الأصل الهودج الذي تركبه نساء العرب أيام الأفراح والحروب، وقد استعملته شجرة الدّر زوجة الملك الصالح نجم الدين الأيوبي عند ارتقائها أريكة الملك سنة 648هـ/1250م وزخرَفَتْه، ثم اتخذه ملوك مصر والشام واسطةً لترغيب الناس على أداء فريضة الحج، وأقرَّه العثمانيون وأبقوهُ على ما كان عليه، يروح ويغدو على جملٍ مخصَّصٍ مع ركب الحج في كل عام. يحملُ بداخله كسوة الكعبة المشرَّفة، وهي عبارة عن محفَّة كبيرة مجلَّلة بالديباج، منقوش عليها بعض الآيات القرآنية والطغراء السلطانية، ولها رصافات مموَّهة بالذهب. يُنظر: عبد العزيز العظمة، المصدر السابق، ص115.

[3]– أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص264.

[4]– عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج02، ص38.

شراء ما يحتاج إليه من العلف في المحطات المقبِلة. رغم ما في ذلك من مخاطرة، إذ يمكنُ أنْ ينفدَ منها إذا كثُر عليه الطلب من بقية الأركاب، أو يتوفَّر فيها لكن بأسعارٍ خيالية[1]؟

إذا تعطَّل بعضُ الحجاج الجزائريين في مصر عن تاريخ الخروج، لسببٍ من الأسباب، ولم يُرافقوا بقية الأركاب، فإنهم لا يسافرون برا لخطورته عليهم منعزلين، بل يضطرون إلى التوجه إلى مدينة السويس عند طرف بحر القلزم (البحر الأحمر)، ومن مينائها يستقِلُّون المراكب التي تنقلهم إلى موانئ الحجاز كينبوع وجدة، في رحلة بحرية شاقَّة أيضاً، محفوفة بالمخاطر الطبيعية[2].

د ـ المسير الصَّعب في دربِ الحجاز وظروفُه[3]: بعد انتهاء فترة الاستراحة والاستعداد التي يكون الركب الجزائري قد قضاها في مصر، يشرع الحجاج في دخول المقطع الأخير في سفرهم إلى الحجاز، وهو المقطع المعروف بالدرب الحجازي (أو الدرب المصري)، وذلك على خُطى الركب المصري الضخم، الذي يحمل معه كسوة الكعبة المشرفة في المحمل كلَّ موسمِ حجٍّ منذ قرون. ويُفضِّل الحجاج هذا الدرب على البحر رغم أرضه المجدِبة والمتعِبة، لكونه أقصر الطرق، ولاحتوائه على عدد كبير من البنادر أو المنازل للراحة والتزوّد بالمؤَن والماء[4]. وهي مرتبة كما يلي:

17. بِركة الحاج: وهي المحطة التمهيدية لدرب الحجاز من الجهة المصرية، وأول منزل للحاج إذا خرج من مصر، وآخر منزل له إذا قفل. يُقيم فيها الحجاج المصريون والمغاربة جميعاً قرابةَ خمسة أيام، لإتمام استعدادات الرحلة نحو الدرب الحجازي. فتُنصَّبُ فيها الأسواق الحافلة والفساطيط والمقصورات، ويخرج إليها غالبُ أهل مصر (القاهرة) للتنزُّه ووداع الحجاج، وسميت "بركة الحاج" لأنها على شاطئ بركةٍ من بِرَكِ نهر النيل، وفيها محلّ اجتماع أركاب الحج[5].

والملاحظُ أنَّ الركب الجزائري كان من عادته تأخير الخروج إلى بِركة الحاج إلى اليوم السابع والعشرين من شهر شوال، أي في موعد الرحيل الجماعي لأركاب الحج المغاربية رفقة الركب

---

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص76.

[2]- أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص214.

[3]- لمزيدِ التفاصيل عن درب الحجاز (أو الرصيف الحجازي) والتغيرات الطارئة على محطاته، والتباين الحاصل في عبورها بين بدايات العهد العثماني ونهاياته، يُنظر: عواطف بنت محمد يوسف نواب، المرجع السابق، ص258 وما بعدها.

[4]- سميرة فهمي علي عمر، المرجع السابق، ص247.

[5]- المرجع نفسه، ص248.

المصري، أو قبله بقليل، وقد أصبح يتأخر أكثر عن ذلك الموعد في مواسم القرن 12هـ/18م، وذلك راجع إلى أسباب تنظيمية بحتة، منها عدم إتمام عملية التجهيز وتهيئة المؤَن[1]. يقول الرحالة الجزيري عن ترتيب هذه المحطة (بركة الحاج) ووصفِها[2]: (الرجز)

وَبَعدُ فاسْمَعْ عِدَّةَ المنازِلِ وذِكْرَ مَا فِيهَا مِنَ المَنَاهِلِ

أوَّلُهَا فَبِرْكَةُ الحُجَّاجِ وَأَرضُهَا واسِعَةُ الفِجَاجِ

18. البُوَيْب (الدار الحمراء): مدخل أهل الحجاز إلى مصر، وهي أرض متَّسِعة حمراء، ليس بها رزق لِطالِب، ولا مطعم لراكِب، ولا ماء لشارِب[3]! بل يأتي إليها الحجاج بالماء معهم. وقد يبيتُ الركب الجزائري ـ أحياناً ـ دونها، ثمّ يرحل، ثمّ يُقيم بعد أن يُجاوز المحطة الموالية لها بقليل[4].

19. عجرود: وهي قصبة تقع جنوب غربيّ السويس، يرتاح فيها الحجاج مع رواحلهم. فيها بئر تعرف ببئر عجرود، ماؤها رديء لكنْ يضطرُّ الحجاج للسقاية منه[5].

20. السويس: مدينة مصرية هامة، تقع على رأس خليج السويس عند طرف البحر الأحمر، تبعد مسافة يومٍ إبحاراً عن القاهرة، ترسو بمينائها السفن المتجهة لسواحل الحجاز[6]. ومنها يركب الحجاج الحجاج الراغبون في إتمام السفر بحراً، من ميناء الراجبية وصولاً إلى ميناء اليَنبُع الأقرب إلى المدينة المنورة، أو منه باتجاه ميناء مدينة جُدَّة[7] الأقرب إلى مكة المكرمة، قاطعين سفرَ عشرين يوماً[8].

---

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص78.

[2]- عبد القادر الأنصاري الجزيري: الدُّرر الفرائد المنظَّمة في أخبار الحاج وطريق مكّة المعظَّمة، ط01، تحقيق: محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م، ج02، ص85.

[3]- القيسي السراج، المصدر السابق، ص70.

[4]- عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، و18.

[5]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و04.

[6]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص41.

[7]- **جُدَّة** (أو جَدّة في الدارج) بلدٌ على ساحل مكّة المكرمة على بحر القلزم، بينهما أربعون ميلاً، أهلها مياسير وذوو أموال واسعة، لهم موسم قبل وقت الحج، تنفق فيه البضائع المجلوبة. وبجدة نزلت أمُّنا حواء، وبعرفات تعرّفت بآدم، وقيل بجدة قبرها. يُنظر: محمد بن عبد المنعم الحِميَري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ط02، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م، ص157.

[8]- أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص215.

21. عقبة المنصرف: أرض ذات رمال دقيقة بيضاء، فيها مشقة كبيرة وخالية من الماء، تواجه الحجاج بعد مغادرة العَمارة، لذلك كان الركب يمرُّ قبلها بواد النابعة الملىء بالآبار، لحملِ الماء. وقد نصَّب حكام مصر عليها أعمدة في شكل نواطير خلال القرن 11هـ/17م، علاماتٍ يهتدي بها الحجاج حتى لا يَضلُّوا الطريق[1].

22. وادي التِّيه (صحراء سيناء حالياً): نسبة إلى أرض التّيه، وهو الموضع الذي يُروَى بأن سيدنا موسى عليه السلام وقومه ضلُّوا فيه. يقول عنه الرحالة التنلاني: ".... وسِرنا في تيهِ بني إسرائيل، وبِتنا بآخره"[2]. وهو محلٌّ مشقة كبيرة على الحجاج في أيام البرد لشدته، وفي أيام الحَرِّ لقلة لقلة الماء، فتتلف فيه أنفسٌ كثيرة من جراء العطش. كما أنَّ من الخطورة بمكانٍ عبوره دون دليلٍ خبيرٍ بأرضه، وإلَّا فالرحالون قد دأبوا على التحذير منه[3]! (البسيط)

لَا تَسْلكَنَّ بِوادِي التِّيهِ مُنفرِداً　　　بِلَا دَليلٍ تَرَى وَقْعَ الرَّدَى فِيهِ

فمَا سِمِعتُ كلاماً مِنْ أَخٍ ثِقةٍ　　　فِي النَّاسِ إلَّا وَقَال احْذَرْ مِنَ التِّيهِ

23. بندر النخيل (محطة نخل): قريةٌ صغيرة في منتصف الطريق بين السويس والعقبة، فيها سوق للفاكهة المتنوعة، التي يأتي بها أهل غزّة من الشام، وسوق أخرى يتم فيها شراء أو تبديل الإبل، وآبار وأحواض لسقي الحجاج ودوابهم. وقد كان بعض الحجاج الجزائريين يضعون فيها أمتعتهم إلى أنْ يرجعوا من الحرمين الشريفين، تخفيفاً على الإبل[4].

24. سطح العقبة: يقطع الحجاج بعد محطة نخل أرضاً بسيطةً متَّسعة، فيها آبار تتَّصف بالمرارة مثل بئر تسمى "بئر الصعاليك"! وفي نهايتها يصلون إلى العقبة، على رأس الضفة الشرقية للبحر الأحمر. وبعد المبيت في سطح العقبة يتوجهون صباحاً إلى النقَب، وهو طريق في جبل في غاية من الضيق. وهو بسبب ذلك الضيق والالتواء أكثر بنادر درب الحجاز التي يُتَعدَّى فيها على الحجاج من طرف اللصوص، المنتمين إلى قبائل ذلك المقطع[5].

---

[1]- سميرة فهمي علي عمر، المرجع السابق، ص249.

[2]- عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، و20.

[3]- أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص219.

[4]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص172.

[5]- سميرة فهمي علي عمر، المرجع نفسه، ص251.

25. عقبة أيلة: أيلة هي قرية صغيرة بها نخيل وبساتين، أمَّا العقبة فهذا وصفُ أحد الحجاج المغاربة لها في ذلك العهد: "..... وما أدراكَ مَا العقَبة! كم بها من مضيقٍ وحَدَرات، وجبال في شكل الحمرة والبياض، وصعود وانهباط، وعلوٍّ وانحطاط، وهي علقة في الطريق"[1]! وسميت بذلك لقربها من عقبة في جبل، وهي عقبة كئود، صعبة الهبوط والصعود. يسير فيها آلاف الحجاج في خطٍّ واحد، وينزل كلُّ حاج عن مركوبه خوفاً من السقوط، بل حتى النساء ينزِلنَ من المحامل، ويمشِينَ فيها على أرجلِهنَّ[2]!

26. ظهر الحمار: وهو بسيط مرتفع، يقع جنوب العقبة، يقطعه الحجاج مخلِّفين البحر الأحمر يميناً، في مسلك ضيِّق بين البحر والجبل[3].

27. الشرفة: مقطع طويل بين منخفضات ومرتفعات، وتُسمى كذلك "عشّ الغراب".

28. مغاير شعيب: دأبَ الرحالة المغاربة على نسبةِ هذه المغاير إلى نبي الله سيدنا شعيب عليه السلام، ينزل بها الركب بعد المرور بوادي مدين، ومياهها عذبة تروي الحجاج وتشفي غليلهم، على رأي الرحالة المجاجي[4]: (الطويل)

وظَهرُ الحِمارِ مَعطِنٌ ومَغَارةٌ لسيِّدِنا شُعَيبٍ فيهَا رويتِي
ونَهرُ القَصَبِ بَعدَه ومَقِيلُنا عليهِ لأجلِ السَّقيِ فيهِ كِفايتِي

29. عيون القصب: وهي عيون ماء متقاربة، ينبت عليها القصب بوفرة، ينزل بها ركب الحج، من أجل السقي وغسل الملابس والأمتعة.

30. المويلح: موقعٌ قريب من البحر الأحمر، فيه آبار كثيرة. وهو البندر المشهور في درب الحجاز، لكونه محطةً معلميةً، يتسلَّمُ فيها الحجاج أحمال الفول (علَف الدواب)، التي كانوا قد دفعوا ثمنَ إيصالها للبدو السماسرة بمصر. ويتركون في قلعة المويلح المهيَّأة أمتعتهم وودائعهم، وبعض الزاد الذي سيُعينهم على إكمال رحلة العودة (بعد عودتهم من الحجاز)[5].

---

[1]– أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص220.
[2]– الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص173.
[3]– ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص327.
[4]– عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و03.
[5]– إبراهيم المصعبي، المصدر السابق، ص76.

31. الأزلم: محطة أخرى هامة، تقع جنوب العقبة، بها ثلاث آبار غزيرة، لكنها مالحة تصلح للإبل. وفيها كان يلتقي الحجاج الجزائريون وغيرُهم بعد أداء الحجّ ببعثةٍ قادمةٍ من مصر، تحمل المؤن والملابس والمشروبات، وتُلاقي الحجاج، في ما عُرف بـ "الملاقاة الأزلمية"[1].

32. إسطبل عنتر: فضاءٌ صغير بين الجبال، في أعلاه ماء يُسمى "الزعفران"، إلا أن قبائل البدو العرب كانوا يقومون بالاختفاء وراء تلك المرتفعات، ويتحيَّنون الفرصة للهجوم على ركب الحج. لذلك كان الحجاج يُحذِّرون بعضهم بعضاً من خطورة محطة "الإسطبل"[2]! (مجزوء الكامل)

إنْ جِئْتَ لِلإِسْطَبلِ لَا   تَغْفَلْ بِهِ عِندَ النُّزُولْ
واحذَرْ مِنَ العَرَبِ التي   بِجبالِه أبَداً تَصُولْ
وَاعلَمْ فَدَيْتُكَ أنَّهُ   صَعْبٌ وَلَكِنِّي أَقُولْ
قَدْ سُمِّيَ الإسْطَبْلُ مِنْ   عَرَبٍ بِهِ شِبْهِ الخُيولْ

33. الوجه: محطة رئيسية لأركاب الحج، تصلها بعد قطع وادي "الأراك" الغني بذلك الشجر، فيها آبار محروسة تُنظَّف باستمرار من طرف أعوانٍ مكلَّفين، تصبُّ في ثلاث بِرَك خارج البندر، ومن هذه المحطة ينتهي دَرَكُ عرب مصر ويبدأ درَكُ عرب الحجاز عند "بئر الدركَيْن"[3].

34. الحوراء: قرية من قُرى الحجاز على ساحل البحر الأحمر، يُباع فيها السمك وتمر العجوة.

35. النّبط: معطنُ ماء عذب بارد، عكس ماء الحوراء السابق، به آبار محكمة البناء بالحجر المنحوت، وخلفَه وادٍ شديد الحرارة تسمِّيه العامة وادي النار، وهو الطريق إلى الخضيرة[4].

36. الخضيرة: من أعمال الينبع، ليس بها ماء، كان الحجاج يتعرضون فيها للعطش الشديد، ومنها يشرعون في مواجهة ما عُرف بـ "سبع وعرات" بجانب الجبل، وكذا "المحاطب" لكثرة الشجر فيها. وهي مُجهِدة للحجاج والإبل، ومنها يتوجهون إلى الينبُع في الرُّبع الأخير من الدرب[5].

---

[1]- أحمد الرشيدي، المصدر السابق، ص14.
[2]- ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص336.
[3]- سميرة فهمي علي عمر، المرجع السابق، ص255.
[4]- محمد الحضيكي، المصدر السابق، ص96.
[5]- سميرة فهمي علي عمر، المرجع نفسه، ص257.

37. الينبُع (أو ينبوع النخيل): أول بلاد الحجاز العامرة في مقطع الدرب، تُناظرها ينبُوعُ البحر ثَغرُ المدينة المنورة على البحر الأحمر. بها نخل كثير وماء وزرع، تخرج فيها أقوات أهل المدينة. والحجاج جميعاً يستبشرون بوصولهم إلى هذه المحطة، التي تُقام فيها أسواق كبيرة، فيها غالب المحتاج، وفيها يطَّلِع حجاج الركب الجزائري على أخبار الحرمين الشريفين[1].

38. بدر: موضع ذو نخيل وعينُ ماء عذب، يسميه الحجاج "دار الوقدة"، لأنهم يُوقِدون فيه الشمع الكثير تيمُّناً وتبرّكاً بغزوة بدر. وفيه برِكة كبيرة تكفي لسقي الأركاب كلِّها[2].

39. رابغ: قرية بها آبار ونخيل، تقع على ساحل البحر الأحمر، وهي محلُّ ميقات الأركاب المغاربية والمصري والشامي، يُحرِمون في موضع منها هو "الجحفة". وهذه المحطة تستقبل كذلك الحجاج الوافدين من طريق البحر عبرَ ميناء الطور[3]، والقاصدين لاحقاً ميناء جُدّة. وفيها يقوم الحجاج الجزائريون بالاغتسال وشراء النِّعال المتوفرة هناك بكثرة، ثم يُحرِمون ويشرعون في التلبية، مروراً بمحطة "خليص". وذلك بعد أنْ يُذِيبَ أمراء الحج كميات كبيرة من السكر على عادتهم، ويسقونها للحجاج، فرحاً بقُرب الوصول إلى مكة المكرمة. يقول ابنُ مسايب[4]: (المديد)

قُمْ يَا طّير ارحَلْ وَاعزَمْ   وَاوعَدْ رَابِغْ فِيه احرَمْ

جَرَّدْ ثِيَابَكْ وَتْقَدَّمْ   وَاقصَدْ الوَقفَة وَانوِيهَا

40. عُسفان: قريةٌ على نحو يومين من مكة المكرمة، وفيها البئر التي يُروى أنَّ النبيَّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ تَفَلَ فيها. وماؤها حلو للغاية، يحرص الحجاج على شُربه تبرّكاً بالآثار النبوية[5].

41. مرُّ الظهران: على مرحلةٍ واحدةٍ من مكة المكرمة، تسمِّيه العامة "وادي فاطمة" أو "وادي الشريف". وبه قرية ينزل بها الحجاج، تقام فيها سوقٌ كبيرة[6].

---

[1]- عبد القادر التنلاني، المصدر السابق، و44.

[2]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص207.

[3]- **الطّور**: مدينة صغيرة على البحر الأحمر ذات ميناء، على مسافة ثلاثة أيام إبحاراً من السويس، يُنسَب إليها جبل الطور أو جبل سيناء، ويتزوّد فيها الحجاج بالماء والفاكهة. يُنظر: جوزيف بتس، المصدر السابق، ص41.

[4]- Ben Messaib, Op.cit, p281.

[5]- القيسي السراج، المصدر السابق، ص76.

[6]- محمد الحضيكي، المصدر السابق، ص98.

42. ذو طوى: وادٍ أعلى مكة، وأسفله "الشبيكة"، ينزلُه الحجاج في الأسبوع الأول من شهر ذي الحجة، ويبيتون به، ثم يغتسلون غسلاً خفيفاً، استعداداً لدخول مكة المكرّمة[1].

* **مكّة المكرَّمة**: **أمُّ القرى**. كان الركب الجزائري يصلُ إليها في الأسبوع الأول من شهر ذي الحجة غالباً[2]، ويدخلها من أعلاها من باب المعلَّى، قاطعاً شارعاً يتوسَّطها، مُشرفاً على "الحجون" مقبرةِ أهل مكة. وبعد إناخة الإبل وحطِّ الرحال يتوضأ الحجاج، ويتوجهون إلى المسجد الحرام من باب السلام، الذي كان يُدعى باب بني شيبة سابقاً، ويشرعون في أداء المناسك.

المبحث الثاني: **إشكالية تأمين مسالك ركب الحج ومعابره**

01. مظاهرُ الاعتداءات على الحجاج ومسوِّغاتُها:

ظلَّ توفيرُ الأمن في الطريق الهمَّ الأول للحجّاج وذويهم، ولسانُ حالهم يقول[3]: (الرمل)

يا مُزمِعَ الارتِحَالَ عنَّا أَسْعَدكَ اللهُ فِي ارْتِحالِكْ

كانَ لَكَ اللهُ خَيرَ وَاقٍ أَمَّنَكَ اللهُ فِي المسَالِكْ

وذلك بسبب كثرة اللصوص والمجرمين والحرابة (الأشرار) على طولِ طريق الحج، من الجزائر إلى الحجاز، فهُمْ لا يرقُبون في حاجٍّ مؤمن إلَّا ولا ذِمَّة، بلْ يستبيحون حِمى الركب ومحارمَهُ. والخطرُ الداهم الذي كان ينغِّص على الحجاج سفرهم، فيستعدُّون لمواجهته في كلِّ موسمِ حجٍّ هو هجومُ قبائل "الأعراب"[4]! على ركب الحج، على اختلاف وكثرة المسمَّيات التي عُرفتْ بها تلك القبائل

---

[1]- ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص363.

[2]- حدثَ في موسم حجِّ 1232هـ/1817م أنْ تأخَّر الركب الجزائري في الوصول لمكةَ المكرمة إلى وقتٍ حرجٍ جداً، وهو الثامن من ذي الحجة، وذلك بسبب مُعيقات الطريق، وكاد يفوتُ الحجاجَ موعدُ الحج لولا لطفُ الله عزَّ وجلَّ. يُنظر: عبد القادر التنلاني، المصدر السابق، و54.

[3]- محمد السُّنوسي: الرحلة الحجازية، تحقيق: علي الشنوفي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1976م، ج01، ص67.

[4]- **الأعرابُ**: هم البدو الرُّحل من قبائل العرب غالباً، ويَشيعُ ذكرهم في معظم كتب الرحلات وغيرها من المصادر المشرقية (خاصة) والمغاربية الحديثة باسم **العَرب** أو **العُربان**. من ذلك إشارة شاعر الملحون ابن مسايب التلمساني إليهم في رحلته، محذِّراً الحجاج منهم، داعياً إياهم إلى ضرورة أخذ الحيطة والحذر أثناء عبور الركب بمضاربهم: (المديد)

بَالَك اهَلّ يَا وَرشَانْ حَدّ لَا تَقْرَا فِيهْ أَمَانْ

وِينْ كَانَتْ نَجعْ **العُرْبَانْ** هَامْلَه جُزْ وخَلِّيهَا

Voir: Ben Messaib, Op.cit, p278.

المعتدية في كتب الرحلات والمصادر التاريخية، على غرار: الأعراب ـ كما أسلَفنا ـ العُربان، البدو، الرُّعاة.... وأيضاً "العرب"[1]! اللفظ الشائع والمتداوَل بكثرة في ذلك الزمان.

لقد كان الحجاج الجزائريون يضطرون إلى اقتحام الأهوال في سبيل الوصول إلى بلاد الحرمين الشريفين. يكفي دلالةً على تلك "الأهوال" المشهدُ التالي الذي عاينَه الورثلاني ومَن معه من حجاج الركب الجزائري، بعد أن تعرَّضوا لهجوم "الأعراب" قطّاعِ الطرق المسلَّحين: "والحربُ مِنَ الصبح إلى قربِ العصر.... نَعَمْ صلَّينا على نحوِ صلاة المسايفة بالقسمة، فرقةٌ كانت اتجاه العدو، والأخرى تصلِّي مع الإمام، فلما فرغَتْ ذهبَتْ باتجاه العدو حتى صلَّتْ الأخرى"[2]!؟

والسؤال المحيِّر الجدير بالطرح هو: كيف طوَّعت للأعراب أنفسُهم بأنْ يتجَاسَروا على مقام ركب الحج المهيب وعلى قدسية رحلته؟ لأنَّ حيفَ الحجاج وإذلالَهم لا مسوِّغ له إلا الجهل والطمع وتردِّي الأخلاق!

أ ـ تنوّع الاعتداءات والمعتدين على ركب الحج: كانت معاناة الحجاج الجزائريين من عدم وجود الأمن تبدأ في طرق ومحطات الجزائر، الإيالةِ العثمانية نفسِها، بسبب تمرد بعض القبائل على السلطات القائمة بأمر البلاد آنذاك. ولطالما اشتكى الحجّاج من بعض القبائل المغيرة على ركبهم باستمرار، ومن كثرة شرِّها وإيذائها لهم. من تلك القبائل المذكورة "عرب النمامشة" في إقليم بايلك الشرق، حيث كانوا يتعرضون للركب بالأذى، وبعد تنفيذ إغارتهم يهربون إلى الصحراء، فهم بذلك ليسوا في حكم باي قسنطينة، ولا في حكم باي تونس![3]

ومن القبائل المعتدية على الركب كذلك قبيلتا "أولاد عكاز" و"أولاد صولة" الظاعنتان بين الصحراء والسهوب الشرقية، فقد كانتا تعتديان على الحجاج بغرض سلبِهم أموالَهم وأملاكَهم ورواحلَهم[4]. ولم تكن غاراتهم على الإبل تطالُ ركب الجزائر فحسب، بل لقد اشتكى منها ركبُ

---

[1]- **العربُ** هنا بمعنى البدو الرُّحل الذين يقطعون الطريق على المسافرين ويعيثون في الأرض فساداً، حسبَ استخدام الكُتّاب المغاربة، وعلى رأسهم ابن خلدون الذي اشتهر بتوظيفِ هذا المصطلح بكثرةٍ في كتاباته، ممَّا جعل بعض المستشرقين من ذوي النوايا السيئة يتهمونه بالقدحِ في جنسِ العرب!

[2]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص258.

[3]- المصدر نفسه، ج01، ص236.

[4]- إبراهيم المصعبي، المصدر السابق، ص68.

المغرب الأقصى كذلك، أثناء عبوره لتلك المنطقة[1]. وفي أقصى الصحراء كان "أعراب امقيدن" يسيطرون على الطريق بين القورارة والقُليعة، وينهبون الحجاج القادمين من منطقة توات[2].

وفي البلاد التونسية كان الحجاج يُعانون من متلصِّصة مدينةِ "توزر"، المدخلِ الرئيس لأركاب الحج من المغرب الأقصى والجزائر، مما حدا بالرحالة الدرعي إلى وصف توزر بأنها ".... أكثرُ بلادِ الله سرقةً وخطفاً.... يسرقون بالليل ويخطفون بالنهار"[3]! أمَّا في إيالة طرابلس الغرب فقد كانت الاعتداءات والغارات على الأركاب مزدوجة، يقوم بها "عرب سرت" في وسط البلاد أحياناً، ويقوم بها كذلك "عرب برقة" في شرقيِّها. كما لم يسلم الفقراء والضعفاء من قبائل العرب في حد ذاتها من تلك الاعتداءات. كلُّ ذلك ساهم في خراب أرض برقة، ومضاعفة مخاطر اجتيازها[4].

لم تخلُ البلاد المصرية هي كذلك من خطر أولئك "العُربان"ـ مثلما يُعرفون هناك ـ فقد كانوا يتحيَّنون فرص وفود الأركاب المغاربية إلى مصر في رحلتي الذهاب والإياب، وذلك رغم انخفاض معدل السرقة والاعتداء نسبياً من حدود برقة الشرقية إلى مدينة الإسكندرية، بسبب كثرة القفار والمفازات الموحشة التي يصعب العيش فيها، مقارنة بالأراضي الخصبة العامرة، التي تُقيم بالقرب منها قبائلُ البدو لفترات من الزمن[5]. وفي المدن الكبرى التي يحلُّ بها الركب كانت حالات الاعتداء على الحجاج بقصدِ السرقة تأخذ طابعاً فردياً لا جماعياً، من أمثلتها اعتداء بعض اللصوص على حاجٍّ جزائري عجوز في أزقة القاهرة، ممَّا أدى في آخر المطاف إلى وفاته[6].

لقد تعدَّتْ جرأة "الأعراب" قاطعي الطرق الحدودَ والمناطقَ البعيدة والمعزولة، لتصلَ إلى أقرب مقطعٍ مُوصلٍ إلى بلاد الحرمين الشريفين وهو درب الحجاز، حيث كانت قبائل البدو العرب القوية تعترض سبُل أركاب الحج، وتُخيِّرها بين دفع الأموال والمكوس أو السَّلب والنَّهب. وتقتسم تلك القبائل النفوذ والأنصبة في درب الحجاز على أربعٍ! فمن عسفان (نواحي مكة) إلى الينبُع لقبيلة

[1]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص539.

[2]- Bernard Saffroy, Op.cit, p06.

[3]- ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص162.

[4]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج01، ص197.

[5]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و08.

[6]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص38.

"حرب" المشهورة ببطشِها الشديد على الحجاج، ومن الينبع إلى الأكره لقبيلة "جهينة"، ومن الأكره إلى المويلح لقبيلة "بَليّ"، ومنه إلى قرب مصر لـ "الحويطات وبني عقبة"[1].

رغم قدسية الحرمين الشريفين مكاناً وزماناً إلا أن بعض السُّرَّاق كانوا يستغلون موسم الحج وازدحام مكة المكرمة بالوافدين الجدد من مختلف البلدان لتحقيق أغراضهم الدنيئة، فيختلسون الأموال والأمانات من البيوت التي ينزل بها بعض الحجاج[2]. والبعضُ الآخر من اللصوص لم يكونوا يتورَّعون عن سرقة الحجاج حتى في داخل الحرم ذاته[3]. وبعضهم كان يستغل نفرة الحجاج من عرفات إلى مزدلفة (المشعر الحرام)، ومبيتهم قرب الجبل لالتقاط الجمار، فيرمونهم بالأحجار من أعلى الجبل، طمعاً في إخراجهم من رحالهم وخيامهم، ومن ثَمَّ السطو عليها[4]!

كان اللصوص وقطاع الطرق غالباً ما ينجحون في تحقيق أهدافهم، نتيجة انتهاجهم أسلوبَ المباغتة، وبسبب ضخامة ركب الحج وتعب الحجاج. فهم يستغلون أدنى غفلةٍ من الحجاج المنهكين من طول السفر، فيُهاجمونهم حين تضعف قواهُم وتخورُ عزائمُهم.

لقد تمكَّن اللصوص في أحد الاعتداءات على الركب الجزائري من سلبِ عددٍ من الجمال "عليها من الحوائج والذهب ما لا يعلمه إلا صاحبُه"[5]! وفي هجوم آخر أغارَ اللصوص على أواخر أواخر ركب الجزائر، وأخذوا من الإبل قريباً من الثلاثين بأحمالها، وهربوا بها إلى مضايق الشِّعاب في درب الحجاز[6]. وفي اعتداءٍ آخر ـ تمَّ نهاراً بعد أداء صلاة العصر ـ هجَمَ بعض العرب على الركب الجزائري العائد، وتمكنوا من أخذ جملين بما حملا[7]. ولسوء حظِّ الحجاج المغاربة عموماً فإنَّهم دوماً متَّهمون بحمل الذهب بمناسبة أدائهم مناسك الحج، في نظر سكان أقاليم المشرق، حتى ولو كان أحدهم ذا أسمال بالية! ـ حسب تعليق الرحالة العياشي ـ[8].

---

[1]- ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص605.

[2]- عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص109.

[3]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص65.

[4]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص320.

[5]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص144.

[6]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج02، ص403.

[7]- عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، و20.

[8]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج02، ص462.

من أشنع الاعتداءات التي تعرَّض لها الحجاج الجزائريون ومعهم المغاربة والمصريون، اعتداءٌ شديد وقع في درب الحجاز سنة 1208هـ/1793م، فقد تجمَّع العُربان (أي قبائل البدو من العرب) من كل ناحية عند محطة "مغاير شعيب"، وقتلوا غالب الحجاج، وفيهم حجاج مغاربة، وأخذوا أحمالهم ودوابهم، ونهبوا أمتعتهم[1]!

وفي بعض المواسم كان الحجاج الجزائريون يتعرضون للاعتداء والنهب بسبب الفتن الداخلية الناشبة بالحجاز، من ذلك ما وقع في ذي الحجة سنة 1105هـ/1694م، حيث قُتل عددٌ من الحجاج في عرفة وفي مكة المكرمة، من جراء ذلك الصراع المتجدِّد بين الفينة والأخرى على الزعامة والإمارة بين أشراف الحجاز (حكام مكة المكرمة) فيما بينهم، وقد استغلَّ المتلصِّصةُ ذلك الظرف، ونهبوا كثيراً من الحجاج في طريق عرفة، ولم يعُدْ بمقدور القوافل العائدة بعد الحج السفر حتى يصحبَها عسكرٌ من مكة المكرمة، فيقوم بحراستها[2].

ويرى البعض أنَّ السلطات العثمانية كانت تتسبب ـ بطريقة غير مباشرة ـ في إثارة القلاقل والشغَب بالحجاز، حيث كانت تختار أيام الحج لإرسال فرمانات العزل أو التولية الخاصة بإمارة مكة المكرمة بصحبةِ الركب الشامي أو الركب المصري. فتضطرب الأوضاع وتسود الفتنة بين زعامات شِرافةِ مكة، فهُمْ من ثلاثة بيوت: من ذوي زيد وذوي بركات وذوي عون العبادلة[3]، فيُقاسي الحجاج من أهوالها ما يُقاسون، وتُنهب أموالهم وأمتعتهم من طرف اللصوص، الذين يغتنمون أمثال تلك الفرص.

كما يُلاحَظ أنَّ ظاهرة اللصوصية وقطع طريق الحج في وجه الركب الجزائري وغيره من الأركاب استمرَّت إلى أواخر العهد العثماني، ذلك ما يؤكده الأمير عبد القادر في رحلته إلى الحج رفقةَ والده، حيث وصفَ الطريق "..... بكثرة اللصوص المنتهِبين، وعدمِ اجتياز السيارة مع قبائلها من البدو، لكونهم لا ينالهم حكمُ سلطان، ولا خوفُ الله!"[4].

---

[1]- أحمد الرشيدي، المصدر السابق، ص52.

[2]- أحمد السباعي، المرجع السابق، ج02، 454.

[3]- لمعرفة أسماء أشراف مكة المكرمة من مختلف البيوت، المتعاقبين على إمارة وحكم بلاد الحجاز طيلة العهد العثماني ومآثرهم وآثارهم، يُنظر: إسماعيل حقي جارشلي، المرجع السابق.

[4]- نقلاً عن: سميرة أنساعد، المرجع السابق، ص82.

ب ـ استخدام المكر والحيلة في الاعتداء على الحجّاج:

كان قطاع الطرق يستعرضون قواهُم ومهاراتِهم في ابتزاز الحجاج وسلبِهم، ففي أحد مواسم الحج أحاطَ جمعٌ منهم بالركب الجزائري في صعيد مصر، ومنعوه من التحرك، معتَدِّين بأسلحتهم، وعددهم الكبير الذي بلغ خمسمائة فارس[1]! غير أنَّ المواجهة المباشرة مع الحجاج لم تكن في مصلحة أولئك "الأعراب"، بسبب ضخامة ركب الحج ووفرة سلاحه، لذلك لجأ معظمهم إلى استخدام المكر والخديعة من أجل تحقيق غايتهم، التي تُبرِّر في نظرهم كلَّ وسيلة.

من قبائل طريق الحج التي جربت تلك الأساليب "عرب الجبل الأخضر" شرق طرابلس، إذْ كانوا يستغلون نزول الركب من أجل التسوُّق للانقضاض على الحجاج ونهبهم، وهم ـ في وصف العياشي ـ "من أشدِّ العرب كفراً ونفاقاً، لا يعلمون حدود ما أنزل الله على رسوله، ليس عندهم من الدِّين إلَّا اسمُه، لا حِرفةَ لهم بعد تنمية مواشيهم إلا النهب والغارة، قلَّما مرَّ بهم ركبٌ سلِمَ من إنشاب الحرب بينهم وبينه، بسبب غدرهم وفتكهم عند اشتغال الناس بالسُّوق معهم"[2]!

وبما أنَّ اللصوص أدركوا صعوبة النَّيْل من حجاج الركب كلِّهم دفعةً واحدة، فقد أصبحوا يستهدفون المنعزلين منهم عن الركب. حدث ذلك في إحدى المرات، حيث انفرد عن الركب الجزائري رجلٌ من أهل توات، يحمل على جَمَلِه مقدار ثمانمائة مثقال تبراً، فوثبَ عليه بعض اللصوص، وأخذوا منه الجمل وما حمل، وذلك بعدما شجُّوا رأس صاحبه، وخرَّ ساقطاً مغشياً[3]. وفي حالةٍ أخرى مشابهة انتهزَ اللصوص فرصة انعزال بعض الحجاج عن الركب لأجل السقاية فانقضُّوا عليهم، ذلك ما فعلوه بحاج جزائري يُدعى "عبد الرحمن بن الزيعم"، إذْ سرقوا منه بغلته عنوةً، حينما كان يسقيها من بئرٍ غير بعيدة عن الطريق[4]!

وحينما يفتقد اللصوص القدرة على المباغتة والمناورة يقومون بانتهاج أسلوب آخر، وهو محاصرة ركب الحج في مكان ضيِّق، لا مفرَّ بعده. فمثلاً كانوا يسبقون الركب إلى منبع الماء، ثمّ يُحيطون بالحجاج كالحلقة، ويشرعون في رميهم بالرصاص من بنادقهم! ذلك الفعل قام به في أحد

---

1 – الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص10.
2 – أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص202.
3 – الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج02، ص164.
4 – نفسه، ج03، ص135.

المواسم لصوص درب الحجاز، حيث أحاطوا بالركب الجزائري في مضيقٍ حادٍّ كثيرِ الأحجار، بين جبلين، وشرعوا في قذف أطراف الركب بالبارود، فَعَلِيَ النداء والصياح، وانضمَّ أولُ الركب إلى آخره، وسلِمَ الحجاج الجزائريون في موضعٍ قلَّ أنْ يَسلَم فيه غيرهم من أيدي المعتدين[1]!

لكنَّ هؤلاء اللصوص لم يكونوا يُقْدِمون على فعلهم إلَّا بعد أن يتأكدوا من أنَّ ركب الحج لا يتوفَّر على الحماية الكافية، وليس بمقدوره درءُ خطرهم. أمَّا إذا تبيَّنَ لهم امتلاكُ الحجاج للأسلحة الكافية، واستعدادهم لملاقاتهم بكلِّ شجاعة وعزيمة، إذا رأوا ذلك رفعوا راية السلم، وتظاهروا بأنَّهم يرغبون في نزول الركب من أجل البيع والشراء[2]! وقد تكرَّر ذلك التظاهر الكاذب بالسِّلم مع العديد من أركاب الحج المغاربية في مواسم مختلفة.

رغم ذلك، بَدَا أنَّ اللصوص من "الأعراب" أو "البدو" قد مَرَدُوا على السرقة وتمرَّسوا فيها إلى درجةٍ لا تُصدَّق. فمن غرائب الاعتداءات التي كان الحجاج الجزائريون يتعرضون لها في سفرهم ما جاء في المشهد التالي: ".... وعندما يرى هؤلاء البدو حاجاً قد استغرق في النوم فكُّوا رباط جَمله من الأمام ومن الخلف، ويقوم أحد اللصوص بقيادة الجمل بعيداً، بينما يكون الحاج نائماً فوقَه، ويقوم اللص الآخر ـ في الوقت نفسه ـ بسحبِ الجمل التالي ليربطَه بجملٍ آخر بدلاً من الجمل المسروق"[3]! هذا فضلاً عن قدرة اللصوص العجيبة في اختلاس ثياب الحجاج بعد أنْ يكونوا قد غسلوها ونشروها خارج الخيام لتجفَّ، رغم حراستهم لها! ولا غرابةَ في ذلك ـ في نظر الرحالة السجلماسي ـ حتى "إنَّهم قد يختلِسون القدور وهي تغلي"[4]!

وقد قارن بعض الرحالين بين جرأة أعراب الحجاز وجرأة أعراب شمال أفريقيا على السرقة، فوجد بأنَّ أعراب الحجاز "مِن أجرأ الأعراب على السرقة"؟[5] والغريب في الأمر أنَّ بعضاً من هؤلاء الأعراب المتعوِّدين على إذاية الحجاج يحضُرون موسم الحج، ويحرصون على أداء المناسك! لكنَّهم لا يرعوون عن غيِّهم وجورهم أثناءَ الموسم وبعدَه، فيُضايقون الحجاج ويُساومونهم، ويفرضون

---

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص120.

[2]- ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، و54.

[3]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص71.

[4]- الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص197.

[5]- عواطف بنت محمد يوسف نواب، المرجع السابق، ص227.

عليهم المكوس الجائرة بعد أداء المناسك، مقابلَ إخلاء الطريق للأركاب من أجل العودة إلى أوطانها، فصدقَ فيهم وصفُ الرحالة القائل[1]: (الطويل)

رَأَى البَيْتَ يُدْعَى بِالحَرَامِ فَحَجَّهُ ولَوْ كَانَ يُدعَى بِالحَلالِ لَمَا حَجَّا

ج ـ القرصنة الأوروبية وترويع الرّكب البحري:

لم يَسلَم الحجاج الجزائريون الذين فضَّلوا ركوب البحر ـ وهُم يُدركون مخاطره الأخرى ـ من الخطر والاعتداء على مراكبهم وسفنهم داخلَه، ولَئِنْ كان البحر في نظر الرحالة المقَّرِي التلمساني من الثلاثة الذين لا يُؤتَمَنون: (الرجز)

"ثَلاثَةٌ لَيْسَ لَهَا أَمَانُ البَحْرُ والسُّلْطَانُ والزَّمَانُ

فكيف وقد انضمَّ إليه خوف العدو الغادر الخائن، والكافر الحائن"؟[2] رغمَ أنَّ أعداد المسافرين إلى الحج بحراً لا يُمكن مقارنتها بالمسافرين إليه براً.

لقد مثَّلتْ عمليات القرصنة الأوروبية التي شاعَت في حوض البحر الأبيض المتوسط في تلك الفترة التحدي الأصعب الذي واجه الركب البحري الجزائري. ولا غَروَ إنْ وجدنا أنَّ عدداً من الأسرى الجزائريين المحتجَزين لدى الدول الأوروبية المعادية للجزائر كانوا يحملون لقب "الحاج"، مثل النماذج التالية: الحاج محمد، الحاج مصطفى، الحاج حمودة....[3]. ولعلَّ البعض من أولئك الأسرى قد أُلقي عليهم القبض بعد عودتهم من الحج مباشرة، لأنَّ السفن المقِّلة للحجاج الجزائريين كانت تساهم في الجهاد البحري والدفاع عن مصالح الجزائر أيضاً. ففي أحد المناسبات قامت سفينةٌ حاملة للحجاج بتحرير أرقَّاءَ جزائريين وأتراك من أيدي مختطِفيهم، الذين كانوا يرغبون في نقلهم إلى مدينة جنوة الإيطالية لبيعهم هناك[4].

إنَّ رحلة الحجاج عبر البحر محفوفةٌ أصلاً بمخاطر الغرق أو التِّيه. إضافةً إلى ذلك كان يتعرض المقدِمون عليها للقرصنة الأوروبية المسيحية، خصوصاً من طرف فرسان مالطة[5]، المشهورين

1- ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، و19.

2- أحمد المقّري، نفح الطيب، مصدر سابق، ج01، ص34.

3- خليفة حماش: الأسرى الجزائريون في أوروبا في العهد العثماني، ملتقى سوسيولوجية الهجرة، مرجع سابق، ص23.

4- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص24.

5- أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، مرجع سابق، ص84.

المشهورين كذلك باسم "فرسان القديس يوحنّا"*. فمالطة القريبةُ من سواحل بلاد المغرب لم يكن في الأوروبيين مَن هو أضرُّ منها على سفن المسلمين عامة والحجاج المغاربة خاصة، لكونها تقع بمحاذاة طريق ركب الحج الجزائري البحري. فهي كما وصفها ابن أبي محلِّي السجلماسي ".... بين الغرب ومصر في البحر، تأسِرُ الحجاج وتلقفُهم كالثعبان"![1]

ومالطة ـ كما شهد الرحالة الدانمركي نيبور ـ هي السبَّاقة إلى معاداة المسلمين وإثارة جمِّ غضبهم، بسبب زعامتها للقرصنة الأوروبية ضدهم. يقول نيبور: ".... ولا ينبغي أن نستغرب أن ينسبَ المسلمون إلى المالطيين ما ننسبُه نحن إلى المغاربة والجزائريين والتونسيين والطرابلسيين، إذْ يعيش هؤلاء البرابرة على الأقل بسلام مع بعض الأمم المسيحية، في حين أنَّ فرسان مالطا يُعادون الأمم الإسلامية كلَّها"[2]! وهي شهادة حقٍّ، رغم ما اعتراها من تعصُّبٍ واستعلاء.

لقد انضمت بعض الدول المسيحية إلى ذلك الحلف العدائي، وأصبحت تستهدف سفن الحجاج دون رادع أو مانع. فالقبارصة أصبحوا يتصرَّفون مثل فرسان مالطة، وأخذوا يهاجمون السفن المسلمة، ويتعرَّضون للحجاج والتجار[3]. والروس كذلك أعلنوا انتقامهم من أعدائهم العثمانيين بمهاجمة سفن الجزائر، بحكم أنَّ الجزائر إحدى ولاياتهم. فقد هاجموا في إحدى السنوات سفينة فرنسية تمَّ كراؤها لنقل الحجاج الجزائريين، وأوشكَ القبطان الروسي أن يضربَ السفينة الفرنسية ويُغرقَها بمن فيها، لولا تدخُّلُ مساعديه الذين حذَّروه من تَبِعات ذلك الفعل[4].

ومن أسوأ المواقف التي تعرَّض لها ركب الجزائر البحري حادثة اختطاف سفينتين تُقلَّانِ الحجاج والتجار الجزائريين سنة 998هـ/1590م، وذلك بمكيدة دبَّرها المستخدَمون على متنيهما

---

* **فرسان القدّيس يوحنّا**: بدأت هذه الجماعة نشاطها كمنظمة خيرية دينية في القدس، تساعد المحتاجين من الحجاج المسيحيين الذين يزورون فلسطين، وعندما نشبت الحروب الصليبية تحولت هذه الهيئة إلى منظمة عسكرية، ثم طُردوا من القدس إلى جزيرة رودس، ومدُّوا نفوذهم على الجزر المتوسطية، ثمّ أُخرجوا منها في بداية القرن 16م/10هـ واستقروا في جزيرة مالطة، منقلبين إلى عصابة من القراصنة، تحارب المسلمين والأسطول العثماني بدعمٍ من ملوك أوروبا المسيحيين. يُنظر المزيد في: عمر محمد الباروني: الأسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس، ط01، مطبعة ماجي، طرابلس، 1952م، ص75.

[1]- عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص83.

[2]- كارستن نيبور، المصدر السابق، ج01، ص28.

[3]- سامح التر، المرجع السابق، ص226.

[4]- المرجع نفسه، ص527.

من العبيد والمجدِّفين النصارى، وسِيقتْ السفينتان إلى "بلاد النصارى" بمن فيهما، في حين فضَّل بعض الراكبين المسلمين إلقاء أنفسهم في البحر، أملاً في النجاة سباحةً من الأسر[1]. وفي سنة 1239هـ/1824م هاجم فريقٌ من القراصنة الإنجليز والمالطيين وغيرهم مركباً للحجاج الجزائريين، واقتادوه إلى مالطة، وبقي محتجزاً هنالك إلى أن وقع الصلح بين الجزائر وانجلترا[2].

وبعيداً عن البحر كان الحجاج الجزائريون يتعرَّضون للنهب كذلك من طرف اللصوص في نهر النيل! وذلك أثناء انتقالهم في القوارب من مدينة الإسكندرية إلى مدينة القاهرة، وهم ـ أي اللصوص ـ "يَكثُرون في هذا الوقت من العام لكثرة عدد الحجاج الذين يتخذون طريقهم مُبحِرين في النيل من رشيد للقاهرة، ويعلم اللصوص أنَّ الحجاج يحملون معهم مبالغ مالية"![3]

02ـ الجهود المبذولة لتأمينِ الطرق والمسالك:

أ ـ الجهود الرسمية لتأمين طريق الحج:

بما أنَّ منافذ طرق الحجاج من إقليم الجزائر متباينة ومتباعدة، فقد انصبت جهود الحكام العثمانيين على تأمين ما يخضع لسلطتهم منها، حيث قام بعضُ البايات بإنشاء أبراج لمراقبة القبائل المعتدية على المسافرين، وكان الجنود الأتراك يُسافرون بين الجزائر وقسنطينة بصفة دورية كلَّ ثلاثة أشهر، من أجل مراقبة الطريق المؤدية من الوسط إلى قسنطينة، فتستغلُّ قوافل الحجاج ذلك وتُرافقهم وهي آمنة[4]. كما أدرك شيوخ وزعماء قبائل "العرب" في إقليم بايلك الغرب أهمية تأمين تلك الجهات، فقام أحدهم بطرد المفسدين وقطاع الطرق واللصوص منها، وأخضع القبليين المتمردين على الأتراك لسلطته، وألزمهم بدفع الضرائب[5].

وعلى مستوى المسالك الخارجية فقد بُذِلت بعض الجهود بين الفينة والأخرى لحماية ركب الحج، فكان باي طرابلس الغرب يُحسن إلى الركب الجزائري، ويأمر عمَّاله بحراسة الحجاج وأملاكهم ليلاً من السرّاق، وذلك دون بقية الأركاب المغاربية الأخرى، إظهاراً للمودة ورغبةً في

---

[1]- علي التمكروتي، المصدر السابق، ص130.
[2]- الشريف الزهار، المصدر السابق، ص153.
[3]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص29.
[4]- محمد المكناسي، المصدر السابق، ص330.
[5]- سامح التر، المرجع السابق، ص536.

صالح الدعاء من أعلام الحج الجزائريين[1]. أمَّا سلطات مدينة القاهرة فلطالما حذَّرت ساكنيها من مغبَّة الاعتداء على الحجاج المغاربة عموماً، وذلك مدة مكوثهم بالأراضي المصرية[2]. لكن تلك الجهود ظلت غير كافية، نظراً لظرفيتها وعدم انتظامها، ومحدودية مجالها الجغرافي.

لا شك أن الاعتداء على الحجاج وترويع أركاب الحج من الممارسات المستهجَنة في أوساط المسلمين جميعاً، ويقع الجزء الأكبر من مسؤولية تأمين المسارات الواقعة في إقليم الدولة العثمانية على عاتق حكامها وولاتهم، فالسلطان العثماني هو حامي الحجاج الأول باعتباره "خادم الحرمين الشريفين". لذلك اهتمَّ العثمانيون بحماية المعابر المؤدية إلى الحرمين الشريفين، وبصفة خاصة طريق درب الحجاز. فمنذ انضمام مصر للدولة العثمانية سنة 923هـ/1517م أمر السلطان سليم الأول بأن يسير الحجاجُ كلُّهم ـ مصريون ومغاربة ـ في الدرب مع قافلة المحمل الرسمية المهيبة، المنطلقة من القاهرة، وذلك لتوفير الأمن والراحة للحجاج. فالعساكر يؤمِّنون تلك الأركاب من مصر إلى بركة الحاج، والعَسَس يتواجدون غالباً في بنادر (محطات) درب الحجاز[3]، حيث أنشأ العثمانيون قلاعاً وحصوناً في ثلاثة بنادر هي: العقبة والمويلح والوجه، لتأمين الدرب، فيمكث الجنود فيها لمدة سنة كاملة، ثمَّ يتم تغييرهم بفرقة أخرى[4].

وجديرٌ بالذكر ـ والفخر ـ هنا أنَّ أشدَّ فرقة عسكرية قوةً وتنظيماً ساهمت في حفظِ الأمن بين مصر والحجاز، وقطعِ دابر لصوص قبائل الدرب المعتدية، هي فرقة "عسكر المغاربة"، المجنَّدة باستمرار من قِبلِ الولاة المصريين. حيث أبلَتْ بلاءً حسناً مع عسكر المماليك المصريين بقيادة أمير الحج ضد قبائل الدرب المهاجمة على الحجاج في موسم 1174هـ/1761م، ورجع الركب المصري يحمل رؤوس كبار شيوخ القبائل على الجِمال[5]! وذلك في ظلِّ عدم فعالية التدابير المبذولة من طرف السلطات العثمانية، والتي اقتصرت على محطات قليلة، وفي مواسم بِعينها.

---

[1]– الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص337.

[2]– عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المرجع السابق، ص55.

[3]– أحمد الرشيدي، المصدر السابق، ص37.

[4]– عواطف بنت محمد يوسف نواب، المرجع السابق، ص208.

[5]– لم يرضَ الأمراء المماليك في مصر عن فعلِ أميرِ الحج والعساكرِ المغاربة، خوفاً من الثأر المتوقَّع للبدو، فخاطبه أحدُهم: "إنَّك أفسَدْتَ علينا العرب، وأخرَبتَ طريق الحج، ومَنْ يطلع بالحج في العام القابل؟" فقال متحدياً: "أنا الذي أسافر بالحج في العام القابل، ومنِّي للعرب"! يُنظر: عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج01، ص406.

وتُضاف إلى تلك الجهودِ الرسمية جهودُ الحكام المعنيين مباشرة بشؤون الحج والحجاج، أكثرَ من غيرهم، وهم أشرافُ مكة، حكامُ الحجاز، وسدَنَةُ الحرمين الشريفين، الذين أقرَّهم سلاطينُ آل عثمان على إمارتِهما، مقابل الدعاء للخليفة العثماني والحصول على جزء من الواردات في مكة وجدة. فقد كانت طبائعُ شخصياتهم ومآثرهم تنعكس على الأوضاع بالحجاز، وعلى مدى النجاح في تأمين موسم الحج، وحماية الحجاج من بعده.

فهذا شريف مكة "محمد أبو نمّي" رفقةَ ابنه "الحسن" يؤمِّنان دربَ الحجاز طيلة النصف الثاني من القرن 10هـ/16م، وقد ".... امتاز أبو نمّي بحزمِه في إدارة الأمور وصرامته في الحكم، وبذلك هابَتْهُ الأعرابُ والأهالي، واحترمه الحجاج والمجاورون، وقدَّر منزلتَه أصحابُ السلطان من العثمانيين، وقضَى بحزمِه على أصحاب الفتن، وساعد على رخاء الأسعار، واستمرت مكة محكومةً بأمره سنين طويلة، في استقرارٍ لا تعبثُ به القلاقلُ والفوضى"[1].

وعلى خطى شريف مكة "أبي نمّي" سار حاكمٌ جديد من الأشراف في منتصف القرن 11هـ/17م، وهو "زيد بن محسن"، فأخمدَ الفتن، وحارب بسيفِه وهيبته المتربِّصين بأمنِ الحرمين الشريفين، واشتهرَ بورعِه وتقواه، وبقَبول دعائِه على الأشرار والمعتدين، حتى ".... كانت أعراب الحجاز تقول: نخاف من دعوة زيد أكثر ممَّا نخاف من سيفِه"[2]!

أمَّا حاكمُ الحجاز في أواخر القرن 12هـ/18م الشريف "سرور بن مساعد" فكان يُلاحق بنفسه قطَّاع الطرق من البدو، ويُحارب أكثر القبائل فتكاً بالحجاج وهي قبيلة "حرب"[3]، ويرصد الأموال لكلِّ من يأتيه برأس رجلٍ من أفراد هذه القبيلة[4]. ويُذكر أنَّ أمير الحج المصري أمرَ في أحد المواسم بِكَيِّ أسرى قبيلة حرب في خدودهم بواسطة محاوير محمَّاة، ليبقى ذلك وسماً وعاراً يُعرفون

[1]- أحمد السباعي، المرجع السابق، ج02، ص396.

[2]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص327.

[3]- إنَّ اشتهار قبيلة "**حرب**" العربية بمحاربةِ حكام الحجاز وقطعِ طريق الحج جعلتْ الحجاج يذكرونها في أشعارهم، وكيف أنَّها هي والحربَ القائمةَ بسببها تُعطِّلان رحلة سفرهم لزيارة خير الأنام ـ عليه السلام ـ يقول أحد الحجاج: (الرمل)

رَسولَ اللهِ يَا خَيْرَ البَرَايَا ... ويَا مَنْ نَارُنَا لَكَ ليسَ تَخْبُو

مَتَى نَرجُو لِقَاكَ وَكَيفَ هَذا ... يَكونُ ودُونَنَا حَرْبٌ وَ**حَرْبُ**

يُنظر: عبد الغني النابلسي، المصدر السابق، ص323.

[4]- جيرالد دي غوري: حكام مكة، ط01، ترجمة: محمد شهاب، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2000م، ص213.

به، ويُعيَّرون بسبَبِه، لكنَّ ذلك العقاب أجَّج حميةَ أفراد قبيلة حرب، فاجتمعوا من كلِّ وادٍ، وأعمَلوا النهب والسيف في الحجاج المغاربة والحجاج المصريين، الذين يمرُّون على مناطق نفوذهم[1].

وعلى مستوى طريق الحج البحرية انطلاقاً من ميناء الجزائر، قام الداي حسين في أحد الأعوام بإرسال ثلاثةٍ من مراكبِه القتالية مع سفن الحجاج الجزائريين، لحمايتها من القراصنة وتأمين وصولها إلى ميناء الإسكندرية[2]، لأنَّ تداعيات الصراع البحري بين العثمانيين والأوروبيين ظلَّتْ تهدِّد الأمن في حوض المتوسط، وانعكستْ سلباً على حركة نقل الحجاج لعقود متتالية.

ب ـ جهودُ الحجاج الذاتية في حماية الرّكب:

في ظلِّ العجز الرسمي عن حماية ركب الحج من الاعتداء والسلب، أضحت مسؤولية تأمين الركب مَنيطة بأفراده الحجاجِ أنفسِهم، فكان الحجاج الجزائريون المتسلِّحون يُطلقون النار من أسلحتهم لإخافة اللصوص ودفعهم[3]. وهم بذلك يمتثلون لنصيحة الرحالة العياشي في القرن 11هـ/17م مخاطِباً الحاجَّ: "…. وخذْ لنفسِك ما تحتاجُ إليه من البارود والرصاص، واتَّخِذ لأصحابك ولنفسك مدافع (أي بنادق بارودية)، فإنَّها في الطريق هيبتُه، وأيُّ هيبة"[4]! لذلك كان الحجاج يصطحبون معهم في أول الأمر البنادق البارودية، المعروفة وقتَها باسم "المكاحل"[5]. وفي فترات ومواسم موالية اضطرَّ الحجاج إلى استخدام البنادق المزودة بالرصاص الحي في حراسة الركب. حيث ذكرَ الرحالة السجلماسي أنَّ لصّاً تمكَّن من خطفِ بندقية من بعض الحجاج، وحين تبعوه رماهم برصاصة، لكنَّه لم يُصِبْ أحداً[6].

ومن أساليب الدفاع عن النفس وردِّ المعتدين إناخةُ الإبل ليتصلَ آخر الركب بأوله، ويتكتَّلَ الركب في هيئةٍ كتلة واحدة كبيرة. فاجتماعُ الركب بهذا الشكل فيه نكاية وتثبيط لعزائم المتربصين

---

[1]- أحمد السباعي، المرجع السابق، ج02، ص509.

[2]- الشريف الزهار، المصدر السابق، ص170.

[3]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص30.

[4]- أبو سالم العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص51.

[5]- **المكاحل**: لفظٌ دارجٌ شائعٌ ببلاد المغرب، مفرده المكحلة، والمقصود بها هنا البندقية المستخدِمة للبارود. ومن معانيها اللغوية الوعاء، ولعلها سميّت بذلك لاحتوائها البارود وحشوه في الوعاء. يُنظر: ابن منظور، المصدر السابق، مادة: كحل.

[6]- الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص163.

به. وقد حدث في أحد المواسم أنْ أدركَ الحجاج الجزائريون إصرار مجموعةٍ من المحاربين المسلحين على السطو والاعتداء عليهم في مقطع درب الحجاز، فقاموا بتقسيم مَن يُطيق حمل السلاح من الحجاج على خمسةٍ: ميمَنةٍ وميسَرة وقلبٍ ومقدِّمة ومؤخِّرة! ـ كما الحربُ تماماً ـ وداروا جميعاً بالإبل وما تحمله من بضائع، وبالنساء والضعفاء منهم، فلمَّا رأى المسلَّحون ذلك يئسوا من غايتهم، وخلُّوا سبيل الحجاج[1]. إنَّ تلك الواقعة مما يدلُّ على يقظةِ الحجاج وحسنِ استعداداتهم القتالية، وقدرتهم على إحباط هجمات المعتدين.

لم يكن الحجاج الجزائريون يكتفون بحماية أنفسهم من اللصوص ومدافعتِهم عن الركب فقط، بل كانوا أحياناً يُطاردون "العرب" المغيرين لمسافات طويلة، حتى يُصيبهم الإعياء، و ينجح الحجاج في استرداد بعض ما سُلبَ منهم سابقاً. ففي أحد الاعتداءات سلبَ اللصوص من أحد الحجاج الجزائريين بغلتَه، ثمّ تمكَّن رفاقُه المسلحون من مطاردتهم، وأخذوا منهم فرساً، سلَّموها للحاج المنكوب، عِوضاً عن بغلته، فلم يرضَ بذلك، وآثرَ الصبر على مُصابه، خشيةَ أنْ يتسبَّب ذلك في اشتداد أذى اللصوص على الركب أثناء العودة[2].

ولما كان يتعذَّر على أركاب الحج مواجهة قبائل درب الحجاز المسلحة، كان بعض أمراء الحج يلجؤون إلى مُداراة تلك القبائل بالمال، وإعطائها المنح والهدايا، فبعض أمراء الركب المصري كانوا يُهدون شيوخ القبائل المتربصة بالطريق كميات من الكتان والألبسة لمداراتهم[3]! لكنَّ القبائل العربية أصبحت تعتبر تلك الأعطيات عوائد سنوية لا بد من دفعها، فتثور وتُنكِّل بالحجاج إذا لم تتلقاها في موسم الحج الموالي[4].

إنَّ كثيراً من القرى والبوادي الواقعة في مسارات ركب الحج الجزائري كان يتمُّ الاحتراس منها وتجنُّبُها في بعض المواسم، إن أمكن ذلك، لأنَّ بعض أهلها موصوفون بِقلَّة الأمانة، وبمعاملة الحجاج معاملةً سيئة. وبالتالي فإن ممارساتهم تلك لا تسيء إلى ذواتهم فقط، بل تسيء كذلك إلى سُمعة القبائل التي ينتمون إليها. ولا غروَ أن نجد ـ حينئذٍ ـ أعيان وشيوخ إحدى القبائل يستقبلون

---

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص147.

[2]- المصدر نفسه، ج01، ص257.

[3]- كارستن نيبور، المصدر السابق، ج01، ص115.

[4]- أحمد الرشيدي، المصدر السابق، ص52.

ركب الحج، ويطلبون من الحجاج الصفح والعفو عمَّا بدرَ من بعضهم فيما مضى، مُعلِنين التوبة من التعرض لأركاب الحج بسوء[1].

03. جدليةُ إسقاط ركن الحج بسبب غياب الأمن:

تجدَّدتْ في بلاد المغرب الإسلامي من حينٍ لآخر، ومن موسمِ حجٍّ لآخر، دعوات واجتهادات فقهية تدعو إلى إسقاط فرض الحج، وذلك بسبب تحقُّق حدوث خطر الموت في الطريق، مع تشدُّد الدين الإسلامي في حُرمة قتل النفس، أو الإلقاء بها إلى التهلكة. فمنذ أواخر القرن 07هـ/13م أشار الشيخ حسن بن بلقاسم بن باديس القسنطيني إلى ذلك قائلاً: "سمعتُ الشيخ حسن الحلفاوي يقول: وقعَ الكلام بين يدي الفقيه الإمام أبي الحسن اللخمي في حكم السفر إلى الحج مع فساد الطرق، وهل الأولى تركه احتياطاً على النفس، أو الاستسلام في التوجُّه إليه؟ وكان اللخمي مائلاً إلى ترجيح التَّرك"[2]!

وخلال العهد العثماني لم تتحسَّن الظروف الأمنية كثيراً، حيث ظلت هذه الدولة ـ رغم قوتها وفتوحاتها ـ عاجزة عن تأمين جميع الطرق والمسالك، بحكم محدودية سلطتها المباشرة على بعض الأقاليم التابعة لها، أو ما سواها. ذلك ما أشار إليه العالمُ الجزائري أحمد بن قاسم البوني (ت1139هـ/1726م) صاحبُ "الدُّرَّة المصونة"، لافتاً أنظارَ الولاةِ العثمانيين إلى ظاهرة تفشي الظلم والخوف في البلاد وفي طرُقها، قائلاً*: (الهزج)

والشَّرْعُ فِيهَا بَاطِلُ والظُّلْمُ فِيهَا هَاطِلُ
والخَوْفُ فِي سُبُلِهَا والقَحْطُ في سُنْبُلِهَا

ولا أدلَّ على ذلك الوضع السيئ من أنَّ قبيلةً من "الأعراب" تجرَّأتْ ـ في إحدى المرّات ـ على قطع الطريق أمام جيش باي الغرب الجزائري نفسِه، وطلبت منه أجرة المرور بأراضيها[3]! فما بالك بما يقع للحجاج المسالمين، الذين يقطعون أراضي عشرات القبائل ما بين الجزائر والحجاز؟

---

[1]- ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص713.

[2]- محمد العبدري، المصدر السابق، ص60.

* **أحمد بن قاسم البوني (ت1139هـ/1726م)** للمزيد عن حياتِه ونظمِه يُنظر: أحمد بن قاسم البوني: الدرَّة المصونة في علماء وصُلحاء بونة، ط خ، تحقيق: سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، 2007م، ص12.

[3]- ابن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص298.

والأدهى ممَّا سبق ذكرُه أنْ يصلَ الاعتداء والترويع إلى حدٍّ لا يوصف، ففي منطقة ساحلية غربي طرابلس، لم يكُن اللصوص يكتفون بسلبِ الحجاج وإخافتهم فحسبْ، بل يختطفونهم ـ كما فعلوا مع غيرهم ـ ويبيعونهم عبيداً للقراصنة الأوروبيين! فأصبحت أركاب الحج تحترس إذا مرَّت بتلك المنطقة، وإذا جاوزها الحجاج ولم يفقدوا أحداً منهم هنَّأ بعضهم بعضاً بذلك. غير أنَّ تلك القرية خربتْ لاحقاً، وهجرها ساكِنوها[1]؟

ومن أدلة غياب الأمن عن طريق الحج لفترات متتالية قد تطول أنَّه بعد غزو الفرنسيين لمصر سنة 1213هـ/1798م نادى نابليون بونابرت على المغاربة ليخرجوا من مصر ويسافروا إلى بلادهم، فخاطبَه المغاربة قائلين: "أرِنا طريقاً للذهاب، فإنَّ طريق البرِّ غير مسلوكة، والإنكليز واقفون بطريق البحر يمنعون المسافرين....!"[2]. نستنتج من ذلك أنَّ الحجَّ يُمكن أنْ يكون قد تعطَّل في تلك المواسم كرهاً، إلا ما كان بصورة غير منظمة.

إذا ما أضفنا إلى ما ذكرنا انشغال الناسِ خاصتهم وعامتِهم بواجب الجهاد المقدس، وتحرير الثغور والسواحل المحتلة، ودرء الخطر الصليبي الأوروبي المتزايد بعد تهجير مسلمي الأندلس إلى الشمال الأفريقي، فإنَّ الظروف تكون قد تهيَّأت لبروز الدعوات والفتاوى المرجِّحة إسقاطَ واجب الحج. ومنها فتوى لأحد الفقهاء صدرت سنة 971هـ/1563م، مؤدَّاها عدمُ وجوب الحج في هذا الزمن، لتواتر المشقات الحاصلة فيه[3].

لكنَّ الحجَّ جهادٌ في حدِّ ذاته، فقد جاء في صحيح البخاري "عَنْ عائشةَ رضي اللهُ عنها أنَّها قالت: يا رسولَ الله، نرى الجهادَ أفضلَ العملِ، أفلا نُجاهدُ؟ قال: لكنَّ أفضلَ الجِهادِ حجٌّ مبرور"[4]. فالحج إذا كان مقروناً بالصعوبات والمشقات والمصائب عظُم أجرُه عند الله وقُبِل بإذنِه. ذلك ما تيقَّنَه منذ زمنٍ الخاصَّةُ من الحجاج، كالعالم الصوفي أبي الفضل النحوي التوزري المسيلي (ت513هـ/1119م) صاحب قصيدة "المنفرجة" المشهورة، فقد نُقِل عنه أنَّه حجَّ في أحد المواسم ورجع، ولم يُنكَّد، ولم يُصَبْ في ماله ولا بَدَنِه، فعظُم ذلك عنده، معتقِداً أنَّ حجَّه لم

---

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص292.

[2]- عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج03، ص31.

[3]- عبد القادر الجزيري، المصدر السابق، ج01، ص726.

[4]- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، ط01، دار ابن كثير، دمشق، 2002م، ص689.

يُقبل! فلم يلبثْ إلَّا قليلاً، حتى خرج عليه اللصوص، وأخذوا ماله وسلبوا ما عنده، فقال: الآن تمَّ الأمرُ وعَظُمَ الأجرُ وقُبِلَ الحجُّ[1]!

وقد أشار الشيخ السوسي المغربي في سفره للحج أواخرَ القرن 13هـ/19م للجدل المتجدِّد بشأن رحلة الحج في تلك الأزمنة، بين أمنٍ ظلَّ مفقوداً، ورأيٍ صارَ معهوداً، فقال[2]: (الرجز)

والأَمْنُ فِي الطَّرِيقِ لَيْسَ يُوجَدُ   فَكَمْ وَكَمْ نَفْسٍ هُنَاكَ تُفْقَدُ

حَتَّى أَتَى عَنْ بَعْضِهِمْ أنْ زَالَ   حَجٌّ إِذَا مَا صَادَمَ الأَهْوَالَ

المبحث الثالث: المعيقاتُ الطبيعية وسبُلُ مواجهة الركب لها

مثَّلَتْ التضاريس الصعبة وتقلبات الجوِّ جانبَ الإكراه الطبيعي من معاناة الحجاج الجزائريين في الطريق إلى الحجاز. ففضلاً عن السلب والنهب والاعتداء، كان لزاماً على الحجاج مواجهة الحرّ والعطش والجفاف والجوع والبرد، واجتياز التضاريس الصعبة مثل: الجبال والصحارى والمفازات والسبخات والعقبات وغيرها. وذلك بسبب تباعد المسافات وتنوُّع المناخات.

01. الرّكبُ وأساليبُ مواجهة العطش:

اشتهرت أسماء منابع المياه المختلفة (أو المعاطن) على طول طريق الحج، وتمَّ تداولها على نطاقٍ واسع، وأصبحت محلّ توقُّف الحجاج عن السير، للراحة والغسل والتزوّد، فيقولون حين يرِدونها - مثلاً - .... ونزلنا التميمي أو الطرفاوي أو جرجوف أو الجميمة أو الشمامة أو امكيد أو تحجاوت.... [3]. وكلما صادف الركب معاطن الماء والكلأ والظلال ألقى بها عصا التسيار، ونفض عن جوانبه غُبار الأسفار. فوجودُ الماء مدعاة للتوقُّف وتجديدِ العهد بالسفر، لأنَّ تَتالِي نقاط المياه عنصر هام في تحديد المراحل الواجب قطعُها، وهي بمثابة محطات أو منازل مائية.

كان الحجاج يقومون بالسقي والتنظيف من العيون والآبار في حينِ ورودها، ثم بملءِ القِرب الجلدية المعَدَّة لتخزين الماءِ وتبريده، وكذا تُملأُ القِرب الاحتياطية بالمياه ليلةَ مغادرة الركب لتلك

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص283.

[2]- محمد المختار السوسي، المصدر السابق، ص32.

[3]- لمعرفة أسماء أشهر معاطن (عيون أو منابع) الماء المنتشرة في طريق الركب الجزائري ومواقعها ومميزاتها، يُنظر الجدول المعَدّ في الملاحق المرفقة بالبحث.

المحطة المائية، وذلك بعد معالجتها وتنقيتها من الرمل والشوائب. فكلُّ حاج يتحمل مسؤولية حصوله على مائه وأخذ احتياطه بتدبير الفضلِ منه[1]. وقد اشتهرت القِرَبُ المصرية لدى الحجاج في حفظ الماء وتبريده، بفضل جودة وسماكة الجلود المصنوعة منها، وشاع بين الحجاج المثلُ القائل: "جَملٌ طَرابلسي وقِربةٌ مصريَّة"!

تنوَّعت معاطن الماء في الطريق بين ما هو عذبٌ فرات سائغ شرابُه، وما هو ملحٌ أُجاج. فمِن الموارد الصافية عينُ ماء واقعة في أقصى صحراء الجزائر الشرقية، كانت آخر ما يُتزوَّد به لبلاد فزّان الليبية[2]. وبما أن المسافة ما بين مصراتة الليبية ومعطن "الزعفران" شرقيِّها ماؤها لا يصلح للشرب لمرورته وملوحته، كان الحجاج يأخذون احتياطهم من الماء ما يكفي خمسة أيام كاملة، هو زمن تلك المسافة[3]. وفي درب الحجاز تَقِلُّ المياه العذبة، فعيونُ بنادرِه في معظمها مالحة، على غرار ماء "الدركين" وماء "الأكره" وغيرهما، وبعضها نتِنٌ لا يصلح للشرب أو الطهارة[4]!

أمَّا ماء "الشمامة" بمفازة برقة الليبية فهو ماء ملوَّث، يتجنب الحجاج شرابه، وقد وصف أحد الحجاج قُبحَه وعدمَ منفعته مُقتبِساً: ".... وماؤها قبيح، من أقبح مياه برقة، يشوي الوجوه بئس الشراب"![5] بل إن بعض مياهه تُسبِّب الأذى والمرض، وقلَّما يسلم الحجاج منه. لذلك يلجأ الكثير منهم إلى تقليل الأكل في تلك المواضع، لأنَّ كثرة الأكل تستدعي الشرب الكثير. مع التركيز على أكل الإدام، فهو ـ في عُرف الرحالة المغاربة ـ نافع لاختلاف وتقلُّب المياه في الطريق[6]. ورغمَ خبث تلك المياه فإنه لا يتأتَّى الحصول عليها إلا بمشقَّة عظيمة من الحفر والازدحام والاستسقاء بالقِداح وغيرها.

وفي مفازة برقة الموحِشة أيضاً توجد صحراء "السروال"، وهي موضع صعب للغاية في طريق الحج، إذْ يسلكها الركب في سبعة أيام دون أن يقف على الماء، فـ ".... القادم عليها ـ في نظر

---

[1]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص41.
[2]- عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، و08.
[3]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص405.
[4]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و04.
[5]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج03، ص232.
[6]- أبو سالم العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص91.

الحجاج - كالقادم على القبر! وقد تقرَّر فيها الموت الأبيض من شدة العطش"[1]. لذلك كانت الأركاب المغاربية تتفاداها، مفضلة طريق الجبل الأخضر الأقلّ جفافاً، رغم المسافات الزائدة في عبوره، لأن ضمان وجود الماء مفضَّل على قِصَر الطريق بالنسبة للحجاج.

كانت معاناة الحجاج مع العطش تتجدَّد في كل مقطع من مقاطع الطريق الجافة والطويلة، ولا يصرفهم عن العطش أو الاضطرار إلى شرب المياه المالحة إلا عدد قليل من الآبار الموجودة في أماكن محدودة من الطريق، مثل "آبار السلطان" التي حُفِرتْ في درب الحجاز جنوب بندر المويلح، بأمرٍ من أحد حكام مصر المماليك[2]. أو "آبار السبيل" التي كان بعض المحسنين ممّن يبتغون الأجر يحفرونها لسقاية الحجاج، ويُحيطونها بأشجار التين لتوفير الظل لهم.

وما عدا ذلك فإن الحجاج اضطروا أحياناً لحفر الآبار في طريقهم بأيديهم، من ذلك بئرٌ حفرها حجاج مغاربة بمعيةِ حجاج جزائريين في الطريق الجنوبية الصحراوية. يقول عنها الرحالة القيسي: "…. ليس فيه إلا بئر واحدة، وحفر أهل الركب بئراً أخرى، أقَمْنا فيها يوماً لرعي الجمال"، كما اشتهرت بعض تلك العيون المائية المحفورة باسم "عوينات الحجاج"[3].

وإذا ما حدث وأَرْخَتْ السماء عزالَيْها، وانهمر المطر أو "المياه السماوية"، فرح الحجاج بذلك فرحاً شديداً، أغناهم عن تَتبُّع معاطن المياه، ومخاطر الازدحام عليها. ذلك ما عبَّر عنه الرحالة الورثلاني في الحالة التالية: "…. منذ ظعنَّا ونحن على المياه السماوية، وقد استغنينا عن جميع المعاطن، والحمد لله على ذلك"[4].

02- تباينُ التضاريس الجغرافية ومشقّةُ اجتيازها:

تأتي الجبال على رأس المظاهر التضاريسية الصعبة التي كانت تُعيق حركة الحجاج، لذا فقد كان الركب يحاول أن يتفادى المرور بها قدر المستطاع، فيتطلَّب الأمر الدوران حولها واستهلاك أوقات إضافية، أو يضطر إلى أن يسلكها ولكن بمشقَّة فادحة. ومن أشدِّ الجبال قسوةً على الركب في مبتدأ سفره جبال البيبان في منطقة القبائل الصغرى الجزائرية، التي وصفها الرحالة المكناسي بأنَّها

---

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص235.

[2]- سميرة فهمي علي عمر، المرجع السابق، ص254.

[3]- القيسي السراج، المصدر السابق، ص31.

[4]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج02، ص12.

".... بيبانٌ (أي أبوابٌ) حقيقية، لأن الطريق تمرّ بين جبال في وسط نهر، وربما تدنو الجبال بعضها من بعض حتى لا يبقى إلا مجرى الوادي في أضيق ما يكون كأنَّه الباب"[1]. إضافة إلى الجبل الأخضر وجبال الهاروج في البلاد الليبية.

وبرقة الليبية أصعب المفازات على الإطلاق، فهي في مجملها قِفار، أكثرها رملٌ ووحلٌ وسباخ، تنتهي على التَّماس بين أرض طرابلس (ليبيا) وأرض مصر بعقبةِ "درنة"، وهي "العقبة الكبرى" التي يحسب لها الحجاج الجزائريون ألف حساب، لأنها طريق صعبة لا مناصَ من عبورها، تُعيقهم كثيراً ويصعب فيها السير، مما قد يستغرق زمنا طويلا على حسب قوة وتحمّل الرواحل[2]. وبرقة أصعب ما تكون في الشتاء، بسبب الوحل والطين الذي لا تألفُه الإبل.

وهناك مرتفعات وعقبات من نوع آخر واجهتْ الحجاج، ألا وهي سلسلة العروق والكثبان الرملية ـ روافد الصحراء الكبرى ـ التي عبَّر عنها الرحالة التنلاني بالقول: ".... وسِرنا في جبال من الرمل صعبة المرتقى إلى قرب الاستواء"[3]. إنَّها رمالٌ على مدِّ البصر أحياناً، يَحَارُ النظَرُ في كثرتها وطغيانِها، ويُقاسي الحجاج منها شدَّة، وتَلقَّى الإبل أضعاف ما يُلاقونه بسبب الرياح، فيعلمُ المرءُ عندئذٍ حُسنَ مبالغة القائل: اللهمَّ صلِّ على سيِّدنا محمدٍ عددَ الرِّمال[4]!

أمّا الشِّعاب الضيقة المتلِفة للأنفس فيكفي أن نوردَ بشأنها تعليق أحد الحجاج الجزائريين الرحالين، حيث قال: ".... ثمَّ دخلنا في شُعبة ضيقة أشدّ من جميع ما سبق، نلتوي فيها نحو ثمان ليَّات (انحناءات)، تارة نستقبل الشمس وتارة نستدبرُها، وتارة نغادرها ذات اليمين، وتارة نغادرها ذات الشمال إلى قرب القايلة، فنزلنا على ماء.... "[5].

لقد جسَّد دربُ الحجاز المقطعُ الأخير من طريق الحج معاناةَ الحجاج مع الطبيعة من جميع الأوجه، إذْ ليس فيه زروع خضراء أو طير أو حيوان، لا شيءَ سوى الصحراء والحجارة[6]! كما أنَّه

---

[1]- محمد المكناسي، المصدر السابق، ص329.

[2]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص233.

[3]- عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، و08.

[4]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص107.

[5]- عبد الرحمن التنلاني، المصدر نفسه، و07.

[6]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص75.

أنَّه يحوي أرض التِّيه المقفِرة الموحِشة، الطويلة العريضة المعطِشة، وهي محلٌّ من المحال التي تعظم فيها المشقة أيام الحرّ، وقد تتلَفُ فيها أنفس كثيرة بالعطش، وكذا يشتد أمرها في زمان الشتاء، لأنها أرضٌ عَراء لا حطب فيها، وقد تزهق فيها الأرواح من البرد أيضاً[1]. وفي شمالِ الدرب توجد السبخات والشطوط التي تعترض طريق الركب، وهي مناطق رخوة تغوص فيها أخفاف الإبل، ويعبرها الحجاج جماعةً، لأنّ أثر العابر الفرد يكاد يمَّحي، فيصعب تمييزه.

وينفرد درب الحجاز بوجود محطة "عقبة أيلة"، العقبة الهائلة شديدة الانحدار التي يُضرب بها المثل في الوعورة، وأيضاً في شدة الخوف، لأنَّ قبائل تلك الأرض تتعرض للأركاب فيها، ولا سيما الركب المصري المحمَّل بالعطايا والمعدات[2]. وما ألطفَ وصفَ أحد الحجاج لتلك العقبة الشهيرة، حين قال[3]: (مجزوء الوافر)

يُقَاسِي رَكْبُنا نَصَبَهْ وِنَالَ القَلبُ مَا طَلَبَهْ
وأُطْلِقْنا مِنَ العَقَبَهْ ومَا أَدْراكَ مَا العَقَبَهْ

وذلك فضلاً عن عقبات أخرى شبيهات بتلك العقبة، يقعنَ في درب الحجاز أيضاً، يُعرفنَ بـ "الوعرات السبع"، أصعبُهنَّ الأولى والأخيرة.

المبحث الرابع: اجتيازُ الركب للتحدّيات ووصولُه إلى الحجاز

01. معاناةُ الحجّاج بسبب مستجدّات الأوضاع:

لم تكن أوضاع الولايات العثمانية التي يجتازها ركب الحج الجزائري في أحسن حال، وذلك بسبب الاضطرابات السياسية، والفتن الداخلية المتجددة. والأدهى من ذلك المخاطر الخارجية المتربصة بسواحل البلاد المغاربية خاصة، وببلاد المسلمين عامة. فـ "..... البحرُ بأفلاك الكفَرة مَلئان، والبرُّ بسواحله في غاية الذُّلِّ من عَبَدة الصُّلبان"[4] ـ حسب توصيف أحد الرحالة ـ وذلك رغم قيام الخلافة الإسلامية العثمانية، وضمِّها للأقاليم العربية، ومحاولات سلاطينها وولاة إيالاتها توفير الحماية للحجاج والرعايا في حلِّهم وترحالهم. فهذا الرحالة المقّري التلمساني يُقرُّ ـ وهو في

[1]– الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص162.
[2]– عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، و06.
[3]– عبد القادر الجزيري، المصدر السابق، ج02، ص113.
[4]– عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص84.

طريقه إلى الحج ـ بجهود السلطان العثماني سليمان القانوني (ت974هـ/1566م)، وبمكانته بين ملوك العصر قائلاً[1]: (الرمل)

أَعْنِي سُليمانَ الزَّمانِ الذِي لَهُ مُلوكُ العَصْرِ طُرّاً عَبِيدُ

لا بَرِحَ السَّعْدُ لَهُ خادِماً مَا سَارَ فِي الأفلاكِ نَجمٌ سَعِيدُ

غير أنَّ ولاة الأقاليم الأتراك خالفوا أحياناً توجُّهات سلاطينهم، فمثلاً قام والي بولاق (نواحي القاهرة) بالتعدي على ركب الجزائر، حيثُ أمسك جماعة من الحجاج وألقاهم في السجن، ولم يُخلِ سبيلهم إلا بعد أن أخذ منهم بعض المال، وكان حجزهم بسبب وِشاية كاذبة من "الشيالين" (الحمَّالين). غير أنَّه لم يكن بمقدوره فعلُ ذلك ـ كما يروي الرحالة الورثلاني ـ لولا انعزالُ هؤلاء الحجاج عن الركب، وارتيادُهم أسواق المدينة، إذْ لا يجرؤ هو أو غيره من الولاة الأتراك على المساس بهم داخل الركب، وذلك لقوة الركب، وشدَّة الحجاج وتلاحمهم[2].

وقد تعرّض حجاج جزائريون في أحد المواسم للمضايقات والمساومات من طرف أحد المماليك بمصر، وذلك طمعاً في الحصول منهم على المال، ثمَّ وجدوا أنفسهم مضطرين إلى جمعِهِ من الموسرين منهم، ودفعه له من باب المداراة[3]. كما تعرَّضوا في موسم آخر إلى التعطيل والإهانة قَبلَ ولوجهم الأراضي المصرية، من طرف عامل إقليم البحيرة (في صعيد مصر)، المدعَّم بعددٍ كبير من الجنود الأتراك، وذلك بحثاً عن أحد القادة الكبار، الذي كان عُزل من منصبه في ما مضى ولجأ إلى الجزائر، فأوقفَ الجنودُ الأتراك ركبَ الجزائر عن المسير لساعات، وفتَّشوا أعداداً كبيرة من الحجاج، وما استطاعوا من المتاع، "…. بلْ فتَّشوا حتى الدرابك والمحاير، فلم يقفوا له على خبر، في حافرٍ ولا وبَر"[4]! ـ كما نقلَ رحَّالةٌ شهِد الحادثة ـ وذلك حال بعض ولاة الأقاليم الذين أعماهم الطمع، فأصبحوا لا يميِّزون بين الحجاج وبين غيرهم.

وأصعبُ مواسم الحج التي عانى خلالها الحجاج كانت أواخرَ العهد العثماني، فقد وصل الحجاج المغاربة إلى مصر عقب الحملة الفرنسية سنة 1213هـ/1798م، فتقوَّلَتْ العامة بشأنهم،

---

[1]– أحمد المقّري، رحلة المقّري، مصدر سابق، ص159.

[2]– الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص145.

[3]– إبراهيم المصعبي، المصدر السابق، ص73.

[4]– ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، و54.

وبأنَّهم إنما جاؤوا لأجل جهاد الفرنسيين وإنقاذ مصر منهم؟ فارتابَ الفرنسيون منهم وأرسلوا إليهم جماعة ينظرون في أمرهم، لكنَّ الحجاج المغاربة نفوا تلك الدعاوى جملة وتفصيلاً[1]. ومن أسباب توجُّس الفرنسيين من الحجاج كذلك أنَّ "ابن الأحرش" ـ الثائر على أتراك الجزائر مطلعَ القرن 13هـ/19م ـ كان قد جمع حوله بعض الجزائريين والمغاربة لقتال الفرنسيين في ضواحي القاهرة، فأثَّرتْ شوكتُه فيهم، وأصبح له صيت وهيبة في مصر[2].

ومن طوارئ طريق الحج معاناةُ الحجاج الجزائريين بسبب الصراع المرير بين محمد علي باشا والمماليك في مصر بعد جلاء الفرنسيين عنها، لأنَّ من عادة الركب المكوث مدة طويلة نسبياً في هذه المحطة. وفي الحجاز ألقَتْ الحرب بين أمير مكة والوهابيين بظلالها على الحجاج، فقد رغب الشريف "غالب" أمير مكة ـ وقتئذٍ ـ في تجنيد الحجاج المغاربة وضمِّهم إلى معسكرِه جبراً، فامتنعوا، ووصل الأمر إلى أن دافع الحجاج عن أنفسهم بالسِّلاح[3].

بالإضافة إلى تلك المستجدات والحوادث التي لا شك أنّها أثَّرتْ سلباً على معنويات الحجاج، كان الركب الجزائري يتعجَّل في كل موسم الخروج من مصر، بسبب الهرج والفتنة بين الحجاج الجزائريين من جهة والحمَّالين المصريين من جهة أخرى، فكلُّ طرف أضحى يتوعَّد الطرف الآخر بحبسِه وضربِه إنْ هو اقترب من منطقته. ذلك كلُّه بسبب طمع الحمَّالين، واتهامهم للحجاج بعدمِ دفع مستحقاتهم كاملة، وشتمِهم وإذايتهم لهم في الطريق[4]! وفي المحصِّلة فإنَّ طريق ركب الحج من الجزائر إلى الحجاز لم تخلُ أبداً من الإكراهات أو المستجدَّات والتحديات.

02. إقامةُ الركب الجزائري بالحرمين الشريفين وتَبِعاتُها

على الرغم من جميع تلك الظروف الأمنية السيئة، ومن التقلبات السياسية الحادة، وكذا المعيقات الطبيعية القاسية المرهِقة للعزائم، فإنه بمجرد ما أنْ تقع أبصار الحجاج الجزائريين على أَمَارات بلوغ الحرمين الشريفين، يمَّحي كلُّ أثرٍ للتعب والإرهاق، وتصبح تلك الأيامُ الشديدة الطوال نسياً منسياً، وكأنَّما وُلِد كلُّ حاجٍّ من جديد في تلك المعاهد الشريفة الطيبة.

---

[1]- عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج03، ص93.

[2]- الشريف الزهار، المصدر السابق، ص85.

[3]- المهدي البوعبدلي، الحياة الثقافية بالجزائر، مرجع سابق، ص283.

[4]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص88.

أ ـ مكوثُ الركب الجزائري بمكة المكرمة لأداء المناسك:

كانت أركاب الحج الأربعة الكبرى تصلُ إلى مكة المكرمة تباعاً ـ على عادتها ـ في الأسبوع الأول من شهر ذي الحجة، فيصلُ المصري أولاً لأنَّه يسوق المحمل وكسوة الكعبة المشرفة، ثمَّ يدخل المغاربي (بما فيه الجزائري) في اليوم الذي يَليه، ثمَّ الشامي، وأخيراً العراقي، وتُسارع إلى كراء البيوت من أهل مكة، وتملأ خيامُها ـ رغم ذلك ـ السَّهل والوعر من أرجاء مكة المكرمة[1].

عندما يقع نظر الحجاج الجزائريين على الكعبة المشرفة للمرة الأولى يتدبرون فيها، وأعينُهم تفيض من الدمع مهابةً وخشوعاً[2]. وبعد أداء طواف القدوم والسعي يبدأ الاستعداد للخروج إلى المشاعر، مع ملاحظةِ أنَّ الركب الجزائري كان يحرص على أنْ يكون خروجه من مكة إلى مِنى في اليوم الثامن من ذي الحجة (يوم التروية)، قدر ما يُدرِك بها الظهر، ويصلي فيها ويبيتُ بها. خِلافاً لأركابٍ مغاربية أخرى كانت تخرج في اليوم السابع، بدعوى الخروج لعادةٍ مستحدَثة أطلقوا عليها اسم "التسبيع"[3]؛ لكنَّ الركب الجزائري أصبح يتجاوز سُنَّة المبيت بِمنى ليلةَ التاسع لظروف أمنية، ولأنَّ جميع أركاب الحج الأخرى لم تعُدْ تنزل بها، بل تذهب إلى عرفات مباشرة[4].

وفي صعيد عرفات يجتهد الحجاج في الدعاء والاستغفار، ويتأكدون من صحة نُسك وقوفهم بعرفة الركن الأعظم في الحج، ومُطابقته للسُّنَّة. يقول الرحالة التنلاني عن ذلك الموضع: ".... ووقفنا على إبلنا اغتناماً لبركة سُنَّة نبيِّنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم نزلْ في موضعنا ذلك واقفين مستغفِرين مكبِّرين مهلِّلين داعين، إلى أن غربت الشمس وتحقَّقنا أنَّا أخذنا جزءاً من الليل"[5]. كما كانت فرحة الحجاج تتضاعف إذا ما صادف وقوفهم بعرفة يوم الجمعة.

وتتوالى بعد ذلك إفاضة أركاب الحج المزدحمة بانتظام، من عرفات إلى المزدلفة، للمبيت بها والتقاط جِمار العقبة تِباعاً، الركب الشامي فالمصري فالمغربي وغيرها. وتمرُّ جميع الأركاب بين "المأزمَين العلَمَينِ"، وهما بناءان مرتفعان، أحدهما عن يمين الطريق والآخر عن اليسار، يُوصلان إلى

[1]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص315.

[2]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص45.

[3]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص269.

[4]- عبد القادر التنلاني، المصدر السابق، و55.

[5]- المصدر نفسه، و56.

المشعر الحرام[1]، حيث يقف الحجاج فيه قليلاً بعد أداء صلاة الفجر بالمزدلفة، داعين ومستغفرين ومكبِّرين ومهلِّلين، ثم ينتقلون أخيراً إلى مشعر مِنى.

والمتعارفُ عليه أن يظلَّ الركب الجزائري في مِنى لثلاثةِ أيام، يومِ عيد الأضحى ويومَين فقط من التشريق، ثمَّ يعود الحجاج إلى مكة المكرمة مرة أخرى لإتمام بقية المناسك[2]. وفي أحد المواسم وبعد أنْ أخذ الناس في الرحيل متعجِّلين، وتعجَّلتْ معظم الأركاب، وطويتْ الأخبية والخيام، لم يبقَ في مِنى إلا ركبُ الجزائر وبعضُ أهل البصرة والأحساء، مغتنمين السعةَ للصلاة في مسجد الخيف (أو مسجد الأنبياء)، وباتوا هناك آمنين رغم وجود اللصوص في ذلك الوادي[3].

كانت العادة المتأصِّلة أن يُنادي حكامُ مكة المكرمة على أثر الفراغ من الحج مردِّدين: "يا أهلَ الشامِ شامَكم ويا أهلَ اليمنِ يمنَكم.... "[4]، داعين الحجاج جميعاً إلى مغادرة مكة والعودة إلى بلدانهم. ففي سنة 971هـ/1563م صدر مثالٌ (مرسوم) سلطاني مضمونه أنْ لا تزيد إقامة الركب المصري والأركاب المغاربية بمكة عن ثمانية عشر يوماً من ذي الحجة، وأنَّ الركبَ الشامي نهايةُ إقامته إلى الرابع والعشرين منه، ومن امتنع من الحجاج أُخرج عنوةً[5]؟

بعد الانتهاء من المناسك كلِّها يشرع ضيوف الرحمن في مغادرة مكة المكرمة، بأعدادهم الهائلة التي لا تقِلُّ عن سبعينَ ألف حاجٍّ (70000)كلَّ موسم[6]. وهي أعداد ضخمة نسبياً، إذا ما قارناها بمجموع المسلمين العام، وبظروف السفر إلى الحج في ذلك الزمان.

ب ـ زيارةُ الركب للمدينة المنوّرة وظروفُها:

رغم أنَّ مناسك الحج والعمرة إنَّما تُؤدَّى في مكة المكرمة، إلا أنَّ الركب الجزائري لم يكن ليُغادر الحرم المكي دون أن يولِّيَ وجهه شطرَ الحرم المدني. لكونِ الزيارة سُنَّةً مؤكَّدة مُجمَعاً عليها، وفضيلةً مُرغَّباً فيها، وقد قال بعض العلماء: أجفى الناس من حجَّ ولم يزُر قبر المصطفى ـ صلى الله

---

[1]- محمد المكناسي، المصدر السابق، ص265.

[2]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص62.

[3]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص287.

[4]- أحمد السباعي، المرجع السابق، ج02، ص400.

[5]- عبد القادر الجزيري، المصدر السابق، ج01، ص726.

[6]- جوزيف بتس، المصدر نفسه، ص59.

عليه وسلم ـ[1]. لكنَّ سوء تدبير أمراء الحج تسبَّب في الحيلولة دون ذلك في مواسم معدودة، ففي موسم 1198هـ/1784م وفي الذي أعقَبه لم يتمكن الركب المصري من زيارة المدينة المنورة، والسبب هو: "طمع أمير الحاج في عدم دفع العوائدِ للعُربان وصُرَّةِ المدينة"[2]!

وتنتظِمُ أركاب الحج في ذهابها إلى المدينة المنورة، فينطلق المغاربي ثمَّ المصري فالشامي، وذلك لِتَلافي الزحمة والخلاف. وتمرُّ بجزءٍ من طريق الدرب الذي قدِمتْ منه، وبعد أن تصل "بدراً" تميل عن طريق مصر، مارّةً بالمواضع التالية: الصفراء، والجديدة، والروحاء، وأبيار علي، إلى أن تدخل المدينة المنورة[3]. عندئذ يسود الفرح وتعلو الأصوات في الركب، إثرَ معاينة الحجاج المسجدَ النبوي وقُبَّةَ الهادي المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وبعد التطهُّر والتطيُّب يقصد الحجاج الجزائريون المسجد النبوي للصلاة والسلام على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى صاحبَيه، ثمَّ زيارة مقبرة البقيع وشهداء أُحُد والمساجد التي يُستحبُّ زيارتها. ولا يُقيم الحجاج الجزائريون بالمدينة المنورة سوى فترة قصيرة، لا تتعدى عشرَ ليالٍ في أفضل الأحوال[4]. وعند مغادرة الركب للمدينة المنورة يشقُّ على الحجاج الجزائريين الفراق والوداع، ويتمنَّون ويتمنَّون البقاء في تلك البقاع. يعبِّر الرحالة المقّري عن ذلك المشهد قائلاً: ".... ظهرَ من الشَّوق ما كان بَطَن، ولم يخطُرْ بِبالِنا سَكَنٌ ولا وطَن، ويا سعادةَ من أقامَ بتلك البقاعِ الشريفةِ وقَطَن"[5].

خلاصة الفصل الثالث:

من خلال ما استعرضناه من مباحث هذا الفصل نستنتج أنَّ مسارات ركب الحج داخل الإقليم الجزائري كانت بمثابة منافذ، يسلكها الحجاج الجزائريون للوصول إلى الطريق الرئيسية الخارجية، وهي الطريق المحاذية للبحر الأبيض المتوسط، مروراً بتونس وطرابلس الغرب ومصر. بينما استُخدمت الطريق الجنوبية الصحراوية عبر إقليم فزّان من قِبَل حجاج الصحراء الجزائرية.

---

[1]- تذكر بعضُ المصادر حالةً غريبةً نادرةً لم تتم فيها زيارة المدينة المنورة من طرف ركبٍ مغاربي، يتعلّق الأمر بجماعةٍ من طرابلس الغرب، حجُّوا ورجعوا إلى بلادهم من غيرِ زيارة المدينة المنورة؟ فانعقدَ بسبب فعلِهم مجلسُ علماء طرابلس، وحكموا عليهم بالرجوعِ إلى الحجاز وأداء الزيارة قهراً، فرجعوا. ينظر: الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص378.

[2]- عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج02، ص147.

[3]- محمد الحضيكي، المصدر السابق، ص148.

[4]- الفلاني القبلاوي، المصدر السابق، و02.

[5]- أحمد المقّري، نفح الطيب، مصدر سابق، ج01، ص48.

ويحطُّ الركب الجزائري خلال سفره الطويل في أكثر من اثنتين وأربعين محطة خارجية معهودة، ما بين الجزائر والحجاز، وذلك من أجل الراحة واستجماع القوى وتجهيز أفراده بما يحتاجون. وتتميّز الإيالة المصرية بطول مكوث الركب الجزائري بها، حيث يتمّ إعداد العُدة لما تبقى من الطريق، ومصاحبة الركب المصري الضخم، عندما يخرج من القاهرة في احتفالات رسمية وشعبية أواخرَ شهر شوال من كلِّ سنة. فتسير الأركاب المغاربية والمصري في المقطع الأخير الصعب المسمى "درب الحجاز"، وتسلك بنادره (منازله) الثابتة تِباعاً إلى أن تصل إلى مكة المكرمة.

إنَّ أكبر خطر كان يتهدد الحجاج في رحلتهم الطويلة الشاقة هو الاعتداء على ركبهم وسلب أموالهم وأرزاقهم من طرف بعض قبائل البدو الرحل، التي أصبحت تفرض عليهم ما اعتبرته "عوائد الطريق" مقابل عدم التعرّض لهم بسوء. لقد سادت تلك الممارسات المشينة بأساليبها الماكرة جلَّ مقاطع الطريق، وبصفة خاصة في درب الحجاز، ولم يجِد الحجاج سبيلاً لدرئِها سوى جهودهم الخاصة في حماية ركبهم، في ظلِّ عجز الدولة العثمانية عن تأمين جميع المسالك.

لم تكن تلك الاعتداءات البرية وكذا البحرية ما يشغل بال الحجاج فقط، بل أُضيفت لها إكراهات الطريق الطبيعية، من بُعدٍ وبردٍ وحرارة وعطش، وتضاريس شاقّة يصعب على الرواحل اجتيازها. كلّ ذلك جعل الحجاج يأخذون احتياطاتهم للتأقلم مع ظروف الطبيعة القاسية من موسم لآخر، ويُبدعون في إيجاد أساليب ناجعة لمواجهة مستجداتها.

وعلى ذكر المستجدات فإنّ رحلة الحج الطويلة كانت محاطة في ذلك العهد بجملةٍ من التحديات والصعوبات، منها تحمّل الحجاج لتقلبّات الحكم والسياسة في الأقاليم التي يمرّون بها، وتعرّضهم للتضييق والمعاملة غير اللائقة من طرف بعض الولاة العثمانيين، وتأثّرهم بتطور الأحداث السياسية في الأقاليم المشرقية، مثل الحملة الفرنسية على مصر والحرب العثمانية على الوهابيين. كلُّها صعوبات كان الركب الجزائري ينجح في تجاوزها، فيصلُ إلى مكة المكرمة ويؤدي مناسك الحج، ثم يرتحل إلى المدينة المنورة لأداء الزيارة، في جوٍّ مفعم بالشوق والسكينة.

الفصل الرابع:
التواصلُ الاجتماعي في رحلة الركب وظروفُ عودتِه

ـ تمهيد

ـ المبحث الأول: خطُّ عودةِ الركب إلى الجزائر ومميزاتُه

ـ المبحث الثاني: ركبُ الحجِّ والنشاطُ التجاري

ـ المبحث الثالث: العلاقاتُ الاجتماعية البينية وأبعادُها

ـ المبحث الرابع: تواصلُ الركبِ الاجتماعي الإنساني مع مجالِه

ـ المبحث الخامس: عاداتُ استقبال الركب ودورُه في الإِخبار

ـ خلاصةُ الفصل الرابع

الفصل الرابع: التواصلُ الاجتماعي في رحلة الركب وظروفُ عودتِه

بعد التطرق إلى ما ارتبط بالطريق والإكراهات المحيطة بها المواجِهة لركب الحج الجزائري، يُخصَّص هذا الفصل الرابع لاستقصاء النشاط الاجتماعي الإنساني، سواء البَيني أو التفاعلي المصاحِب للركب طيلة رحلته، والظروف المحيطة بعودته إلى الجزائر. بدءاً بالمتغيرات الحاصلة على خطِّ سيرِ العودة من الحجاز إلى الجزائر، وما يتميز به نزول ركب الحج في محطات الطريق أثناء رجوعه، مقارنة بنزوله فيها أثناء طلوعه، مع إبراز بعض المستجدات الحادثة في رحلة العودة.

ثمّ نفصِّل في المبحث الثاني في حيثيات النشاط التجاري المقترِن برحلة الحج ذهاباً وإياباً، وفي متلازمة "حجاج ـ تجار"، وهل تجلَّت في مسار الركب الجزائري إلى الحجاز؟ بما أنَّ ركب الحج سوقٌ متنقلة في حدِّ ذاته. وكيف ساهمتْ الأسواق الموسمية المنعقِدة بمناسبة موسم الحج بالطريق والمحطات الرئيسية في تيسير أعباء السفر على الحجاج، وإيجاد فضاء للتواصل بين الحجاج ومرتادي الأسواق. مع التركيز على البضائع الرئيسية المتداولة في نشاط ركب الحج بيعاً وشراءً.

ويُعرِّج المبحث الثالث على العلاقات الاجتماعية البينية فيما بين الحجاج عناصرِ "مجتمع الركب"، والتي من أهمِّ مظاهرها قيَم التعاون والتضامن فيما بينهم، وكيف انعكست تلك القيَم على التعامل مع حالات الوفاة التي أصابت بعض الحجاج؟ إضافة إلى إبراز بعض السلوكيات والممارسات السيئة المتنافية مع رحلة الحج المقدسة، وكيف تعامل معها ركب الحج؟

أمَّا المبحث الرابع فنخصِّصه للحديث عن الأبعاد الاجتماعية الإنسانية التي يُجسِّدها ركب الحج الجزائري، وذلك من خلال تواصل الحجاج المباشر مع فضاء الرحلة إلى الحج، سواء كان ذلك في المدن والحواضر التي يحطُّ فيها الركب لأيام معدودات، أو كان ذلك في القرى والبوادي والبنادر التي ينزل بها الركب لفترات معدودة. وإلى أيِّ مدى كان يتمُّ التواصل بين الحجاج الجزائريين وساكني تلك المحطات أو المنازل؟

وأخيراً سنختم هذا الفصل بماهية العادات التي كانت تتمُّ في قرى الجزائر ومدنها فرحاً بعودة ركب الحج؟ وبالمخاطر الصحية التي كانت تهدِّد الركب في عودته إلى الجزائر، خاصة انتشار الأوبئة والأمراض بسبب حركة تنقُّل آلاف الحجاج عبر العديد من المحطات؟ وما موقف الحجاج من

ظاهرة الحجر الصحي المحدَثة في البلاد الإسلامية أواخرَ العهد العثماني؟ وما طبيعة الدور الذي غدا ركبُ الحج يؤدِّيه في نقل أخبار المشرق إلى بلاد المغرب؟

المبحث الأول: خطُّ عودةِ الركب إلى الجزائر ومميزاتُه

01ـ مشاعرُ فراقِ الحرمين والرغبةُ في المجاورة بهما[1]:

إذا ما أتمَّ ركب الحج الجزائري مناسكه وزياراته بكلِّ سكينة وتُؤدة ووقار، آبَ من الحرمين الشريفين إلى الوِجهة الغربية، حيث المبدأ والمنطلق. حينَها كان ينتابُ الحجاجَ شعورٌ بالراحة النفسية والفرح والفخر. فهناك يستصغِرون ما قاسَوه في طريقهم من المحن والشدائد، في جنْبِ ما حصل لهم من النعيم والفوائد، سائلين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنْ "لا يجعله آخرَ العهد بتلك الأماكن المعظمة والمشاعر المحترمة"[2] ـ حسبما جاء في دعاء وابتهال أحد الحجاج ـ

لكنَّ مغادرة المدينة المنورة وتوديع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمرٌ كان يشقُّ على الحجاج الجزائريين، حتى أنَّ منهم مَنْ علا صوتُه بالبكاء والعويل، وبدا عليهم أثرُ الحزن الشديد وعِظم "مصيبة" الفراق، ولم يُواسِهم في تلك الحال إلا يقينُهم بأنَّ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد انتقل من دار الدنيا وفارق أصحابه ومحبِّيه[3].

وتغمرُ المشاعرُ الجيّاشة الحجاج الجزائريين ومن رافقهم في الركب، فهذا حاج أيرلندي ـ عانى من العبودية في اسبانيا وفرنسا ثمَّ أسلمَ في الجزائر ـ يُعرب عن سعادته بعد أدائه الحج ضمن الركب الجزائري قائلاً: "إنَّ الله تعالى نجاني من جهنم على الأرض، ومكَّنني من الوصول إلى جنَّته على الأرض، بزيارة مكة المكرمة والمدينة المنورة"[4]! ولا ينسَ الحاج الجزائري أن يحمل معه في رجوعه الكفن المبلَّل بماء زمزم، يحمله معه أينما ذهب براً أو بحراً.

---

[1]- **المجاورةُ** بالحرمين الشريفين تخصيصاً يُرادُ بها المقامُ بهما أو بأحدهما مُطلقاً، غيرَ ملتزِمٍ بِشَرائطِ الاعتكاف الشرعي، والمجاورة بالحرمين الشريفين سلوك اعتاده الجزائريون بعد أدائهم للحج لقرون متوالية، وخاصة الأعلام العلماء منهم. ومن أشهر الحجاج الجزائريين المجاورين قبل العهد العثماني: عبد الوهاب بن يوسف البِجائي (القرن 07هـ/13م) وعبد الله بن محمد بن موسى البسكري (القرن 08هـ/14م) وأبو عصيدة البِجائي ومحمد بن عمر الهواري الوهراني (القرن 09هـ/15م).... يُنظر: عادل نويهض، المرجع السابق. أيضاً: ابن منظور، المصدر السابق، ص724.

[2]- عبد القادر التنلاني، المصدر السابق، و61.

[3]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص113.

[4]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص70.

وكان عددٌ قليل من الحجاج الجزائريين يُفضِّلون البقاء بالحرمين الشريفين بعد أداء مناسك الحج، والشروع في المجاورة أو الجوار، لأسباب ودوافع متباينة، من ضمنها الرغبة في التمتع برؤية وزيارة الأماكن والمشاهد المستحبِّ زيارتها في الحرمين الشريفين، ريثما يَقدم ركب الحج في الموسم الموالي على الأقل! لأنَّه "لا يحصُلُ كمالُ التفتيش والبحث عن الأماكن المشرَّفة إلا بالمجاورة، إذْ لا يزول الاشتياق إلى تلك المعاهد إلا بطول المكث فيها"[1]. ذلك ما عبَّر عنه أحد الحجاج الجزائريين بلسانِ الدّارج في الأبيات التالية[2]: (الرجز)

يَا الرَّكبْ الِّلي مَاشِي لِيهْ بَلَّغْ سْلَامِي عَندَكْ لِيهْ
رَابِي أنَـــا نَـــاوِي لِيـــهْ كَـــانْ جَـــادْ اللهْ علِـــيَّ
نْجَاوْرُو ونْعُودْ من أهْل الهَـــاشِمِي قُـــرَّةْ عِيـــنِيَّ

وإنْ كنَّا نجد بعض الحجاج الجزائريين يُظهِرون نواياهم في المجاورة قبل موعد سفر الركب ومغادرة المدينة المنورة، فإنّنا نجد آخرين كانوا ينوون المجاورة منذ خروج الركب من الجزائر، فيطلبون من الله عزَّ وجلَّ أنْ يُيسِّر لهم ما فيه الخيرة لهم، بالمشارق أو بالمغارب[3]. ومن نماذج التعلُّق بالحرمين الشريفين أنَّ حاجاً جزائرياً أصرَّ على المجاورة رغم رفضِ أصدقائه الحجاج لذلك، لكونِه تركَ زوجته وحيدة في البلد، فتحجَّج ذلك الحاج بأنَّه سيبعث إليها مع الركب العائد ما تُنفقه حتى يرجع إلى الجزائر، وإنْ هي أبَتْ وأرادت التزويج فلها ذلك[4]!

لكنَّ مرارة البِعاد، وشدة الاشتياق إلى الأهل والوطن بعد طول الغِيبة، وما يجدهُ بعض الحجاج من ألَمِ النَّوى، كلُّ ذلك كان يدفع بمَن جاور لفترةٍ من الزمن إلى قطع الجوار، وتجديد العهد بالسفر، والرجوع إلى الجزائر مع ركب الحج في الموسم الموالي. رغم ذلك تلقاهُ يُغادر الحرمين الشريفين وخاطِره يملؤه الشوقُ والحنين إلى معاهدهما، التي لم يمضِ بعدُ زمنٌ طويل على مفارقتها. ولسانُ حاله يقول: (البسيط)

ودِّعْ هُرِيرَةَ إنَّ الرَّكبَ مُرتحِلُ وهَلْ تُطِيقُ وَداعاً أيُّهَا الرَّجُلُ

---

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص64.
[2]- أحمد أبا الصافي جعفري، المرجع السابق، ص167.
[3]- أحمد المقّري، نفح الطيب، مصدر سابق، ج01، ص32.
[4]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج03، ص114.

02ـ التغيُّرات الحاصلةُ في خطِّ سيرِ العودة:

تتميَّز رحلة عودة الركب الجزائري (أو الرجعة) بانحسار بعض مظاهر المشقة، وانخفاض حجم الأموال التي كان يُنفقها الركب على المعاش والكراء، وكذا بانخفاض المعدل الزمني في قطع المسافات والمراحل مقارنةً مع رحلة الذهاب (أو الطلعة). وذلك بسبب لجوء الحجاج إلى اعتماد السرعة والعجَلة، مجسِّدين مثلاً شائعاً بينهم، يحضُّ على السير كثيراً، والنزول لأجل النوم قليلاً، إلى غاية الوصول إلى مدينة قابس من البلاد التونسية، ومُعاينة منارتها المشهورة من بعيد، الدالة على الوصول إلى بلاد إفريقيّة (تونس). يقول الحجاج في ذلك المثَل[1]: (الرجز)

لاَ نَوْمَ لاَ نَوْمَ ولاَ قَرارَا حَتَّى أَرَى قَابِسَ وَالمَنَارَا

وتبدأ مسيرة عودة ركب الحج بالتوجُّه من المدينة المنورة إلى مصر براً، حتى وإن كان المجيء إلى مكة المكرمة قد تمَّ بحراً عبرَ ميناء جُدَّة. وممّا جرتْ به العادة أنْ يسبق الركبُ الجزائري رفقةَ بقية أركاب بلاد المغرب الركبَ المصري في طريق درب الحجاز، خلافاً للذهاب حيث المصري هو الذي يسبق ويتخلَّف المغاربي وراءه. لذلك كان الركب الجزائري يخرج من المدينة المنورة على عجل، بسبب الخشية من "ضغط" الركب المصري له[2].

وقد حدث في أحد مواسم الحج أنْ أصرَّ الركب المصري على التقدُّم بعد مغادرة المدينة المنورة، فاجتمعَ أمراء أركاب: الجزائر وطرابلس وتافيلالت (سجلماسة)، واتفقوا على أن يكون السَّبق كالعادة في الرجوع، وتعاهدوا على ذلك، رغم امتعاض أمير الركب المصري وغضبه[3]، لخشيته ـ على ما يبدو ـ من سبقِ ثمَّ استئثارِ الأركاب المغاربية بآبار وبنادر درب الحجاز دونهم. أمّا المغاربة فإنهم أصبحوا يُدركون حجم المخاطر الأمنية التي يمكن أن تعترضهم، إنْ هم صحبوا الركب المصري، بسبب حروب أمرائه المتكرِّرة مع قبائل البدو في الطريق. ويعلمون أنَّ الحل البديل والأمثل في رحلة العودة هو أن تخرج الأركاب المغاربية مجتمعة في ركبٍ كبير، لتتقوَّى ببعضها على قبائل "الأعراب" المنتشرة في الطريق[4].

---

[1]- ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص684.

[2]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و03.

[3]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص373.

[4]- القيسي السراج، المصدر السابق، ص127.

رغم ذلك سجلنا حالاتٍ رافقَ فيها حجاج مصريون الركب الجزائري بعد مغادرة المدينة المنورة، ففرح أهالي الحجاج المصريين بوصول الركب الجزائري رفقة أبنائهم إلى مصر آمنين. كما أنَّ عدداً من الحجاج المصريين الفلاحين كانوا يخرجون مع الركب الجزائري منذ مغادرته لمكة المكرمة، لكنهم ينفصلون عنه في محطة بدر، متوجهين نحو الينبُع، عائدين إلى بلادهم مباشرة! في المقابل عرضَ أمير حجاج قبائل صعيد مصر على الركب الجزائري ـ بعد الحج ـ مرافقته في درب الحجاز، فقبِل الجزائريون، وأكرمَهم المصريون طول الطريق[1]. ذلك رغم ما اشتُهر من وجود الشحناء والشنآن بين الركب الجزائري والركب المصري الرسمي.

ومن الحالات النادرة أن يكون سفرُ الركب الجزائري ـ مع الأركاب المغاربية الأخرى ـ رفقةَ الركب الشامي، فيقصدون الشام بدل مصر! حدث ذلك في مواسم الحج المتزامنة مع الحملة الفرنسية على مصر، حيث حجَّ بعض المغاربة ثمَّ عادوا مع الركب الشامي، لأنَّ الركب المصري لم يحجّ[2]. ومن حسنِ حظّ الحجاج الجزائريين العائدين في مقطع درب الحجاز التقاؤهم دورياً بـ"الملاقية"[3] في بندرِ أو محطةِ المويلح، وهم يتقدمون قافلة كبيرة آتيةً من مصر، اعتاد الحكام على إرسالها إلى هناك، مصحوبة بالعساكر، ومحمَّلةً بالطعام والبشماط والدقيق والفول، فيشتري منها الحجاج الجزائريون ما يحتاجون إليه بأسعار زهيدة[4].

كانت العادة أن يقطع الركب الجزائري درب الحجاز ويصل إلى مشارف القاهرة بعد مسير أربعين يوماً، يكون السير فيها بالليل في بعض الأحيان[5]. فيدخل مصر مع مستهلّ شهر صفر من كل سنة. وينزل الركب في إيابه ببِركة الحاج مثلما خرج منها في الذهاب، ومن البِركة ينتقل إلى مدينة القاهرة مباشرة[6]. وقد يتأخَّر الحجاج في دخول مصر إلى ما بعد النصف من صفر، نظراً

---

[1]– عبد القادر التنلاني، المصدر السابق، و42.

[2]– عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج03، ص131.

[3]– **الملاقيّة**: هي البعثة الرسمية السنوية المرسَلة من طرف حكام القاهرة لملاقاة الحجاج المصريين والمغاربة، عند محطات: العقبة، الأزلم والمويلح، ومعاونتهم في رحلة عودتهم، وإمدادهم بما يلزمهم من مُؤن وملابس وعلّيق. يُنظر: أحمد الرشيدي، المصدر السابق، ص48.

[4]– الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص136.

[5]– جوزيف بتس، المصدر السابق، ص66.

[6]– عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، و20.

لبعض الطوارئ أو المعيقات. وهي كلُّها مواعيد وصول متأخرة، مقارنةً بمواعيد وصول الحجاج إلى مصر قبلَ وفي بداية العهد العثماني، حيث كانت تصادف أواخر شهر محرَّم[1].

بعد دخولِ الركب الجزائري القاهرةَ، ونظراً لفترة الإقامة التي قد تطول، يقوم الحجاج باكتراء السُكنى في حي بولاق المجاور لها، لأنَّه منزلُ ومحطُّ الحجاج المغاربة عموماً، وفيه توجد الوكالة المخصَّصة لذلك[2]. وقد حدثَ في أحد المواسم أن فضَّل الركب نَصْبَ خيامه بين حي بولاق ونهر النيل لعدة أيام، فقام بعض الحجاج المتزوجين الميسورين باكتراء عدد من الدور داخل مدينة القاهرة، أمَّا المتزوجون الفقراء منهم فحطُّوا بالوكالة المذكورة[3]. ويمكثُ الركب الجزائري العائد من الحج في مدينة القاهرة أو ضواحيها حوالي أسبوعين، وأحياناً تصل مدة الإقامة بها إلى حدود الشهر، وذلك ما بين منتصف صفر ومنتصف ربيع الأول[4].

تُعدُّ زيارة الركب الجزائري لمدينة الإسكندرية الساحلية أمراً ثابتاً في رحلة العودة، على خلاف الذهاب، وذلك لأجل زيارة معالمها والتبرُّك بصلحائها. والأهم من ذلك لامتطاء السفن من مينائها. فحجاجٌ جزائريون كُثُر من بينهم مشايخ وعلماء كانوا يركبون سفناً جزائرية أو أوروبية في ميناء الإسكندرية للعودة إلى الجزائر[5].

كان معظم الحجاج الجزائريين القادمين إلى مصر بعد تأدية مناسك الحج يفضِّلون الانتقال من القاهرة إلى الإسكندرية عبرَ نهر النيل، ومن مينائها يركبون البحر متوجهين إلى ميناء تونس بصفة خاصة، حيث ينتظرون في تونس حتى يصل إليها الركب البري، الذي يقطع الأراضي الليبية مروراً بإقليم برقة، كما فعل في رحلة الذهاب[6]. ويُقيم الركب الجزائري بالإسكندرية مدة ستة أيام لإتمام إجراءات السفر، أما الركب المغربي فيُقيم بها سبعة أيام[7].

---

[1]- أحمد الرشيدي، المصدر السابق، ص47.

[2]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و04.

[3]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج03، ص151.

[4]- المصدر نفسه، ج03، ص178.

[5]- أبو راس الناصري، فتح الإله، مصدر سابق، ص59.

[6]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج03، ص156.

[7]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص477.

تُعتبَر المحطة المصرية من أهمّ محطات طريق الحج راحةً وإسناداً وتواصلاً إنسانياً وفكرياً بالنسبة للحجاج الجزائريين، لذلك كانت فترة إقامة الركب الجزائري تطول في مدينة القاهرة، إذا ما قارناها بغيرها، لولا توالي بعض الأحداث السيئة غير المتوقَّعة، أو بعض المستجدّات المنغِّصة بين الفينة والأخرى، التي تدفع بالركب إلى الخروج منها على عجل.

من تلك الأحداث السيئة ـ مثلاً ـ تحايلُ واتّهام بعض البدوِ أصحابِ الكراء للحجاج الجزائريين بأنَّهم لم يوفُّوهم حقوقهم كاملة؟ وقد استعان أولئك البدو في مكرِهم وظلمهم بالمرتَشين من الجنود المماليك في القاهرة، فتمَّ إلقاء القبض على العشرات من الحجاج الجزائريين الذين وُجدوا منعزلين عن منزل الرّكب، وأودِعوا السجن ظلماً وقهراً، وكادت الأمور تسير نحو الأسوأ، لولا وساطة بعض العلماء المصريين الخيِّرين وكذلك الجزائريين[1].

ومن المنغِّصات الحائلة دون بقاء الحجاج الجزائريين بمصر لمدة معتبرة أيضاً ما ألمَّ بالركب الجزائري من نكبات في إحدى رحلاته، حيث تعرّض للابتزاز من طرف أحد المماليك البكوات المصريين المدعو "إبراهيم بيك"، فقد بعث إلى الحجاج الأغنياء أصحاب السلع الكثيرة في الركب أن يُسلِّفوا له مبلغاً ضخماً من المال، وذلك على سبيل التحايل والمكيدة، فلمَّا رأى استجابة البعض وتردّد البعض الآخر ونفورهم، خاطبهم قائلاً: "مَن قعدَ في هذا البلد بعد الأمر والشأن فلا يلومنَّ إلاَّ نفسه"![2]. وفي ذلك استغلال سيء للسلطة والنفوذ في محطة هامة كمصر.

كلُّ تلك الأحداث كانت تؤدي في آخر المطاف إلى قلق الحجاج الجزائريين، وشعورهم بعدم الأمان في مصر، واستعجالهم الخروج منها، خاصة وأنهم ليسوا ملزمين بالمغادرة في زمنٍ محدَّد، مثلما هو الأمر في الطَّلعة، حيث يكون الخروج في أواخر شهر شوال لزوماً.

عندما يغادر الركب الجزائري مصر فإنه يتوجّه غرباً نحو الريف الغربي جهةَ "كرداسة"، فهناك يسترجع بعض الحجاج ما خلَّفوه وراءهم من الدواب ودائعَ عند الفلاحين المصريين أثناء الطلوع. والملاحظ أنَّ الأركاب المغاربية تفترق وتتباعد بعد اجتياز هذه المحطة، فبعضها يُحاذي ساحل البحر الأبيض المتوسط، وبعضها الآخر يمرُّ ببسيط برقة الفسيح[3]. وتلتقي الأركاب المغاربية مرة أخرى في

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص152.

[2]- إبراهيم المصعبي، المصدر السابق، ص84.

[3]- ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص631.

في مدينة طرابلس الليبية، حيث تأخذ قسطاً من الراحة والزّاد. وحدثَ أنْ اجتمعتْ في طرابلس ستة أركاب مغاربية دفعةً واحدةً ما بين ذاهبين وآيبين، من بينها الركب الجزائري[1].

كذلك تتميَّز رحلة الإياب بمستجَّدٍ هام، وهو زيارة الركب الجزائري مدينةَ تونس، والإقامة بها لأيام، والاستئناس بأهلها وعلمائها، بحكم العلاقات الاجتماعية والثقافية الوطيدة بين أهالي تونس وأهالي الجزائر آنذاك. فمنذ يحلُّ الركب الجزائري بها والناسُ "مقبِلين على الحجاج من كلِّ ناحية بالإطعام والإكرام، ثمّ يذهبون بهم إلى بيوتهم متبرّكين بهم وفرِحين بمقدَمِهم"[2]. ورغم تلك الزيارات والإضافات في برنامج العودة، إلاَّ أنَّ زمن المكوث الإجمالي في بعض المحطات ينخفض إلى أقلَّ من النصف مقارنة بالذهاب، لأن الجِدَّ في السير هو الغالبُ على الحجاج.

وحينما يكون الركب الجزائري على مشارف الأراضي الجزائرية من الجهة الشرقية يَشرَعُ الحجاج في الاستعداد للانفصال عنه، والتوجّه نحو مواطنهم الأصلية، فمنهم: العُنَّابي، والقُسَنْطيني، والوَارْقَلي، والرِّيغي، وبعضٌ من أهل الزَّاب، وغيرهم من مجمل النواحي، يودِّع بعضهم بعضاً في مشهدٍ مؤثِّر، حاول الرحالة المجاجي تصويرَ جانب منه قائلاً[3]: (الطويل)

هُنالِكَ قَدْ وَادَعْنَا شَيْخَ أَمِيرِنَا وَدَاعَ المحِبِّ لِلْحَبيبِ بِوَحْشَةِ
وَقَدْ رَجَعَ عَنَّا وَدَمْعُهُ سَاكِباً مِنَ العَيْنَيْنِ يَجْرِي علَى الخَدِّ مُثْبَتِ

كما ينصرف بعض حجاج صحراء الجنوب الغربي الجزائري عن الركب المغربي الذي رافقوه، بعد تجاوزه محطةَ الأغواط، ويقصدون وادي الساورة وتوات وغيرهما، على أمل تجديد العهد بالحج وقيادة الركب من تلك الأقاليم الجزائرية البعيدة[4].

أمّا العائدون من الحجاج الجزائريين عبرَ البحر فإنهم ينطلقون من ميناء الإسكندرية، ويصلون في مراكب متفاوتة الحجم، في أزمنة متقاربة، سواء إلى ميناء تونس المحطة البحرية المفضَّلة لديهم، لكونه مؤَمَّناً طبيعياً، وقريباً من المدن الجزائرية الشرقية، أو إلى ميناء الجزائر المتعرِّض لبعض المخاطر الطبيعية، إضافة إلى نشاطه الجهادي المستمِّر. ويستبشر الحجاج ويفرحون قبل الوصول إلى الجزائر

[1]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص136.
[2]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص313.
[3]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و06.
[4]- عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص129.

لِسماع أخبار سارة عن وطنهم، كَفَرَحِهم الكبير بِخَبرِ فتح وهران، وطرد الأسبان منها نهائياً عام 1206هـ/1792م، وقد كان الرحالة الناصري معهم في تونس، فابتهج بذلك قائلاً: ".... وخبرُ الجهاد بوهران كلَّ يوم عندنا في ازدياد، وانتشرَ في أقطار إفريقية فعمَّ جميع البلاد"[1].

المبحث الثاني: ركبُ الحج والنشاط التجاري

01. الحجاج الجزائريون بين أداءِ الحجّ والتجارة:

ارتبط الحج على ممرِّ العصور بالنشاط التجاري الموازي لخطِّ مناسكه في كل موسم، فالمزاوجة بين الحج والتجارة كانت ـ ولا تزال ـ وثيقةً في سفر أركاب الحج إلى الحجاز. هذه الأركاب التي وجدت نفسها مُجبَرَة على ضمان مصادر لتموين أفرادها بالزاد والمعاش، وتعويض المصاريف المالية المطَّرِدة منذ مغادرة البلاد. وقد قال بعض العلماء: يُستحبُّ للحاج أنْ لا يتَّجِر في طريقه[2]! لكنْ كيف يمكن ذلك وركب الحج سوقٌ متنقلة في حدّ ذاته؟ كلما نزل في محطة تبادل فيها الحجاج مع الزوار العديد من السلع بيعاً أو شراءً. فنجد أنَّ حجم رؤوس الأموال الموظَّفة في تجارة الحج أواخرَ العهد العثماني قد تجاوز معدل مليوني (2000000) فرنك سنوياً في الرحلة الواحدة[3]!

وفضلاً عن وجود فئةِ "الحجّاج التجار" غالبيةِ الركب، الذين لم يحترفوا التجارة من قبل، لكنهم اضطروا إلى امتهانها واكتساب فنونها اضطراراً، هناك فئة "التجار الحجّاج"! الذين تمثِّل لهم رحلة الحج أفضل استثمار ناجح لأموالهم، وتُحقِّق لهم أرباحاً طائلة، ما كانوا لِينالوها لو لم يقصدوا الحجاز، مجسِّدين بذلك المثل الشعبي الشائع: "حجَّة وتجارة". لكنَّ هؤلاء التجار لا يقدرون على السفر منعزلين، فيتحيَّنون سفر ركب الحج حتى يذهبوا في خفارته، مثلما فعل عددٌ من التجار المزابيين، عندما استغلُّوا مرور ركب الحج بأرضهم للسفر معه[4].

ويمثِّل ميناء "حلق الوادي" بتونس محطة الربط الرئيسية بين البضائع المشرقية والبضائع المغاربية، كما أنَّ نسبة كبيرة من تجارة البلاد المصرية مع أقاليم المغرب كانت تتمُّ عن طريق ميناء

---

[1]– أبو راس الناصري المعسكري: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مخطوط مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض، رقم: 3960، ص139.

[2]– محمد الحضيكي، المصدر السابق، ص89.

[3]– محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص183.

[4]– الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص196.

الإسكندرية، بالإضافة إلى ما تقوم به أركاب الحج البرية المحمَّلة بالسلع[1]. وساهم في تسهيل تلك الحركية التجارية وجود وكلاء للمغاربة في مصر، على رأسهم "شيخ طائفة المغاربة"، الذي يسهر على ضمان حقوق التجار المغاربة، والدفاع عن مصالحهم أمام السلطات المصرية[2]. وقد كان تجار القاهرة يعقدون صفقات تجارية مع الحجاج المغاربة، يقوم الحجاج بموجبها بنقل البضائع ما بين مصر والحجاز ذهاباً وإياباً، مقابل حصولهم على ما نسبتُه 10% من الأرباح عن البضائع المصرية، و15% من الأرباح عن البضائع الحجازية[3].

ومن العروض المحفِّزة لتعاطي التجارة في ركب الحج إعفاءُ البضائع المحمّلة في رِحال الحجاج من دفع نصف الرسوم الجمركية عند دخولها إلى مصر والحجاز. وهو الإجراء الذي ظلَّ معمولاً به إلى غاية منتصف القرن 10هـ/16م، ثمَّ ما لبث الوضع أن زاد تحفيزاً، وسُمح للحجاج بنقل بضائعهم دون رسوم. وفي سنة 1136هـ/1724م استحدث شريف مكة ضريبة جديدة على المترددين سنوياً من التجّار على الحج، واتَّخذ لأجل ذلك سجلاً خاصاً، مما أدَّى إلى تذمُّر التجار وارتفاع الأسعار في بلاد الحجاز ارتفاعاً كبيراً[4]. وفي نهاية القرن 12هـ/18م أُعفِيتْ تجارة الحجاج نهائياً من دفع الرسوم الجمركية، فقد راسَلَ والي مصر داي الجزائر مخبراً إيّاه بإعفاء الجزائريين المتوجهين إلى الحج من أداء الرسوم الجمركية في المنافذ والموانئ المصرية[5]. في الوقت الذي لم يُعفَ من أداء المكوس التجّارُ الحجاج من رَكْبَي المغرب الأقصى وبلاد السودان (جنوب الصحراء)، بذريعة أنهم ليسوا من رعية السلطان العثماني[6]!

وطيلةَ زمنِ السفر كان تجار الركب الجزائري يتحسَّسون أخبار المشرقِ وأسواقِه ممَّن يلتقون بهم في طريقهم، ففي أحد المواسم أُخبِروا بانكسار سوق الحجاز إلى الرخاء بعد الغلاء الشديد، ففرحوا فرحاً شديداً بعد سماعهم هذا الخبر[7]. وذلك لعلمهم بأنَّ الأرباح المتوقَّع تحصيلُها في مثل

[1]- بيير سيمون جيرار، المصدر السابق، ج04، ص253.

[2]- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المرجع السابق، ص51.

[3]- حسام محمد عبد المعطي، المرجع السابق، ص26.

[4]- أحمد السباعي، المرجع السابق، ج02، ص481.

[5]- رسالة من والي مصر إلى والي الجزائر، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم: 3190/104.

[6]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص432.

[7]- عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، و10.

تلك الأوضاع ستكون طائلة في الذهاب وفي الإياب معاً. وممّا يُعضِّد ذلك هو أنَّ أحد الحجاج ويدعى "الحاج يوسف" احتاج إلى كراء 14 بغلة، لنقل أغراضه وبضاعته من تونس التي وصلها بحراً إلى موطنِه مدينة الجزائر[1]! يبدو أنَّ الظروف كانت مهيَّأة لمعظم حُجاج الركب الجزائري من أجل ممارسة بعض النشاط التجاري، في إطار احترام متطلبات وضوابط رحلة الحج المقدسة.

02. ازدهار الأسواق الموسمية بمناسبةِ الحجّ:

يمكن تمييزُ نوعين من الأسواق الموسمية التي كان يغشاها الحجاج الجزائريون بمناسبة سفرهم إلى الحجاز، أسواق بسيطة يُقيمها أهل الصحراء أو القُرى أو البوادي، فينزل الركب لأجلهم، ويتمُّ تبادل السلع فيما بينهم. حيث تجد البدو الرحل يتعرضون لركب الحج قصد التسوُّق، ويجلبون معهم عادةً الكثير من الزرع والسّمن والعسل واللحم والإبل. وقد يحدث أنْ يتخلف سكان القرية لسبب من الأسباب عن التسوُّق، رغم نزول الركب في أرضهم وانتظار الحجاج لهم[2]. والتسوُّقُ بين الحجاج وأولئك البدو مدعاةٌ لحصول الثقة، وتهدئة روع الحجاج من قبائل الطريق.

من نماذج أسواق البوادي سوق أقامتها قبيلة من الطوارق لحجاجٍ مغاربة وجزائريين، فتعاطى الطرفان فيها البيع والشراء[3]. وليس ببعيدٍ عنها سوق أخرى أقامتها قبائل عرب الجبل الأخضر بليبيا لأركاب الحج المغاربية، وتجدَّدت هذه السوق لأيام متتالية، بطلبٍ من أهل الجبل الأخضر، الذين كانوا يقصدون الركب ويطلبون نزوله في كلِّ ليلة، فلبَّى الحجاج طلبهم، وصادفوا عند بعضهم تمراً كثيراً ذا نوعية جيدة يريدون بيعه، فأخذوا منه كفايتهم بأرخص سعر[4]. وقد يحدث التبادل التجاري دون سابق قصدٍ أو إعداد، ففي إحدى رحلات الركب الجزائري صادف الحجاج قبيلة عربية مُرتحلة بإبلها في صحراء ليبيا، وقد بدتْ على الإبل السّمنة والمعافاة، بينما كانت إبلُ الركب ضعيفة هزيلة، فشرع الطرفان في التبادل بالتراضي، لكنْ لما رأى البدوُ اضطرار الحجاج وتزاحمهم امتنعوا من التبديل وصاروا إلى البيع[5]!

---

[1]- خليفة حماش، كشاف وثائق، مرجع سابق، ص343.

[2]- عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، و11.

[3]- القيسي السراج، المصدر السابق، ص31.

[4]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص203.

[5]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص238.

والنوع الثاني من تلك الأسواق هو أسواق المدن الكبرى، والتي وإنْ كانت لا تنقطع في بعض الحواضر طيلة السنة، مثلما هو الأمر في طرابلس أو في القاهرة أو في الإسكندرية، إلاَّ أنَّ تلك الأسواق تنشط أكثر وتزدهر بمناسبة موسم الحج، ومرور الأركاب المتتالية بها. وبعض الأسواق كان يُقام داخل الإقليم الجزائري، كسوق مدينة بسكرة المملوءة بالتمر والسمن والشعير والإبل[1]. وفي مدينة قابس التونسية كان الركب الجزائري ينزل من الصباح إلى صلاة الظهر، وذلك لتمكين أهلها من التسوُّق مع الحجاج[2].

أمَّا أسواق المدن المصرية فإنها تحتوي على بضائع محلية، وأخرى مجلوبة من الأقاليم المشرقية المجاورة، وذلك من أجل إشباع نَهَم التجار الحجاج الوافدين بكثرة. فَسُوقُ "الرملة" المصري فضاءٌ واسع خارج القاهرة، فيه تُباع الإبل والخيل وسائر الدواب، وبه غالبُ ما يحتاجه الحاج من الأثاث والأمتعة واللباس، وتُنصَّب فيه بمناسبة مرور أركاب الحج أرحاءٌ متعدِّدة لتدشيش الفول، الذي ينقله الجمَّالون بالكراء إلى محطة "المويلح" في درب الحجاز، علفاً لدواب الحجاج. ويرتادُ سوقَ الرملة المذكورة كذلك المشعوذون وأصحابُ القرود والكلاب والتيوس، كلٌّ يستعرض مهاراتِه وألعابَه على الحجاج والأهالي المتفرجين[3]! وبالجملة فإنَّ أسواق مصر لا يُحاط بِعدِّها، ويقصدها الحجاج الجزائريون في الذهاب وفي الإياب.

والطريق من مصر إلى بِركة الحاج كلُّها سوقٌ عامرة، حافلة بالسلع والخانات والأفرشة، وهي من أهمِّ الأسواق في رحلة الحجاج المغاربة وأرخصها. ومن البنادر الحجازية المعَدَّة لتسوُّق أركاب الحج بندر "المويلح"، حيث تُقام فيه الأسواق لتزويد الحجاج بما يحتاجونه في الذهاب والقفول، فتمتلئ بالمنتجات المحلية من المزروعات، وما يأتيها من مصر في المراكب. علاوة على "الملاقية" التي تنتظر مَقدم الحجاج لتقديم الهدايا والحلويات، والجمع الغفير من "الأعراب"، الذين يستقبلون الأركاب لبيع المؤن الطازجة والاتّجار مع الحجاج[4]. وفي الدرب كذلك سوق "ينبوع البحر"، وهي مرسى عامرة ينزل بها الحجاج المغاربة للتسوُّق أحياناً.

1- ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، و131.

2- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج01، ص268.

3- المصدر نفسه، ج02، ص51.

4- عواطف بنت محمد يوسف نواب، المرجع السابق، ص331.

تُعتبر مكة المكرمة بالنسبة للحجاج أثرى سوق تجارية، غنية وعامرة بالسلع من جميع الجهات، إذْ تُجلب إليها المنتجات الهندية والأفريقية واليمنية[1]. ولا ينتظر الحجاج كثيراً حتى ينفضُّوا إلى تلك السلع المغرية، خاصةً في مشعر مِنى بعد أدائهم جلَّ المناسك، حيث أنَّ للحجاج غرضاً في الشراء من ذلك المكان بالذات. فهذا الرحالة الورثلاني يبيِّن ذلك المشهد والغرض قائلاً: "…. وعمرتِ الأسواق بمِنَى، وأُخرجتْ البضائع ذواتُ الأثمان، وعُرِضتْ صنوفُ السلع وأنواعُها، فتزاحمَ الناس على الشراء منها، رجاءَ برَكةِ ذلك المكان، حيث يَشِيعُ بين الحجاج التجار أنَّ من اشترى شيئاً من مِنى وجَعلَه في تجارته وَجدَ بركته، وظهرت له ثمرتُه لاحقاً"[2].

وإثرَ العودة من مِنى إلى مكة المكرمة، يستغلُّ الحجاج الأيام المتبقية لشراء السلع والهدايا، فتُعقد بها سوق كبيرة تباع فيها كل بضائع الهند، كما تباع فيها أحجار كريمة للخواتم والأساور المجلوبة من اليمن، وكذلك بضائع الصين والمسك وغيرها من الأشياء الغريبة[3]! وإنْ كان الحجاج المغاربة قد ضجُّوا من الفوضى التي تُسبِّبها سوقُ "المسعى"، المقامة على جانبي الصفا والمروة، فارتفعت أصواتهم بالشكوى من وجودها هناك، حيث تضرر السّاعون من شدة الزحام فيها، وتمنَّوا لو يأمر الحكام بمنع الناس من التسوق هناك، خلال أيام الموسم على الأقل[4]! وحينما ينتقل ركب الحج الجزائري إلى زيارة المدينة المنورة يجد أسواقها كذلك عامرة زاهرة، بفضل قدوم ركب أهل الشام من جهتها، نظراً لما يأتون به من بضائع كثيرة وطعام وزيت وأشربة، فلا تنتفع تجارة أهل المدينة المنورة بركبٍ من أركاب الحج قدرَ انتفاعها بأهل الشام[5].

03. أهمُّ السِّلع وأشكالُ المعاملات التجارية:

لقد تنوَّعت البضائع التي كانت محلَّ بيع وشراء من طرف تجار الركب الجزائري وتباينتْ في مراحل العهد العثماني، وذلك بسبب طول فترته الزمنية والتطورات الصناعية الحادثة في أواخره. لكنَّ الملاحَظ أنَّ الغالب عليها هو المنتجاتُ الصناعية الحِرفية، محاصيلُ الغَزْل والنسيج، والدباغة،

---

[1]- حسام محمد عبد المعطي، المرجع السابق، ص218.

[2]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص284.

[3]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص62.

[4]- عواطف بنت محمد يوسف نواب، المرجع السابق، ص315.

[5]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص385.

والعطارة بالدرجة الأولى. فكان الحجاج يأخذون معهم القلانس (الطرابيش أو الشواشي) والبرانس والأحزمة والنِّعال والمظلات وريش النعام والتِّبر والمرجان.... وعندما يعودون يجلبون معهم كميات من القهوة والأقمشة الحريرية والسجاد والشيشان الهندية والمسك والزبَد.... [1].

اشتهرت مدينة الجزائر ـ آنذاك ـ بصناعة البرانس أو المعاطف البيضاء باهضة الثمن، التي كان يُحاك بعضُها من الصوف، وبعضها الآخر من الحرير، إضافة إلى الأغطية الكبيرة أو قِطع الأقمشة الصوفية البيضاء، المعروفة بالأحرمة، كلُّ ذلك كان يُنقل عبر المراكب ومع قوافل الحجاج إلى مصر[2]. ومن البرانس الجزائرية المسوَّقة على نطاق واسع خارج إيالة الجزائر كذلك البرانس التبسية، ذات الجودة الرفيعة، التي كانت تلقى رواجاً كبيراً بالبلاد التونسية[3].

وعلى غرار البرانس سادت تجارة القلانس (أو الشواشي كما تُعرف)، وأضحت تُسوَّق في بلاد المشرق، وتحقِّق أرباحاً طائلة. وذلك بمساهمة أركاب الحج (الجزائري والمغاربية أيضاً)، والتي كانت تنقلها بكميات كبيرة من أماكن إنتاجها. إلاَّ أنَّ أشهر الشواشي في ذلك العهد: الشاشية التونسية والشاشية الإسلامبولية (التركية)[4].

رغمَ ذلك كانت لمدينة الجزائر أسبقيةٌ في صناعة الشاشية، حيث يؤكِّد المؤرخ الأمريكي وليم سبنسر ذلك قائلاً: ".... وقد كانت مدينة الجزائر تتحكَّم في إنتاج بعض المواد المصنوعة في منطقة المغرب. إحداها هي الشاشية، وهي لباسٌ منسوج دائري حول الرأس، شائعٌ في أوساط المسلمين الشباب بالمشرق، وفي شمال أفريقيا كذلك"[5]. يبدو أنَّ ذلك التحكم في صناعة الشاشية الشاشية لم يُجسَّد من طرف تجار الركب الجزائري، الذين لم يُسوِّقوا لذلك المنتَج بشكلٍ كافٍ!

لم تستمر التجارة في الشواشي التونسية والجزائرية من طرف أركاب الحج إلى الحِقَب المتأخِّرة من العهد العثماني، بسبب كثرة المصانع التي أنشأها والي مصر محمد علي باشا، والمتخصِّصة في ذلك، في إطار إصلاحاته الاقتصادية. فأحجمَ معظم الحجاج الجزائريين عن تسويق الشواشي إلى

[1]- محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص185.

[2]- بيير سيمون جيرار، المصدر السابق، ج04، ص254.

[3]- خليفة حماش، كشاف وثائق، مرجع سابق، ص376.

[4]- محمد السُّنوسي، المصدر السابق، ج01، ص121.

[5]- وليم سبنسر، المرجع السابق، ص145.

المشرق بعدما أنشأ محمد علي المذكور مصانع الطرابيش[1]. أمّا النِّعال الجلدية الجزائرية فقد ظلَّت مطلوبة بكثرة خارج الجزائر، واشتهرَ من أصنافها الأحذية التلمسانية الحمراء[2].

لم يَعدَم الحجاج الجزائريون الرواحل المطلوبة لنقل تلك البضائع من الجزائر أو من تونس المجاورة، إذْ كان يحدث في بعض المواسم أنْ يحمل الركب الجزائري معه المئات من الإبل لبيعها ـ هي بدورها ـ في محطتي طرابلس ومصر بصفة خاصة، مع ملاحظةِ أن معظمها كان يُباعُ في مصر بالدَّين إلى حين الرَّجعة من الحجاز[3]، وذلك بسبب وفرتها في الركب وفضلِها عن احتياج الحجاج من جهة، وضيق الوقت لإتمام البيع من جهة أخرى. لقد كان ركب الحج الجزائري بمثابة معرض متنقِّل لتسويق المنتَج الجزائري المحلي في تلك الأزمنة.

لئِنْ كان وجود العبيد السود قصد المبادلات التجارية ببلاد الحجاز وغيرها من المدن وارداً في ذلك العهد، حيث يُجلَبون إليها من طرف الحجاج المغاربة وغيرهم[4]، فإنَّ ركب الحج الجزائري لم يكن ينقلهم لهذا الغرض بالذات، إذا ما استثنينا بعض العبيد الذين كان أسيادُهم يستقدمونهم معهم لأجل خدمتهم في السفر الشاق، ولكن وجودهم قليل وفي حالات نادرة، يُشير إلى إحداها الرحالة الورثِلاني قائلاً: "... وانفردَ عن الركب مُسايرةً بإزائه رجلٌ من أهل توات، مع ولدِهِ وعبدِهِ"[5]. ومنطقة توات من أقرب المناطق الجزائرية إلى أسواق تلك التجارة الأفريقية.

تَصدَّر الكتان بأنواعه والأقمشة المختلفة رأس مشتريات الحجاج الجزائريين من الحجاز ومدن عبور الركب، فيُذكَر ـ مثلاً ـ أنَّ حاجاً جزائرياً اشترى حِملَين من الأقمشة الكتانية، قام بفتحهما في الطريق لتجفيفهما من الماء الذي أضرَّ بهما[6]. وبعض الحجاج كانوا يُحضِرون معهم شالات كشمير المزخرفة المزيَّنة، المطلوبة بكثرة من طرف حجاج شمال أفريقيا جميعهم. وكذا القماش الفاخر، وخاصة النوع الرفيع منه المسمَّى "البزّ"، لدرجةِ أنَّ الركب الجزائري كان يتوقف بمدينة

[1]- محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص185.

[2]- خليفة حماش، كشاف وثائق، مرجع سابق، ص360.

[3]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص126.

[4]- لوسيت فالنسي، المرجع السابق، ص72.

[5]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج02، ص164.

[6]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص28.

سوسة التونسية الساحلية في طريقِ عودته، فيقصد الحجاج الجزائريون أسواقها الشهيرة بأنواع البزِّ والكتان، ويقومون بشراء كميات كبيرة جداً منه، يأتون بها إلى الجزائر[1].

ومن المقتنَيات الأخرى التي لا يفوِّت الحجاج فرصة وجودهم بالمشرق للإتيان بها: البُنّ، والطيب والنَّدّ والبخور الجاوي، وصمغ الصنوبر، والسّاج (من الخشب)، وملح النشادر، والسكر، وبعض الأقمشة المصرية والشامية. وغيرها من السلع التي لا تتوفر في شهور السنة الأخرى، فهي خصِّيصاً لأسواق موسم الحج، المنتشرة بالحجاز وحواليه. وعلى رأي الرحالة الشرقي: "…. ولا تسَلْ عمَّا يوجدُ في تلك الأسواق من مهيِّجاتِ الأشواق…. "[2].

أمّا المنتَج الذي فرض نفسه بقوة في أسواق المشرق من بين تلك المنتَجات السابقة منذ بدايات العهد العثماني فهو البُنُّ (القهوة) اليمني. حيث لا يكاد ينقضي موسمٌ من مواسم الحج حتى تُباعَ أطنانٌ من البُن، يحملها التجار من الحجاج إلى بلاد المغرب على ظهور الرواحل ومتون المراكب، وتُدفع فيها أموالٌ ضخمة قلَّما تُدفع في غيرها من التجارة. كلُّ ذلك طمعاً في الربح السريع الوفير، خاصة وأنَّها كانت في أزهى فترات رواجها خلال العهد العثماني.

وأسعارُ القهوة تتضاعف كلما غرَّبنا، فيجني التجار أرباحاً كبيرة من تجارتها، إذْ تُباع في بلاد المغرب بأضعاف ثمن شرائها عشرَ مرات، فقد لا يتجاوز سعر الحِمل[3] الواحد العشرين ريالاً في مكة المكرمة، في حين يصلُ سعره في بلاد المغرب إلى المائتين[4]!؟

وعلى ذكر الأرباح المحقَّقة من التجارة المواكِبة لركب الحج يمكن عرض شهادة أحد التجار من منطقة وادي مِزاب يُدعى "الناصر"، حول رِبحية بعض السلع بعينِها. يذكُرُ هذا التاجر أنَّه اشترى من تونس 180 رطلاً من الزعفران بسعر دورو[5] للرطل الواحد، وفي الحجاز يُباع نفس الرطل بثمانية دورو. وفي الرجوع اشترى عشرين شاشاً على زوجٍ من الدورو للواحد، وستة عشر

---

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص310.

[2]- ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، و63.

[3]- **الحِمْلُ**: ما حُمِل على الظهر أو الجمل ونحوهما، والجمع أحمَال. يُنظر: ابن منظور، المصدر السابق، ص1001.

[4]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج02، ص57.

[5]- **الدورو**: قطعة فضية أصلها إسباني، كانت تساوي في وقتها ربع قطعة ذهبية، وزن ستة (06) غرامات تقريباً. يُنظر: الشريف الزهار، المصدر السابق، ص54.

رطلاً من المسك بسعر دورو للرطل الواحد، وفي تونس يُباع الشيشان بخمسة دورو للواحد والمسك بسعر 112 دورو للرطل[1]! إنَّه الربح السريع بفضل الحج، طبعاً مع تحمُّل عناء النقل.

ومن مُعيقات النشاط التجاري لركب الحج في المشرق مشكلة صرف العملة (أو السَّكَّة)، فالعُملات الجزائرية مثل: المحبوب أو الريال أو الموزونة أو الصايم.... [2]، وحتى التونسية والطرابلسية لم تكن متداولة في بلاد المشرق. وعلى رأي الرحالة الحضيكي ـ الذي مرَّ بالإيالات الثلاث في موسمٍ من القرن 12هـ/18م ـ"…. وكلُّ عَمَالة من هذه العَمَالات لها سكَّة تخصُّها، لا تُجاوِزُها، واعلمْ ذلك واعرَفْهُ"![3]. لذلك كان الحجاج والتجار يستعيضون عنها بالنقود الأسبانية، مثل: الأسكودو والدورو وغيرهما في المعاملات التجارية ذات القيمة المنخفضة، وبالدنانير المسكوكة من الذهب والفضة في المعاملات التجارية ذات القيمة العالية[4].

وإلى جانب استخدام النَّقد في المعاملات التجارية، وُجدتْ مناطق تتعامل بالمقايضة، وفي أسواق مكة المكرمة الثرية نفسها كانت تُعقد الصفقات التجارية على أساس تبادل منتجات البحر الأبيض المتوسط بمنتجات جنوب شرق آسيا وجنوب غرب أفريقيا[5]. فيتمُّ ـ مثلاً ـ تبادل القلانس والبرانس والنعال بالأقمشة والموسلين والعنبر والتوابل[6]. غير أنَّ هناك عوامل تتحكم في تحديد معادلة البضائع لبعضها البعض، منها حجم أو مدى وفرة المعروض. فقد أدَّى ـ مثلاً ـ تأخُّر السفن التجارية الهندية الموسمية عن المجيء إلى مكة المكرمة في سنة 968هـ/1561م لأسباب طبيعية إلى غلاء أسعار أصناف البضائع التي تُجلب من الهند واليمن، من الشاشات والقطنيات والقماش والبهار وغيرها[7]. لذلك كان تجار ركب الحج يُقيمون علاقات وطيدة بالتجار المغاربة المقيمين في جُدَّة وفي مصر بصفة خاصة، لرعاية مصالحهم وضمان تجارتهم.

---

[1]- محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص185.

[2]- لمزيد التفاصيل عن العملات المتداولة بالجزائر في العهد العثماني وميزاتها، يُنظر: ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800-1830م، ط01، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م، الفصل الخامس.

[3]- محمد الحضيكي، المصدر السابق، ص88.

[4]- عواطف بنت محمد يوسف نواب، المرجع السابق، ص337.

[5]- حسام محمد عبد المعطي، المرجع السابق، ص218.

[6]- لوسيت فالنسي، المرجع السابق، ص72.

[7]- عبد القادر الجزيري، المصدر السابق، ج01، ص627.

يمكن أن نضيف إلى تلك السلع المتاجَرِ فيها في سفر ركب الحج نوعاً آخر من السلع، وهو ما تعلَّق بتجارة الطريق أو الدروب، التي كان الحجاج يتعاطونها مع أهل القرى والبوادي، من أجل ضمان تموين الركب بمتطلباته المتجدِّدة من الأكل والعتاد. فحينَ ينزل الركب في منزلٍ من الطريق يأتيه أهل القرى يتسوَّقون الحجاج، رجالاً ونساءً وصبياناً، بالتمر والزرع والدجاج والخبز، ويأخذون منهم الحنَّاء والكحل و"الخِرَق البالية"، فـ "هي أعظمُ رغبتهم لقلَّةِ ذلك عندهم"[1]! ويستغلُّ الركب الجزائري مواسم جني المحاصيل، فيشتري التمر بكميات كبيرة من قرية سيوى، قبل دخول صعيد مصر، فتمرُها أجود أنواع التمور وأحلاها، يتميَّز بِلونِه الصافي، ونواتِه الكبيرة، ويوضع في قُفَفٍ طويلة من الحلفاء عليها غطاء، لتسهيل عملية رفعِه وحملِه على ظهور الإبل[2].

نستنتج ممَّا سبق زخم النشاط التجاري الذي كان يُرافق ركب الحج الجزائري، في طلوعه إلى الحجاز، وأيضاً في هبوطه. والسؤال المحيِّر هو: هل ضمِنَ التاجرُ الحاجُّ استمرارية جني الأرباح في جميع المواسم؟ مهما يكن من حالٍ فالثابت هو أنَّ الأمر يحتاج إلى كثيرِ الفِطنة والتحدِّي، إضافةً إلى الصبر والجَسارة المطلوبين في رحلة الحج أصلاً[3]!

المبحث الثالث: العلاقاتُ الاجتماعية البينية وأبعادُها

01. مظاهر التضامن والتآزر في ركب الحج:

منذ انطلاق ركب الحج من الأراضي الجزائرية يتشكَّل مجتمعٌ جزائري مصغَّر متنقِّل، يَسُوسُه شيخ الركب، وتسوده المودة والتعاون والتشاور. وتتجسد صفة التشاور فيما بين أفراد الركب بخصوص المستجدات الحاصلة في طريق الحج. من ذلك ـ مثلاً ـ أنَّ بعض البدو العرب طلبوا من الركب النزول للتسوُّق معهم في إحدى المحطات، فوافق بعض الحجاج على ذلك بنيةِ مساعدتهم، بينما امتنعَ الكثيرون عن النزول لضيق الوقت، فتمَّ تغليبُ رأي الأغلبية المتنعين[4].

رغم كثرة حجاج الركب الجزائري وتنوُّع أصولهم وقبائلهم وعاداتهم، إلا أنهم جعلوا الركب كالجسد الواحد، يشدُّ بعضُه بعضاً، وتتجلَّى فيه صور التضامن والإيثار والإنفاق. مثلما فعل

[1] – عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، و09.
[2] – الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص13.
[3] – لوسيت فالنسي، المرجع السابق، ص72.
[4] – الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج02، ص12.

بعض الحجاج الجزائريين حينما قاموا بتوزيع كميات كبيرة جداً من التمر على مَن في الركب، كانت قد أُهديتْ لهم من قِبَل أقاربهم وأصدقائهم بإحدى المدن الليبية، فكلُّ مَن في الركب أخذ نصيبه وفرح بذلك فرحاً شديداً[1]. أمّا أحد الحجاج ويُدعى "الشيخ عبد الحفيظ" فقد كان يواسي الحجاج الفقراء في الطريق، ويُطعمهم التمر والسمن والطعام، ويَكفيهم تكاليف المؤونة مدةَ شهر كامل، مِن مالِه وأرزاقه[2]. وهذا حاج جزائري آخر، ممَّن آتاهم الله سعةً من المال، اشتهر بشمولِ أفضالِه خاصَّةَ الركب وعامتَه، ابتغاءَ الأجر والدعاء له، وقد وصفَه الرحالة الورثلاني بأنَّه "..... كريمٌ فاضل، لا صبرَ له عن إطعامِ الطعام في الطريق"[3]!

ومن مظاهر التعاون والإيثار ضمن ركب الحج الجزائري أنَّ بعض الحجاج قاموا في أحد المواسم بالبحث عن مسكن يكترونه لأحد المرضى الحجاج، وذلك بعد أنْ اشتدَّ عليه المرض، ولما حان وقت السداد قام أحدهم ببيعِ كسائه لتوفير مبلغ الكراء[4]! وفي مشهدٍ آخرَ ينمُّ عن عِزَّة نفسٍ، قام بعض الحجاج الجزائريين بشراءِ ثلاثة جِمال في المدينة المنورة، وأعطوها لأحد الحجاج، تعويضاً له عن جِماله التي سُلِبتْ في الطريق إليها، فقبِل ذلك الحاج استلامها بشرط السُّلْفَة ليس إلاَّ، إلى غاية العودة إلى البلد ودفعِ ثمنها إليهم[5]. وكان الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر الجزائري قد استلف أموالاً من الحجاج المرافقين له في الركب، لأجل تغطية مصاريف العودة من الحجاز، بعد أن نفدت ذخيرته من المال في رحلته الإضافية إلى بغداد[6].

ونظراً لكون ركب الحج مداوماً في سفره على القيام والنزول، فقد اعتادت مجموعة من الحجاج المتطوعين فاعلي الخير على امتطاء البغال والسير خلف الركب، فيكونون آخرَ من يصل من الحجاج إذا نزل في موضعٍ ما، وذلك لأجل مساعدة الضعفاء من الحجاج ومرافقتهم، وكذا لأجل جمع الرّحل (المتاع) المنسي من طرف بعض الحجاج، أو الساقط من على ظهور الإبل أثناء

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص249.
[2]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و06.
[3]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج01، ص255.
[4]- المهدي البوعبدلي، التعريف بالكتب والمخطوطات، مرجع سابق، ص25.
[5]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج03، ص112.
[6]- هنري تشرشل، المصدر السابق، ص46.

سيرها، وإعادته لأصحابه[1]. كما كان ركب الحج يتمهَّل في سيره أحياناً لانتظار بعض الحجاج المتخلِّفين من أجل السقاية في بعض المنابع.

وقد حدث في أحد المواسم أنْ انفصلت جماعة من الحجاج الجزائريين عن ركب الحج، بسبب خلافٍ بسيط وسوء فهم، وانضمُّوا إلى الركب الفزاني الليبي، فإذا بالركب الجزائري يُطيل النزول في إحدى المحطات الموالية، أملاً في لحاقِ أولئك الحجاج المتخلِّفين، فلما وصلت الجماعة إلى منزل الركب الجزائري فرِحَ بهم الحجاج كثيراً، وقالوا لهم: ما نزلنا إلَّا منتظرين أمرَكم[2].

وبما أنَّ حُرمة المرأة الجزائرية الحاجَّة من حَرمِ الركب كلِّه، فإنَّ الحجاج كانوا أخوفَ ما يخافون على نساء الركب، فيسألون أهاليهِنَّ عن أخبارهنَّ بين الفينة والأخرى، ويتوقف الركب عن السير إذا شعر بخطر محدق بالإبل الحاملة للنساء. وحدث مرة أن تخلَّفتْ عن الركب نسوةٌ مع محارمهنَّ لغرض خاص، فأُعلِنت في الركب حالةُ النفير، خوفاً عليهنَّ من كيدِ القبائل الماكرة في الطريق[3]. وفي حالةٍ تضامنية أخرى أصرَّت مجموعة من الحجاج على التخلُّف عن الركب، لأجل مساعدة عائلة وضعتْ إحدى نسائها مولوداً، ثمّ التحقَ الجميع بالركب بعد نزوله واستقراره بخيامه، فتلَقَّى الوالد التهاني من طرف الحجاج، والدعاء للمولود بالبركة[4].

وكان يحدث أن يُبادر حجاج الركب الجزائري إلى استقبال أو ضيافة حجاج آخرين لم يكونوا ضمنَه، فيصطحبونهم بصفة نهائية أو مؤقتة، مثل جماعة حجاجٍ من بلدة القرارة (نواحي غرداية)، كانت تريد الحج لكنَّها لم تُدرك الركب، فاستقبلوها في مدينة تونس[5]. كما رحَّب الركب الركب الجزائري بحجاج من المغرب الأقصى كانوا تائهين، بعد أن تخلفوا عن رِفاقهم، فبقوا مع الحجاج الجزائريين إلى أن اهتدوا إلى أثَر ركبهم[6]. وإضافةً إلى حمل الحجاج كان الركب يحمل معه الأمانات والودائع والرسائل من الجزائر وإليها، وفي ما بين محطات الطريق المتلاحقة.

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص170.
[2]- المصدر نفسه، ج02، ص376.
[3]- نفسه، ج02، ص09.
[4]- نفسه، ج01، ص434.
[5]- إبراهيم المصعبي، المصدر السابق، ص69.
[6]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص498.

لم يكن بعض الحجاج يتوانون في تقديم المبادرات الفردية، أو المساهمة في خدمات السفر اليومية، مثل نصب الخيام، أو جمع الحطب، أو إشعال النار للطهي، أو سلق طعام الغداء، أو إعداد الوجبات للعشاء، أو تحضير القهوة لبعض الحجاج المعتادين على شربها[1].

كما كان الركب الجزائري يوسِّع على أفراده في المأكولات، مع كلِّ مناسبة دينية يُحييها الحجاج بعيداً عن بلادهم، مثل عاشوراء والمولد النبوي الشريف وغيرهما. وحين يتجمَّع كلُّ ثلاثة أو أربعة حجاج لتناول الطعام معاً، فإنَّهم غالباً ما يدعون أحد فقراء الركب لكي يُشاركهم طعامهم، فهناك كثيرون يقطعون رحلة الحج دون أن يكون معهم المال الكافي، بل منهم من يسيرون مع الركب على أقدامهم طوال الطريق[2]!

ومن الذين غمَرهم إحسانُ الحجاج الجزائريين بمناسبة السفر إلى الحج أسيرٌ أيرلندي، كان قد أسلَمَ في الجزائر، وعاش بها، فتكفَّلت عائلة جزائرية بتكاليف حجِّه بمعيتِها، ليقوم هذا الأسير الأيرلندي بخدمتها في الرحلة إلى الحج، عرفاناً منه بصنيعها[3].

لقد تخطَّى الإنفاق الجزائري حدود طريق الحج ليتجلَّى كرمُ الحجاج الجزائريين بالحرمين الشريفين، حيث اشتهر حاجٌّ جزائري يُدعى "علي العِنَّابي" بالعطاء والسخاء مدةَ مجاورته بمكة المكرمة في إحدى السنوات، وعمَّ فضلُه الجميع، ومنهم الرحالة المغربي العياشي الذي وصفه قائلاً: "…. وكانت فيه سخاوةُ نفس ودماثةُ خلُق، قد نالَ غيرنا من المجاورين وأهل مكة من معروفه أكثر ممَّا نالَنَا، ولقد طوَّقَني من مِنَّته ما عجزتُ عن مكافأته إلاَّ بالدعاء له"[4].

بالإضافة إلى ما ذكرنا فقد كرَّس الحجاج الجزائريون صوراً أخرى للبُعد الإنساني، هذه المرة في التعامل مع الإبلِ رواحلِ السفر، إحداها هي إرسالهم لمجموعة من الأحمال والأمتعة عبر البحر مع بعض الحجاج، من ميناء طرابلس إلى ميناء الإسكندرية، بعد أن لاحظوا أنَّ الإبل قدْ عُطبتْ من جرَّاء حملها فوقَ طاقتها، وقد أصابها الضعف لقلة القوت، فخفَّفوا عنها بذلك[5]!

---

[1]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص69.

[2]- المصدر نفسه، ص70.

[3]- نفسه، ص70.

[4]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص161.

[5]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص410.

02. حوادثُ الوفاة في ركب الحجِّ الجزائري:

سادَ في العصور الماضية المثلُ الشعبي القائل: "الماشي للحج مفقود والراجع مولود"، للدلالة على أنَّ حدوث الوفاة في رحلة الحج الشاقة والخطيرة ـ بكلِّ المقاييس والأبعاد ـ أمرٌ مألوف، وأنَّ العائد منها كمَنْ كُتِب له عُمرٌ ثانٍ! لذا كان بعض الحجاج يحتاطون للأمر بكتابة وصاياهم قبل سفر الركب، ويُعيِّنون فيها من ينوب عنهم في التكفُّل بأولادهم وأرزاقهم[1].

وفي أحد مواسم الحج كان عدد الوفيات من الحجاج الجزائريين قد تجاوز العشرات، والركب لما يتجاوزْ بعدُ محطة مصر، وقد أشار إلى تلك النكبة الرحالة الورثلاني دونما تحديد لعدد الوفيات قائلاً: "ماتَ مِن الحجاج مَن ماتَ، مِن الرجال والنساء"[2]! لكنَّ إطلاقَ التعبير "…. مَن مات" وإدراجَ النساء أيضاً ـ وهنَّ أقلُّ عدداً من الرجال ـ دليلان على أن عدد الأموات كان معتبراً. بلْ لقد أضحى عدم حدوث أية وفاة في الطريق هو الاستثناء المثير لاستغراب الحجاج، والجدير بالتحدُّث عنه. من ذلك ما نقله الرحالة الفلاني قائلاً: "…. وخرجنا على بركة الله من القاهرة ووصلنا فزَّان، ولم يمُتْ أحدٌ من الرفاق"[3]!

إنّ الموت في طريق الحج واحدٌ لكنَّ أسبابه متعددة، منها اعتداءات اللصوص، وحوادث الطريق، من سقوط أو برد أو حرارة أو عطش أو طاعون وغيرها، وما ينتج عن اختلاف مياه الطريق وتلوُّثها، من أمراض وأوبئة شتّى، على رأسها مرض الإسهال. هذا المرض الذي لطالما اشتكى منه الحجاج الجزائريون، ومات بعضهم ضحيةَ الإصابة به.

وممَّن مات بمرض الإسهال أميرُ منطقة زواوة المدعو "سيدي محمد بن القاضي"، فقد اشتدَّ عليه المرض في المدينة المنورة، فعزمَ أنْ يُقيم بها ويودِّع الركب لظنِّه وقوع الموت! لكن أصحابه أقنعوه بالسفر رجاءَ الشفاء، ولما لم يتحقق ذلك واصلَ رحلته مُقعَداً محمولاً على محفَّة، حتى وافاه أجلُه في الطريق قرب الينبُع، وذلك في مستهلِّ سنة 1180هـ/1766م. وكان قبل وفاته استدعى عالمين اثنين من الركب، ليُشهِدَهما على وصيته، فأطلَعهما على مكان حفظِ مالِه وجميعِ مستلزماته

---

[1]- من أمثلة تلك الوصايا وصية الحاج محمد آغا لزوجته "كريمة" أو جارها السيد "أحمد شاوش"، وقد توفّى الحاج المذكور في سفره لأداء الحج موسم 1040هـ/1631م عن زوجةٍ وأربعةِ أولاد. يُنظر: خليفة حماش، الأسرة....، مرجع سابق، ص77.

[2]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص230.

[3]- الفلاني القبلاوي، المصدر السابق، و03.

وحوائجه، وبعد وفاته ـ في طريق العودة ـ توقَّف الركب لأجل تجهيزه وتكفينه، وحفر قبره والصلاة عليه، ثم قاموا بتعليمِ قبره بحسابِ المرحلة التي قطعوها[1].

وفي حالات نادرة تكون الوفاة بسبب القتل الخطأ من طرف بعض العساكر الجُفاة، كما في الحالة التالية، التي تُبيِّن شدَّة عسكر الحجاز وغِلظتهم في التعامل مع حجاج متخاصمين على إحدى عيون الماء. نقلَ الرحالة الورثلاني تلك الحالة قائلاً: ".... بلْ على أقلِّ شيء يقتلون العبد، ولقد قتلوا صاحِبَ أخينا في الله سيدي محمد بن قسُّوم الرِّيغي، على شربةِ الماء!"[2]

لكنَّ أشدَّ الأوقات على الحجاج الجزائريين وأكثرَها دراماتيكيةً هي لحظة حضورهم جنازة أحد الحجاج المتوفَّين على ظهر السفينة، حيث يُعرض على لوح خشبي بعد غسله وتكفينه والصلاة عليه، ثم يُرمَى الميت في البحر بعد ربطِ رجليه بكمية من الحديد لإغراق الجثة، كي لا تطفو على سطح الماء[3]. وهو مشهد مؤثِّر يصعب على الحجاج نسيانه! وفعلاً لقد تمَّ في أحد المواسم إلقاءُ عشرين جثةً في البحر المتوسط، ممَّن ماتوا بسبب إصابتهم بالطاعون الساري بين الحجاج الجزائريين، إثر صعودهم من ميناء الإسكندرية، حيث كان الوباء قد استشرى بها[4].

لا يمكن بأي حال من الأحوال جمع واستقصاء جميع حالات الوفيات الحادثة في الركب الجزائري، لذا نكتفي بذكر نماذج متباينة عن حوادث الوفاة في طريق الحج، هي في معظمها لأعلامٍ مشهورين، أو لأشخاص برزوا في الرحلة إلى الحج، على النحو التالي[5]:

*وفاة الشيخ "محمد الفكون" والد الشيخ عبد الكريم الفكون (شيخ الركب الجزائري) على شاطئ البحر الأحمر قرب بندر المويلح سنة 1045هـ/1635م. وقد عُلِّمَ قبره ببناء، وواظبَ بعض الحجاج المغاربة على زيارته والتبرُّك به، كلما مرُّوا من هناك[6].

1- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص ص:119-121.

2- المصدر نفسه، ج02، ص362.

3- هواري قبايلي، المرجع السابق، ص250.

4- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص75.

5- لمزيدِ النماذج عن حالات وفاة الجزائريين في رحلة الحج. يُنظر الجدول المعَدّ ضمن الملاحق المرفقة بالبحث.

6- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص286.

*وفاة حاج اسمه "محمد" في درب الحجاز سنة 1180هـ/1766م، وأصله من مدشر أسامة (نواحي بجاية). وقد وصفه من كان معه بأنَّه "رجلٌ صالح مُديمٌ للصوم، كثيرُ الصمت، قليلُ الاضطراب، لا ترى عليه إلا آثار الخير دائماً"[1].

*وفاة الشيخ "عبد الرحمن بن عمر التنلاني" أحدِ أعيان وعلماء منطقة توات بمدينة القاهرة سنة 1189هـ/1775م. فصلَّى عليه جميع من كان في الركب، إضافة إلى ألوفٍ من المصلِّين من مصر، ودُفن بمقبرة سيدي عبد الله المنوفي وصيةً منه[2].

*وفاة الشيخ "مصطفى الغريسي" جدِّ الأمير عبد القادر في برقة الليبية عند معطن ماء يُعرف بعين غزالة سنة 1212هـ/1797م، وقبره فيها شهير، يتبرَّك بزيارته الكبير والصغير[3].

*وفاة سريّة (جارية)، كان أحد الشيوخ يصطحبها معه، بالقرب من مدينة قابس التونسية، مما اضطرَّ الركب إلى التوقُّف عن المسير لفترة طويلة، من أجل تجهيزها ودفنها. يقول عن تلك الواقعة الرحالة المصعبي[4]: (الطويل)

هُنَالِكَ قَدْ ماتتْ لِشَيخٍ سَرِيَّةٌ فظَلَّ بِتَجهيزٍ إلَى الشَّمسِ ضَاحِيَا

ومن محاسن الأقدار أنَّ معظم حوادث الوفاة قد وقعتْ في رحلة العودة، أي بعد أداء مناسك الحج. هذا بالإضافة إلى عشرات الحجاج المتوفين أثناء المجاورة بالحرمين الشريفين، أو في الأقاليم القريبة من الحجاز بعد زيارتها أو الاستقرار بها، مثل: الشام ومصر واليمن والعراق.

وقد أسهَمَ وجود منصب وكيل الجزائر بمصر (بالإسكندرية غالباً) في نقلِ تركات وأموال الحجاج الجزائريين المتوفين بمصر إلى ذويهم بالجزائر، ثمَّ أصبحت مَهمة صيانة أملاك وأموال الحجاج المتوفين بمصر موكلة إلى "بيت مال الجزايرلية"[5]، الذي أقرَّهُ الأمراء المماليك المصريون

---

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص171.

[2]- الفلاني القبلاوي، المصدر السابق، و03.

[3]- محمد بن عبد القادر الجزائري، المصدر السابق، ج02، ص302.

[4]- إبراهيم المصعبي، المصدر السابق، ص70.

[5]- **بيت المال** عند العثمانيين هو المكان الذي تُحفظ فيه تركة الميت الذي لا وارث له، أو من لم يُعيَّن له وارثٌ بعد، وإذا لم يظهر لهذه التركة وارث خلال خمس سنوات تؤول ملكيتها تلقائياً إلى بيت المال، وإنْ ظهرَ لها وارثٌ أخذ بيتُ المال عن التركة ما نِسبتُه واحد على أربعين (2.5 %) من قيمتها نظيرَ حفظها. يُنظر: سميرة فهمي علي عمر، المرجع السابق، ص219.

منتصفَ القرن 12هـ/18م[1]. ولم يكن الركب الجزائري كذلك يغفل عن زيارة قبور الحجاج الجزائريين المتوفين فيما سبق من المواسم، والدعاء لهم بالرحمة والمغفرة.

03. سلوكياتٌ وعادات سيّئة من بعضِ الحجّاج:

الحجاج ضيوفُ الرحمن أَوْلَى الناس بِلباسِ التقوى والعفَّة والزُّهد، إلا أنَّ سفرَهم محاطٌ ببعض السلوكيات الفردية أو الجماعية المسيئة لأشخاصهم وسمعتهم. منها ما يُبديه الحجاج بقصدٍ، ومنها ما يتمُّ عن غير قصدٍ. ذكرَ بعضَها الرحالةُ العامري التلمساني ناصحاً الحاج[2]: (الخفيف)

لا تُفارِقْ جماعَةَ الشَّيخِ كَيْ لاَ تَسْتَبِدَّ بِتِيهِكَ التُّيَهَاءُ
واعتقِدْ أنَّ ذاكَ آخِرَ حَجٍّ فَتَحَفَّظْ مِمَّا بهِ البَأْسَاءُ
مِثْلَ زُورٍ وغَيْبَةٍ ونَمِيمٍ بِيسَ لِلمَرءِ هَذِهِ الأَشْياءُ
وكَذَا كَذِبٌ وعُجْبٌ وخَمْرٌ وفُسُوقٌ وسُمْعَةٌ ورِياءُ

لقد كانت مهمة ضبط الحجاج وتنظيمهم أكبر تحدٍّ يواجه الركب، نظراً لكثرة أعدادهم، وتقارب المحطات والمنازل، وما يحيط بها من نزول وقيام. فهناك نموذج لحجاجٍ لا يسيرون بسيرِ شيخ الركب، ولا ينزلون بنزوله، فهم متمردون على النظام، ويغضبون إذا نهاهُم أحدُ الحجاج عن ذلك، الأمر الذي يؤدِّي ـ لا محالةَ ـ إلى الهرج والمرج في القافلة، بسبب أنانية البعض وتعصّبهم، وسعيهم لإحراز السبق باستمرار[3]. وغالباً ما كان يقع تدافع الحجاج الجزائريين وتسابقهم إلى الآبار وغُدران الماء، فيشتدُّ التنافس ويظهر الشقاق. من أمثلة ذلك أنَّ حجاجاً تسابقوا إلى غديرٍ صغير في منطقة قلَّما يوجد بها الماء، وكلٌّ منهم رغبَ في السقي أولًا، فأدَّى ازدحامهم على الغدير إلى أنْ صار الماء طيناً، ولم يُوفِّ أحدٌ مقصودَه منه[4]!

وفي عادةٍ سيئة أخرى تكرَّرت من طرف الحجاج المغاربة في درب الحجاز، قامت مجموعة من الحجاج الجزائريين بمغادرة الركب، وتسابقوا لصعود جبل "الرمل الكبير" المشرف على "بدر"، رجاءَ أنْ يسمعوا صوت ضرب الطبل المدوي؟ فقد أُخبِروا بأنَّه يُسمع في كلِّ موسم حج في مكان

[1]- حسام محمد عبد المعطي، المرجع السابق، ص75.
[2]- محمد المنوني، المرجع السابق، ص92.
[3]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص67.
[4]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص433.

حدوث معركة بدر الكبرى، تعبيراً عن نصرة أهل الإيمان على الكفار في تلك المعركة، رغم أنَّ حجاجاً آخرين أكَّدوا لهم أنَّه لا يعدو أنْ يكون صوت طبل ركب حج متأخِّر، أو رجع صدى حوافر الدواب[1]! كما قام حجاج من الركب في الرصيف الحجازي بجمع بعض القطع النقدية والشموع، ثم أرسلوها في البحر على لوح خشبي إلى ضريح أحد الأولياء الصالحين، المدفون في جزيرة صغيرة نائية بالبحر الأحمر. راجين وصولها إليه[2]!

والأمرُ المشينُ في السفر ـ رغم ندرتِه ـ هو نشوب الفتنة بين الحجّاج الجزائريين داخل الركب ذاته، مثلما حدث في حجَّة 1179هـ/1766م، حيث تعارك حجاجُ بلدتَين تنتميان إلى طائفتين متخاصمتين مِن قبلُ بالحجَر والعصيّ، مما أدَّى لحدوث الفرقة والنفور في الركب، لولا تدخُّل بعض الفضلاء من الحجاج الذين نجحوا في الإصلاح بينهم[3]. وحين عاودَ الحجاج الهرج وظلمَ بعضهم بعضاً في درب الحجاز غضب حجاجٌ مسالمون واغتاظوا من ذلك، فأقسموا بالله أنْ لا يبيتوا معهم ليلتَها، وامتطوا بِغالهم متوجهين نحو الركب المصري الذي كان قريباً منهم[4].

كما كان يصلُ اللغو والجدال إلى داخل المسجد الحرام، بسبب تصرفات بعض الحجاج السيئة. وذلك ـ مثلاً ـ حينما يُفتح باب الكعبة المشرّفة لتعليق الكسوة الجديدة وإزالة العتيقة في يوم النَّحر لمدة قصيرة، فيتزاحمُ الحجاج على الباب، ويحصلُ لكثير منهم حينَها سوءُ أدبٍ من ضربٍ وشتمٍ بألفاظ يُنزَّه المكان منها[5].

ومن تلك السلوكيات داخل المسجد الحرام أيضاً أنَّ حاجاً جزائرياً أحسَّ بالتعب بعد الطواف، فجلس ومَدَّ قدميه اتجاه الكعبة المشرفة، فإذا بحاج تركي بجانبه يوبِّخه قائلاً: "لقد تعبتَ كثيراً وتكلَّفتَ كثيراً حتى وصلتَ هنا، لكنَّك بمدِّكَ قدميك نحو الكعبة المشرّفة ترتكب عملاً غيرَ وقور!"[6]. وممَّا كان يُعاب على الحجاج جميعِهم في ذلك العهد هو رمي المخلَّفات والأقذار في كلِّ

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص205.

[2]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص43.

[3]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج01، ص440.

[4]- المصدر نفسه، ج02، ص242.

[5]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص321.

[6]- جوزيف بتس، المصدر نفسه، ص64.

مشعرٍ أو مزارٍ تحطُّ فيه رِكابهم. بل لقد تكدَّست أوساخُهم ـ ذات موسمٍ ـ في المسعى بين الصفا والمروة، وعلى مداخل أبواب المسجد الحرام ذاتِه![1].

وهذا الرحالة الحضيكي يُنبِّه الحاجَّ الجديد إلى سلوك خطير، ابتُلي به بعض الحجاج المغاربة أثناء تسوُّقِهم مع النساء البدويات المتبرِّجات، يقول الحضيكي: ".... اتَّقِ الله يا أخي، فلا تبِيعنَّ شيئاً من ذلك للنساء المفتِنات، واحذرْ ما تفعلُه عامَّةُ الحجاج وسفلتُهم من مخالطتِهم مع نساء العرب، ومعاملتِهم لهنَّ، واختلائهم بهِنَّ، ومضاحكتِهم معهُنَّ. إيَّاكَ!"[2].

إنَّ تلك السلوكيات والممارسات السيئة قد تؤدِّي بالحاج إلى الوقوع في المحرَّمات، فيحبط عمله المحفوف بالنَّصَب من يوم طلوعه إلى يوم رجوعه. ويصدق فيه قولُ الشاعر[3]: (الوافر)

حَجَجْتَ البَيْتَ لَيْتَكَ لاَ تَحُجُّ ومِنْكَ الرَّكْبُ فِي الآفَاقِ ضجُّوا
وَرُحْتَ بِحَمْلِ أَوْزارٍ ثِقَالٍ فَعُدْتَ وَفَوقَ ذَاكَ الحِمْلِ خَرْجُ

المبحث الرابع: تواصلُ الركبِ الاجتماعي الإنساني مع مجالِه

01ـ في البوادي والبنادر:

تُعتبر البوادي والبنادر المعَدّةُ لنزول ركب الحج إحدى المواطن الأساسية التي ترتادها قبائل العرب (البدو الرحل) باستمرار، حيث تَلقى الخير الكثير بنزول الركب بإزائها. فالأسواق التي يُقيمها الركب مع "الأعراب" بيعاً وشراءً هي المجال الرئيس لالتقاء الطرفين وحدوث التواصل بينهما، سواء في بُعدِه التجاري أو في بُعدِه الإنساني. ورغم أنَّ الحجاج تكرَّرت شكواهم من إذاية بعض البدو للركب، إلا أنَّهم لا يجدون بُدّاً من مخالطتهم، فهم سلاح ذو حدَّين كما بيَّنَ الرحالة السجلماسي في الحالة التالية المرتبطة بأعراب بلدِ الزّاب: ".... وكسَدتْ سلعُ الحجاج التي جلبوا من سجلماسة بِقصدِ البيع هنا، لغِيبة الأعراب، ولكنَّا حمدنا الله على ذلك، لأنَّ مضرَّتَهُم أكبرُ من نفعِهم، فإنَّهم تَكثُر إذايتُهم للركب، ويَهُمُّون بنَهبِه"[4]؟

1- إبراهيم المصعبي، المصدر السابق، ص79.
2- محمد الحضيكي، المصدر السابق، ص88.
3- ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، و19.
4- الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص208.

ومن الآثار السلبية لذلك التواصل المتجدِّد كلَّ موسمٍ بين الطرفين معاينةُ الحجاج للنساء البدويات الفاتنات في قُراهُنَّ ومضارب قبائلهِنَّ، بحكمِ ضرورة التعامل معهنَّ أثناء التسوُّق في أغلب الأحيان، ونتيجةً لعادات القبائل العربية المحاذية لمسار الركب المتساهلة حيالَ ذلك. وقد اشتهرت محطتان بدويتان بهذا الخصوص هما: بلدة "عين ماضي" الجزائرية (نواحي الأغواط) وبندر "عيون القصب" في درب الحجاز، ومن محاسن الصدف أنهما ترمُزان معاً إلى العيون، التي تغنَّى بها بعض الرحّالين من الحجاج في سفرهم إلى الحج![1]. وذلك رغم قدسية ووقار تلك الرحلة، وتحذير الشيوخ للحجاج من كيدِ النساء أينما كانوا، في البوادي أو الحواضر[2].

لكنَّ فتنةَ النساء البدويات المتزيِّنات في أسواق الركب لم تَعُدْ لوحدها مَثار استغراب، فقد اندهش الحجاج الجزائريون في أحد المواسم من أهل قريةٍ يغتسلُ رجالُها ونساؤها في مجرَى وادٍ واحدٍ، دون سترٍ أو حشمة!، فما كان من بعض الحجاج سوى أن قاموا برمي جميع المغتسِلين في ذلك الوادي بالحجارة، حتى فرَّ جُلُّهم[3].

ومن المحطات البعيدة الموغلة في الصحراء الكبرى، والتي استقطبتْ أنظار الحجاج الجزائريين إليها، قرية "زويلة" قاعدة إقليم فزّان الليبي القديمة، حيث زارَ الحجاج فيها "سبع قبَّات"! وهي قِبابٌ زعَمَ أهلُ تلك القرية أنَّها تضمُّ قبور ورفات مَنِ افتَتَحها من الصحابة والتابعين منذ القرن 01هـ/07م، دون أنْ يُعيِّنوا للحجاج أسماء هؤلاء الفاتحين السبعة[4]؟

---

[1]- وصَفَ أحدُ الرحالين نساء "عين ماضي" بـ "ذواتِ العيون الفَواتِر، الحادّةِ مثلَ السيوفِ البَواتِر" مُستشهِداً: (الوافر)

عَيْنُ مَاضِي بِهَا عُيونٌ مَوَاضٍ فَاعِلاتٌ فِعْلَ السُّيوفِ المواضِي

وقُدودٌ تَزْهُو إذَا قَدَّتِ القَلْبَ ازدِهَاءَ الأغْصَانِ بَيْنَ الرِّياضِ

ووصفَ آخرُ نساء بندر "عيون القصب": "ورأينا مُجاوراً لتلكَ العيونِ نسوةً من العرب يُوصَفنَ بِحُسْنِ العيونِ" مُنشِداً: (الرمل)

قَدْ وصَلْنَا لِعُيونِ القَصَبِ واسْتَرَاحَ القَلْبُ بَعدَ النَّصَبِ

وتَشَوَّقْنَا لِشَادٍ مُطْرِبٍ يَتَغَنَّى بِعُيونِ القَصَبِ

يُنظر: ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، و32. أيضاً: أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص222.

[2]- حذَّرَ الشيخُ الورثِلاني الحجاج من فتنة نساء تونس كذلك: ".... وهُنَّ يزُعْنَ مَنْ فُتِن، نَعَمْ تونس مَنْ لم يكن على حذرٍ فيها من النساء زَلَّ في مَهواةِ الضلال، وسقط في مَفازة الهلاك". يُنظر: الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص312.

[3]- المصدر نفسه، ج01، ص267.

[4]- عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، و11.

كما أبدى الحجاج إعجابهم الكبير بقرية "سيوى" على الحدود مع مصر، ذات التمر الجيّد، وبصفة أخصّ بأهلها الذين أخبروا الحجاج بأنَّهم يولّون أمرهم لاثني عشر شيخاً من أجلَّاء شيوخهم، لهم سياسة وشهامة، فلا يجسُرُ عليهم أحدٌ من الأعراب ولا من غيرهم[1]! وهي تجربة بدوية رائدة في مجال الحكم والإدارة والسياسة.

وكان يحدث في السفر أنْ يُبادر أهل البوادي والقرى إلى توجيه الحجاج الجزائريين للسقي من منابع الماء، وتحذيرهم من العيون الضارة أو المالحة، وكذا إعلام الحجاج بما يسُرُّهم من أخبار رخاء أسواق المدن وخصب الطريق[2]. ففي إحدى الحالات تلقَّى جماعةٌ من "العرب" الحجاج الجزائريين في أطراف قريتهم، وطلبوا منهم الدعاء، وحين ارتاب بعضُ الحجاج منهم خاطبوهم مُطَمْئِنين لهم: "لا تخافوا فلا بأسَ عليكم، ولا ضرَرَ لديكم"[3].

وفي الريف المصري تعرَّف الحجاج الجزائريون على نهر النيل عن كثَب، وعلى مصبَّيه الرئيسيين في رشيد وفي دمياط، وشاهدوا بلْ شاركوا الفلاحين المصريين سعادتَهم بفيضان النيل، وإقامتهم الأفراح بعد انحسار مياهِه، التي غمرتْ الأرض أربعين يوماً[4]. غير أنَّ الحجاج هالَهُم حجم العمارة المتصلة على ضفاف النيل بمقدار مسيرة الشهر، وشكوى الفلاحين لهم من احتقار وإهانة الجند الأتراك، فهم يضربون ظهورهم، ويُصادرون أموالهم وأراضيهم![5].

وتُعَدُّ بِرْكةُ الحاج من نقاط التَّماسِ المباشر بين الحجاج الجزائريين وغيرهم، نظراً لخروج الجميع إليها، حجاجاً لمواصلة السفر، وسكاناً للتنزُّه ومُرافقة المحمل. كما يتعارف الحجاج بحجاج الشام في محطة رابغ، حيث يُخيِّمون بالقرب منهم، ثمّ ينفضون أخبيتهم ويرحلون قبلهم.

وعلاقات الحجاج في رحلة الحج لم تكن مقتصرة على المسلمين فقط، فقد التقى الحجاج الجزائريون في إحدى سفرياتهم بنصارى مصر الأقباط، منعزلين في كنائس بوادي الرّهبان في الريف الغربي المصري، لا يدخُلُ عليهم أحدٌ من غير جنسهم، وليس لهم زرعٌ ولا ضرعٌ، وإنما تأتيهم

[1]- عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، و14.

[2]- المصدر نفسه، و09.

[3]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص118.

[4]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص28.

[5]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج02، ص23.

الكسوة والطعام من نصارى المدن القريبة منهم، ولكنْ لما مرَّ الحجاج بقربهم في العودة أشرفوا عليهم وحاوروهم، وسألوهم عن حالهم مع رحلة الحج، وعن أخبار القاهرة كيف تركوها؟[1].

ومن أروع قِيَم التواصل الإنساني قيام الركب الجزائري في عودته من الحج بإجلاء قبائل بدوية ليبية فقيرة، من بنغازي إلى مصراتة، وقد أنهكها الجوع والعوز والخوف، فضيَّفهم بعض الحجاج طيلةَ السفر في حدود طاقتهم، وآثروهم على أنفسهم رغم المشقَّة والخَصاصة، حتى أصبح يتجمَّع أمام كلِّ خيمة من خِيام الحجاج ـ أثناءَ النزول ـ الستون سائلاً أو مسكيناً من أولئك البدو[2]. لقد ظلَّ ركب الحج المتنفَّس الهام لقبائل البدو الأعراب رغم إساءاتهم المتكرِّرة لأفراده.

02ـ في المدن والحواضر:

تُعتبر المحطة المصرية أهمَّ المحطات الحضرية في طريق ركب الحج، نظراً لميزاتها من جهة، وطول فترة الإقامة بها في الذهاب وفي الإياب من جهة أخرى. فمصر (القاهرة في القصد) في نظر المغاربة هي: "أُمُّ البلاد شرقاً وغرباً، الجامعة بين الخير والشرّ، لأنَّ مجتمعها متنوِّعُ الأجناس، وقاصدها يجد فيها رغبته ومُناه، فمن طلبَ جنساً وجد منه فوق ما يظنُّ، فيعتقد أنَّ غالب أهل البلد كذلك"[3]! كما يجد الحجاج ضالتهم في معالمها الشهيرة، كالأزهر والقلعة والفسطاط ومشهد الإمام وجامع ابن طولون والأهرام والأسواق الشعبية وزوايا أهل العلم والأدب والأخبار....[4].

والقاهرة ـ كما وصفها أحد الحجاج ـ مدينةٌ آهلةٌ بالمساجد والجوامع، يصلُ عددها زهاء خمسة آلاف مسجد، وفي معظمها توجد آبار تزوِّدها بالمياه، وثمةَ رجال معيَّنون يجلسون عند نوافذ المساجد لتقديم الماء لكل عابر، وتُزيَّن مآذن المساجد وشرفاتها عند حلول شهر رمضان بمصابيح كثيرة مبهِرة في جمالها[5]. ويشجِّع الحجاجَ على زيارة أحياء القاهرة والتواصل مع مجتمعها وجودُ

---

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص231.

[2]- المصدر نفسه، ج03، ص238.

[3]- ذكر الرحالة المغربي العياشي في رحلته أنَّ أحد الحجاج أُخبِرَ بأنَّ أربعة أشخاص اجتمعوا في بيتٍ واحدٍ بالقاهرة ليلاً، وهم: تاجرٌ، وطالبُ علم، وصوفيّ، ومسرِفٌ على نفسه من أهل المجون. فتحدَّث كلُّ واحد منهم بما رآه في النهار، وبأنَّه وفَّى غرضه ممّا أراد. فتعجَّبوا ممَّا سمعوا، وبدا لهم كأنَّ مدينة القاهرة إنما جُعِلتْ لذلك الغرض دونَ غيره. ينظر: أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص222.

[4]- أبو راس الناصري، فتح الإله، مصدر سابق، ص115.

[5]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص33.

عائلات جزائرية من قسنطينة والجزائر وتلمسان ووهران، استقرَّت في مدينتي القاهرة والإسكندرية منذ مطلع القرن 10هـ/16م، منها عائلات: قسنطيني وابن منديل وبن قريش والقرموني وبوزيان وبونهار والصباحي والحناوي والوهراني والصباغ والسايح والتمراني وشعلان....[1].

إنَّ وجود تلك العائلات وتواصل بعض الحجاج الجزائريين معها، بالإضافة إلى "اجتماعية" البعض الآخر من الحجاج، ومبادراتهم الشخصية، كلُّها مثَّلت ظروفاً مثالية لإقامة الركب بارتياح، وتحفيز أفراده على التواصل بمحيطه المؤقت، فيزور الحجاج مسلِّيات المدن المصرية، ويُشاهدون عجائبها المتعددة. ومن عجائب مصر ـ والعالم بأسره ـ التي أصرَّ بعض الحجاج الجزائريين على رؤيتها أهرامات الجيزة، حيث اندهشوا من شكلها وضخامتها[2].

وقد نزل بعض الحجاج الجزائريين بالقاهرة ضيوفاً على نقيب كسوة الكعبة المشرفة، في أحد المواسم، واطَّلعوا على ظروف نسج الكسوة الشريفة، وأخبرهم النقيب (أو شاوش الكسوة) بأنَّ كسوة الكعبة المشرفة تقام كلَّ سنة بمبلغٍ اثنين وعشرين ألف كيس من الدراهم، ويُكلِّف المحمل الذي توضع فيه سبعة أكياس، كلُّ ذلك من رِيعِ الأوقاف المخصَّصة لهما[3]. ويومُ خروج المحمل والكسوة من القاهرة نحو بِركة الحاج يومٌ مشهود، يجمع بين الحجاج والسكان في مشهدٍ عظيم، وصفه الرحالة ابن مسايب التلمساني قائلاً[4]: (المديد)

شَاوَشْ المِحْمَلْ وَالكَسْوَه تَبَّعْتَهْ رْجَالْ ونَسْوَه
مَا بْقَاتْ الدَّنْيَا تَسْوَى عَندْ نَاسْ لاَ تَهْوِيهَا

وتوجد بمدينة القاهرة أسواقٌ لبيع الإماء والجواري على اختلاف أصولهنَّ وأعمارهنَّ، ويُقبِلُ على شرائهنَّ ميسورو الحال من الحجاج، كما فعل شيخ الركب الجزائري ذات موسم، حيث قام بشراء أَمَةٍ علجية أوروبية من أحد الأسواق، بمبلغٍ كبير من سكَّة ذلك العصر الفضية[5]. كما انتشرت في أحياء مدينة القاهرة بعضُ بيوت الخَنا والبِغاء، فهناك شوارع معينة ومواضع خاصة بهذا

[1]- حسام محمد عبد المعطي، المرجع السابق، ص76.
[2]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و04.
[3]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص46.
[4]- Ben Messaib, Op.cit, p280.
[5]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر نفسه، و04.

النوع من البيوت، تسكنها بائعاتُ الهوى، اللائي يَقِفنَ أمام أبوابها بكلِّ جرأة، ويَهدِفنَ إلى الإيقاع بالرجال العابرين وإدخالهم لهذه الأوكار[1]!

لم يكن الحجاج المغاربة ليرضوا بشيوعِ الفاحشة أثناء تواجدهم في مصر، خاصة إذا كانت ممارستها تتمُّ قريباً من أماكن نزول أركابهم. فقد نقلَ "الجبرتي" في تاريخه من حوادث سنة 1202هـ/1788م الفتنة التي وقعت بين الحجاج المغاربة النازلين على شاطئ النيل في بولاق، وبين عسكر أحد المماليك، بسبب تعاطي العسكر المنكرات الشرعية مع بعض النسوة جهاراً! وحينما نَهاهُم الحجاج عن ذلك أطلقوا عليهم النار، فثارَ عليهم الحجاج، وتبعوهم إلى مراكبهم التي فرُّوا إليها، ومسكوا من مسكوه، وذبحوا من ذبحوه ورموه إلى النَّهر[2]! وهو ما نستشِفُّ منه شدَّة الحجاج المغاربة في النَّهي عن المنكر، ورفضهم لأيِّ سلوكٍ دنيء مُدنِّسٍ لمسارِ حجِّهم.

وممَّا يدلُّ على جرأة الحجاج الجزائريين في تفاعلهم مع مستجدَّات محيطهم أنَّ وفداً منهم أصرَّ على لقاء شريف مكة الأمير "مساعد بن سعيد" (ت1184هـ/1770م)، طلباً لتعويض إبلهم التي أغار عليها عربُ الحجاز عند إحدى الآبار، فاستقبلهم الأمير "مساعد" بفرح شديد لما علِم أنَّهم أهلُ علمٍ، وأنَّهم من "عَمالة الجزائر"، وسلَّمَ عليهم بتقبيلِ الكتف للكتف، ووعدهم بإرجاعِ إبلهم التي ضاعتْ منهم، سائلاً منهم الدعاء له ولذريتِه[3].

وفي مكة المكرمة لا تكاد تُميِّز الدُّور التي تستقبل الحجاج الجزائريين عن دُور غيرهم من الساكنين فيها أو القادمين إليها، إذْ تقوم كلّ جماعةٍ منهم بكراءِ دارٍ ينزلون بها، ويكون لقاؤهم واجتماعُهم في المسجد الحرام[4]. وبسبب حرارة المدينة الشديدة كان بعض الحجاج ينامون فوق أسطح المنازل ليلاً، مستخدمين قطعاً من القماش يَظلُّون يُبلِّلونها بالماء المرَّة تلو الأخرى[5].

ويتميَّز أهل الحرمين الشريفين ببعض العادات التي أثارت انتباه الحجاج، منها التهنئة بحلول الشهر، أيِّ شهر كان، ولا يُقصرونها على الأعياد وما شاكلَها، فيهنِّئ الواحد منهم أقاربه

1- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص32.

2- عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج02، ص248.

3- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج02، ص327.

4- المصدر نفسه، ج02، ص328.

5- جوزيف بتس، المصدر نفسه، ص49.

وأصحابه في أول يوم من كلِّ شهر[1]! ومن عادات أهل المدينة المنورة في الزواج أنْ يُؤتى بالعريس ليلةَ الدخول إلى باب المسجد النبوي بعد العشاء، يحيطُ به جماعة من أقاربه يحملون الشموع، فيدخل ويسلِّم على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويدعو ثم يخرج، ومن هناك يزفُّونه إلى بيتِ العروس في دار أهلها، فإذا أصبح الزوج ذهب إلى بيته، وأخذ في إطعام الناس طعامَ الوليمة، وجاء الناس لتهنئته، وفي الليلة المقبلة تأتي الزوجة من دار أهلها إلى دار الزوج![2].

وكان تواصلُ الحجاج بالمدينة المنورة مع فئةٍ مميَّزة تتولَّى خدمةَ الروضة الشريفة والمسجد النبوي، إنَّهم عبيدٌ أغوات موقوفون على ذلك، لا يشاركهم غيرهم، وشيخُ الحرم المدني هو كبيرهم. و"الآغا" يقصدون به هناك الخصيَّ من العبيد، أو "الطواشي" كما يُسمِّيه المشارقة، فيتوزَّع هؤلاء الطواشيَّة بين جنبات المسجد النبوي في نظامٍ شديد، إذْ لكلٍّ واحد منهم رتبة معلومة وشغل معلوم. وسببُ تفضيل وقف الطواشية أو الخصيان لكونهم أنزهَ وأطهرَ من دنس الجنابة ومباشرة النساء، ويزيد عددهم بالمسجد وينقص بحسب كثرةِ الرَّاغبين في الوقف وقلَّتِهم[3].

وقد يقوم البعض من المغاربة بإرسال عدد من هؤلاء العبيد الخصيان مع أركاب الحج إلى الحرمين الشريفين تحبيساً، وذلك على مذهبي الحنفية والمالكية الذين يجوِّزون هذا النوع من الوقف[4]. ولا غروَ إذاً أنْ نجد للحجاج الجزائريين السَّبق في هذا الأمر، فنذكر ـ مثلاً ـ أنَّ أحد شيوخ قبيلة "أولاد سيدي الشيخ" بالسهوب الجزائرية الغربية حجَّ وأوقفَ غلاماً خصياً على المسجد النبوي الشريف اسمه "يحيى"، فأصبح ذلك الغلام يُنسبُ إليه، وترقَّى في المناصب، حتى وصل رتبة كبير الأغوات لاحقاً[5].

ونظراً لوجود قبور شهداء أحد بالقرب من المدينة المنورة فإنَّ الحجاج الجزائريين رافقوا أهل المدينة في خروجهم المعتاد كلَّ يومِ خميس لزيارة قبر سيدنا حمزة ـ رضي الله عنه ـ وبقية الشهداء،

---

[1]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص441.

[2]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص82.

[3]- ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص550.

[4]- لا يرى الشافعية والحنابلة صحة هذا النوع من الوقف، على خلاف الحنفية، وقد ألَّف الشيخ الحافظ جلال الدين السُّيوطي (ت911هـ/1505م) كتاباً بخصوص خدمة هؤلاء "الطواشية" في المسجد النبوي، سمَّاه "حُرمةُ خِدمةِ الخِصيان لِضريحِ سيِّدِ ولدِ عدنان". يُنظر: محمد بن عمر التونسي، المصدر السابق، ص263.

[5]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج01، ص459.

وزاروا مَشهدَه الذي وُضع له بابٌ مصفَّح بالحديد، وبُنِيَتْ عليه قبّة عالية متقنة، في بناء متَّسع، يحوي بئراً وأخلية للوضوء متصلة بالسطح[1].

شكَّلتْ "الملاقيَّة" التي كانت تُقام لأركاب الحج عند عقبة أيلة في الدرب الحجازي فضاءً من فضاءات اجتماع الحجاج بالسكان الحضر من أهل الشام وغزّة ومصر، وتُنصب أثناءَها سوق كبيرة بين الحجاج ومستقبِليهم. أمَّا سكان مدينة القاهرة فإنَّهم كانوا يستقبلون الحجاج بالفول والدقيق وأصناف الطعام الأخرى، فيخرجون إلى برِكة الحاج لملاقاة الركب المصري والجزائري وغيرهما، والتبرّك بمقابلةِ الحجاج العائدين من الحرمين الشريفين، لأنَّ الأركاب تصلُ إلى البِركة تباعاً، فتمتلئ الطريق منها إلى القاهرة بالأخبية والخيام والأسواق[2].

ولا يلقى ركب الحج الجزائري من الودِّ والضيافة في سائر المدن التي يحلُّ بها مثل الذي يلقاه في مدينة طرابلس الليبية، حيث يفرح الفضلاء والأعيان من ساكنة المدينة ونواحيها بمَقدم الركب الجزائري، ويُكرمون وِفادته، ويُنافسهم في ذلك عامَّةُ أهلها، ذلك ما شهِد به الرحالة المجاجي في حجَّتِه، فقال[3]: (الطويل)

طَرابلُس المعْلُومُ بِالجُودِ أَهلُها وَفِيهَا رَجُلٌ مَشْهُورٌ بالوِلايةِ
وأهلُها أيضاً ضَيَّفوا الرَّكْبَ كُلَّهُ وَقَدْ أَبْذَلوا مجْهُودَهُمْ بِالكِفايَةِ

فالكثيرون من الحجاج في ذلك الزمان كانوا يُكْبِرون في أهل طرابلس شغفَهم برؤية ركب الحج ، وإتيانَهُ أفواجاً أفواجاً، فهم في نظر الحجاج الجزائريين أهل اعتقاد ومحبَّة، يتبرّكون بالحجاج، ويطلبون منهم الدعاء. وقد ألْفَوا مرَّةً الحجاج الجزائريين جائعين نَهِمين للأكل، بسبب الجفاف وطولِ السفر ونفاد الزّاد، فأطعموهم اللحم والخبز والتمر والفطير (المسمن)[4].

لذلك كان الركب الجزائري يُقصِر في السير أحياناً لأجل الراغبين في ملاقاته وإكرام وفادته، من أهل إيالة طرابلس الغرب. وكذلك الشأن بالنسبة لإيالة تونس، فقد أثنى الحجاج على كرم أهلها في مناسبات كثيرة، رغم أنَّ مدينة تونس بالذات لم تكن محطة ثابتة في سفر الركب.

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص35.
[2]- أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص193.
[3]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و05.
[4]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج03، ص249.

المبحث الخامس: عاداتُ استقبال الرّكب ودورُه في الإخبار

01. مظاهرُ الفرح والسرورِ بمَقدمِ الركب الجزائري:

إنَّ زمنَ غياب ركب الحج عن وطنِه الجزائر كبير جداً، حتى أنَّهم قالوا عن أركاب الحج في أمثالهم: "غُدُوُّها عامٌ ورَواحُها عامٌ"[1]! ونظراً لحجم المتاعب والمشقَّات التي كان الحجاج الجزائريون يُعانون منها في سفرهم ذهاباً وإياباً، وظروف رحلة الحج المحاطة بالمخاطر من كلِّ جانب، فقد أصبح أهالي الحجاج يتلهَّفون إلى عودتهم سالمين، وكأنّهم عائدون من دار حرب وقتال!. إذْ تَقصُرُ العبارة عن وصف مظاهر الفرح والنُّزهة والسرور بمن قدم من الحجاج سالماً.

كان أهلُ القُرى والمدن الجزائرية يستقبلون الحجاج بالطبول والمزامير، وإقامة الولائم والأفراح، وتجديد واجهات المنازل وفرشِها، لا فرقَ في ذلك بين أمير وفقير. وحيثما حلَّ الركب يلقى الضيافة والبشاشة من لدُن سكان القرى والمدن التي تملأ طريقه، بدءاً من مداخل البلاد الشرقية، فيزدحمون رغبةً في الوصول إلى الحجاج إلى درجة "النَّهَم للتقبيل والمعانقة"[2]!

من نماذج الكرم والقِرى الذَين دأب عليهما سكان المدن والقُرى الجزائرية في ملاقاة ركب الحج العائد، خروجُ أهل "الزريبة" الواقعة على الطريق بين توزر والزّاب لإيقاف سير الركب، من أجلِ نزوله عندهم وإطعامِه، والسلامِ على أمير الركب بصفة مُلِّحة[3]. أمَّا أهل "برج زمورة" من القبائل الصغرى فقد خرجوا عن بكرة أبيهم لاستقبال الحجّاج، ببنادقهم وغيرها من ألعاب الترفيه والفرح، ثمّ انقسموا على أنفسهم طوائف، كلُّ طائفة تريد أن تُطعمَ الحجاج، وتعرض عليهم المبيت عندها، حتى وصلَ تنافسُهم إلى درجة الفتنة والهرج بسبب ذلك، ثمّ آلَ الأمر في الأخير إلى إحدى الطائفتَين غلَبةً وقهراً[4]؟

كما كان أهل "القنادسة" البعيدين عن منافذ دخول الركب يستقبلون الحجاج الجزائريين الواصلين، والمغاربة العابرين، بسباقِ الخيل وضرب البارود، إظهاراً للفرح والسرور[5].

---

[1]- محمد بن الخوجة، المصدر السابق، ص264.

[2]- لوسيت فالنسي، المرجع السابق، ص109.

[3]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و07.

[4]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص374.

[5]- ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص732.

لم يكن بمقدور ركب الحج حينها أن يجدَّ في السير داخل إقليم إيالة الجزائر، حيث يمتلئ الوعرُ والسَّهلُ بالناس البسطاء الذين يرغبون في رؤية الحجاج، واغتنام البركة، وطلب الدعاء منهم، لما وردَ من أنَّ دعاء الحاجِّ مستجابٌ ما دام في الطريق ولو طالت[1]. وتتماثلُ صورُ العادات في استقبال الحجاج، وتتشابَهُ في كامل أرجاء البلاد، من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها، ضربٌ ولعبٌ بالبارود، وذبحٌ للأنعام، وضيافةٌ لجميع الحاضرين.

ففي ضيافةٍ عظيمةٍ على شرف حجاج الغرب الجزائري بسهلِ غريس "..... ذُبِح خلالَ هذه المناسبة خمسةَ عشر بقرة وثمانون شاة، وحضر الضيوفُ من كلِّ الدرجات والطبقات، كلَّ ساعةٍ من جميع الأنحاء، تلقائياً ودون دعوة.... وهكذا مرَّت الأسابيع الواحد تلو الآخر، وما زال الضيوف الجدد يصلون باستمرار، لينضافوا إلى سَيلِ الولائم العام"[2]! ويطول أمدُ الضيافة واستقبال المهنِّئين بسلامة العودة من الحج إذا كان الحاج من عِليةِ قومِه، معروفاً في ما جاورَها.

وعلى ذكر أمَدِ الضيافة فإنَّه قد يتجاوز المعتاد، فيتضاعف عددُ الزوار والمهنِّئين أضعافاً كثيرة، وهذا الرحالة الورثلاني يصفُ أجواء التهنئة بالحج عند الجزائريين في النصف الثاني من القرن 12هـ/18م قائلاً: ".... تأتي إلينا الوفود من كلِّ وطنٍ، تبلغ تارةً ألفاً، وتارة أكثر من ذلك نحو ألف وأربعمائة، ثمَّ كذلك على حسبِ القِلة والكثرة، إلى أن انقطعوا في مدة طويلة نحو الشهرين"[3]! وهي كلُّها علامات تؤكِّد مدى ارتباط الجزائريين بركب الحج والحجاج.

لا يغفل الحجاج الجزائريون هم كذلك عن إكرام أهاليهم ومستقبِليهم بهداياهم من ماء زمزم، الذي يجلبونه معهم في قوارير من صفيح أو نحاس أصفر، فيتلقَّاه الناسُ بامتنانٍ كبير وفرحٍ غامر، ويرتشِفون منه قليلاً، ويمسَحون ببقيتِه وجوههم ورؤوسهم، ويرفعون أيديهم بالدعاء، طالبين من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يُتيح لهم فرصة الحج إلى بيته العتيق[4]. فالحجُّ يُغيِّر أخلاق وأحوال قاصديه من المسلمين نحو الأفضل، ويدفعهم إلى مداومة التوبة والاستغفار.

---

[1]- في حديثٍ مرفوعٍ عن ابنِ عمر أنَّ النبيَّ ـ صلى الله عليه وسلّم ـ قال: "إذَا لقِيتَ الحاجَّ فسلِّمْ علَيهِ وصافِحْهُ ومُرْهُ أن يستغفرَ لكَ قبل أن يدخُلَ بيتَه فإنَّه مغفورٌ له".

[2]- هنري تشرشل، المصدر السابق، ص47.

[3]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص385.

[4]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص58.

02. المخاطر الصحية الناجمة عن أَوْبةِ الحجّاج الجزائريين:

أ ـ حالات انتشار الأوبئة بسبب عودة الركب:

رغم مظاهرِ الفرح وصورِه المتنوعة في استقبال ركب الحج الجزائري إلا أنَّ ذلك الفرح كان يشوبُه أحياناً بعضُ القلق من إمكانية نقل الحجاج العائدين لأمراض خطيرة مُعدية يصعب علاجها، فمحطاتُ ومسارات تنقُّل الحجاج أضحت بمثابة خطوط ناقلة للعدوى[1]! وبالفعل فقد أصيبت ـ مثلاً ـ سفينة جزائرية كانت على وشك إجلاء الحجاج من ميناء الإسكندرية بعد موسم حجِّ 1091هـ/1680م بالطاعون، وذلك بسبب صعود بعض الأشخاص المصابين به من مدينة الإسكندرية، التي كان منتشراً بها في ذلك الوقت، فسرَى الطاعون بين الحجاج، فشُفي في الطريق بعضٌ ممَّن أُصيبوا به، ولم يُشفَ آخرون[2].

لقد ساهمَ ركب الحج بالإضافة إلى مراكب البحَّارة وقوافل التجار في توسيع دائرة عدوى أمراض خطيرة مثل: الكوليرا، التيفوس، الجذري، السُّل وغيرها[3]. وكانت بوادر الإصابة بالطاعون تظهر على جسم الحاج الجزائري في شكل دمل وبثور (تقرُّحات) تحت الذراعين وعلى الساقين. وفي ظلِّ غياب الرعاية الطبية والأدوية الفعَّالة ـ آنذاك ـ فإنَّ محاولات العلاج كانت تتمُّ بأساليب تقليدية بسيطة، مثل شيِّ البصل وتغميسِه في الزيت، ثمَّ وضْعِه على الدمل المنتفخ[4]!

يُعتبر وباء سنة 1202هـ/1788م من أخطر وأعنف الأوبئة التي عرفتها مدينة الجزائر، فقد فتكَ بآلاف السكان. وقد ساهمت حركة الحجاج البحرية في نقله من مينائي الإسكندرية وتونس، حيث استقرَّ فيهما لفترة زمنية قبل انتقاله إلى مدينة الجزائر[5]. واستمرَّ فتك الطاعون بالجزائر بالموازاة مع عودة السفن الحاملة للحجاج في معظم مواسم حجِّ أواخر العهد العثماني بالجزائر، بل أصبحت مدينة الجزائر بؤرة انتشار الوباء في الأرياف وفي البلاد المجاورة.

---

[1]- لوسيت فالنسي، المرجع السابق، ص29.

[2]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص75.

[3]- لبصير سعاد: دوافع الهجرة العلمية والدينية من الجزائر في العهد العثماني، سوسيولوجية الهجرة، مرجع سابق، ص70.

[4]- جوزيف بتس، المصدر نفسه، ص76.

[5]- أرزقي شويتام: المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830م، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف أ د: عمار بن خروف، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2005-2006م، ص288.

ويُلاحَظ أنَّ ركب الحج البري كان أقلَّ حملاً للوباء مقارنة مع البحري، بسبب إحجامِه عن دخول المدن والمحطات الموبوءة، وبُعدِه النسبي عن نقاط التلاقي بالأجانب. وإذا حدث وتمَّ تسجيل حالاتِ وباءٍ داخل الركب فإنَّ الجميع يحتاط لأمرِ تعاملِه مع الحجاج. ذلك ما وقع للركب المغربي الموبوء أثناء عبوره أراضي الجزائر، فقد تجنَّبَه أهلُ الأغواط عندما قيلَ لهم: في الركب وباء؟ فلم يتركوا أحداً من الحجاج يدخل إليهم، ولم يخرج منهم أحدٌ إلى الركب، وكانوا يُنزِلون الزرع للحجاج من فوق السُّور، ويأخذون النقود ويغسلونها، ولا يتناولونها إلَّا بعد الغسل[1]!

ب ـ الحجرُ الصحي (الكرنتينة) للحجاج والموقفُ منه:

الكرنتينة أو الكرنتينا تعني الحَجْر أو الحجز الصحي لمدة أربعين يوماً، وأصل الكلمة فرنسي، ويُقال أنَّ أصلها إيطالي "Quarantina" بمعنى الأربعين، لأنَّ المسافرين القادمين للبلد من الخارج والمشتبه في نقلهم للمرض يُحجَزون في الحجر الصحي أربعين يوماً، حتى تثبت سلامتهم من الأمراض الوبائية[2]. وبدأ العمل بالكرنتينة في البلاد الأوروبية أولاً حسبما ذكَر حمدان خوجة[*]: "اشتهرَ في بلاد الفرنج الاحتماءُ عن الوباء، وأعَدُّوا لذلك موضعاً سمَّوه كرنتينة، وحقيقتُها إنما هي الاحتماء والاحتياط، وجعلوا ذلك في محلِّ دخول الداخلين إليهم، وألزَموهم بأن يمكثوا بتلك الأماكن إذا توهَّموا أنَّهم أتوا من بلادٍ بها الوباء إلى أنْ يتحقَّقوا انقطاع أثرها عنهم"[3].

يخضعُ الحجاج المسافرون بحراً للحجز أو الحجر الصحي في مينائي الإسكندرية وتونس، فالمركب القادم إلى تونس تعترضُه "الكرنتينة" إذا كان هناك شكٌّ في إصابة المسافرين بالطاعون، فيُعزَل رُكّابُه في قلعةٍ وسطَ البحر أربعين يوماً[4]، احترازاً من عدوى الوباء. وكان باشوات الجزائر قد

---

[1]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص546.

[2]- الشريف الزهار، المصدر السابق، ص185.

[*] **حمدان بن عثمان خوجة (ت1256هـ/1840م)** كاتبٌ سياسي كرغُلي، من طلائع الحركة الوطنية المقاوِمة للاحتلال الفرنسي، وُلد بمدينة الجزائر وبها نشأ وتعلَّم، زار مدن البلقان واسطنبول، وفرنسا التي تعلم بها اللغة الفرنسية. بعد الاحتلال تزعَّم حمدان خوجة أول حِراك وطني سياسي، عُرف بلجنة المغاربة. قارعَ الاستعمار الفرنسي بلسانِه وقلمه، إلى أنْ تمَّ نفيُه، فكان أول مناضل عربي مسلم يُطرد من وطنِه من أجل قضية وطنية. يُنظر: عادل نويهض، المرجع السابق، ص136.

[3]- حمدان بن عثمان خوجة: إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز عن الوباء، دار الطباعة السلطانية، اسطنبول، 1592م، ص16.

[4]- أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص282.

اعتمدوا قاعدة الحَجر الصحي على الحجاج العائدين خلال القرن 12هـ/18م، حيث تمَّ حجز سفينة قادمة من الإسكندرية، تقلُّ حجاجاً جزائريين سنة 1156هـ/1743م[1].

رغم أنَّ أمرَ "الكرنتينة" مبنيٌّ على مبدأ الاعتناء بالنفس، واستواء الجميع في ذلك، وعدم مراعاة الخواطر، إلاَّ أنَّها في نظر الرحالة "ابن طوير الجنة الشنقيطي" معتقَدٌ فاسدٌ، لأنَّ الموت لا يكون بالعدوى، وإنَّما بانقضاء الأجل كما هو معتقَدُ أهل السُّنَّة[2]. وفي نظر بعض الحجاج فإنَّ الكرنتينة بدعة شنيعة، ممنوعة عُرفاً وشَرعاً، يُقلِّد فيها المسلمون مسيحيي أوروبا.

لقد صبَّ الرحالة المغربي أبو القاسم الزياني غضبه على مسؤول ميناء تونس سنة 1200هـ/1786م، بسبب معاناة الحجاج المغاربة من الكرنتينة التي أجبرَهم على المرور بها، في حين تساهل مع بعض الأوروبيين الموجودين بالميناء. ورأى بأنَّها فعل شنيع، فقال[3]! (البسيط)

سَنَّ "الكرنطينةَ" الشَّنعَا بِبدعتِهِ   في بَلدةٍ هِيَ دارُ العِلمِ والأَدَبِ
يَحْسِبُهَا بِصَميمِ الجَهْلِ مُنْجِيَّةً   يَقِي بِها النَّفسَ مِن سُقْمٍ ومِن عَطَبِ

وبما أنَّ الحجاج ليسوا مسافرين عاديين، ولم يقصدوا بارتحالهم التجارة أو السياحة، بل هم ضيوفُ الرحمن، ومقصدُ الزائرين المتبرِّكين، فقد أعربَ عالمٌ جزائريٌّ عن رأيٍ حادٍّ بشأن الكرنتينة، يقول فيه: ".... قد كان الملوكُ والسلاطينُ المتقدِّمون يتلقَّون الحجاج، ويَخرُجون للِقائِهم والسلامِ عليهم وطلبِ الدعاء منهم، ويُهيِّئون لهم الضائفة ويُحسِنون إليهم. فآلَ الأمرُ إلى أنْ صارَ ملوكُ السُّوءِ يمنعون الحجَّاجَ من الدخولِ إلى أمصارهم، ويأمُرون بحبسِهم مُدَّةً في مكانٍ مخصوصٍ يسمُّونه بالكرنتينة، ويُبخِّرون ثيابهم بالكبريت، لِتزولَ منهم رائحةُ تلك المعاهدِ الشريفة! ويكشِفون أبدانَهم وعوراتِهم، وربَّما حرَّقوا ثيابَهم"[4]؟

03. ركبُ الحج ودورُه في الإعلام والإخبار:

يحملُ الحجاج الجزائريون العائدون إلى أوطانهم ذكرياتهم عن رحلتهم، وما شاهدوه أو سمعوه من أحداث وأخبار متعلِّقة بالحجاز خصوصاً، وبالمشرق عموماً. فيُدوِّن بعضهم ذلك ويحفظه،

[1]- لبصير سعاد، المرجع السابق، ص71.

[2]- Et-talib Ahmed Ben Towair Al-ganna, Op.cit, p221.

[3]- أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص364.

[4]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص22.

بينما ينقل البعض الآخر ذلك مُشافهة. والإحالاتُ العديدة لمصدرية أخبار "الحجاج" الواردة في مصادر ذلك العهد، كتاريخ الجبرتي ـ مثلاً ـ وغيره، تكفي للدلالة على أنَّ ركب الحج أضحى قناة إخبار وإعلام، بل وربط وتواصل بما يحدث في المشرق.

أ ـ الإعلام بأخبار الحجاز والمشرق:

اهتمَّ الحجاج الإخباريون كثيراً بأخبار الحرمين الشريفين، لاسيما ما تزامنَ منها مع موعد الحج، فنقلَ الرحالة المقَّري خبرَ نقصان عدد الحجاج في موسم 1035هـ/1626م نقصاناً جليّاً، مُرجِعاً ذلك إلى شدَّة الحرِّ غير المعتاد، وعليه فقد كانت الحَجَّة في غاية السكينة والاطمئنان، ونهاية الاستقرار والأمان[1]. ومن أخبارِ الحجِّ ما تعلَّق بوصفِ وسيرةِ حاكم الحجاز وشريف مكة "زيد بن محسن" (ت1077هـ/1666م)، وعدلِه وتواضعه ومحبَّةِ الناس والحجاج له، وثنائهم عليه لكونه من أحسن أمراء الحجاز سياسةً وحُسنَ تدبير[2].

كما نقل بعض الحجاج الرحالين وصفاً تفصيلياً وتخطيطياً للمسجد الحرام الواسع جداً في أواخر القرن 11هـ/17م، وكذا لأبوابه التي بلغت حوالي اثنين وأربعين باباً، تُفضي لممرّاتٍ مغطاةٍ بالحصى، باستثناء الممرّات المؤدية للكعبة المشرّفة فإنها رُصِفتْ بأحجارٍ عريضة، في حين زُيِّن المطاف بالرخام الرفيع والأعمدة الحاملة للمصابيح الزيتية. أمّا الكعبة المشرّفة فقد رُصِفت بدورها وعُطِّرتْ، وأُلبِستْ كسوة من حرير، مزخرفة بشريطِ حروفٍ ذهبية[3]. ويُفتح بابُ الكعبة المرتفِع يومَ قدوم الحجاج من مشعر مِنى لأداء طواف الإفاضة لمدَّةٍ قصيرة، ولا يُسمح بدخوله إلا للقيِّم وأمير الحج المصري وأتباعِهما المعيَّنين لذلك، ولِمن انتهز تلك الفرصة من الحجاج[4].

وبخصوص العبادة فقد ذكر حجاج بأنَّ صحن الحرم يمتلئ بالطائفين من الرجال والنساء بعد صلاة العشاء، حين توقد الشموع، غير أنَّ النساء يُشكِّلنَ دائرة بعد دائرة الرجال، أي الدائرة الأبعد من الكعبة، ويعطي الرجال للنساء فرصة تقبيل الحجر الأسود إذا كان الطائفون قليلين[5].

---

[1]– أحمد المقّري، رحلة المقّري، مصدر سابق، ص244.

[2]– أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص326.

[3]– جوزيف بتس، المصدر السابق، ص ص: 50-54.

[4]– الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص278.

[5]– جوزيف بتس، المصدر نفسه، ص47.

ويمكن الاستعانة بالدواب وركوبها في المسعى، بين الصفا والمروة، وذلك لمن له عذرٌ، أو عجزَ عن إتمام أشواط السعي بينهما في عُمرته[1]. أمَّا استخراج ماء زمزم من البئر الموجودة بالقرب من المقام فكان يتمُّ من طرف أربعة رجال، يستخدم كلُّ واحد منهم قِربتين جلديتين مربوطتين بحبلٍ إلى عجلة صغيرة، وبينما تدور العجلة ترتفع القِربة المملوءة وتهبط الفارغة[2].

ومن الأحداث التي وقعت في موسم الحج وتناقلَها الحجاج ـ متأسِّفين ـ فقدانُ مفتاح الكعبة المشرّفة سنة 996هـ/1588م من حِجر سادِنِها المسمَّى "عبد الواحد الشيبي"، وبعد أنْ ضجَّ الناس لسماع الخبر، أُغلقت أبواب المسجد الحرام وفُتِّش الحجاج، فلم يُعثَر على المفتاح، وكان مصفَّحاً بالذهب، ثم وجدوه لاحقاً مع أحد الأعاجم في بلاد اليمن، ومعه مسروقات أخرى فرَّ بها إلى هناك! فأُعيد المفتاح إلى سادِن البيت[3].

ومن الأخبار التي أدمَتْ مستمِعيها من الحجاج وعموم المسلمين في جميع البلاد غرقُ ألف شخص في مكة، وسقوطُ جانب كبير من البيت الحرام سنة 1039هـ/1630م، من جرَّاء السيول والأمطار التي لم يعرف لها الحرم مثيلاً. وقد كتب أحدُ المؤرِّخين الحجاج بشأن ذلك الحدث الجلَل قائلاً: "…. وسقطَ بِناءُ البيت الشريف من الجوانب الأربعة، وانخسفتْ أرضُه حتى كان الأرفع، ولم يبقَ من بناء البيت إلا بابُه، وركنُ الحجر الأسود فإنَّه لم يسقط"[4]. فتألَّم المسلمون لِما حلَّ بالكعبة المشرفة، وتعاون الجميع في ترميم ما أصابَ الجدران.

كما كان ركب الحج وسيلةَ إعلام بالتطورات الأمنية الحاصلة على مستوى طريق العودة، مثل تجدُّد الصراع في مصر بين مماليكها البكوات، ومعاناة الحجاج الجزائريين منه. وما أصاب أهل برقة الليبية وقبائلها من جفاف ومجاعات أجْلَتْهُم عن أوطانهم، واضطرتْهُم إلى أكل الحشيش والنّبق مدة أربعة أشهر أو يزيد، وقد ابتعدوا بسبب ذلك عن الطريق التي ألِفَ الحجاج الالتقاء بهم فيها، وأنَّ بعضهم أصبح يغزو البعض الآخر[5].

---

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص290.

[2]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص57.

[3]- أحمد السباعي، المرجع السابق، ج02، ص399.

[4]- أحمد الرشيدي، المصدر السابق، ص181.

[5]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج03، ص234.

ومن جملة الأمور التي كان الركب يُخبِر بها بعد عودته كذلك وفياتُ الأعيان والعلماء المشهورين في الحرمين الشريفين أو في مصر أو في الشام، مع تمييز أصولهم ومذاهبهم الفقهية، على غرار الإعلام بوفاة أربعة من الأئمة العلماء المفتين بمصر المحروسة سنة 1014هـ/1606م، من الشافعية والحنفية والمالكية[1]. وإنْ كان هذا النوع من الأخبار لا يعني عامة الناس في ذلك العهد، بل كان يرغبُ في سماعه أو إشاعته نظراؤهم من الأعلام الجزائريين بصفة خاصة. فهذا أحد علماء الركب الجزائري يُخبر في أحد المواسم بموت عالمين جليلين من علماء الحجاز، ويذكر بعضاً من مناقبهما، أحدهما بمكة المكرمة، والآخر بالمدين المنورة[2].

إضافةً لما ذُكِر ساهم ركب الحج في تحقيق التقاء الحجاج الجزائريين المجاورين بالحرمين الشريفين مع الحجاج الوافدين الجدد، وسماعهم أخبار أهاليهم وبلادهم. دون أن ننسى حمل الأمانات والرسائل الشخصية والرسمية في الاتجاهين، من وإلى بلاد الحرمين الشريفين.

ب ـ صدى الحركة الوهابية في أخبار الركب:

لقد شكَّلت تطورات الحركة الوهابية بالحجاز وأخبار حروب آل سعود مع حكامه وحكامِ مصر[3] نموذجاً للأخبار التي فرضتْ نفسها على مشهد عودة الحجاج، وذلك نظراً لأهمية الحدث وخطورتِه من جهة، وطولِ فترتِه وتزامنِه مع مواسمَ حجٍّ متتالية من جهة أخرى.

لما اشتدَّ الصراع بين أنصار الوهابيين وحكام الحجاز، حاول شريفُ مكة "غالب بن مساعد" (ت1233هـ/1818م) استمالةَ الحجاج إلى صفِّه، وعرضَ على أمراء الأركاب بعد انقضاء موسم حج 1217هـ/1803م أن يساعدوه في مواجهة جيش السعوديين بقيادة الأمير "سعود بن عبد العزيز"، فلم يقبلوا ذلك العرض وغادروا مكة بعساكرهم، كما غادرها والي جدة العثماني، وبقي شريف مكة وحده في كرٍّ وفرٍّ مع السعوديين، حتى تمكَّنوا من السيطرة عليها[4].

---

[1]- عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص139.

[2]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص133.

[3]- لمعرفة تفاصيل ظهور الحركة الوهابية، وحروب الدولة السعودية الأولى مع أشراف مكة، والحملات العسكرية العثمانية المصرية ضد الزعماء السعوديين، يُنظر: هارفُرد جونز: موجز لتاريخ الوهَّابي، ط01، ترجمة: عويضة بن متيريك الجهني، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، 2005م، ص68 وما بعدها.

[4]- أحمد السباعي، المرجع السابق، ج02، ص562.

عادَ الحجاج الجزائريون والمغاربة وهم يُخبِرون باستيلاءِ الوهابيين على الحرمين الشريفين، وهدمِهم للقباب، مثل قُبة آدم وقِباب ينبوع والمدينة المنورة، ومنعِ التبرُّك بكسوة الكعبة المشرّفة، وإبطال شرب الدخان و"النارجيلة" من الأسواق. كما أخبرَ الحجاج بحرقِ الوهابيين للمحمل المصري، وتحذيرهم الحجاجَ من الإتيان به أو بالطبول والمزامير والأسلحة، بلْ و".... ذكروا أنَّ الوهَّابي (أي سعود الكبير) نادى بعد انقضاء الحج أنْ لا يأتي إلى الحرمين بعد هذا العام (1221هـ/1807م) من يكون حليق الذَّقن!.... وأمرَ بإخراج الواصلين إلى مصر"[1].

وقد نقلَ بعض الحجاج المغاربة من "ممنوعات" الإمام سعود ما أثارَ امتعاضَهم، لشيوعِه في ذلك العصر بينهم، فوصفوه بأنَّه " يُخيفُ أهلَ الحرمين، ويمنعُ زيارة الأنبياء والتوسُّل بهم إلى ربِّ السماوات، وينهَى عن قراءة دلائل الخيرات، والدعاء بمقامات الأولياء أهلِ الكرامات!"[2].

وعلى نفس المنوال وصفَ الرحالة ابن الدين الأغواطي الوهابيين وصفاً أشدَّ تشخيصاً، فقال: ".... وهم يؤمنون بمعرفة الله وحده ولا يَدْعون للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما أنَّهم لا يقرؤون دلائل الخيرات، وإذا وجدوه عند أي شخص فإنَّهم يضربونه ويحرقون الكتاب، وهم لا يتسامحون مع التسبيح، فإذا وجدوا السبحة عند أحدٍ يعاقبونه، وهم يعتبرونه مُشركاً، ولذلك يدعونه إلى التوبة إلى الله"[3]! يظهر من هذه الشهادة أنَّ البعض بَدَا متأثِّراً بالدعاية التي نشرها خصومُ الوهابيين ضدَّهم في ذلك الزمان[4].

لقد قام أمراءُ أركاب الحج كذلك بحملِ مجموعةٍ من رسائل آل سعود وخطاباتهم إلى البلاد المغاربية، مركّزين بصفة خاصة على تونس والمغرب الأقصى! ضُمِّنتْ تلك الرسائل الحُجج والمسوِّغات بشأن حركتهم وأفعالهم التي ردَّدها الحجاج. فكان الردُّ على تلك الرسائل من طرف العلماء المغاربة بالحُجج والأدلَّة، مع أركاب الحج المسافرة كذلك[5].

---

[1]- عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج04، ص89.

[2]- أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص389.

[3]- ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص267.

[4]- من تلك الدعاية الشائعة أنَّ الوهابيين أقدَموا على حفرِ قبر النبي ـ صلى الله عليه وسلَّم ـ ونهبوا الذخائر والنفائس التي تراكمتْ في الروضة الشريفة على مدى قرون. ممَّا أدَّى إلى تزايُد غضب الحجاج على دولة السعوديين الناشئة. يُنظر: عبد الرحمن الجبرتي، المصدر نفسه، ج04، ص463.

[5]- أبو القاسم الزياني، المصدر نفسه، ص396.

ثمَّ استمرَّتْ المراسلات بين الجهتين عبرَ بوابة ركب الحج غالباً، فوصل إلى فاس كتاب عبد الله بن سعود المتغلِّب على الحرمين الشريفين بعد وفاة والده سعود الكبير، وكان الردُّ هذه المرة رسمياً من قِبل السلطان العلوي المغربي مولاي سليمان (ت1238هـ/1822م)*، الذي دخل بدوره في مناظرات كتابية مع آل سعود. غير أنَّ حجاجاً ممَّن حملوا تلك المكاتبات أخبروا بعد رجوعهم أنَّهم "مَا رأوا مِن ابنِ سعود ما يخالفُ ما عرفوه من ظاهرِ الشريعة، وإنَّما شاهدوا مِنه ومِن أتباعه غايةَ الاستقامة، والقيام بشعائر الإسلام، من صلاةٍ وطهارةٍ وصيامٍ، ونهيٍ عن المنكر الحرام، وتنقيةِ الحرمين الشريفين من القاذورات والآثام، التي كانت تُفعَل بهما جهاراً من غير نكير"[1].

وممَّا يؤكِّدُ وصول صدى الدعوة الوهابية إلى الجزائر وتفاعل البعض معها ذهابُ العالِم الرحَّالةِ أبي راس الناصري المعسكري إلى الحج في زمنِ اشتدادها، ومناظرتُه لشيوخ الوهابية بشأن المسائل التي أثاروها. يقول الحافظُ أبو راس الناصري في رحلته: ".... ولما ذهبتُ للحج سنةَ ستٍّ وعشرين (1226هـ/1811م) لقيتُ علماء الوهابية، وهم تسعة علماء أكابر جماهير، فوقعَ لي معهم مناظرة ومباحثة واعتراضات، وسؤالات، وأجوبة فائقات، ودلائل قاطعات، وأحاديث مروية عن أكابر الأئمة من الأمهات، ثمَّ تناظرنا بعد صلاة العصر قُبالةَ الحجر، في: صلاةِ العصر، وقراءةِ دليل الخيرات، والتسبيحِ بالسبحة، ومَشاهدِ السادات، وهدمِ مباني الأولياء ذوي الكرامات. فرجعوا عن البعض بعد الاستدلال بالنصوص العظيمة العميمة"[2].

إنَّ ذلك دليلٌ على صدى وتفاعل أعلام ركب الحج الجزائري مع الدعوة الوهابية في ذلك العصر، وصعوبة اقتناع الجزائريين بها في أول أمرِها[3].... ودليلٌ كذلك على التواصل الفكري الحضاري الذي كان يُتيحُه الانخراطُ في ركب الحج الجزائري.

---

* **المولى سليمان** بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل، أبو الربيع، من سلاطين الدولة العلوية، بويع سنة 1206هـ/1792م بفاس، استقرَّ له الملك بعد ثورات وحروب، كان عاقلاً محباً للعلم والعلماء. ينظر: الزركلي، المرجع السابق، ج03، ص133.

[1]- أحمد الناصري، المصدر السابق، ج08، ص121.

[2]- أبو راس الناصري، فتح الإله، مصدر سابق، ص119.

[3]- ذكرَ الباحث المرحوم عبد الحليم عويس أنَّ أولَ من حملَ الدعوة الوهابية إلى الجزائر هو المؤرِّخ أبو راس الناصري، بعد اجتماعه بتلامذة الإمام محمد بن عبد الوهاب في موسم الحجِّ، واقتناعِه باتجاه حركتهم؟ ولعلَّه يقصد حملَ أخبارِ الدعوة فقط. يُنظر: عبد الحليم عويس: أثر دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب في الفكر الإسلامي الإصلاحي بالجزائر، ط01، دار الصحوة للنشر، القاهرة، 1985م، ص13.

خلاصة الفصل الرابع:

نَخْلُصُ في نهاية هذا الفصل الرابع إلى أنَّ مسيرَ ركب الحج في عودته إلى الجزائر كان يختلف قليلاً عن مسيرِ الذهاب، وذلك من حيثُ الفترةُ الزمنيةُ التي تبدو أقلَّ، بسبب عزم الحجاج على العودة بسرعة، ومن حيث إصرارُ أهل المدن والقرى التي يمرُّ بها الركب على الترحيب بالحجاج وإكرامهم. والنشاط التجاري الذي يقوم به الحجاج عقِبَ الموسم مظهر من مظاهر التواصل مع بلاد الحجاز بأسواقها الكبرى، بالإضافة إلى الأسواق الموسمية المقامة على طول الطريق.

لاحظنا ممَّا سبق ذلك الترابط الاجتماعي الناشئ بين حجاج الركب، وتجسيدهم لأسمى صور التضامن والتآزر فيما بينهم، خاصة إذا ما تعلَّق الأمر بحوادث المرض أو الوفاة، أو الذود عن المحارم والشرف. فالركب مجتمع متنقِّل يسوده ما يسود بقية المجتمعات، ومنها بعض المظاهر والسلوكيات السلبية التي تُسيء لحُرمة الحاج، مثل التدافع والهرج ورمي الأوساخ في غير محلِّها وغيرها. بينما يتميّز هذا المجتمع المتنقِّل عن غيره بإقامتِه جسراً للتواصل الميداني المباشر ـ إيجاباً وسلباً ـ مع سكان المدن والحواضر المتتالية، وتكريسه للقيَم الإنسانية في علاقاته مع البدو الرحل في القرى والبوادي، التي كان يعبُرها الركب.

كانت عودة ركب الحج إلى الجزائر حدثاً سنوياً هاماً، تُقام له الأفراح والولائم، ويُحاطُ بِهالةٍ من الاحتفالات الشعبية، التي تطول مدتها ويتضاعف خلالها عدد المهنِّئين والزوَّار. وذلك رغم بعض التحديات التي كانت تُثيرها أوبةُ الحجاج أحياناً، وعلى رأسها المخاوف من جلب الوباء وانتشاره؟ والتي تجسدتْ أواخرَ العهد العثماني في اعتماد الحجر الصحي (الكرنتينة) بالمنافذ البحرية خاصةً. ولم تكن رحلة ركب الحج الطويلة والشاقة إلى الحجاز تنتهي بمجرَّد عودة الحجاج إلى بلدانهم، بل بعودتهم يبدأ فصلٌ آخر من فصولها عنوانُه الإخبار والإعلام بمشاهدها ومشاهداتها، وأحوالِ المشرق وأخبارِ أعلامه، وتطوُّرِ الأحداث المختلفة المحيطة بمجالها.

الفصل الخامس:
الإشعاعُ العلمي والفكري للركبِ الجزائري

- تمهيد
- المبحث الأول: العطاءُ العلمي لأعلام الحجِّ الجزائريين
- المبحث الثاني: المُثاقفةُ مراكزُها وتوجُّهاتُها في رحلة الركب
- المبحث الثالث: تأثُّر ركب الحج بالمَناخ الفكري السائد
- المبحث الرابع: مظاهرُ الاستئناس والغرائبية في سَفَر الرَّكب
- خلاصةُ الفصل الخامس

الفصل الخامس: الإشعاعُ العلمي والفكري للركبِ الجزائري

يُخصَّص هذا الفصل الخامس للحديث عن نشاط متميِّز يمثِّل نِتاج رحلة الركب الجزائري إلى الحج، المحلاَّةِ بوجود العشرات من طلبة العلم والعلماء الأعلام ضمنَها. إنَّه العطاء العلمي والفكري الذي يُخلِّفه مسيرُ الركب ثقافةً ومُثاقفةً، فالحج لم يكن في ذلك الزمان شعيرة دينية فحسب، بل كان فرصة سانحة للحجاج من أجل تكريس نشاطهم العلمي. وهو نشاطٌ من نوع خاص، يظلُّ إشعاعُه مستمراً لعقودٍ وقرون، رغم انقضاء موسم الحج وعودة الركب إلى بلدِه الجزائر.

وعليه يبحث الفصل الأخير في ماهية العطاء العلمي للعلماء الجزائريين المنخرطين في ركب الحج، من خلال مزاوجتهم بين الحج والنشاط العلمي. وكيف نجح معظمهم في تبوُّءِ مكانة علمية رائدة في بلاد المشرق بعد انقضاء موسم الحج؟ وما تأثيرهم الثقافي على المحطَّات العلمية التي كانوا يرتادونها في سفرهم للحج، أو أثناء مجاورتهم بالحرمين الشريفين أو بالجامع الأزهر بمصر؟ وهل أدَّى ركب الحج دوراً واضحاً في التعريف بالعلوم والمصنَّفات الجزائرية بالمشرق العربي؟

كما يتطرَّق هذا الفصل إلى مدى تأثُّر ركب الحج الجزائري بسيادة الطرق الصوفية الطاغية تأثيراتُها على منطلَقِه وطريقِه ومقصدِه، وما مظاهر ودلالات ذلك التأثّر؟ وكذلك إلى التنوُّع المذهبي الحاصل بالمشرق آنذاك، وكيف تفاعلَ الحجاج الجزائريون والمغاربة المالكيون أصلاً مع ذلك الواقع الجديد، الذي طغى عليه التوجّه المذهبي الرسمي للدولة العثمانية؟

ثمَّ ما هي أهمّ القضايا الفكرية أو الفقهية المستجدَّة في تلك الفترة، والتي أثارت انتباه الأعلام من الحجاج الجزائريين في معرض سفرهم؟ فقد أضحَتْ بعض المسائل والنوازل الفقهية مثارَ جدل فكري حادٍّ بينهم، يُساهمون في إثرائه بالحجج المنطقية والأدلة القطعية، ويؤلِّفون الرسائل والتصانيف لأجل ذلك في سفرهم، أو بعد مقدمِ الركب واستقرارهم في بلادهم.

ويُختمُ هذا الفصل الأخير باستعراض الجانب الخفيّ في سفر الركب الجزائري، المتمثِّل في بعضِ مظاهر الاندماج في رحلة الحج والاستئناس بيومياتها وأحداثها، ومحاولة إيجاد مُتنفَّسٍ للترفيه والترويح عن النفس من طرف الحجاج. وكيف كان هؤلاء يتعاملون مع المواقف المحرِجة أو الطريفة التي كانوا يُصادفونها في سفرهم؟ وهل وجدت الطُّرفة أو النُّكتة مكاناً لها في رحلة الركب إلى الحج؟ تلك الرحلة الشاقَّة من بدايتها إلى نهايتها!

المبحث الأول: العطاءُ العلمي لأعلام الحجِّ الجزائريين:

01. المزاوجة بين الحجِّ والنشاط العلمي:

مثَّلتْ الرحلة لطلب العلم في ذلك الزمان أحدَ البدائل التي أوجدَها الجزائريون لتعويض تقصير الحكام العثمانيين الثقافي، فأضحَتْ بذلك مَنقبةً ومفخرةً لصاحبها، لذا حرص الجزائريون على إقرانها برحلة الحج. ولا تكاد تطَّلع على تراجُمِ وسِيَرِ الأعلام من الجزائريين ـ زمنَئذٍ ـ إلاَّ قابلتكَ العبارات التالية: "رحلَ إلى المشرق وحجَّ"، أو "أخذ عن علماء مصر والشام والحرمين"، أو "أخذ عنه جماعةٌ من علماءِ المغرب والمشرق". يقول المرحوم أبو القاسم سعد الله عن أهمية الحج وقيمته في منظور النخبة الجزائرية من أعلام العهد العثماني "…. والحجُّ عندئذ ليس مجرد أداءٍ للفريضة، ولكنَّه تعلُّمٌ وتعليم، وسياحةٌ واطِّلاع، ومشاركةٌ في كثير من جوانب الحياة…. "[1]. والحجُّ أيضاً عند بعض المؤرخين والمفكِّرين بمثابة "مؤتمر عالمي للفكر الإسلامي".

لم يكن الحجاج ينتقلون في سفرهم من بلدٍ لآخر إلاَّ سألوا عن عالمٍ يكشف كربة أو أديبٍ يؤنِسُ غربة. والبداية بالداخل قبل الخارج، فمثلاً التقى حجاجٌ جزائريون في أحدِ مواسمِ حجِّ القرن 12هـ/18م بمجموعةٍ من علماء مدينة قسنطينة، حفظتْ رحلةُ الحج أسماءهم: قاضي المالكية إبراهيم الضرباني وقاضي الحنفية شعبان بن جلول، والمفتي الشيخ علي الشريف، وقاضي الجماعة المنطقي المفسِّر عبد القادر الراشدي، والشيخ الصالح يحيى اليعلاوي، والأديب النحوي أحمد الزين…. وعلي الزموري وأحمد العلمي وعبد الله التومي وعلي بن سعيد والطاهر بعداش ومبارك بن بوقرانة ومحمد الشليحي ومحمد بن نزار وعلي الشريف بن منصور وأحمد بن الأحمر وأحمد بن وادفل وعلي بن الكيرد ومحمد العنتري….[2]. هؤلاء جميعاً في لقاءٍ قسنطينة فقط، فما بالك بمقابلة علماء بقية المدن والحواضر المنتظِمة على طريق الحج، داخلَ الجزائر وخارجَها؟

كانت البلاد التونسية أول محطَّة علمية يقصدُ مدارسَها ومعاهدَها الحجاج الجزائريون، فيمكث بها الركب لمدة قليلة لأجل الراحة، ولزيارة علمائها المشهورين كذلك، لاسيما من بلغ درجة التأليف منهم، كأحدِ العلماء التونسيين، وقد سمع عنه الحجاج أنه تعرَّض لشرح مختصر

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، رائد التجديد ....، مرجع سابق، ص36.

[2]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص363.

الشيخ خليل في الفقه المالكي، فأصَّروا على زيارته أثناء طلوعهم إلى الحجاز[1]. وفي الديار المصرية كان الحجاج يقصدون مواطن العلم والتدريس، ويُزاحمون طلبتَها والطلبةَ الوافدين عليها من مختلف البلدان بالرَّكب[2]. أمَّا بلادُ الحرمين الشريفين فكانت معاهد مفتوحة أمام الحجاج، تفِدُ عليها الكتب والمؤلَّفات، وتُتبادل فيها الرسائل والإجازات. وما يُحيط بركب الحج من نشاط علمي يشمل رحلة الإياب كما الذهاب، والبلدات الصغيرة كما المدن الكبيرة. يقول الرحالة الورثلاني عن ذلك: " ....وفي الرَّجعة اجتمعنا بهذه البلدة مع علماء الوقت، كالفقيه الأديب سيدي سالم وإخوانه وطلبته، وقد عمَّر أوقاتَه بتدريس العلم نحواً وفقهاً"[3].

وفي المحطاتِ شبهِ الخالية ومقاطع السير الطويلة التي يتعذَّر فيها على الحجاج اللقاءُ بأهل العلم ومجالسِه يكون التعويل فيها على التحصيل المعرفي البَيني، أي داخلَ الركب وبين مكوِّناته من الحجاج. فيُبدي طلبة العلم منهم نَهَمَهم للسؤال والمعرفة، مستغلِّين وجود بعض الشيوخ ضمنَه، كما تُلازم الأسئلةُ الركب الغادي نحو المشرق نثراً وشعراً[4].

لقد ضرب بعضُ الحجاج الجزائريين المثلَ في قدرتهم على الجمع بين المقصدَين، الحجِّ والتحصيلِ العلمي، فهذا أحدهم يحجُّ خمسَ حجَّات، فيُدرِج بين كلِّ اثنتين زيارة علمية ميدانية لإحدى حواضر المشرق، مثل القاهرة ودمشق والقدس[5]! وهذا حاجٌّ رحّالة آخر يعترف ويفتخرُ بأنَّه ما حصَّلَ ما فاتَه من علومٍ ومعارف سوى بالمطالعة أحياناً، وبالرحلة إلى الحجِّ أساساً[6]. لذلك كان مبلغُ تأسُّف الحجاج ـ غايةَ التأسُّف ـ أن يمرُّوا على محطّاتٍ في طريقهم إلى الحجاز ليس فيها عالم يؤنَس إليه، ويكون التعويل عليه[7]؟

وكأنِّي بالحجاج الجزائريين ـ والحال تلك ـ يتأسَّفون على أوضاع بلادهم، وتقصير أتراك الجزائر في الجانب الثقافي، ويودُّون لو انتبهَ حكامُهم إلى أعمال نظرائهم في الإيالات الشرقية المجاورة. فقد

---

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص266.

[2]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و03.

[3]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج01، ص359.

[4]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص84.

[5]- أحمد المقّري، نفح الطيب، مصدر سابق، ج01، ص57.

[6]- عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص91.

[7]- أبو راس الناصري، فتح الإله، مصدر سابق، ص120.

أشاد حجاجٌ بحكّام تونس وأمرائها وأصحاب الدولة فيها لأنهم في نظرهم "صرفوا همَمَهم إلى العلم، وأقاموا منارات عدَّة، فبنوا المدارس وأوقفوا الأحباس وأعزُّوا العلماء"[1]؟

02. الأعلامُ من الحجّاج الجزائريين ومكانتُهم بالمشرق:

لا تكاد تخلو معظم مواسم سفر الركب الجزائري إلى الحج من نماذجَ لحجاجٍ جزائريين أعلام، اشتهروا بنبوغهم، وفرضوا أنفسهم ومكانتهم في أقاليم المشرق الإسلامي، وإنْ كانت أسماء البعض منهم لا زالت مجهولة لدينا، بسبب أنَّ كثيراً من الأعلام الجزائريين كانوا يُصنَّفون بالمشرق ـ في ذلك العهد ـ تحت مُسمَّى "مغاربة"، حيث كانت نسبةُ "المغربي" تشمل علماء المغرب الأقصى والجزائر وتونس وحتى طرابلس الغرب، فصار من الصعب تمييزُهم[2]. والجامعُ بين أولئك الأعلام جميعاً هو ركبُ الحج، إذْ يرجع إليه الفضلُ في شهرتهم العلمية وشيوع أخبارهم بالمشرق والمغرب. وهذه نُتَفٌ من مآثرهم بالدرجة الأولى، بناءً على زمن رحلاتهم إلى الحجّ وظروفها وعطاءاتهم إثرَها:

أ ـ الحاج علي بن ولي بن حمزة الجزائري (ت أواخر القرن 10هـ/16م): علي بن ولي بن حمزة الجزائري المغربي العالم النّابغةُ في علمِ الرياضيات (أمِّ العلوم العقلية)، المعروف بـ "النَّسَّاب"، وذلك لاشتهاره بالأمانة العلمية في إحالةِ ما اعتمد عليه من معلومات ومعارف إلى مصادرها، وقد درَّس في مدينة اسطنبول بفضل إتقانه اللغتين العربية والتركية، ثمّ عاد إلى الجزائر، ومنها توجَّه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج والمجاورة[3].

وفي مكّة المكرمة كان ابنُ ولي يُعلِّم الحجاج علم الفرائض والحساب، وألَّف فيها كتابه الرائد في الحساب، الموسوم بـ "تُحفة الأعداد لذوي الرُّشد والسَّداد"، ورتَّبه على مقدمة وأربع مقالات وخاتمة. كما اشتهر ابن ولي الجزائري بسَبقِه في حلِّ المسألة المكية (أو الهندية)[4]، التي عجزَ عن حلِّها علماءُ الهند، فطرحَها عليه أحدُ أمراءِ الحج الهنود أثناء مجاورته بالحرم المكي منتصفَ القرن

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص316.

[2]- المهدي البوعبدلي، الحياة الثقافية.... ، مرجع سابق، ص83.

[3]- عادل نويهض، المرجع السابق، ص124.

[4]- للاطِّلاع على تفاصيل هذه المسألة المكية، وعلى مظاهر نبوغ العالم الجزائري علي بن ولي بن حمزة في فروع الرياضيات، يُنظر: هدى الصادق ارحومة: عالمُ الرياضيات النسّاب ابن حمزة المغربي، المجلة الجامعة، جامعة الزاوية (ليبيا)، العدد الخامس عشر، 2013م، ص179.

10هـ/16م فحلَّها. واشتهرتْ بحوثُه في المتتاليات الحسابية والهندسية، فكانت الأساس الذي بُني عليه علم اللوغاريتمات في الرياضيات[1].

ب ـ الحاج أحمد المقَّري التلمساني (ت1041هـ/1631م): أبو العباس أحمد المقَّري من أشهر أعلام الجزائر العثمانية وحُفَّاظِها، جالَ المغرب أولاً ثمّ المشرق للحج والمجاورة. نزل في سفره للحج بمحروسةِ الجزائر، ولقيَ بها جماعة من الأعيان، منهم مفتي الحنفية الخطيب محمود بن حسين بن قرمان والأديب الرحالة الشاعر ابن راس العين[2]. وقد التقى المقري التلمساني بعلماء قسنطينة، ومدحَ عبد الكريم الفكون شيخَ الركب الجزائري قائلاً[3]: (الوافر)

وَدَامَ عَبْدُ الكَرِيمِ فَرْداً فِي العِلمِ والزُّهدِ والوِلايَه
فَهوَ الذي حازَ خَصْلَ سَبْقٍ وصَارَ فِي ذَا الزَّمانِ آيَه

حجَّ المقري التلمساني خمسَ مرات، بينما زار المدينة المنورة سبعَ مرات، وكان كثير التردُّد خلالها على الشام ومصر، فأقام علاقات مع علمائهما كرَّسْتها الإجازات والمكاتبات الشعرية والنثرية الوفيرة بينه وبينهم. وفي المشرق عاش المقري حياة حافلة بالنشاط العقلي، وألَّف معظم كتبه هناك، منها: موسوعته "نفح الطيب"، و"فتح المتعال"، و"أزهار الكمامة"، و"إضاءة الدجنّة"....، وأظهرَ حفظه الواسع وموهبته الأدبية فوجد تقديراً كبيراً من علماء الشام وغيرهم[4]. وكان مِن ضمنِ الذين أجازهم العلاّمة المقري الشيخ شهاب الدين العجمي المصري، أحد أجلاَّء علماء مصر في زمنه، والشيخ حنيف الدين بن مرشد مفتي الحنفية بالديار الحجازية، والشيخ تاج الدين بن إبراهيم المالكي المكي الخطيب والمدرِّس بالمسجد الحرام[5].

وهذا المقَّري التلمساني يصفُ بنفسه الإقبالَ الكبير على نظمِه في العقائد المسمَّى "إضاءة الدجنَّة بعقائد أهل السُّنَّة" فيقول: " ....وقد كُتِبَ من هذه العقيدة بالحرمين واليمن ومصر والشام أكثر من ألفَي نسخة، كَتبتُ خطِّي على أكثرها، ودرَّستُها بمكة وبيت المقدس ودمشق

1- عادل نويهض، المرجع السابق، ص124.
2- أحمد المقّري، رحلة المقّري، مصدر سابق، ص72.
3- المصدر نفسه، ص102.
4- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج02، ص217.
5- أحمد المقّري، رحلة المقّري، مصدر نفسه، ص90.

ومصر والإسكندرية ورشيد وغزَّة. ولله المنَّة"[1]. كما نقل العياشي المغربي في رحلته إشادةَ أحدِ علماء الشام المشهورين بالمقّري التلمساني، وبقدرته الفائقة على الحفظ والاستظهار، ومن غريبِها أنَّه ختم بحضرتِه القرآن الكريم، بمناسبة خروجهما لإحدى المزارات صباحاً، وتمَّ ذلك في زمن وجيز، من صلاة الصبح إلى طلوع الشمس![2].

ومن شواهد نبوغ المقّري التلمساني وتميُّزِه العلمي بالمشرق أنَّ أمراءَ مكة وأعيانَها كانوا يطلبون منه نظم أبيات من الشعر على ألسنتهم، تُترجِم لهم ما يجولُ بخواطرهم، أو ما يرغبون في التعبير عنه من أغراض أو مشاعِر[3]؟ وفي بلاد الشام كان للمقري مكانة وهَيبة لدى العامة والباشوات أيضا، حيث يَذكُر أحدُ علماء غزَّة أنَّه بفضلِ سعيِ المقري ووساطته أمرَ باشا غزَّة ببناء مدرسة للطلبة قرب المسجد وأجرى عليها الأوقاف[4]! ولتبيانِ تبجيل المصريين للشيخ المقري يكفي أن نوردَ موقفاً طريفاً وقعَ بين أحد شيوخها من الشافعية وحجَّاجٍ مغاربة، فقد سألَ الشيخُ المصري الحجاجَ عن بلدهم، فقالوا: من مراكش، فقال ما سمعتُ به قطُّ ولا علمتُ أنَّه كان! ولا سمعتُ إلاَّ بفاس حيث قدمَ علينا العلاَّمة النّحرير سيدي أحمد المقَّري تغمَّده الله برحمته"[5].

ج ـ الحاج عيسى الثعالبي (**ت1080هـ/1669م**): أبو مهدي عيسى الجعفري الثعالبي الجزائري من أكبر فقهاء المالكية في عصره، أصلُه من نواحي وادي يسر وطنِ قبيلة الثعالبة، درس بالجزائر ثم ارتحل إلى تونس ومنها إلى المشرق للحج والمجاورة حتى وفاتِه[6]. استقرَّ الشيخ الثعالبي بمكة المكرمة زمناً طويلاً، وألَّف فيها فهرسته "كنز الرواة المجموع في دُرر المجاز ويواقيت المسموع". وكان يتردَّد على المدينة المنورة من وقت لآخر، ويقرئ في الحرم النبوي حيث مجلسُه حافلٌ غاصٌّ بأهل العلم[7]. كما امتلكَ الثعالبي خزانةً هامة للكتب النادرة بمكة المكرمة، جعلتْ بيتَه مقصداً للطلبة والعلماء من أقاليم المشرق وأقاليم المغرب على حدِّ السواء، وذلك رغم أنَّه خلَّف معظم ما

---

[1]- محمد حجي: الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، ط01، المطبعة الوطنية، الرباط، 1964م، ص284.
[2]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص127.
[3]- أحمد المقّري، رحلة المقّري، مصدر سابق، ص148.
[4]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج02، ص409.
[5]- القيسي السراج، المصدر السابق، ص48.
[6]- عادل نويهض، المرجع السابق، ص91.
[7]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج01، ص467.

جمعَه من الكتب بوطنه الجزائر، وبالضبط في "خنقة سيدي ناجي" بنواحي منطقة الزَّاب، عندما مكثَ بها لسنوات عند شيخه "سيدي التواتي بن ناجي"[1].

لقد أثنى العلماء المشارقة والمغاربة على الشيخ عيسى الثعالبي، سواء الذين عاصروه والتقوا به بمناسبة مواسم الحج، أو الذين أتوا من بعده. فهذا المحدِّث الشيخ محمد البابلي المكِّي كان يقول للشيخ الثعالبي: "مَا وصلَ إلينا من الغرب أحفظ من الشيخ أحمد المقَّري التلمساني ولا أزكى منك"[2]! وهذا الرحالة ابن ناصر الدرعي يُثني على الثعالبي واصفاً إيَّاه بأنَّه: "نادرةُ الزمان، وإمامُ من ضمَّه الحرمان"[3]. أمَّا الرحالة العياشي فقد أطنبَ في مدح الثعالبي، ذاكراً فضلَه على الحجاج المغاربة عموماً في حجِّهم أو مجاورتهم، مُحلِّياً إيَّاه بقصيدٍ، هذه أبياتٌ منه[4]: (الطويل)

إذَا غَالَبتْــكَ النَّائِبَــاتُ فَغَالِــبِ ... بِفَخْرِ فُحولِ العِلمِ عِيسَى الثعَالِبِ

إذَا رُمـتَ مِنْـهُ القُـربَ يَوماً لِحاجَـةٍ ... فَـلاَ تَغْلُ فِي الإطْرَا وَسَدِّدْ وقَـارِبِ

ومَـا قُلـتُ ذَا ظَنّـاً ولكِـنْ لِخِـبرَتِي ... بِكُـلِّ الـبِلادِ شَـرقِها والمغَـارِبِ

د ـ الحاج يحيى الشَّاوي (ت1096هـ/1685م): يحي بن محمد بن عيسى بن أبي البركات الملياني الشهير بالشاوي، يُضربُ به المثل في ملازمةِ الشيوخ وتحصيل العلم، فقد سارَ مع شيخه عيسى الثعالبي ـ المذكور آنفاً ـ نحو ثماني مراحل دون قصدِ السفر، وإنَّما لإتمام قراءتِه عليه في علم المنطق فقط[5]! ثمَّ رحل العالم يحيى الشاوي مع ركب الحج الجزائري إلى الحجاز لاحقاً، ولما قضى حجَّه رجع إلى القاهرة مواظباً على التعلُّم والتعليم، واجتمع به فضلاؤها وأخذوا عنه، وترقَّتْ به الحال فتصدَّر للإقراء بالأزهر، وتولَّى قضاء المالكية بمصر. وكانت له سفريات إلى اسطنبول حاضرة الخلافة، وهناك اجتمع عليه الوزراء للتقرُّب منه، والعلماء للبحث والإجازة. وألَّف الشيخ الشاوي كتاباً في النحو جعله باسم السلطان العثماني محمود الأول، أتى فيه بكلِّ غريبة[6]!

---

[1]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص538.

[2]- أبو الخير عبد الله مرداد: المختصر من كتاب نشر النور والزّهر في تراجم أفاضل مكة، ط02، تحقيق: محمد سعيد العامودي وأحمد علي، عالم المعرفة، جدّة، 1986م، ص384.

[3]- ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص401.

[4]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج02، ص186.

[5]- أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1906م، ج01، ص83.

[6]- المصدر نفسه، ج01، ص188.

جذبتْ شخصية الشيخ يحيى الشاوي إليها إعجاب المغاربة والمشارقة، فقد تمنَّى الشيخ الرحالة العياشي ـ مثلاً ـ أنْ يُرافقَه في سفر عودته من الحج بقصدِ الاستزادة من علومِه في الطريق، يقول في ذلك: " ....وكان عزمي أنْ أذهبَ مع ركب أهل الجزائر، رغبةً في مرافقة سيدي يحيى الشاوي، وكان من فقهاء أهل بلده.... رجاءَ المذاكرة في بعض العلوم إنْ تيسَّر ذلك"[1].

وقد تُوفِّي الشيخ يحيى الشاوي على متن السفينة المغادرة لميناء الإسكندرية باتجاه الجزائر بعد موسم الحج، فأراد الملاَّحون إلقاءَ جثته في البحر لِبُعدِ البرِّ عنهم، فقامتْ ريحٌ شديدة أرغمت السفينة على أنْ ترسوَ بأحدِ الرؤوس القريبة فدفنوه به، ثمَّ نقلَه ولده إلى القاهرة، ودفنَه بمقبرة القرَّافة الكبرى تُربةِ المالكية، بين قبرَي علَمَينِ من أعلام المذهب المالكي هما: ابن القاسم وأشهب[2]. وظلَّ اسم العالم يحيى الشاوي مشهوراً في مصر بعد وفاته بفضل تلامذته، ومنهم الشيخ عبد الملك المغربي الحنفي القاضي في صعيد مصر[3].

هـ ـ الحاج عبد العزيز التواتي (ت أواخر القرن 11هـ/17م): عبد العزيز بن حسن بن عيسى القوراري التواتي، من علماء ركب الحج الجزائري المغمورين، جالَ بلاد المغرب وقرأ على كثير من علمائها، ثمّ رحلَ إلى المشرق بعد سنة 1040هـ/1631م ودخل القاهرة، ومنَحَه مُقرئها "الشيخ سلطان" الإجازة لإتقانه علم القراءات. وهو من العلماء الذين أغفلَ مؤرِّخو الحجاز ذكرهم على الرغم من أنَّه كان يُعَدُّ من النابغين في علم القراءات في زمنِ إقامته بالحجاز[4].

انتقل الشيخ عبد العزيز التواتي بعد الحجِّ إلى الطائف، ولقيَه فيها الرحالة العياشي الذي نزل بداره فيها، ووصفه برئيس المقرئين، وأستاذ المجوِّدين، وطلب منه الإجازة في بعض القراءات التي نبغَ فيها، فأجازه التواتي أمامَ ضريح حَبرِ الأمَّة ترجمان القرآن الصحابي عبد الله بن عبَّاس ـ رضي الله عنه ـ ويكفي للدلالة على مكانة الشيخ التواتي بالحجاز قول العياشي فيه: ".... ولم نلقَ بالطائف أحداً ممَّن ينتسب إلى علمٍ أو صلاحٍ سوى الشيخ عبد العزيز الذي نزلنا عنده"[5].

1– أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص475.

2– أبو القاسم الحفناوي، المصدر السابق، ج01، ص190.

3– عبد الغني النابلسي، المصدر السابق، ص323.

4– عواطف بنت محمد يوسف نواب، المرجع السابق، ص569.

5– أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج02، ص172.

و ـ الحاج عبد الرحمن الجنتوري (ت1160هـ/1747م): أبو زيد عبد الرحمن الجنتوري التواتي، من أجلّ علماء توات في القرن 12هـ/18م، التقى أثناء رحلته لأداء الحج بعلماء كثيرين، أفادهم واستفاد منهم. من بينهم عالم جزائري آخر هو أبو عبد الله محمد البُليدي (المذكور لاحقاً) مدرس الجامع الأزهر والأشرفية. وقد سأل الرحالةُ عبد الرحمن التنلاني شيخَه عبد الرحمن الجنتوري عن حالِ مَن لقيَ من العلماء بالمشرق بعد عودته من الحج فقال: "اختبرتُ علماء القاهرة والحرمين فلم ألقَ فيهم من يصلُ أصبعَ رِجلِ شيخِنا أبي حفص (عمر الأكبر التنلاني) إلاَّ واحدًا في علم الحديث لقيتُه بمكّة"[1]!

ز ـ الحاج محمد المنوَّر التلمساني (ت1173هـ/1760م): محمد بن عبد الله بن أيوب، من علماء الحديث الجزائريين، أخذ عنه الشيخُ مرتضى الزَّبيدي صاحبُ "تاج العروس"، عندما التقى به بمناسبة سفرِه للحج، وذكره في أرجوزته "ألفية السند" قائلاً[2]: (الرجز)

الجِهْبَذُ البَارِعُ فِي الفُنونِ عَالِمُ قُطْرِ المغرِبِ الميمُونِ

لَقيتُهُ بِمصرَ لَمَّا وَرَدَا أجَازَنِي ونِلْتُ مِنهُ المدَدَا

كانت للشيخ المنور التلمساني شهرة لا تُضاهى في الأزهر الشريف، لقدرتِه على الجمع بين علومٍ شتَّى، فاجتمع عليه خلقٌ كثير من مصر ومن المجاورين بالأزهر وغيرهم. ومن المحاورات العلمية الحادّة التي كان يُنشِّطها أعلامُ ركب الحج الجزائري في الجامع الأزهر مناظرة علمية جمعتْ بين ثلاثةِ علماءَ مغاربة، جزائريَين ومغربي هم: المنور التلمساني والحسين الورثِلاني وخليل المغربي، وذلك في مسألة من مسائل علوم البيان والمعاني، مُنطلقُها قولُ القائل: "أنبتَ الرَّبيعُ البقْلَ"، إضافةً إلى مسائل أخرى من علم الكلام، بحضور جمعٍ من طلبةِ الأزهر[3].

ح ـ الحاج محمد البُليدي (ت1176هـ/1763م): محمد بن محمد الشريف البُليدي، أحدُ أعيان المالكية بالجامع الأزهر الشريف العامر، ممَّن استقرّوا بالمشرق بعد أدائهم الحج، عدَّهُ المؤرِّخ عبد الرحمن الجبرتي من أشياخ الوقت بمصر في القرن 12هـ/18م، مُضاهياً بذلك شيوخَها: الملوي والجوهري والحفني والصعيدي وغيرهم، حيث كان يحضر درسَه بالأزهر أكثرُ من مائتي مدرِّس،

[1]- محمد باي بلعالم، المرجع السابق، ج01، ص160.

[2]- المهدي البوعبدلي، الحياة الثقافية بالجزائر، مرجع سابق، ص168.

[3]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص123.

فضلاً عن المئات من الطلبة[1]! وكان للناس في البليدي اعتقادٌ وبرَكة، وبخاصةٍ التجار المغاربة منهم، الذين اشتروا له بيتاً واسعاً بالقاهرة من مالهم، تقديراً لعلمه ومكانته[2].

ألَّف الشيخ البليدي في التفسير والقراءات والمنطق، وتتلمذ على يديه كثيرون منهم العلَّامة مرتضى الزَّبيدي، وكان يقوم بضيافة وإجازة زوَّاره من علماء بلده الجزائر الوافدين مع ركب الحج كلَّ موسم إجازةً تامةً في العلوم كلِّها وبخطِّ يده[3]. ولطالما أشادَ الحجاج المغاربة بالشيخ البُليدي وبأفضاله عليهم وبشخصيته ذات الأبعاد العلمية والإنسانية[4].

ط ـ الحاج عبد الرحمن التنلاني (ت1189هـ/1775م): أبو زيد عبد الرحمن بن عمر التنلاني التواتي، من أكثرِ شيوخ منطقة توات تأليفاً. ذاعَ صيتُه في مصر بعد دخوله إليها في رحلة عودة الركب الجزائري، رغمَ أنَّه لم يُقِمْ بها زمناً طويلاً، وإنّما توفيقٌ من الله وتمكين. ذكرَ ذلك في رحلته قائلاً: "وأقبلَ عليَّ الفقهاءُ هناك، واعتقدوا فيَّ ما لستُ له أهلاً، يأتون أفواجاً للدعاء، ويقدِّموني للإمامة إذا حضرتْ الصلاة"[5]. ولم يلبث التنلاني بها إلاَّ قليلاً حتى اخترَمَتْهُ المنيَّة، وصلَّى عليه جميع من كان في الركب، إضافةً إلى ألوفٍ من المصلِّين بمقبرة سيدي عبد الله المنوفي[6].

ي ـ الحاج الحسين الورثلاني (ت1193هـ/1779م): الحسين بن محمد السعيد بن الحسين، صاحب الأسفار والرحلات إلى الحجاز لأداء الحج في ثلاثة مواسم متفرقة من ثلاثة عقود متتالية. ما دخلَ قرية أو مدينة حلَّ بها ركب الحج إلاَّ شاعَ أمره فيها، وصار طلبة العلم والمريدون يأتون إلى خيمته، طلباً للاستفادة في العلم أو الاختبار، على حسبِ قصد كلٍّ منهم![7]. ومن العلماء البارزين الذين التقى بهم الشيخ الحسين الورثلاني في مكَّة المكرَّمة أثناء حجِّه مفتي بلاد الهند الشيخ المحقِّق محمد أكرم بن الشيخ عبد الرحمن[8].

1- عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج02، ص142.
2- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المرجع السابق، ص105.
3- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص88.
4- محمد الحضيكي، المصدر السابق، ص183.
5- عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، و18.
6- مبارك جعفري وعبد الله مقلاتي، المرجع السابق، ص191.
7- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج03، ص307.
8- المصدر نفسه، ج02، ص271.

وقد اجتمع الرحالة الشيخ الورثلاني بطلبة الأزهر مراراً، فتعجَّبوا من درسِه وشرحه وأدلتِه، وذلك بحضور الشيخ "علي الصعيدي" أعظمِ مشايخهم في ذلك الزمان، ومكثَ بينهم لشهور بعد عودته من الحج. باحثَ أثناءها الشيخُ الورثلاني العلاَّمةَ علي الصعيدي في مسائلَ فقهية ونحوية في مجلس إقرائه، وردَّ عليه قولَه في إحداها، فما كان من الشيخ الصعيدي إلا الإذعانُ وتقبيلُ يد الشيخ الورثِلاني، وطلبُ مداومة الحضور منه لإثراء ذلك النوع من المسائل العلمية[1].

ك ـ الحاج أبو العباس الصحراوي (ت1202هـ/1788م): أبو العباس أحمد الجزائري، المعروف في المشرق بأبي العباس المغربي ـ على غرار العشرات من الأعلام الجزائريين الموسومين مجازاً بـ "المغربي" في ذلك العهد ـ وأصلُه من صحراء الجزائر. يقول عنه الجبرتي في تاريخه: "الشيخُ العلاَّمة المتفنِّن، البحَّاثُ المتقِن، أبو العباس المغربي أصله من الصحراء من عَمالة الجزائر، ....حجَّ سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف، وجاورَ بالحرمين سنة، واجتمع بالشيخ أبي الحسن السندي ولازمه في دروسه وباحَثَه"[2]. ثمَّ راج أمرُه في مصر بعد قفوله من الحج لفصاحته وقوة حفظه، فصار يُقرئ الطلبة، واحترمَهُ علماء مذهبه، وازداد أمرُه ظهوراً بعد وفاة أستاذه علي الصعيدي، وأُشيرَ له بالمشيخة في رواق المغاربة بالأزهر الشريف، ولكن الأمر لم يتم له[3]؟

ل ـ الحاج أحمد بن عمَّار (ت1206هـ/1791م): أبو العباس أحمد بن عمّار مفتي المالكية بالجزائر في عصره، من المبدعين الجزائريين القلائل الذين جمعوا بين الفقه والأدب، تنقَّل إلى المشرق عدة مرات، فجاورَ بالحرمين وأقام بمصر فترة، وأجازَ طلبةً كثيرين، أشهرهم مفتي الشام في وقته الشيخ المرادي صاحب كتاب "سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر" إجازةً مكتوبة[4].

ومن تلامذة ابن عمَّار المتميِّزين خليفتُه في الحفظ والنبوغ أبو راس الناصري المعسكري، الذي وصفَ شيخَه ابن عمَّار بأنَّه "عالِمُ الجزائر، أمَّنها الله من سوء الدوائر ....حَبرُ الأكارِمِ، وبحرُ المكارِمِ، تاجُ المفاخِرِ، وقليلُ (كم تركَ الأولُ للآخِرِ)، علاَ بعلمِه واعتزّ، وماثلَ في الأدب ابنَ الخطيب وابنَ المعتزّ، وفكَّ فيها بذكائه كلَّ عويص جليل، وشابَهَ بذكائه إياسَ بنَ معاوية والخليل،

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص91.

[2]- عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج02، ص257.

[3]- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المرجع السابق، ص105.

[4]- أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب، مرجع سابق، ص64.

وألقَتْ إليه رئاسةُ العلوم زمامَها، ووقفتْ الأعلامُ دُونَه بمراحلَ فصارَ أمامَها"[1]. وقد ذكر الناصري وغيرُه أنَّ ابنَ عمَّار بقيَ في الحرمين الشريفين حتى توفي فيهما[2].

م ـ الحاج أبو راس الناصري (**ت1238هـ/1823م**): الحافظ أبو راس محمد بن أحمد الناصري الراشدي المعسكري، كان يُسأل بمناسبة ذهابه للحج عن أصعب المسائل وأكثرها إثارة للجدل أينما حلَّ، فيخوضها بكلِّ دراية وثقة في النفس، ممَّا أدَّى إلى إعجاب العلماء به، مثلما أشار إلى ذلك في رحلته قائلاً: "ذهبتُ للحجِّ فقامتْ لي علماءُ المشرق على ساقٍ"[3]. وكانت بداية اشتهار أمره من جامع الزيتونة في تونس، واصفاً مناظراته ومحاوراته العلمية مع علماء تونس بالقول: "واجتمعتُ مع العلماء بجامعها الأعظم، فتَذاكرنا، وتناظرنا، وترافعنا، وتشاجرنا، وتقابضنا في جميع الفنون الدقيقة، والمسائل المخفية، وقد أظهرني الله عليهم في ذلك كلِّه"[4]! لقيَ أبو راس جلَّ علماء الحجاز ومصر في رحلتَيه إلى الحج، وتبادل معهم الإجازات والتقاريظ. وهو بالجملة شخصية علمية لامِعة، اعترف بفضله وقيمته معاصروه من علماء المغرب والمشرق، نظراً لإنتاجه العلمي الوفير، الذي بلغَ مائةً وأربعين مصنَّفاً في مختلف العلوم[5]!

ن ـ الحاج علي الميلي المغربي (**ت1248هـ/1832م**): الشيخ علي بن محمد الميلي الجزائري المغربي المالكي، سافر إلى الحجاز، ثمَّ إلى مصر، وأضحى من علمائها المحقِّقين، الذين ينزل عندهم الأعلام من الحجاج الجزائريين[6]. استقرَّ الشيخ علي الميلي بمصر وصار له فيها شأنٌ، وأثار الجدل في مناظراته مع علمائها، فقد دُعي من طرف الباشا في أحد المرات بسبب فتوى له حول حُرمة ذبيحة أهل الكتاب الموجودين في مصر، فأبَى عن الحضور لمجلسٍ تحضُره العامة والغوغاء، وأصرَّ على عقد مجلس خاص، يتناظر فيه مع خيرة العلماء في مصر دون غيرهم[7]!

---

[1]- أبو راس الناصري، فتح الإله، مصدر سابق، ص48.

[2]- ذكرَ المرحوم أبو القاسم سعد الله بأنَّ المفتي أحمد بن عمَّار عاد إلى الجزائر في آخر المطاف، رغم طول إقامته بالمشرق. يُنظر: أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، مرجع سابق، ج01، ص178.

[3]- أبو راس الناصري، فتح الإله، مصدر نفسه، ص24.

[4]- المصدر نفسه، ص115.

[5]- المهدي البوعبدلي، التعريف بالكتب والمخطوطات، مرجع سابق، ص179.

[6]- المرجع نفسه، ص179.

[7]- عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج04، ص490.

ومن أعلام الركب الجزائري كذلك الذين أشاعتْ رحلتُهم للحجِّ عطاءَهم العلمي في بلاد المشرق قاطبة نذكر الأسماء الأخرى التالية بإيجاز:

*الحاج عبد الرحيم العصنوني التواتي، الذي حجَّ في أواخر القرن 10هـ/16م، وزار مصر والتقى بكبار علمائها، قبل أن يرجع إلى بلده[1].

*الحاج أحمد مقداد البسكري، فقيه من بلاد الزاب، بقيَ في مصر لفترة طويلة بعد حجِّه، كان لا يتخلَّف عن مجالس شيوخ مصر ويُجالسهم ويُدارسهم[2].

*الحاج سليمان القشي النقاوسي، رحل إلى مصر بقصدِ الحجاز (الحج)، فأقام بها مدة واشتغل بالإقراء مخالطاً شيوخَها، ثم عاد إلى الجزائر لاحقاً[3].

*الحاج أبو الحسن علي بن ناجي من بلاد الزاب، من عائلة ابن ناجي الشهيرة، كانت له شهرة ومكانة في المشرق وفي طريق الحج أيضاً[4].

*الحاج عبد اللطيف التلمساني، المسِنُّ الفاضل الذي نزلَ بمصر بعد الحج، وسكن بالزاوية الناصرية فيها، وشهِدَ له الحجاج المغاربة بالكرم والفضل[5].

*الحاج أحمد التليلي من شرق الجزائر، له يدٌ في العلوم كلِّها، وبصفة خاصة التاريخ والسِّيَر، وقد أدهشَ الحجَّاج جميعاً بِدقَّته في تحديد أماكن قبور الصحابة والتابعين بالحرمين الشريفين، حتى كأنَّه ـ على رأي الورثلاني ـ هو الذي وضعهم في التراب[6]!

*الحاج عبد القادر بن السنوسي بن دحّو، كان عالماً عاملاً، لهُ لكلِّ علم وُصول، من حديثٍ وفقه ونحو وأصول. رحل للحج وطلبِ العلم، فطارَ صيتُه بمصر حتى صار من نخبة أهل العصر، ولُقِّب فيها وعُرف باسم الشيخ عبد القادر[7].

---

[1]- يونان لبيب رزق ومحمد مزين، المرجع السابق، ص107.

[2]- عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص111.

[3]- عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص60.

[4]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و09.

[5]- ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، و118.

[6]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص255.

[7]- أبو راس الناصري، فتح الإله، مصدر سابق، ص65.

*الحاج مصطفى بن المختار الغريسي (جدُّ الأمير عبد القادر الجزائري)، تُوفِّيَ الشيخ الغريسي في رحلة العودة من الحج بإقليم برقة الليبي، ودُفن هناك[1].

*حاجٌّ فقيه متصوِّف من أهل تلمسان، حُكِيَتْ عنه أحوالٌ غريبة، منها قوة حفظه وختمه القرآن مراتٍ ومرات في اليوم الواحد. وأشاد به مُفتي الشام الذي تعرَّف عليه بالحرمين الشريفين[2].

يمكنُ أن نضيف إلى أولئك الأعلام المذكورين المئات من الشيوخ والقضاة، والعلماء العاملين الكثيرين المتقلِّدين مهام إمارة الركب، المتجدِّدين بتجدُّد مواسم الحج. وصدق الرحالة الشيخ ابن زاكور الفاسي المغربي في وصفه لعلماء الجزائر وإشعاعهم في الداخل والخارج ـ أثناء زيارته للجزائر سنة 1094هـ/1683م ـ بأنّهم " ....غُرَرٌ أعلام، يَنْجلي بهم الإظلام، وشموسٌ أئمَّة، تَنفرِجُ بهم كلُّ غُمَّة، وتفتخرُ بهم أحبارُ هذه الأمَّة"[3].... إنَّها الاحتكاكات والتفاعلات الثقافية التي يفسَحُ الحجُّ وركبُه مجالاً واسعاً لحدوثها، وبفضلها أصبح أولئك الأعلامُ العلماءُ من الحجَّاج الجزائريين بمثابة "رُسُل الثقافة والتعليم في ذلك العصر"[4].

المبحث الثاني: المُثاقفةُ مراكزُها وتوجُّهاتُها في رحلة الركب

01ـ النزول أو الجِوارُ بمحطَّات الركب العلمية

لا تكاد تخلو طريق الحج من منطلقها إلى منتهاها من محطات ثقافية بمثابة نقاط توقُّف علمية، يركنُ إليها ركب الحج من أجل إشباع نَهمِ بعض الحجاج الجزائريين للمعارف والإجازات، وإتاحة المجال لحدوث "المثاقفة" أو التأثير الثقافي المتبادل بين الأعلام الجزائريين ونظرائهم من العلماء المشارقة بصفة خاصة، وذلك لأنَّ ركب الحج كان يمكث في بعض المدن لأيام وأسابيع. وتأتي في صدارة تلك المحطات العلمية المقصودة من طرف أعلام الركب الجزائري محطتا القاهرة والحرمين الشريفين: فالقاهرةُ هي محجُّ العلماء والطلبة بسبب وجود الجامع الأزهر الشريف بشهرته التي أطبقت الآفاق، بينما الحرمان الشريفان هما محلُّ المجاورة الدينية والعلمية.

---

[1]- المهدي البوعبدلي، الحياة الثقافية بالجزائر، مرجع سابق، ص168.

[2]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص127.

[3]- ابن زاكور الفاسي: نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان، ط خ، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م، ص40.

[4]- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المرجع السابق، ص109.

أ ـ الجامعُ الأزهرُ قِبلةُ أعلامِ الحج العلمية:

الجامعُ الأزهر أو "جامعُ الأزهار" ـ كما وسَمَهُ بعض الرحالين ـ هو في نظر أعلام ركب الحج: "محطُّ رحالِ الأسئلة، ومفكُّ أقفال كلِّ معضلة، في قواعد الأصول وفوائد الفصول، بين جهابذة المعقول وصيارفة المنقول"[1]. والحجاج الجزائريون لا يَعدِلون بقرب الأزهر مكاناً، حيث كانوا يقومون بكراء الدور والغرف القريبة من الجامع، لملاقاة المشايخ ومزاحمة أهل المجالس العلمية. فبمجرد وصول الركب إلى القاهرة يطرح الحجاج أمتعتهم بالوكالات المخصَّصة لذلك مثل وكالتي "قايت باي" و"بولاق"، ثم يُسرعون إلى البحث عن منازل قريبة من الأزهر للكراء، مجسِّدين بذلك نصيحة الرحالة ابن مسايب التلمسانِي للحاج الجزائري قائلاً[2]: (المديد)

انزَلْ مْجَاوَرهَم يَا صَاحْ عَندهُمْ تهنَّا وارتاَحْ
زُرْهم كُل مْسَا وصبَاحْ والمجالَسْ لَا تَخْطِيهَا

وفي حالةِ ما إذا تعذَّر على الحجاج الجزائريين إيجادُ منازل قريبة من الجامع الأزهر فإنَّهم كانوا يحضُرون إلى الجامع يومياً، ولا يعودون إلى الفنادق محلِّ نزولهم في منطقة "بولاق" سوى لتحصيل الطعام والشراب، ثمَّ يؤوبون إلى الأزهر لتحصيل الأهمّ، وهو العلوم والإجازات. بل منهم من كان يؤثر الصيام أياماً متتالية لأجل التفرُّغ لذلك، وإطالة مدة المكوث في الأزهر زمناً طويلاً[3]. وبما أنَّ مقصد الحجاج الجزائريين في الجامع الأزهر هو "رواق المغاربة"، فلقد أصبح هذا الرواق أوفر عدداً وأكثر حركيةً مقارنة ببقية الأروقة! وذلك بسبب توافد الحجاج عليه بأعداد كبيرة[4].

وعلى ذكر "رواق المغاربة" فإنَّه يُعدُّ أكبر وأقدم رواق في الجامع الأزهر، بل إنَّ تاريخ إنشائه يسبق زمن تولِّي المماليك الشراكسة للحكم في مصر[5]. ومن جملة شروط وقفِ رواق المغاربة: أنْ لا يدخلَه أميٌّ، ولا غير المالكي، ولا مَنْ وُلِد في غير بلاد المغرب من أقطار: طرابلس وتونس والجزائر وفاس. أما طلبة رواق المغاربة فهم تحت رئاسة شيخ الرواق أو وكيله، والوكيل بدوره تحت رئاسة

[1]- عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص155.

[2]- Ben Messaib, Op.cit, p279.

[3]- عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، و17.

[4]- لوسيت فالنسي، المرجع السابق، ص110.

[5]- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المرجع السابق، ص99.

شيخ المالكية، وشيخ المالكية تحت رئاسة شيخ الجامع الأزهر مباشرة[1]. وهذا الرواق أصبح يمثّل للحجاج المغاربة مؤسسة علمية واجتماعية في آن واحد، ووكيل الرواق أضحى بمثابة المتحدِّث الأول باسم الطلبة والأعلام من الحجاج المغاربة، يرعى وجودهم ويدافع عن مصالحهم.

ويُعرف وكيل رواق المغاربة بالأزهر باسم "النقيب" كذلك، ويتمّ انتخابه من بين العلماء المغاربة المجاورين به، وتحفَظُ كتب التاريخ أسماء بعض هؤلاء النقباء أو الوكلاء، فمنهم: الشيخ أبو الحسن الجزائري الذي استقبل بعض الحجّاج الجزائريين عام 1179هـ/1766م، وأعارهم كتاب شرح الشيخ الحطاب على مختصر الشيخ خليل في الفقه المالكي[2]. ومنهم في عام 1204هـ/1789م الشيخ عمر بن سليمان التونسي والد الرحَّالة محمد التونسي صاحب كتاب "تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان"[3]. ومنهم: الشيخ نور الدين بن أبي القاسم الشهير بالجمَّالي المغربي، والشيخ زين الدين عبد السلام، والشيخ شمس الدين محمد بنّو وغيرهم[4].

ويجذب الأعلامَ من الحجاج الجزائريين إلى رواق المغاربة وجودُ مكتبة ضخمة من المصنَّفات الفقهية والأدبية والتاريخية وغيرها، بالإضافة إلى بَاعَةِ الكتب المتجوّلين، على غرار أحدهم المشتهِر بـ "الدمشقي دلاَّل الكتب"، والذي أوصى الرحالة العياشي الحجاج المغاربة بالسؤال عنه بمجرَّد دخول الجامع الأزهر[5]. كما كان الحجاج الجزائريون يستأنِسون بوجود شيوخ صالحين لهم مكانة في مصر، من أمثال الشيخ المتصوِّف عبد الرحمن الخلاّدي البجائي الملقَّب بـ "أقطال"، فوجوده برواق المغاربة كان مدعاة لإقبال بعض الحجاج على المجاورة بالأزهر الشريف[6].

من أشهر الأعلام الجزائريين الذين تبوءوا مكانة مرموقة في الأزهر الشريف العالم محمد الأمير المازوني (ت1232هـ/1817م) المشهور بـ "محمد الأمير الكبير"، الذي استقرَّ أسلافه بمصر، فنشأَ واشتهر فيها، وتمكَّن من نيل أهمِّ منصب علمي، وهو منصب مشيخة السادة المالكية[7].

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص86.

[2]- المصدر نفسه، ج02، ص86.

[3]- محمد بن عمر التونسي، المصدر السابق، ص11.

[4]- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المرجع السابق، ص102.

[5]- أبو سالم العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص85.

[6]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج01، ص350.

[7]- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المرجع نفسه، ص109.

فأشاد به المؤرِّخ الجبرتي أحدُ معاصريه وزملائه في الدراسة قائلاً: "المتفنِّن في العلوم كلِّها، نقليِّها وعقليِّها وأدبيِّها، إليه انتهت الرياسة في العلوم بالديار المصرية، وباهَتْ مصر ما سواها بتحقيقاته البهيَّة، استنبَطَ الفروع من الأصول، واستخرجَ نفائس الدرر من بحور المعقول والمنقول"[1]. ووصفَه تلميذه أبو راس الناصري المعسكري بأنه "محطُّ الرحال، لا يخلو منهم في كل حال، أتاه الرِّفاق من كل الآفاق، وطار صيتُه في المغرب والشام والعراق، كان إمامَ مصرَ بلْ سائر الأمصار، وفقيهَ عصرِه في جميع الأقطار"[2]. إنَّ الشيخ محمد الأمير المازوني يُعدُّ أفضلَ مثال لنجاح الأعلام الجزائريين في الأزهر الشريف ومصر[3]، وأنموذجاً ناجحاً يَحتذي به الحجاج المغاربة عموماً.

لقد كان بعض مُريدي العلوم من الحجاج الجزائريين ينفصلون عن الركب بعد أداء الحج ويتخلَّفون عنه، مفضِّلين البقاء بمصر من أجل المجاورة بالجامع الأزهر. نذكر من أولئك الحجاج الشيخ محمد بن عبد الرحمن القشتولي الجرجري الأزهري، المنسوب إلى الأزهر الشريف لأنَّه جاور به مدة ثلاثين سنة، بعد عودته من الحج عام 1152هـ/1739م، درس خلالها مبادئ الطريقة الصوفية الخلوتية، وعاد إلى الجزائر مؤسِّساً للطريقة الرحمانية[4]. ومنهم الشيخ علي بن محمد الجزايرلي[5] (ت1185هـ/1771م)، المعروف بابن الترجمان، لأنَّه خالط أرباب الدولة لمعرفته لسانَهم التركي، وقد استقر بمصر لسنوات، وابتنى فيها داراً حسنة قرب الأزهر الشريف، وزاحمَ علماءَه بمناكبِه في تحصيل أنواع العلوم[6].

---

[1]- عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج04، ص441.

[2]- أبو راس الناصري، فتح الإله، مصدر سابق، ص60.

[3]- كان لمحمد الأمير دور سياسي بعد جلاء الحملة الفرنسية عن مصر، ويُنسَبُ له بيتان شعريان طريفان حول عزل الوالي خورشيد باشا من ولاية مصر سنة 1220هـ/1805م، بسبب شكوى العلماء والطلبة والعساكر منه: (مجزوء الكامل)

عَزَلُوكَ لَمَّا قُلتَ: مَا   أُعْطِي، ووَلَّوا مَنْ بَذَلْ
أَوَ مَا عِلِمْتَ بأنَّ "مَا"   حَرفٌ يَكُفُّ عنِ العمَلْ

يُنظر: محمد بن عمر التونسي، المصدر السابق، ص17.

[4]- Louis Rinn: Marabouts et Khouan, étude sur L'islam en Algérie, Adolphe Jourdan, libraire-éditeur, Alger, 1884, p452.

[5]- **الجزايرلي** تردُ هذه النسبة بهذه الصيغة في بعض المصادر المشرقية الحديثة للدلالة على "الجزائري"، مثل: علي الجزايرلي، حسن الجزايرلي، أحمد الجزايرلي، وغيرها من الأسماء.

[6]- عبد الرحمن الجبرتي، المصدر نفسه، ج01، ص579.

وبفضل أركاب الحج المتتالي ورودُها على مصر من موسم لآخر تزايدَ عدد المجاورين بالجامع الأزهر من الطلبة والمشايخ الجزائريين، وساهمَتْ كثرةُ الأوقاف على رواق المغاربة في تيسير أعباء بقائهم في مصر، وكان للأثرياء الجزائريين المستقرِّين بمصر قصَبُ السَّبق في وقفِ العقارات والأملاك على رواق المغاربة وطلبة العلم، فمِن المسارعين إلى ذلك الحاج شعلان التلمساني، التاجر الذي أجرى النفقة من ماله الخاص على شيخ الرواق، واشترى كتباً كثيرة لطلبة العلم، ولم يكتفِ بذلك بل رصدَ مبلغ إحدى عشر ألف (11000) بارة لشراء عقارٍ ووقفِهِ على طلبة رواق المغاربة بالأزهر[1]. كما كان المغاربة المجاورون بالأزهر الشريف ينتفعون في بعض المناسبات من دراهم وهدايا بعض الأمراء البكوات نظيرَ قراءة صحيح البخاري على أجزاء، لمدة أربعة أيام[2].

وإضافةً إلى المجاورة بالأزهر الشريف اعتاد الحجاج الجزائريون كذلك أن يقصدوا بين الفينة والأخرى بعض المساجد التي تحوي مكتباتٍ أو خزائنَ كتب، والمساجد المنسوبة إلى المغاربة بالقاهرة. وكذا المشاهد المتعارَف على زيارتها كلَّما حلَّ ركب الحج بمصر، وفي مقدمة تلك المزارات المشهد الحُسيني، الذي يضمُّ أضرحة جماعة من أهل البيت، أشهرهم السيدة نفيسة، والسيدة سكينة، والسيدة زينب، والسيد زين العابدين، والسيد زيد بن علي.... وغيرهم.

وبعيداً عن الأزهر الشريف والقاهرة تأتي مدينة الإسكندرية الساحلية في المرتبة الثانية من حيث مقصدُ الحجاج الجزائريين في مصر بعد أدائهم الحج، نظراً لوقوعها على إحدى طرق الحج الشهيرة من جهة، ووجود عائلات من أصلٍ جزائري فيها من جهة أخرى، وذلك رغم قلة معاهدها ومدارسها العلمية. فقد سكنَها جزائريون على فتراتٍ، حملَ معظمهم لقب "حاج" للدلالة على أنَّهم حجاج فضَّلوا البقاء بالمدينة[3]. غير أنَّ بقاء الأعلام الجزائريين في مصر لم يكن موفقاً في جميع الحالات، إذْ أبدى المقَّري التلمساني ـ مثلاً ـ ندمَه على البقاء قائلاً[4]: (الوافر)

تَرَكْتُ رُسومَ عِزِّي في بِلادِي   وصِرتُ بِمِصرَ مَنسِيَّ الرُّسومِ
ونَفْسِي عِفْتُها بالذُّلِّ فِيهَا   وقُلتُ لهَا عَنِ العَلياءِ صُومِي

---

[1]- حسام محمد عبد المعطي، المرجع السابق، ص300.
[2]- عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج04، ص492.
[3]- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المرجع السابق، ص57.
[4]- أحمد المقّري، رحلة المقّري، مصدر سابق، ص78.

ب ـ مجاورةُ الجزائريين بالحرمين الشريفين وأثرُها:

كانت ظاهرة الجِوار (أو المجاورة) بالحرمين الشريفين بالنسبة للحجاج الجزائريين مقتصرة على الأعلام العلماءِ من ركب الحج الجزائري، ومن أوائل الأعلام المجاورين في بدايات العهد العثماني الشيخ طاهر بن زيان الزواوي الجزائري (ت950هـ/1543م)، فقد أخذ عن الشيخ أحمد زروق البرنسي (دفين مصراته)، وعن الشيخ محمد الوزَّان المغربي، ثمَّ حجَّ وجاور، ونزل بالمدينة المنورة، حيث اشتهر وألَّف كتابه "نزهة المريد في معاني كلمة التوحيد"[1].

أمَّا الشيخ أحمد المقَّري التلمساني فقد ألَّفَ كُتبَه في السيرة وهو في الحرمين الشريفين، ورغب في سُكنى المدينة المنورة بعد تعاقُب زياراته إليها. وها هو يتحدَّث عن مجاورته بها في رسالةٍ بعثها إلى أحد أصدقائه بالمغرب الأقصى قائلاً: ".... حجَّ الفقيرُ مِراراً خمساً، وأضحى في بعضها مجاوراً وأمسَى، واستجلى من طيبة المشرفة على ساكنها الصلاة والسلام في سبعِ مِرارٍ بدراً وشمساً. وجاورَ هنالِكَ، ودرَّس وصنَّف وأضاءَ فكرَه الحالِكَ"[2].

ومن العلماء الجزائريين المجاورين بالحرمين الشريفين في مواسم حجِّ القرن 11هـ/17م كذلك: الشيخ محمد الفقيه الزواوي الذي كان يتردَّد على الحجاز مع ركب الحج الجزائري انطلاقاً من مدينة قسنطينة[3]. والحاج علي العنَّابي التاجر الذي انتفع المجاورون المغاربة من إنفاقِه وكرَمِه[4]. والشيخ خالد الجعفري المالكي الذي قرأ في الغرب على أجلاَّءَ شيوخٍ عارفين وأئمَّةٍ محقِّقين، ورحل إلى مصر، ومنها توجَّه إلى مكة وجاور بها، وتصدَّر للإفادة والإقراء[5]. والشيخ عاشور القسنطيني المدعو "الفكيرين"، فقد هاجر هذا العالم إلى الحجاز حاملاً معه كُتبَه بِنيةِ الاستيطان والمجاورة[6]. والشيخ إبراهيم بن جلاَّب الرِّيغي، أحد أقاربِ أميرِ دولة بني جلاَّب بتقرت جنوبي الجزائر، حيثُ

[1]- محمد بن ميمون الجزائري: التُّحفة المرضية في الدَّولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، ط02، تحقيق: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص69.

[2]- محمد حجي، المرجع السابق، ص282.

[3]- عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص103.

[4]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص161.

[5]- محمد أمين بن فضل الله المحِبّي الحموي: خلاصةُ الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ط01، دار صادر، بيروت، د س، ج02، ص129.

[6]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج01، ص430.

جاورَ بالحرمين عِدَّةً من السنين، ختمَها سنة 1074هـ/1664م[1]. والحاج عبد الرحمن الغريسي الجزائري الذي كان يستقبل الحجاج الجزائريين والمغاربة في المدينة المنورة، ومِن ثَمَّ يُعرِّفهم بمشايخها الأفاضل ويجمعُهم بهم[2].

وخلال مواسم الحج المتتالية من القرن 12هـ/18م تضاعفَ نشاطُ المجاورة، ليشمل علماءَ جزائريين آخرين منهم: الحاج محمد العنَّابي، فقد كان عالماً جزائرياً فاضلاً، قدمَ مكة للحج، وجاور بها لمدة سنة، فمات هناك ودُفن بمقبرة المعلاَّة سنة 1140هـ/1728م[3]. والشيخ محمد بن أحمد الشريف الجزائري (ت1159هـ/1746م)[4]، إذْ كان كثير التنقُّل بين الجزائر وأزمير التركية، وذهبَ وذهبَ خلال أسفاره تلك إلى الحجاز في آخر المطاف، حيث بقي مجاوراً فترة من الزمن[5]. والتاجر والتاجر الحاج حسن الجزايرلي الذي مكث بالحرمين الشريفين لسنوات من أجل الاتِّجار، ثم قدم بعائلته إلى مصر وصارَ ممَّن يُشار إليهم بالبنان فيها، وخلَّف بعد وفاته ابنه محمد الذي حصَّل طرفاً من العلوم، وصارت له الشهرة بالجملة[6]. وكذلك القاضي محمد بن عبد الرحمن التلمساني، الذي "نبذَ تلمسان وودَّعها وداعَ من لا يعود إليها، ولحقَ بالحرمين الشريفين، وأخذَ معه كمّاً من العسجد والورق الوريق، ناوياً البقاء هناك، متفرِّغاً للعبادة حتى أتاه اليقين"[7].

ومن كافة النماذج المعروضة سابقاً يظلُّ الشيخ عيسى الثعالبي الجعفري رائدَ المجاورين الجزائريين بالحرمين الشريفين في ذلك العهد دون منازع، فقد وُسِمَ بلقبِ "جار الله" لكثرة مجاورته بهما، رغم أنه ـ في وصف الرحالة المغربي الدرعي ـ "قاسَى في أول مجاورته من الفقر شِدَّة، فاتَّخذ الصبر عُدَّة، ثمَّ اشتهر بعد ذلك أمرُه، وظهر للناس خيرُه، وانثالَ الناس إليه من كلِّ جانب"[8].

1- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص133.

2- أبو سالم العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص100.

3- أبو الخير عبد الله مرداد، المصدر السابق، ص471.

4- أوردَ الباحث عادل نويهض في معجمه اسماً مطابقاً لاسم هذا العالم (ابن الشريف الجزائري)، كما ترجمَ المرحوم سعد الله للشخصية ذاتِها، مع اختلافٍ في تاريخ الوفاة؟ يُنظر: عادل نويهض، المرجع السابق، ص107.

5- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج01، ص431.

6- عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج01، ص595.

7- أبو راس الناصري، فتح الإله، مصدر سابق، ص50.

8- ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص402.

وبعد أخذِ الثعالبي عن علماء مكةَ كالقاضي تاج الدين المالكي والإمام زين العابدين الطبري والشيخ علي بن الجمّال المكي، أجازوه جميعاً وأطنبوا في مدحه. ثمَّ اشتغل بالتدريس في المسجد الحرام في فنون كثيرة، وحضر دروسَه أجلاَّءُ العلماء، وانفرد بتحقيق الفنون، فأقرأ الكتب الستة والموطأ والمعجم الصغير والشفاء والسيرة وجامع المسانيد والمواهب اللدنية والمجالسة وألفية العراقي وألفية ابن مالك والخزرجية والسلَّم ومختصر السنوسي في المنطق.... [1].

بينما نجدُ الشيخ عبد العزيز التواتي (سالف الذكر) قد خالفَ عادات المجاورين من الأعلام الجزائريين، وفضَّل أنْ يستقرَّ بعد الحج والمجاورة في الطائف، حيث اختارهُ لقُربهِ من الحرمين الشريفين، فتزوَّج امرأة من أهله، ورُزق منها عدة أولاد، وأصبحت له عند أهل الطائف حظوة ومكانة، يحجُّ كلَّ سنة ويحضر الموسم[2].

لم يكن المجاورون الجزائريون بالحرمين الشريفين عالةً على المقيمين بهما أو الوافدين عليهما، بل كان منهم تجار يُساهمون في أعمال الخير والحملات التطوعية في الموسم، مثل الحاج علي العنابي المذكور. أما طلبة العلم الفقراء منهم فقد انتفعوا من حلقات الإقراء التي كان أثرياء مكة يُقيمونها في رمضان، ومن التكايا (الزوايا) التي أنشأها بعض السلاطين العثمانيين بالمدينة المنورة خاصة[3]. كما كان للشيخ عيسى الثعالبي رباطٌ يقصده هؤلاء بالمدينة المنورة، وأصبحَ بيتُه في مكة المكرمة مألفَ العلماء والفقهاء ومحطَّ رحالهم، إليه يأوون وعنده ينزلون، وبصفة خاصة المغاربة منهم، فقد وهبَ ـ في أحد المواسم ـ حُجَّاجا مغاربة بيتاً قريباً من المسجد الحرام[4].

ويُحسبُ للمجاورين المغاربة تأثُّرهم الإيجابي بالتطورات الحادثة في المشرق، من ذلك ـ مثلاً ـ تضامنهم واندفاعُهم التلقائي للذّود عن حياضِ مصر وبيضةِ الإسلام، بعد وصول خبرِ الحملة الفرنسية على مصر إلى بلاد الحرمين. حيث شرعَ المجاورون في تعلُّم استعمال السلاح، والجِدّ في التدريب العسكري، استعداداً للتعبئة من أجل جهاد الفرنسيين المحتلين لمصر[5].

---

[1]- أبو الخير عبد الله مرداد، المصدر السابق، ص385.

[2]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص172.

[3]- أحمد الرشيدي، المصدر السابق، ص18.

[4]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج02، ص143.

[5]- أحمد السباعي، المرجع السابق، ج02، ص554.

إنَّ معظم المجاورين الجزائريين كانوا يستغلُّون وجودهم بالحرمين الشريفين لزيارة الأقاليم المجاورة والمدن المشرقية المشهورة، فيخرجون من مكة المكرمة مع الركب العراقي العائد إلى بلده، أو من المدينة المنورة بمعية الركب الشامي. ونجدُ المقري التلمساني وأبا راس الناصري ممَّن اشتهروا بزيارة بلاد الشام ومصاحبة علمائها وأمرائها بعد أداء فريضة الحج، في حين فضَّل الأمير عبد القادر ووالده محي الدين زيارة العراق، والنزول بمدينة بغداد[1].

والملاحظُ كذلك أنَّ البقاء في الحرمين الشريفين أو المغادرة يرجع إلى نوعية المجاورين وأسباب مجاورتهم، فإن كانوا ممَّن فرُّوا بدينهم من الناس والفتن وحكَّام الجزائر الأتراك، فإنَّهم يُزمِعون البقاء هنالك حتى يقضيَ الله أمره، وإن كانوا ممَّن قصدُهُ طلب العلم أو انتظار موسم الحج الموالي، فأكثرُ هؤلاء يقطع جواره بعدما ينالُ مُرادَه. ورغم ظروف المجاورة القاسية أحياناً، وتقلبات الأوضاع الأمنية والسياسية في الحجاز، بسبب الصراع المتجدِّد بين أشراف مكة (أمرائها) على الحكم، إلا أنَّ المجاورين الجزائريين كانوا يتمنَّون البقاء في رحاب الحرمين الشريفين أطول مدة ممكنة، ولو أعوزهم المال، أو حِيل بينهم وبين ما يشتهون من رغدِ العيش، ولسانُ حالهم ـ كحال الرحالة المقّري التلمساني ـ يقول[2]: (الطويل)

إذا كنتُ جاراً للنبيِّ وصَحبِه ومكَّةُ بيتُ الله منِّي عَلَى قُربِ
فمَا ضرَّني أنْ فاتَني رَغْدُ عِيشَةٍ وحَسْبِي الذي أُوتيتُه نِعمةً حَسْبِي

02. ركبُ الحجّ ونشرُ المصنَّف الجزائري:

ركبُ الحج مكتبةٌ كبيرة متنقلة، تحمل الكتب والتقاييد والمسودات والمبيضات والرسائل في الوِجهتين ذهاباً وإياباً. ولطالما خلَّف الحجاج وراءهم كتباً في بعض المحطات أو أعاروها لمريديها[3]، لأجل استنساخها وعموم الفائدة منها، ريثما يعود ركب الحج من الحجاز. ذلك ما تمَّ ـ مثلاً ـ

---

[1]– هنري تشرشل، المصدر السابق، ص45.

[2]– أحمد المقّري، نفح الطيب، مصدر سابق، ج02، ص60.

[3]– على ذكر إعارة الكتب وانتقالها بين الأعلام فإنَّ للعالِمِ الجزائري ابنِ قنفذ القسنطيني (ت810هـ/1407م) موقفاً حاداً من ذلك، أورَده المقري التلمساني في رحلته، كما أوردَ ردوداً عليه. يقول ابن قنفذ: (الوافر)

ألاَ يَا مُسْتعِيرَ الكُتْبِ دَعْنِي فإنَّ إعارَتِي لِلكُتْبِ عَارُ
فَمَحبُوبِي مِنَ الدُّنيا كِتابِي وهَلْ أبصَرتَ مَحبُوباً يُعَارُ

يُنظر: أحمد المقّري، رحلة المقّري، مصدر سابق، ص126.

على يد شيخ الركب الجزائري نفسِه محمد بن عبد الكريم الفكون، فقد كان يحمل معه في سَفَره إلى الحج أسفاراً من تآليف والده الشيخ عبد الكريم الفكون، حيث أعار أحدَ العلماء المغاربة منها بعض شروح والده في النحو والتصريف، مدةَ إقامة الركب بمدينة طرابلس فقط[1].

وفي بلاد المشرق استمرَّ الطلب لمواسم عديدة على منظومة الشيخ أحمد المقَّري التلمساني المسماة "إضاءة الدجنَّة بعقائد أهل السُّنَّة" من طرف الطلبة بمكة المكرمة خاصة، كما كُتب منها بالحجاز ومصر والشام نيفٌ على ألف نسخة[2]. ولا غروَ في ذلك فقد كانت للشيخ المقري مراسلات في علم العقيدة مع بعض العلماء المشارقة، منها ردُّه الكتابي على عالم مصري سألَه عن جواز رؤية الله ـ عزّ وجلّ ـ عقلاً، وعن أدلة ذلك نقلاً[3].

ورغم ذلك تأتي المصنَّفات العقَدية الشهيرة للعالم الجزائري الإمام السنوسي التلمساني (ت895هـ/1490م) على رأس المصنَّفات الجزائرية المطلوبة بكثرة في المشرق بمناسبة الحج، حيث كان طلبة الجامع الأزهر يُلحُّون على أعلام الركب الجزائري في سماع قراءة العقيدة الكبرى للشيخ السنوسي[4]. بل إنَّ حجاج بلاد السودان كانوا يطلبون أيضاً من الحجاج المغاربة الذين يلقونهم بالحرمين الشريفين قراءة مقدمات الشيخ السنوسي في العقائد[5].

ويحقُّ للحجاج الجزائريين الفخر ـ كلَّ الفخر ـ في بلاد المشرق، حين يجدون أنَّ تآليف العالم الجزائري الشيخ عبد الرحمن الأخضري (ت953هـ/1545م) وعلى رأسها "السلَّم المرونَق في علم المنطق" شائعة في الجامع الأزهر، وطلبة العلم في مصر قد أقبلوا عليها إقبالاً كلياً، تدريساً وبحثاً وشرحاً وتعليقاً بالحواشي والطُرر[6]، بفضل حركية ركب الحج الجزائري الثقافية.

ومن مشاهد النشاط الكتابي اللحظي أثناءَ سفر الركب أنَّ حاجاً جزائرياً بديع الخطّ سريع اليد فيه نسخَ كراساً من القالب الكبير في الطريق، أمَّا أثناء إقامة الركب المؤقتة فقد تمكَّن من زَبْرِ

[1]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص514.
[2]- المصدر نفسه، ج02، ص411.
[3]- أحمد المقّري، رحلة المقّري، مصدر سابق، ص156.
[4]- عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، و17.
[5]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج01، ص430.
[6]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص41.

(كتابة) رحلة "الدرعي" وكتاب الصباغ في كرامات الشيخ "ابن يوسف الملياني"، مُقارباً ستين كرّاساً[1]! في حين تمكّن حاج جزائري آخر من نظمِ سائر معاطن المياه بإقليم برقة وأسماء المراحل والمنازل، مبيِّناً مواقعَها وأوصاف مياهها بدقة متناهية، لكي يُساعد الحجاج اللاحقين على اجتياز ذلك الإقليم بسهولة، غير أنَّ الكراس الذي جمع فيه النظم المذكور ضاع قرب أحد الآبار في يومٍ شديد البرودة، ورغم عودة بعض الحجاج للبحث عنه إلا أنَّ ذلك لم يُجدِ نفعاً[2].

لطالما كان العلماء المرافقون لركب الحج الجزائري مقصدَ طلبة العلم وأهله في معظم محطات الركب المتتالية، طمعاً في الحصول على بعض التقاييد أو الإجازات منهم، أو حتى الإجابة على بعض المسائل كتابةً أو مشافهةً. ففي أحد المواسم اجتمع أهلُ قابس التونسية وفضلاؤها بالركب الجزائري، وطلبوا من علمائه البحث في بعض النوازل والمسائل الفقهية، وتمنّوا منهم إطالةَ فترة النزول أزيدَ من يومين، لِيشفُوا غليلهم، قائلين لهم: نِعمَ الملاقاة لو طالتْ[3]؟ وفي بلدة زويلة الليبية استقبل الطلبة أعلام الركب الجزائري بحفاوة، وشرعوا يسألون عن مسائل مختلفة، منهم من يسأل امتحاناً، ومنهم من يسأل مستفيداً[4]. ويكفي دليلاً على كثرة الأسئلة التي كانت توجَّهُ لأعلام الركب الجزائري في سفرهم قولُ أحدهم: "…. هذا ما حضرني من الأسئلة في وِجهتي وأثناء رحلتي…. وما نسيتُ أكثر وأحفل وأكمل، والمدار على العمل"[5]!

03. العلوم والفنون المأمولة من طرف الحجّاج:

لقد انعكس التوجُّه الفكري السائد بالجزائر وغيرها من الأمصار الإسلامية في ذلك العهد على مُبتغى الحجاج الجزائريين في إطار رحلتهم المشرقية المقدسة، فالتآليف أو العلوم التي كان يبتغيها الحجاج ويحرصون على نيل الإجازة فيها لم تكن تخرج عن نطاقِ فنونِ: الفقه والأصول والعقائد والتفسير والقراءات والأثبات والتاريخ والتصوف والبيان والحديث والكلام…. وما شابهها. فـ "علومُ الوقت" التي فرضت نفسها فرضاً ـ في نظر المرحوم أبي القاسم سعد الله ـ هي

[1] – الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص256.
[2] – المصدر نفسه، ج03، ص234.
[3] – نفسه، ج03، ص302.
[4] – عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، و11.
[5] – أبو راس الناصري، فتح الإله، مصدر سابق، ص165.

علوم الحفظ والرواية لا علوم الاجتهاد والدراية[1]. والأدهى أنَّ تلك العلوم لم تكن مُتاحةً بما يكفي ـ جميعَها ـ في معظم المناطق الجزائرية على الأقل، فهذا الشيخ الورثِلاني يذكر بعضاً من العلوم التي تراجَعَ إشعاعُها في إقليمه، وسعى إلى تحصيلها في المشرق قائلاً: " ....غير أنَّ أهلَ وطنِنا لا يشتغلون بالإعراب أتمَّ اشتغال، وإنما دأبُهم الفقه وأصول الكلام، وأما مسائل الإعراب والمنطق والتصريف والبيان والأصول فلا"[2]؟

وبما أنَّ مدينة القاهرة أهمُّ محطات الركب الجزائري ذهاباً وإياباً، فقد كان أعلام الفكر من الحجاج يقصدون علماءها البارزين، فيقرؤون عليهم ويطلبون منهم الإجازة. ومن تلك الأسماء اللامعة المقصودة الشيخ مُرتضى الزَّبيدي (ت1205هـ/1790م) عالم اللغة والنحو والحديث بمصر، فالحجاج المغاربة لا يعبرون أراضيها دون زيارته، فتراهم في أيام طلوع الحج ونزوله مزدحمين على بابه من الصباح إلى الغروب، وبعضهم يأتيه بمراسلات وصِلات من أهل بلاده وعلمائها وأعيانها، ويلتمسون منه الأجوبة[3]. ولعلَّ ذلك راجعٌ إلى حسن اعتقادهم فيه، وعلاقاته الطيبة مع أهل الجزائر وولاَّتها أيضاً، فقد كان يتلقَّى الهدايا والإعانات من باي الغرب الجزائري الباي محمد بن عثمان الكردي (محمد الكبير)، لتوزيعها على الفقراء من طلبة العلم[4].

تأتي رواية الحديث في مقدمة الفنون التي كان العلماء الجزائريون يشدُّون الرحال نحو المشرق من أجل الإجازات فيها، وقد أقرَّ الرحالة ابن أبي محلي السجلماسي الساوري بذلك، مُرجِعاً السبب إلى "غُربة" فنِّ الحديث في البلاد المغاربية قائلاً: " ....إذْ لم تكن لي رغبة أيام إقامتي بمصر والحجاز إلا في فنِّ الحديث الذي هو في غربِنا غَريب"[5]! وذلك رغم أنَّ رواية الحديث كانت تتمُّ في مساجد الجزائر وقتَ الزوال على مدى ثلاثة أشهر كاملة هي: رجب، شعبان ورمضان[6].

وتكون إجازات علماء المشرق لمن يطلبها من الحجاج الجزائريين في فنِّ الحديث وغيره مكتوبة، بِخطِّ يدِ المجيز رأساً. وقد يكتفي العالِم المجيزُ بأنْ يأمر أحد تلامذته بكتابتها إملاءً لسببٍ

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج02، ص10.
[2]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص141.
[3]- عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج02، ص310.
[4]- المهدي البوعبدلي، التعريف بالكتب والمخطوطات، مرجع سابق، ص49.
[5]- عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص104.
[6]- ابن المفتي، المصدر السابق، ص112.

من الأسباب، غير أنَّه في الأخير يختمها هو بخط يده، ويطبع عليها بطابعه[1]. وفضلاً عن الإجازات المخطوطة كان الأعلام من الحجاج الجزائريين يرجعون من رحلتهم الحجية ببعض المصنَّفات في علومٍ شتَّى، فهذا حاجٌّ جزائري عاد من الحج وقد اشترى حاشية القاضي زكريا الأنصاري على شرح البيضاوي في التفسير من بعض أهل تونس[2]. وهذا حاجٌّ ثانٍ عادَ إلى تلمسان بكتاب فتوح البلدان للبلاذري في ستة أسفار في التاريخ[3]. بينما أُهدي لحاجٍّ آخر بمكة المكرمة كتاب توضيح ابن مالك على صحيح البخاري في النحو والحديث معاً[4].

ويمكن للعالِم الحاجِّ أن يُجازَ في علوم عديدة من لَدُن شيخ واحد، مثلما تمَّ بين الشيخين الجزائريين عيسى الثعالبي وعبد الكريم الفكون، فقد استمرَّ التواصل بينهما في المشرق بمناسبة مواسم الحج، حيث قرأ الثعالبي على الفكون كتاب الموطأ للإمام مالك، والصحيحين والسنن الأربع، والأحكام الصغرى للإشبيلي، والشفاء للقاضي عياض، والشهاب للقضاعي، وبعضاً من رباعيات أبي عوانة، ونظم أصول السلمي لزروق، وغنيمة الوافد لعبد الرحمن الثعالبي[5].

المبحث الثالث: تأثُّر ركب الحج بالمَناخ الفكري السائد

01. المفاضلة بين المغرب والمشرق من منظور الحاج:

كانت رحلة ركب الحج الموسمية من بلاد المغرب نحو بلاد المشرق مناسبةً سانحةً للتواصل متعدِّد الأوجه بين المغاربة والمشارقة، غير أنَّها كانت كذلك سبباً في تجدُّد ظاهرة "المفاضلة"[6] بين الإقليمين المتباعدين. حيث لا تخلو مواسم الحج من ممارسات أو مواقف أو مناظرات توحي كلُّها بتعصُّب كلِّ طرف لإقليمه أو جهته، مع قليلٍ من الإنصاف والاعتراف بالفضل للغير.

---

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص89.

[2]- المصدر نفسه، ج03، ص307.

[3]- أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص144.

[4]- أحمد المقّري، رحلة المقّري، مصدر سابق، ص96.

[5]- أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، مرجع سابق، ص91.

[6]- **المفاضلة بين المشرق والمغرب** ظاهرةٌ قديمة، فقد ذُكر أنَّ هارون الرشيد وفَدَ عليه بعضُ أهل المغرب، فداعبَهم بالقول أنَّ بلاد المغرب بمثابة ذَنَبِ الطائر، فقالوا: نعم يا أمير المؤمنين، لكنَّ الطائر المذكور هو الطاووس، فضحك الرشيدُ، واستحسَن سرعةَ بديهتِهم وانتصارَهم لقُطرهم بلادِ المغرب. وقد ألَّف الرحالة ابن سعيد المغربي في ذلك كتاباً سمَّاه "الشهب الثاقبة في الإنصاف بين المشارقة والمغاربة". يُنظر: أحمد المقّري، نفح الطيب، مصدر سابق، ج01، ص243.

يرى بعضُ الرحَّالين الحجاج بأنَّ أهل المغرب كانوا يَفضُلون أهل المشرق في تلك الأزمنة بأمرين، أولاهما أنَّهم لا يعرفون تلك الصراعات المذهبية الكلامية الحادَّة المنتشرة بالمشرق، وثانيهما أنَّ المناصب الدينية مثل القضاء والفتوى والتدريس والإمامة والخطابة والشهادة لا تُباع ولا تُشترى بينهم كعادة أهل المشرق! الذين جعلوا مَدار أحكام قُضاتهم على الرِّشا وقبض المال في الحق والباطل[1]؟ وهذا حاج جزائري يُحذِّر الحجاج من سماسرة الكراء في مصر ومن حلاوة لسانهم قائلاً: " ....ولا تغترّ أيها الحاج بحلاوة اللسان من الشياطين، ولا بإظهار المودَّة فإنَّهم ذئاب في ثياب، وكذا إن أتوا لك بهدية فلا تقبلها منهم، فإنهم يريدون التّحيُّل بالوصول بها إلى مالِكَ"[2]؟ أمَّا "أعراب المشرق" الذين اشتهروا بإذاية أركاب الحج المغاربية فهم ـ في نظر الرحالة العياشي ـ جهلةٌ جفاة، وأعرابُ المغرب "فقهاء" إذا ما قورنوا بهم[3]!

وقد شاعتْ ـ حينئذٍ ـ ممارسات مُنبِئة عن نظرة المشارقة السلبية للمغاربة، منها قولُهم في بعض أمثالهم: "كلّ ما يجيء من المغرب مليح إلا ابن آدم والرِّيح"[4]! فالمغاربةُ مُحتقَرون من طرف المشارقة ـ حسب رأي حاج ـ إذْ " ....لا تجد أحداً من مصر إلَّا يحتقرُ المغاربة، وطبائعُهم منافية لطبائع أهل المغرب، فترى المغربي إذا تكلَّم تعصَّبوا عليه بالباطل ولو بالزُّور، فلم ينفع فيهم إلا عدمُ مخالطتهم والانعزال عنهم، أو لباس زيِّهم ليصرف عنه السوء والفحشاء الصادرة منهم"[5].

إنَّ السبب في تلك النظرة الدونية من طرف المشارقة هو سلوكيات بعض "الغوغاء" من المغاربة في مصر خاصة والمشرق عامة، حيث كانوا يلجؤون إلى التكسُّب من ممارسة الشعوذة والدجل[6]. فانعكس ذلك على الحجاج المغاربة عند كلِّ موسم حج، ووصل الأمر إلى اتهام بعض الأعراب في مكة المكرمة للحجاج المغاربة بالحيلة والدَّجل لإخراج كنز من محلِّ إحرام[7]!

---

[1]- أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص232.

[2]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص83.

[3]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص466.

[4]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج03، ص334.

[5]- المصدر نفسه، ج03، ص156.

[6]- كان المغاربة عموماً متهمين من قِبَل المشارقة في ذلك العصر بالحيَل والدَّجل، وادِّعاء القدرة على تحويل الفضة والدراهم إلى ذهب، وتعاطي ما عُرف وشاع باسم "علم الكيمياء".

[7]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج02، ص166.

وبعيداً عن أشكال الفخر والتعصُّب للجهة أو الإقليم من كِلا الطرفين، فإنَّ بعض الحجاج المغاربة أقرُّوا بِسبقِ أهل المشرق في بعض الأمور، وتمنَّوا مُجاراتهم فيها، منها الاعتناءُ بالمساجد وتعظيمها وتزيينها، على خلاف أهل المغرب، الذين " ....لا تكاد ترى في مدائنهم مسجداً عظيماً قد أُحدِث، ولو سقط شيءٌ من المسجد أعادوه بآجُر وجصٍّ وطين، بحيث يصبح المسجد كأنَّه مُرقَّعة فقيرٍ هندي، فيه من كلِّ لون رُقعة!"[1]. ومنها التدريسُ بالأزهر الشريف في ملأ كبير من العمائم، لم يكن له نظيرٌ ـ وقتئذٍ ـ في البلاد المغاربية كلِّها[2]!

ومن مظاهر اعتناء المشارقة بالعلم وأهله عادةٌ أثارت فضولَ الحجاج وغيرَهم، وهي أنَّ المصريين إذا مات عندهم عالم مشهور فإنَّ المؤذِّنين يقومون بتلاوة قوله تعالى "إنَّ الأبرار لفي نعيم"[3] في جميع الجوامع، فينتشر الخبر بموت ذلك العالم، ويزدحم الناس لأجل الصلاة عليه، ويُنشِدون قصائد ومرثياتٍ في محاسنه وسيرته، ويُظهِرون التأسُّف عليه وعلى موت العلماء، ويُكثِرون من تلاوة الآيات والأحاديث ذات الصلة بذلك[4].

لم يُخْفِ المغاربةُ اعترافهم بالتفوُّق العلمي للمشرق على المغرب في ذلك العهد البتَّة، والواقع أنَّ حجَّاج وأعلام الجزائر خاصةً لم تكن تتفتَّقُ مكنوناتُهم أو تَشِيعُ مآثرهم إلاَّ إذا يمَّموا ساحة المشرق ـ كما رأينا في نماذج سابقة ـ وكأنَّهم امتثلوا نصيحة عالمِ بجاية وقاضيها أبي عبد الله محمد بن يحيى الباهلي المعروف بالمسفر (ت744هـ/1343م) عندما قال[5]!: (الكامل)

شَرِّقْ لِتجْلُوَ عَنْ فُؤَادِكَ ظُلْمَةً فالشَّمْسُ يَذهَبُ نُورُها فِي المغْرِبِ

02ـ ركبُ الحجِّ والمدُّ الصُّوفي الغالب:

خضعتْ ضفتا العالم الإسلامي مشرقه ومغربه لتيارِ المدِّ الصوفي الجارف خلال العهد العثماني، وبدا تأثير ذلك جلياً على أطوار رحلة ركب الحج الجزائري. فكان دأبُ الحجاج الجزائريين زيارة قبور أولياء الله الصالحين في الطلوع والرجوع، نذكر منهم بالجزائر خاصةً: سيدي أبا

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص53.
[2]- عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص132.
[3]- **سورة الانفطار، الآية 13.**
[4]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج02، ص107.
[5]- عادل نويهض، المرجع السابق، ص31.

مدين بتلمسان، وسيدي أحمد بن يوسف الراشدي بمليانة، وسيدي عبد الرحمن الثعالبي بالجزائر، وسيدي عقبة بالزاب، وسيدي عبد المؤمن بقسنطينة، وسيدي ابن عبد الكريم المغيلي بتوات...، بل إنَّ زيارتهم موصى بها للحاجِّ قبل سفره، على ألاَّ يُخَلِّفَ من جُملتهم أحداً[1]: (المديد)

زُرْ قُطْبَ العَبَّادْ وزِدْ لِلسَّنُوسِي مَوْلَى التَّوحِيدْ

لاَ تْخَلَّفْ مِن أهلِ الله سَيِّدْ كُلّهَا جُملَه واحْصِيهَا

وفي طريق الركب نحو المشرق لا ينفكُّ الحجاج يزورون قبر الصحابي "أبي لبابة" دفين قابس التونسية، وقبر العالِمِ الصوفي "أحمد زروق البرنسي" دفين مصراتة الليبية، والتبرُّك والانكسار عند ضريحه، والاستئناس بزيارته، والإمداد من معونته، والتقوية على ما هم بِصددهِ بمطالعةِ حضرتِه.... حسب تعابير الصوفية، ومنهم الرحالة الورثلاني الذي أقرَّ بفضل ومفعول تلك الزيارة قائلاً: "....وما مرَرْنا عليه إلى الحجِّ وأصابنا شيءٌ إلاَّ فُرِّج في الحين، وقد وقعتُ في أيدي الحرامية أي المحاربين من العرب، وتمكَّنوا من هلاكي فنجَّاني الله منهم بجاهِه وجاهِ أمثالِه"[2]؟

وبحكمِ طغيانِ التوجُّه الصوفي في طريق الركب، فإنَّ الحجاج كانوا يغتنمون فرصة دخول القاهرة لزيارة الصالحين فيها، الأحياء منهم والميِّتين، وقد عدَّ الرحالة العامري التلمساني أشهرهم، فمنهم: الحسنان والعارف الشعراني والصحابي سارية والإمام الشافعي وابن قاسم وأشهب وأصبغ والست نفيسة وابن عطاء الله وابن أبي جمرة والشاطبي وخليل والمنوفي.... داعياً الحاجَّ إلى الاجتهاد في زيارتهم[3]. وبالجملة فإنَّ البلاد المصرية ـ حسب تعبير الرحالة الورثلاني ـ "قد حُشِيَتْ بأولياء الله دونَ غيرها من البلاد، فوجودُهم كثير، وهم يَنبُتُون فيها دائماً"[4]!

كان الحجاج الجزائريون يتلقَّون من أعلام التصوُّف الذين يقصدونهم في المشرق الأذكار والإجازات، ويُجدِّدون عليهم العهد في الطرق الصوفية المتباينة، كلٌّ حسب مُراده. وإذا علموا بوجود شيوخ متصوِّفة ضمن أركاب الحج الأخرى الوافدة على الحجاز قصدوهم لأجل ذلك، وطلبوا منهم الانخراط في سلكهم، والسماح لهم بالتلقين، مثلما فعلَ فريقٌ من حجاج منطقة

1– Ben Messaib, op. cit, p 275.

2– الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص404.

3– محمد المنوني، المرجع السابق، ص96.

4– الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج02، ص121.

غريس، حيث طلبوا من بعض شيوخ الركب المغربي الإذنَ لهم في تلقين الأوراد[1]. ومن أعلام التصوُّف ضمن ركب الحج الذين طار ذِكرُهم بالجزائر أواخرَ العهد العثماني الشيخان محمد القشتولي الجرجري وأحمد التجاني، وكلاهما تلقَّيا الأوراد والوظائف الصوفية في سفرهما للحج إجازةً، وبقيا في مصر لفترة، فتأثَّرا بالتيار الصوفي الجارف فيها، ونتيجةً لذلك تمَّ انبعاثُ أهمِّ طريقتين صوفيتين بالجزائر في تلك الفترة هما: الرحمانية والتجانية، بعد رحلتي مؤسِّسَيهما إلى الحج[2].

وفي المقابل لم يخلُ ركبُ الحج ذاتُه من أقطاب الصوفية الجزائريين الذين كان عليهم مَدارُ الطلب في طريق الحج ومحطاتها، فهذا الشيخ أبو حفص ابن الولي الصالح سيدي الشيخ كانت له حُرمة وصيتٌ حسَنٌ وتنسُّك في حجَّاته خلال القرن 11هـ/17م، تؤثَر عنه كرامات، وله أتباع، ويُعامِله الناس كثيراً، الأمراء فمَنْ دونَهم، ويتبرّكون به[3]. وهذا الشيخ ابنُ أبي زيان القندوسي (ت1145هـ/1732م) يُلقِّن الأوراد للمُريدين من الحجاج أثناء الرحلة، وقد انكبَّتْ عليه الناس لتفوُّقه وشدَّة رغبتهم في الانخراط في سلك مشيختِه[4]. وظلَّ الركب الجزائري يحملُ في رحلته الموسمية الصالحين و"الفقراء" و"المجاذيب"، ومنهم حكيمٌ أمازيغيٌّ، عُرِّف بأنَّه "المحبُّ العارِفُ المجذوبُ بالتحقيق، المقبلُ على الله بالتدقيق....سيدي سعيد، لَهُ في الوعظِ وطريقِ الحُبِّ بالبربرية ما يسلبُ العقلَ، ويكادُ أن يكونَ كلامَ ابنِ عطاءِ الله، وإنَّما فاتَهُ لما كانَ كلامُه بغيرِ العربية"[5]؟

وبسببِ ذلك السياقِ الصوفي الطاغي امتلأت بلادُ الحرمين الشريفين بالمزارات من أضرحةِ وقِبابِ الأولياء الصالحين، القدامى والمحدثين، الذين أضحى العامةُ والغوغاءُ من الناس يُغالون في تقديسهم وتنزيههم! وقد نقلَ الرحالة الورثِلاني مثالاً عن أحدهم يُدعَى "سيدي عمر العُرابي"، ولاحظَ بأنَّ غالبَ السَّائلين بمكة المكرمة والمستصرِخين إنَّما يهتفون باسمِه، أمَّا أهلُ البادية فتَسمَع الرجال منهم والنساء يقولون: شيء لله يا عُرابي! وهو عندهم عظيمُ القدر، شهيرُ الذكر[6]. ومِن المواقف الطريفة الدالَّة على طغيان المدِّ الصوفي أنَّ حاجاً جزائرياً من مدينة بجاية وقفَ بصعيدِ

---

[1]- ابن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص732.

[2]- روبير مانتران، المرجع السابق، ج01، ص563.

[3]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص112.

[4]- ابن ناصر الدرعي، المصدر نفسه، ص723.

[5]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص227.

[6]- المصدر نفسه، ج02، ص356.

عرَفة، وصارَ يصرخُ ويستغيثُ بالأولياء الصالحين في أمرٍ أصابَه، فأتاهُ بعضُ الصالحين وقالَ له: إنْ رجعْتَ إلى بجاية فاستغِثْ بـ "رجال النخلة"؟ فَمَنْ استغاثَ بهم يُغاثُ بإذنِ الله[1]!

لم يكتفِ بعضُ الأعلام والصالحين من الحجاج الجزائريين بالفضاء الصوفي المحيطِ بمسار رحلتهم إلى الحج، بل كانوا يتوجَّهون بعد إتمام المناسك إلى بغداد لزيارة قبر الشيخ عبد القادر الجيلاني، وتقديم الهدايا إلى حرَّاس الضريح، معتبرين تلك الزيارة جزءاً مكمِّلاً للحج والرحلة من أجله[2]! فمِن أولئك الشيخ مصطفى الغريسي (جد الأمير عبد القادر) الذي توجَّه بعد الحج إلى بغداد، ثم رجع وهو عاقد العزم على بناء زاوية تكون مركزاً للتعليم ومبعثاً للطريقة القادرية. وعلى خُطاهُ سار ابنُه محي الدين وحفيدُه الأمير، فبعد أدائهما مناسك الحج بمكة المكرمة قاما "بحجٍّ آخر" ـ حسبَ وصفِ أحدِ الكتاب ـ إلى قبر الولي الصالح عبد القادر الجيلاني ببغداد[3].

لقد ظلَّ ذلك السعيُ الحثيثُ للبحث عن "الصالحين" دأبَ الحجاج الجزائريين، في جميع محطات الطريق، بلْ إنَّ الاستثناء المثير لتعجُّبِهم وأسَفِهم هو عدمُ زيارة أضرحة الأولياء لسببٍ من الأسباب. كما صوَّر الرحالة الورثلاني في المشهد التالي: " ....ومررنا على الزاوية الغربية، وهي كثيرةُ النخل قويةُ العمارة، فيها أفاضلُ وعلماء وعُبَّادٌ وزُهَّاد، معلومةٌ بأهلِ الصلاح الأحياءِ والأمواتِ، غير أنَّ الركب لم ينزِلْها، وإنَّما اجتازَ عنها فقط"[4]! لقد تحوَّل بذلك بعض الحجاج الجزائريين إلى مُريدين وأتباع، يقتفون آثار شيوخهم الجدُد، ويلتمِسون منهم الفتحَ والمدَد.

03. التباينُ المذهبي في مواجهةِ ركب الحج:

رغم ريادة المذهب المالكي في البلاد المغاربية لقرون متتالية، إلاَّ أنَّه لا يخفى شيوع المذهب الحنفي في الجزائر وفي البلاد الواقعة على طريق الحج خلال العهد العثماني. وذلك بسبب سلطة الأتراك العثمانيين، و"تمذهب" البعض بمذهب الإمام أبي حنيفة رجاءً في التقرُّب إلى أرباب الدولة، أو لنيلِ خُطَّة من الخُطط، رغم تحذير العلماء من الانتقال في المذاهب لأغراض دنيوية[5]. ففي

---

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص70.

[2]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج01، ص513.

[3]- هنري تشرشل، المصدر السابق، ص45.

[4]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج01، ص272.

[5]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص413.

الجزائر نفسِها تمَّ ـ مثلاً ـ تحويل جامع "السيدة" من المالكية إلى الحنفية بسبب أهميةِ موقعه، فقد كان له إمامٌ مالكيٌّ ثمَّ جعلَ له الأتراكُ إماماً حنفياً[1]. والقاصدُ بيتَ الله الحرام في ذلك الزمان كان يُصادف أقواماً وحجَّاجاً من مذاهبَ ونِحَلٍ متباينة، فيمتثل قول الشاعر[2]: (الكامل)

احْفَظْ لِسَانَكَ لاَ تَبُحْ بِثَلاثَةٍ سِنٍّ ومَالٍ مَا استطَعْتَ ومَذْهَبِ
فَعَلَى الثَّلاثَةِ تُبْتلَى بِثلاثَةٍ بِمُكَفِّرٍ وبِحَاسِدٍ ومُكَذِّبِ

كانت تواجه الحجاجَ المغاربة المالكيين ـ أحياناً ـ ظاهرةُ تعصُّب بعض العلماء المشارقة لمذاهبهم، ومحاولات التنقيص من قيمة علماء المالكية الزائرين للمشرق، مثلما حدث مع ابن أبي محلِّي الساوري والمقَّري التلمساني وغيرهما، بل حتَّى مع أحدِ شيوخ المالكية بالأزهر الشريف، حيث كاد يُقتَل بسببِ حسد أهل المذاهب![3]. رغم ذلك فإنَّ الحجاج الجزائريين كانوا يتبادلون الودَّ والتقدير مع الفقهاء الحنفيين والشافعيين الذين يلتقون بهم في الحجاز أو القاهرة، كما أنَّ شيخ الشافعية بالأزهر الشريف كان يُجِلُّ المغاربة، ويحسن بهم الظن، لِما اعتقده فيهم[4].

لم يكن الحجاج الجزائريون يغفلون عن زيارة مراقد حاملِي راية المذهب المالكي المدفونين بمصر عندما يحلُّ الركب فيها، من أمثالِ الشيخ خليل صاحب المختصر الشهير، وكذا أشهب وابنِ القاسم وغيرهم، فيقصدون مقبرتي القرافة الكبرى والقرافة الصغرى بالقاهرة لأجل ذلك. لكنَّهم لا ينسون زيارة مرقد الإمام الشافعي بالقاهرة، وحضور المولد (الزيارة أو التجمُّع) الذي يُقام عند قبره كلَّ ليلة سبت، حيث يجتمع فيه أناسٌ كثيرون، يضيق بهم المسجد المقام عليه وأفنيتُه، ما بين فقراء وأمراء، رجال ونساء، يبيتون طول الليل يذكرون ويقرؤون القرآن[5].

وفي الحرمين الشريفين تجلَّى ذلك التنوّع المذهبي في وجود مقامات الأئمة الأربعة، المبنية بالمسجد الحرام، في مقابل جوانب الكعبة المشرَّفة الأربعة، فعُيِّن لكلِّ مقام إمامٌ يصلي بأهل مذهبِه، وكانت العادة أن يُصلِّيَ بالجماعة الحاضرة في المسجد الحرام أحد الأئمة من المذاهب

[1]- الشريف الزهار، المصدر السابق، ص32.
[2]- أحمد المقّري، نفح الطيب، مصدر سابق، ج05، ص207.
[3]- عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص102.
[4]- المصدر نفسه، ص117.
[5]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص70.

الأربعة، ثمَّ يتلوه غيرُه بالتناوب، إلى أن سيطر السعوديون على الحجاز مطلعَ القرن 13هـ/19م فأمروا بإبطال تلك العادة، وألاَّ يُصلي الصلاةَ الواحدة في المسجد إلا إمامٌ واحد، فأصبح يصلِّي الصبح الشافعي والظهر المالكي وهكذا بقية الأوقات، ويصلِّي الجمعة مُفتي مكة المكرمة[1]. أمَّا بالحرم النبوي الشريف فقد أحدَثَ العثمانيون محراباً جديداً عن يمين المحراب الأصلي، ليصلِّي فيه الحنفي أو الشافعي مناوبةً، دون المالكي والحنبلي، لأنَّ السلطان وجنده من التُّرك حنفيون، وعامة الحجاز شافعي كمصر، فمِنْ هُنا تَقوَّى المذهبان هنالك خصوصاً دون الآخرَين[2].

وحدث في أحد مواسم الحج أنْ نزلَ حجاج جزائريون أباضيون بوكالة "المجاورين" في حي طولون بمدينة القاهرة على جماعةٍ من شيوخ جزيرة جربة التونسية، فتعرَّضوا للمكيدة والابتزاز من طرف بعض المصريين، ثمَّ للوشاية بهم للحكام المماليك، بسبب انتمائهم المذهبي لا غير[3]. كما كان بعض العلماء من الحجاج يحاورون علماء الأباضية في المعتقد أحياناً، وكذا في مسألة المسح على الخفَّين في الطهارة، ويقومون بردِّ معظم الأحاديث المثبِتة لذلك، والتي استدلَّ بها شيوخٌ أباضيون، بحجَّة أنَّها أخبار أحاد لا يجب العمل بشيء منها[4].

وفي موسمٍ آخرَ مرَّ الحجاج الجزائريون في طريقهم على قريتين، الأولى يتبع أهلها جميعاً مذهباً من مذاهب الاعتزال، والثانية بدا أهلُها من الروافض، لِمَا ظهرَ للحجاج من أفعالهم[5]. كما كما لاحظَ الحجاج أنَّ شيعة العراق يُبالغون في زيارة مشاهد أهل البيت بالمدينة المنورة، ويأتون إليها أفواجاً، وقلَّما ينقطع منهم زائر أيام إقامتهم بالمدينة المنورة، ويعتقدون في أئمتهم العِصمة. وحدثَ أنْ اجتمع بعضهم مع أتباعه على بئرٍ خارج المدينة المنورة، وقال لهم: إنَّ هذه البئر هي التي دخل فيها الإمام جعفر الصادق، فغابَ عن أعين الناس إلى الآن[6]! وفي مشعر مِنى قام أحد الحجاج الشيعة بكتابة بيت شعري يدعو إلى التشيُّع، نقشَه على ساريةٍ بمسجد الخيف[7].

---

[1]- أحمد السباعي، المرجع السابق، ج02، ص563.

[2]- عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص123.

[3]- إبراهيم المصعبي، المصدر السابق، ص74.

[4]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج03، ص293.

[5]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و و: 05-07.

[6]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج03، ص12.

[7]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص332.

من المسائل الفقهية التي أبرزتْ التباين المذهبي المواجِه للحجاج الجزائريين مسألةُ القبض في الصلاة، فقد شاعَ في الحجاز وقتَها أنَّ القبض للأحناف، والسدل لأتباع المذهبين المالكي والشافعي[1]. لكنَّ بعض علماء المالكية كانوا يقبضون في صلواتهم كلِّها فرضاً ونفلاً، ومنهم الشيخ عيسى الثعالبي الجزائري المجاور بالحرمين الشريفين، مما أثار حفيظةَ حجاجٍ مغاربة، وحُجَّتُهم أنَّ العوام المقلِّدين إذا رأوه هو وأمثالَه من أئمة المالكية يقبض لم يصدِّقوا بعد ذلك أنَّ السدل من فعلِ أهل السُّنة أيضاً كالقبض، فحقُّه هو أنْ لا يخالف رسوم المذهب، لأنَّه عالمٌ قدوةٌ لغيره[2].

إضافةً إلى القبض هناك مسألة خلافية أخرى أُثيرت في إحدى رحلات الحج، هي حكم "البسملة" في الصلاة المكتوبة، فقد طُرحت هذه المسألة من طرف أعلام الركب الجزائري بالجامع الأزهر في مصر، وحضر نقاشَها ثُلةٌ من علماء المالكية والشافعية. بحكم أنَّ بسملةَ المصلي في أول الفاتحة مكروهة عند المالكية، وتركُها أولى، بينما يرى الشافعية بطلانَ الصلاة إنْ تُركت، لأنَّها آية من الفاتحة[3]، لا يكفي الإسرار بها في الصلاة الجهرية مثلما يفعل الأحناف. وقد استعان العلماء من الحجاج بجملةٍ من الأدلة والبراهين، لتعضيدِ رأيِهم والدفاع عن مذهبِهم[4].

وقد دارَ في أحدِ مواسم الحج جدلٌ فقهيٌّ مطوَّل في الجامع الأزهر أيضاً حول بعض "التضاد" الموجود بين المذاهب، رغم أنَّ الملَّة واحدة، والنبي ـ صلى الله عليه وسلَّم ـ واحد. تمَّ ذلك بين مجموعة من علماء المالكية كالشيخ الورثلاني والمفتي ابن عمَّار من جهة، وبين علماء الشافعية ومنهم الشيخ العفيفي من جهة أخرى، حيث أسهمَ كلُّ طرف بآرائه وحُجَجِه[5]. غيرَ أنَّ مِن أعلام الحجاج الجزائريين مَن كان له حظٌّ وافر ويَضربُ بسهمٍ في كلِّ المذاهب، إنَّه الشيخ الرحالة أبو راس الناصري المعسكري، الذي كان حفَّاظاً لمذاهب الأئمة الأربعة، ويُفتي الناس بها كلِّها،

---

[1]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص56.

[2]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص445.

[3]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص135.

[4]- استمرَّ ذلك الجدل الفقهي حول مسألة "البسملة"، هل هي جزء من الفاتحة أم لا؟ إلى غاية فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، وخلالَ رحلةٍ إلى الحج كذلك في موسم 1286هـ/1870م، بينَ الشيخين دحلان المفتي الشافعي بالديار المقدسة وعلّيش المصري من جهة، وبين الشيخ علي بن الحفَّاف الجزائري المفتي المالكي من جهة أخرى، الذي ألَّف رسالة سمَّاها **"الدقائق المفصّلة في تحرير آية البسملة"**. يُنظر: المهدي البوعبدلي، تراجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص64.

[5]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج02، ص135.

وكانت له في معسكر مَصريةٌ (خزانة أو مخزن) سمَّاها "بيتُ المذاهب الأربعة"، حافظَ عليها وأعادَ ترميمَها بدعمٍ من حاكم بايلك الغرب الجزائري الباي محمد بن عثمان الكبير[1].

04. سِجالاتٌ فقهية حول مسائلَ مستجدَّة:

كان تعاطي البُنِّ (القهوة) والدخان (طابة) أكثرَ أمرين مثاراً للجدل طيلة العهد العثماني، وقد أضحى علماء الركب يُسألون عنهما، مثلما سُئِل عنهما الرحالة أبو راس الناصري في إحدى المحطَّات: " ....ولقيتُ مُفتيها وعلماءَها، فتفاوَضْنا زماناً في الدخان والقهوة، فأجبتُهم بما قال العلماء في ذلك"[2]. لأنَّ العلماء ألَّفوا فيهما عدة رسائل، وتناقشوا بشأنهما، وانتصر بعضهم لحليتِهما وبعضهم الآخر لتحريمِهما، فكان معظمهم ميَّالاً إلى حِلِّية القهوة وتحريم الدخان[3].

أ ـ الجدل حول حكم قهوة البُن:

بدأ الجدل بشأن قشور البُنّ أو القهوة منذ ابتداء أمرها وانتشارها على مستوى مجال طريق الحج، فقد نقل ابن أبي محلي السجلماسي الساوري في رحلته أنَّ الشيخ أحمد زروق البرنسي كان من أوائل العلماء المغاربة الذين خاضوا في أمرها خلال القرن 09هـ/15م[4]. وشاعَ عند كثير من الحجاج أنَّ أول من أخرجها من أرض اليمن هو الشيخ الصوفي علي بن عمر الشاذلي اليمني، وأمرَ أصحابه وطلبته بِشُربِها، ليستعينوا بها على السَّهر في العبادة، ثمَّ ساهم الحجاج في نقلِها ونشرِها[5]. ولم يستسِغْ المغاربة شُربَها حينئذ، على خلاف المشارقة، كما نقلَ أحدُ الرحَّالين: ".... وإنْ كان أهلُ مصر وكذلك غيرُهم من أهل الحرمين والحجاز والآفاق المشرقية كلِّها إنما يتكارمون بالقهوة التي لا يعرِفُها المغاربة، ولا يَعُدُّونها في الأطعمة ولا في الأشربة ولا في الأدوية"[6]!

وفي مكة المكرمة أفتَى بعضُ العلماء بتحريم شرب القهوة، لِشُبهة الإسكار والإدمان، فحُوربتْ القهوة، وعوقب بائعوها وشاربُوها، فكان الناس يتعاطونها خِلسةً في أقبية البيوت،

[1]- ابن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص303.

[2]- أبو راس الناصري، فتح الإله، مصدر سابق، ص120.

[3]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج01، ص454.

[4]- عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص179.

[5]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص57.

[6]- ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، و57.

فيُهاجمهم الأعوان المكلَّفون ويُكسِّرون أوانيها الفخارية على رؤوسهم حتى تدميَهم! ثمَّ ما لبثوا أنْ تهادنوا في شأنها فكثُر شيوعُها[1]. وكلَّما اشتدَّ النهي عن القهوة زاد إقبال الناس عليها. وأُنشئت محلات لبيعها في أرض الحجاز، أحصى الرحالة العياشي منها ثمانية "قهاوي" بين مكة المكرمة وجدَّة، ينزل الزوَّار في كلِّ قهوة، فيستريحون ويشربون القهوة أو الماء، ويشترون علَفاً للدواب[2].

رغم ذلك استمرَّ الجدل حول شرب القهوة حتى مطلع القرن 13هـ/19م، وساهم أعلامُ ركب الحج المطَّلِعون على حيثياته ـ بفضل رحلاتهم إلى الحج ـ في نقلِه إلى مجلس علماء الجزائر المعتاد، المنعقد كلَّ يوم خميس في الجامع الأعظم بالجزائر. حيث رأوا أنَّها ليست محرَّمة لذاتها، ولكنَّها غدتْ مشروب مجالس السفهاء والمردان، وتُدار على الجلوس كإدارة الخمر! فأوصى الرحالة أبو راس الناصري باجتنابها، مستذكِراً قولَ القائل[3]: (الطويل)

أَقولُ لِأَصْحابي عَنِ القهوةِ انتَهُوا ولَا تجلِسوا بِمجلسٍ هِيَ فيهِ
ولَيسَتْ بِمَكروهٍ ولَا بِمُحرَّمٍ ولكِنْ غَدَتْ مَشْروبَ كُلِّ سَفيهِ

وعلى النقيض من ذلك الرأي المتشدِّد بشأن القهوة، أشاد الرحالة المقَّري التلمساني بالقهوة وشاربيها في مراسلاته لعلماء المشرق، لأنَّها في نَظرِه "سمَتْ وبالمديح اتَّسمتْ، وكم إمامٍ صرَّحَ بفضِلها إذْ مدحَ"[4]. أمَّا الشيخ عيسى الثعالبي فقد نقل مراسلات ومحاورات علماء من المشرق بشأن حِلية القهوة[5]، على غرار الشيخ الرحالة عبد القادر الجزيري، الذي صنَّف فيها رسالة شعرية شعرية طريفة سمَّاها "عُمدةُ الصَّفوَة في حِلِّ القَهوَة"[6]. بينما استشهدَ الشيخ الورثلاني الرحالة المتصوِّف بالبيتين التاليين للإشارة إلى عدم حُرمتها[7]: (الرجز)

فَقَهْوَةُ البُنِّ حَلَالٌ وشِفَا قَدْ أَيَّدَ اللهُ بِهَا أهْلَ الصَّفَا
وإِنْ يكُنْ فِي شُرْبِها مِن رَيْبةٍ لَمَا سَقَوْهَا عِندَ قَبرِ المصْطفَى

---

[1]– أحمد السباعي، المرجع السابق، ج02، ص417.

[2]– أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص154.

[3]– أبو راس الناصري، فتح الإله، مصدر سابق، ص160.

[4]– أحمد المقّري، رحلة المقّري، مصدر سابق، ص127.

[5]– أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج01، ص239.

[6]– عبد القادر الجزيري، المصدر السابق، ج01، ص636.

[7]– الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص62.

ب ـ الخلاف حول تدخين عشبة "تبغ":

لَئِنْ كان ركبُ الحج الجزائري قد ساهمَ في شيوع الجدل الناشئ بالمشرق بخصوص القهوة، التي ظهرتْ أول ما ظهرت هناك، فإنَّه في المقابل ساهمَ كذلك في نقلِ الخلاف القائم بشأن الدخان المحدَثِ في البلاد المغاربية إلى مجالس العلماء بالمشرق. ويُذكر أنَّ دخول التبغ إلى بلاد المغرب كان مع وصول الفِيَلة التي أرسلها ملك السودان هديةً للسلطان السعدي الشهير "أحمد المنصور الذهبي" سنة 1001هـ/1593م، لأنَّ أهل السودان الذين قدموا بالفيلة كانوا يشربونها، ويزعمون أن فيها منافع، ومن ثَمَّ عُرِفت وانتشرت[1]. وقد ألَّف العلماء من المغاربة والمشارقة في تحريم الدخان أو في جوازه زهاءَ ثلاثين تأليفاً في فترة شيوعه[2].

أصبحت مسألة تعاطي الدخان والاتِّجار فيه ملازمة لرحلة ركب الحج، وتعاقبت الأسئلة المطروحة على أعلام الركب بشأنه، مثل السؤال التالي الذي وردَ بهذه الصيغة: "…. ما قولُكم في شجرةٍ خرجت من بلاد الكفَّار تسمَّى بتبغ، واستعمَلها الناس. تُجعل في نار، ويُشرب دخانها في قناة. ويحصُل لمن يشربها خدور، وبعضهم يَغيبُ عقلُه، خصوصاً في ابتدائها"[3]. وفي السؤال إشارة إلى إقبال الكثيرين على التدخين، رغم أنَّ مصدره قد يكون بلاد الكفار، في مرحلة عصيبة مرَّ بها الغرب الإسلامي؟ رغم ذلك كان بعض الحجاج أنفسهم يحملون معهم أوراق تلك العشبة، ويُقايضون أعراب البوادي بشيء منها مقابل الحصول على بعض المؤونة[4]!

لقد غطَّى النزاع القائم بين العلماء بشأن التبغ كافة المعابر المؤدية للحج، وشمل مجالس العامة وكذلك الخاصَّة، فقد أصبح حكام بعض الأقاليم ينتهزون فرصة مرور ركب الحج لإثارة الرؤى حوله. حدثَ ذلك ـ مثلاً ـ مع ركب الحج في إقليم فزّان الليبي، لما استوقَفه حاكم الإقليم للخوض

---

[1]- أحمد الناصري، المصدر السابق، ج 05، ص126.

[2]- مِن أشهرِ مَن ألَّف في الدخان منعاً: عبد الكريم الفكون القسنطيني في "محدَّد السنان في نحور إخوان الدخان"، ومحمد الجمالي المغربي في "تنبيه الغفلان إلى منع شرب الدخان"، ومحمد بن سليمان المالكي في "الأدلة الحِسان في بيان تحريم شرب الدخان"، والسوسي المغربي في "كشف الغَسَق عن قلب الفتى في التنبيه على تحريم دخان الورق". وممَّن ألَّف فيه جوازاً: علي الأجهوري في "غاية البيان لحِلِّ شرب ما لا يُغيِّب العقل من الدخان"، وسلامة الشاذلي في "الإعلان بعدم تحريم الدخان"…. يُنظر: صالح الأسمري: التبيان في شرب الدخان، www.manarahnet.net، بتاريخ: 2017/03/04م.

[3]- عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص165.

[4]- الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص176.

في الأمر، بعد أن منع الناسَ من استعمالِ عشبة التبغ وبيعِها، وتوعَّد بالعقوبة من يتناولها في بلاده[1]. وكان الأتراك قد أشاعوا استخدام "النرجيلة" و"السبسي" أو "الغليون" لشُرب الدخان حيثما حلُّوا، ونَحَا المشارقةُ نحوَهم فكانوا متساهلين في قضية تعاطي الدخان[2]. يُعضِّدُ ذلك ما وقع لحجَّاجٍ مغاربة بالقاهرة سنة 1110هـ/1698م، فقد رأوا رجلاً يشرب الدخان، فكسروا أنبوبتَه وتشاجروا معه، واتَّسعتْ القضية بتدخُّل أنصاره، واحتُجز أولئك الحجاج في مصر[3].

على خلافِ المشارقة كان العلماء الجزائريون متحفِّظين بعض الشيء في أمر الدخان، فقد فصَّل أميرُ ركب الحج الشيخ عبد الكريم الفكون القسنطيني في الآراء حولَه، في مجموعة كراريس سمَّاها "مُحدَّد السِّنان في نحورِ إخوانِ الدُّخان"، استفادَ منها العلماء المغاربة وكذا المشارقة، ومنهم الرحالة العياشي الذي لخَّصها في معرض رحلته إلى الحج[4]. كما دعا أبو راس الناصري إلى نبذِ الدخان على اختلاف أسمائه وأشكال تعاطيه، سواء من خلال سفِّهِ أو بواسطة شمِّه، وحذَّر من الخُبث والتدليس الحاصل في تسمية الدخان باسمِ "طابة"، كما سمَّوا الخمر بأسماء شريفة[5]!

كان موقف أعلامِ ركب الحج الجزائري من مسألة تعاطي الدخان موافِقاً لموقف بقيةِ علماء الجزائر آنذاك[6]، قائماً على ثلاثيةِ الضرر: إفساد الأخلاق، والإضرار بالجسم، وإتلاف المال. كما كما صوَّر ذلك رحَّالةٌ مُعاصِر بأبياتٍ طريفة منها[7]: (الرجز)

فِي بِدْعةِ الدُّخانِ لما بَانَا   وأفْسَدَ الرِّجالَ والنِّسْوانَا
بِشُرْبِهِ قَدْ ضَاعَتِ العُقولُ   وطَالَتِ الغَفْلَةُ والذُّهُولُ
يَا وَيحَكُمْ أَتَشْرَبونَ جِيفَهْ   وَقَدْ جَعَلْتُمُوهُ كالوَظِيفَهْ
وإنَّه بِكُلِّ ذَمٍّ قَدْ وُصِفْ   ولَمْ يَزَلْ شَارِبُهُ فِي "أَخْ وتَّفْ"

[1]- عبد المجيد القدوري، المصدر السابق، ص151.
[2]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج01، ص454.
[3]- عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج01، ص55.
[4]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص521.
[5]- أبو راس الناصري، فتح الإله، مصدر سابق، ص161.
[6]- للقاضي عبد القادر الراشدي (ت1194هـ/1780م) رسالة هامَّة في تحريم الدخان، شحَنها ببيانٍ شافٍ في حالِه، ثمَّ جلبَ من الأدلة المقتضية لحُرمتِه ما لا مزيدَ بعدَه. يُنظر: أبو القاسم الحفناوي، المصدر السابق، ج02، ص220.
[7]- ابن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص160.

المبحث الرابع: مظاهرُ الاستئناس والغرائبية في سَفَر الرَّكب

01. الترويح عن النفس في رحلة ركب الحج:

سعَى الحجاج الجزائريون في سفرهم الطويل الشاقِّ إلى إيجاد جوانبَ للترفيه والترويح عن الأنفس، فمثلاً كانوا يستغلُّون مرور الركب بمحاذاة سواحل البحرين الأبيض والأحمر، فيخرج بعضهم للنزهة ومقابلة البحر، والتفكُّر في أمره، والتعجُّب في صنع الله، وكذا لتفريج الغمِّ وإزالة الهمِّ. رغم أنَّ الإبل لم تكن تُسعِفُ الحجاج في ذلك، بسبب نفورها وإجفالها في كثيرٍ من المرَّات، بسببِ رؤيتها للبحر الذي لم تتعوَّد عليه من قبل[1].

لكنَّ طابع الجدية وإعمال الفكر ظلَّ يُرافق الحجاج حتَّى في أُنسِهم وسَمَرِهم، ففي أحد المواسم انبعثَ خلاف فقهي بين طلبة الركب الجزائري، بشأن قضيةِ أفرادِ قبيلة عربية، انقطعتْ بهم السُّبُل وأشرفوا على الهلاك، وعثرَ عليهم الحجاج في وضعية صعبة. فهل يجب على الركب رفعُهم وأخذُهم معه إلى العمارة؟ أم يكفي إطعامُهم في حالهم لتحصلَ لهم الحياة؟[2] وفي رحلةٍ أخرى انبرى أحدُ أعلام الركب الجزائري للردِّ على عالم تونسي قدحَ في العلاَّمة ابن خلدون، فردَّ عليه العالم الجزائري قائلاً: ".... كفَى بابنِ خلدون مزيةً أنَّ عالِمَ الدنيا ابنَ مرزوق الحفيدَ تلميذُه، وأثنَى عليه عِلماً ودِيناً، وشرحُه للبُردة يدلُّ على غزارةِ علمه"[3]. وهي إحالةٌ ذكية من علماء الركب، تنمُّ عن فخرهم واعتزازهم بعلماءِ وطنِهم، ومنهم ابن مرزوق الحفيد شارح "البردة"[4].

لقد وجدتْ الألغاز والمعارضات الشعرية ضالَّتها عند أعلام ركب الحج الجزائري، لتنشيطِ الفكر، وكسرِ جمود الطريق وأمدِ السَّفر. واشتهر في ذلك الرحالة المقَّري التلمساني الذي كاتَبَ وشافَهَ العديد من الأعلام الجزائريين والمشارقة، مُلغِّزاً في مختلف الظواهر والمواضيع أثناء سفره إلى المشرق، مِنْ ذلك لغزٌ بينه وبين أحد العلماء الفاسيين، وآخر بينه وبين أحد المصريين[5]. والملاحظ

---

[1]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص130.

[2]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص435.

[3]- أبو راس الناصري، فتح الإله، مصدر سابق، ص110.

[4]- تمَّ تحقيق شرح ابن مرزوق الحفيد الوافي لبردة البوصيري المسمَّى "إظهارُ صدقِ المودَّة في شرح البُردَة" من طرف الباحث "الطاهر بن علي"، في إطار أطروحة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها عن جامعة أبي بكر بلقايد بتلمسان 2014/2013م.

[5]- أحمد المقّري، رحلة المقّري، مصدر سابق، ص91.

والملاحظ أنَّ جُلَّ الألغاز جاءت هزجاً ظريفاً، يُرِكِّز على جانبي الفقه والنحو، فمثلاً طلبَ أحد الحجاج من مُرافقيه حلَّ اللغز التالي، المتعلِّق بالخمر حين يستحيلُ خَلاًّ[1]؟ فقال: (الهزج)

ومَا شَيءٌ إذَا فَسَدَا تَحَوَّلَ غَيُّهُ رَشَدَا

وإِنْ هُوَ رَاقَ ثُمَّ صَفَا أثَارَ الشَّرَّ حَيْثُ بَدَا

كان الركب الجزائري يستأنس في مقاطع الطريق البعيدة عن الحَضَر بِمَقدم أهل القُرى، الذين يتلقّون الحجاج عادةً بالترحيب والسرور والرمي بالبنادق[2]. وفي درب الحجاز نزلَ الركب الجزائري في أحد المواضع ذات مرَّة، فقام الحجاج الجزائريون بإشهار أسلحتهم وما معهم من البارود، وشرعوا في رمي البارود، واللعب بالخيل، والضرب على الأرض بالأرجل، استعراضاً للقوة، وإرهاباً لعربِ الدرب الذين كانوا قد اعتدوا على الركب المغربي هناك في موسمٍ سابق، وبينما هم كذلك، انضمَّ إليهم بعضُ العساكر من الركب المصري، وشاركوهم استعراضَهم وفرحتَهم[3].

وفي موقفٍ آخر، لما نزل الحجاج في بندر (محطة) بدر استذكروا ما شاعَ بينهم مِن أنَّ الصحابة أوقدوا قبل المعركة نيراناً كثيرة هناك، فقاموا بإشعالِ الشموع على أقتاب الجمال بالليل، وكانوا قد أحضروها معهم من مصر خصِّيصاً لهذا الغرض، فأصبح الركب كأنَّه مدينةٌ مسرَّجةُ المصابيح[4]. وإشعالُ الشموع وإيقادُ المصابيح والرميُ بالبنادق من العادات التي دأب على فعلها ركبُ مصر وركبُ الشام في كلِّ موسم، لإظهار القوة والقدرة على التنظيم.

تلكم القوة وذلك التباهي أظهرَهما كذلك ركب الجزائر لما طلب في أحد المواسم من ركب المغرب الأقصى التأخُّر في المسير، وفسح الطريق حتى يرتحل الركب الجزائري أولاً، بحجَّة أنَّ ركبَ الجزائر أكثر تنظيماً، ويحمل طائفة من أكابر التُّرك؟ غير أنَّ ذلك التباهي أدَّى إلى تنامي الحميَّة والأنَفة في صفوف الركب المغربي[5]. والحجاجُ المغاربة ـ عموماً ـ اشتهروا في سفرياتهم ببعض الشِّدة والانفعال السريع، فقد نقل الرحالة الورثلاني خبرَ امتعاض بعض الفلاحين المصريين الذي سافَروا

---

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص32.

[2]- عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، و09.

[3]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج02، ص174.

[4]- المصدر نفسه، ج02، ص202.

[5]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص496.

مع الركب الجزائري في درب الحجاز، وشكواهُم من ضرب الحجاج الجزائريين لهم، بسبب كثرة لغطِ هؤلاء الفلاحين، وعدمِ انتظامهم في مسيرة الركب كما ينبغي، فأضحى المصريون يُردِّدون: "عافية يا مغربي عافية.... المغاربة مجانين لا يعرفون إلا الضَّرب"[1]!

كما حدث في إحدى طلعاتِ الركب الجزائري أنْ أخذَ معه المئات من الإبل لبيعها في محطتي طرابلس ومصر، إضافةً إلى المئات الأخرى الموظَّفة في حمل الأثقال، وعندما رأى المصريون حجم الركب الضخم وعدد الإبل بالآلاف، خاطبوا الجزائريين معلِّقين: "إنَّ هذه الإبل الموجودة في رَكْبِكم ليست مولَّدة من النُّوق، وإنَّما هي مجتمعةٌ من الحطب أو الرمل! حتى صارت في مصر كالماعز، فلا تجدُ أحداً يسألُ عنها لكثرتها، وقد عمَّ بيعُها أريافَ مصر وأطرافَها"[2]!

وإذا سقط جملٌ من جرَّاء المشقة والتعب، فإنه غالباً ما يعجز عن مواصلة السير، فيَرفع عنه الحجاج الأمتعة ويذبحونه، ويستفيد من لحمه بدرجةٍ أولى الفقراءُ الصعاليك في الركب. وقد تذوَّق الرحالة الإنجليزي "بتس" لحم الجمل مع حجاج الركب، فوصفَه بأنَّه "حَسَنُ المذاق مفيدٌ للصحة"[3]. وفي المدينة المنورة استضاف أحدُ الشيوخ حجَّاجاً جزائريين في بيته، وأطعمهم خبزاً ولحماً، فقال أحدهم: كأنِّي لم أذُق طعاماً مثلَه[4]!

أمَّا الطعام "الجزائري" فقد أطبقَتْ شهرته آفاق المشرق بفضل ترحال وسياحة أعلام الركب هناك، حيث ذكر الرحالة العياشي أنَّ بعض أهلِ الشام كانوا يطلبون من الشيخ أحمد المقَّري التلمساني أنْ يصنعَ لهم طعامَ الكسكس الشهير، فيُسعِفهم في ذلك ويصنعه بنفسه، فيتذوَّقونه ويُعجبون من جودته[5]! ومن لطائف السفر أنَّ حاجاً مغربياً قارنَ بين أكلِ المشارقة وأكلِ المغاربة، فوجد أنَّ "المغاربة أهلُ بادية وقسوة وجفوة، لا يأكلون ما يأكله الأتراك من الرقيق واللين! ولا بدَّ لهم من الكسكس واللحم والسَّمن والخلِّيع (القدِّيد) وما تعوَّدوه من الخشين"[6].

1- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص166.

2- المصدر نفسه، ج03، ص126.

3- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص67.

4- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج03، ص113.

5- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص410.

6- أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص171.

وممَّا أثار دهشة الحجاج الجزائريين من المأكولات حجم الدلاع (البطيخ) المتداول في مدينة طرابلس، فكانوا يتلذَّذون ويتمتَّعون بأكلِه[1]. وفي مدينة القاهرة وقفَ حجاجٌ جزائريون على مشهدٍ مُسلٍّ يتفرَّج عليه المصريون، وهو معاقبة الخبَّازين الغاشِّين لوزنِ الخبز. فالخبزُ يتمُّ فحصُه يومياً، وإذا ما ثبتَ أنَّ وزنه أقلّ من الوزن القانوني تمَّ حجزه وضرب الخبَّاز الغاشِّ بالفلكة (العصا) على قدميه العاريتين بِشدَّة. فأصبح بعض الخبَّازين يتركون خبزهم، ويجرُون هاربين خوفاً من العقاب[2].

لم تَغِبْ النُّكتة والابتسامة عن مُحَيّا الحاج الجزائري حتَّى في وقتِ أداء المناسك الصعب والضيِّق. فمثلاً خاطبَ حاجٌّ فَكِهٌ خفيفُ الرُّوح حاجاً آخر أثناء ذهابِه لرمي الجمرات قائلاً: لا بُدَّ أن تذهب وترمي بسرعة، فقد فقأتُ عَينَيِ الشيطان لِتوِّي[3]! بينما شَدَا حاجٌّ آخر بعد الرمي بالبيتين التاليين، معتقداً أنَّه قد أرغَمَ أنفَ الشيطان بقذفِ تلك الحصيات[4]: (الطويل)

قَدْ رمَيْتُ الشَّيْطانَ فِي يَومِ   حَجِّي بجِمَارٍ لِطاعَةِ الرَّحْمَانِ
وعَجِيبٌ إنْ لمْ يَكُنْ قَدْ تَلَظَّى   وَهِيَ سَبعُونَ جَمْرَةً بالعَيَانِ

02ـ معاينةُ الغرائب والطرائف في سَفرِ الرَّكب:

لطالما صادف الركب الجزائري بعض المواقف الغريبة أو الطريفة في رحلة سفره المتَّسِعة زماناً ومكاناً، وكان ذلك يقع في الذهاب والإياب على السواء. ومن غرائب الرحلة إلى الحج ـ مثلاً ـ أنَّ أمير الركب التواتي الشيخ امحمد بن عبد الرحمن الكنتي قصَدَ الحجَّ على ظهر "نعامة" منتصفَ القرن12هـ/18م، انطلاقاً من صحراء الجزائر، فأصبح يُعرف بأبي نعامة[5]: (الرجز)

وَبالَّذِي حَجَّ عَلَى نَعَامَهْ   وَالِدِهِ القُطْبِ أَبِي نَعَامَهْ
وَبِأَبيهِ عَابِدِ الرَّحمانِ   ذِي المجدِ والفَضْلِ العَظِيمِ الشَّانِ

ومن المواقف الغريبة نادرةِ الحدوث كذلك التقاءُ الحجاج الجزائريين في باديةِ تونس بشيخٍ من شيوخ قبائل الشرق الجزائري، وقد فرَّ من باي قسنطينة الذي توعَّده بالعقاب الشديد، وذلك

1- إبراهيم المصعبي، المصدر السابق، ص71.

2- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص39.

3- المصدر نفسه، ص61.

4- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص289.

5- محمد بونَ: كاشف الغمِّ والغَمامة عن حياة الشيخ أبي نعامة، مخطوط بخزانة مولاي عبد الله سماعيلي، أدرار، و12.

بسبب مخالفته الشرع، حيث تجرَّأ على الزواج باثنتي عشرةَ امرأة[1]!؟ وفي إحدى القُرى الليبية وقفَ الحجاج الجزائريون على قبرٍ طويلٍ، في نحو خمسة عشر ذراعاً (سبعة أمتار تقريباً)، زعَمَ أهلُ تلك القرية بأنَّه قبرُ نبيٍّ، وعليه خط دائر به، زعموا أنَّه قديم لا تمحيه ريح ولا مطر[2]!

وعلى ذكرِ المقابر فقد شاهد حجاج جزائريون نفَراً من أعراب البادية مجتمعين على قبرِ أحدِ زعمائهم، يُدعى "شهران"، وشرعوا يطلبون منه الضيافة والزاد، ويُنادونه: يا شهران أَقْرِ ضيوفَك. ويزعمون أنَّهم لن يبيتوا قَطّ دون عشاء بعد ذلك[3]؟ والأغرب من ذلك أنَّ أعراب إحدى البوادي أصابهم القحط والجوع لسنين متتالية، فإذا بهم يعرضون أولادهم للبيع على حجاجٍ التقوا بهم! ورغم أنَّ علماء الركب الجزائري تدخَّلوا ونهوا عن ذلك، إلاَّ أنَّ الحجاج منهم من امتثلَ للنهي، ومنهم من أعرض واشترى[4]!؟

كما نقلَ الحجاج الجزائريون ما يرويه بعض المصريين مِن أنَّ باني الأهرامات هو ابنُ سيدنا نوح ـ عليه السلام ـ الذي رفض دعوة والده لركوب السفينة، وحين تيقَّن الغرق والهلاك بنى الهرم طلباً للنجاة[5]. وبالجامع الأزهر تعرَّف حجاج جزائريون على أحد شعراء المرثيات، كان باستطاعته أن ينظُمَ في ساعة واحدة قصيدة طويلة في غاية الحُسن والسَّبك، تُوائِم حال العالم المتوفَّى الذي أُمر بِرثائه! ثمَّ ما لبثَ أن مات ذلك الشاعر المؤرِّخ للمآثر، فرثاهُ أحد الطلبة بقصيدة معبِّرة، على غرار ما كان يفعل هو، مِن جملةِ ما قال فيها[6]: (البسيط)

لَا زَالَ يَلْهَجُ بالتَّاريخِ يَكتُبُهُ   حَتَّى رَأَينَاهُ فِي التَّاريخِ مَكْتُوباً

وكثيراً ما كان الحجاج الجزائريون يتعرَّضون للسقوط أثناء سير الرواحل، إمَّا بسبب النوم أو لصعوبة المسلك. فقد سقطَ أحدهم مرَّةً مِن على ظهرِ مركوبه، ولم يبقَ فيه إلَّا نفَسٌ ضعيف، وبعد أن تحيَّر الحجاج بشأنه أشار عليهم أحدهم بأن يتركوه، ولا يمسُّوه حتى يُفيق بنفسه، فكان الأمر

---

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص267.

[2]- عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، و10.

[3]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج01، ص343.

[4]- المصدر نفسه، ج01، ص435.

[5]- عبد الرحمن المجاجي، المصدر السابق، و04.

[6]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج02، ص107.

كما ذكر، إذْ تركَهُ الحجاج قليلاً حتى أفاق من غفوتِه بنفسه[1]! ومن الأمور الطريفة التي كان ركب الحج الجزائري يتعرَّض لها في السفر هي افتقادُ بعض الحجاج أثناء مغادرة منزل من المنازل. ففي أحد المواسم تَاهَ حجَّاج جزائريون في صحراء برقة الليبية، بسبب تخلُّفِهم عن الركب لأداء صلاة العصر، لكنهم تمكَّنوا من اقتفاء الآثار حتى لحقوا به، بعدما أصابهم من النَّصَب ما أصابهم[2]. وفي مدينة القاهرة كاد أحد الحجاج الجزائريين أن ييأسَ من اللحاق بالركب، الذي انعزل عنه ثمَّ افتقدَ أثره، بفعلِ الزحام وتباين الأجناس بالمدينة، وتقاطع الأزقَّة وتشابهها[3].

ونظراً لكثافة سكان القاهرة لاحظ الحجاج أنَّ الخشب المعَدَّ لتشغيل الأفران فيها لم يُعُدْ يكفي، فاهتدى سكانها إلى استخدام رَوث الخيل والأبقار في تشغيلها[4]. وروى بعضُ العرب للحجاج الجزائريين أنَّ الإبل تنفر وتهيج في بندر "عشّ الغراب"، بزعمِ سماع صوت سَقَب (ولد) ناقة النبي صالح ـ عليه السلام ـ التي عُقِرت، وأنَّ هنالك محلَّ الصخرة التي دخل فيها لما عُقِرت أمُّه، وكأنَّ الإبل إذا وصلت إلى ذلك المكان تسمع الصوت فتنفر! رغم أنَّ الحجاج لم يروا تأثير ذلك على إبلهم، وأدرَكَ المطَّلِعون منهم أنَّ ذلك المكان ليس ديار ثمود الذين عقروا الناقة[5].

لم يكن سماسرة الكراء في مصر والحجاز يُفوِّتون فرصة غفلة الحجاج لنَصْبِ كمائن الاحتيال والنَّصْب، وقد وقع بعضُ الحجاج الجزائريين فعلاً في شَراك أحد السماسرة في وقتٍ حرجٍ، وهو مغادرة مكة المكرمة، حيث أخذَ منهم ثمن كراء مجموعة من الجِمال، وهرب بالجِمال ولم يترك لهم إلَّا أربعةً ضعيفة! وبعد بحثٍ حثيثٍ عنه وجدوه هارباً ملتجئاً للركب المصري، فأمسكوه وربطوه، وإذا بجماعة أخرى من الحجاج المغاربة تبحث عنه، لأنَّه اكترى لهم كذلك[6]!

وفي موسم حجِّ 1073هـ/1663م غمرتْ السيولُ المسجد الحرام، وارتفع الماءُ سبعةَ عشرَ شبراً (3,5م تقريباً) داخلَه، فطافَ بعض الناس بالبيت عوماً ممَّن يُحسِن السباحة[7]! كما رأى

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج01، ص439.

[2]- المصدر نفسه، ج01، ص432.

[3]- عبد الرحمن التنلاني، المصدر السابق، و10.

[4]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص35.

[5]- الحسين الورثلاني، المصدر نفسه، ج02، ص183.

[6]- المصدر نفسه، ج02، ص374.

[7]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج02، ص141.

الحجاجُ مجموعة من الجمَّالين الجَهَلة ـ الذين حضروا موسم الحج ـ وهم ينفرون من عرفة قبل إتمام نُسك الوقوف بها كاملاً، متعذِّرين بالعجلة وتلافي الزِّحام الشديد[1]. ولاحظوا أنَّ الحلاَّقين في مشعر مِنًى لا يستوعبون الرأس بالحلق ولا يُحسِنونه عندما يكثر الزِّحام عليهم، بعد رمي جمرة العقبة، فإذا حلقوا ناحيةً من الرأس قالوا للحاج: يكفيك هذا فقد أحلَلْتَ؟ طمعاً طلباً لاستكثار الأجرة[2]. أمَّا أميرُ الركب الشامي فقد ادَّعى "المهدوية" بعد أداء المناسك، وشرعَ يسألُ عن الحجاج الجزائريين والمغاربة، ويُخبرهم بأنَّه "المهدي المنتظر" الذي يخرج بمكة ويملك المشرق والمغرب، وسيصِل إلى الجزائر ويأخذ ما فيها من الأموال، ويدخل بلاد المغرب الأقصى[3]؟

ومن طريفِ أفعالِ البدو في الحرم النبوي أنَّ أعرابياً جاهلاً بآداب زيارة الرسول ـ صلى الله عليه وسلَّم ـ وقفَ أمام الوجهِ الشريف، وضربَ بِعصاهُ الأرض مرتين وهو يقول: يا محمد، يا محمد، لا تَقُل أنا ما جِئتُك، ها أنا ذا، ثمَّ ذهب ولم يزِد على ذلك[4]! وعلى ذكرِ العصا فإنَّ اللصوص المتربِّصين بالحجاج في درب الحجاز كانوا يستخدمون العصيَّ في قطعِهم الطريقَ على الأركاب، زيادةً على ما يُقاسي منه الحجاج هناك أصلاً من شدة البرد شتاءً. يصوِّر الرحالة الجزيري ذلك المشهد بشكلٍ طريفٍ فيقول[5]: (الرجز)

لَكِنَّ فِيهَا البَرْدَ يَا فُلانُ   تَهتَزُّ مِنْ شِدَّتِهِ الأبْدَانُ
وَكَمْ بِها مِنْ كُلِّ لِصٍّ سارِقِ   يَضْرِبُ بِالعَصَا عَلَى المَرافِقِ

كان الحجاج يتوقَّعون الاعتداء من حينٍ لآخر، وإذا قطع الركبُ مسافةَ يومٍ كاملٍ دون أن يتعرَّض للسرقة أو الاعتداء فإنَّ ذلك يدعو الحجاج للدهشة والغرابة، كما يروي الهلالي في رحلته الحجية متندِّراً: " ....وسِرْنا جميعَ النهار، فلمْ نَرَ سارقاً بحمدِ الله، جزاهُم الله خيراً"[6].

يُذكر كذلك أنَّ حاجاً من علماء الجزائر شرعَ في الطواف حول الكعبة، ومعهُ جماعة كبيرة من الحجاج من الرجال والنساء، يُعلِّمهم كيفية الطواف، فلمَّا رآه بعضُ المطوِّفين المكِّيين غضبوا

---

[1]- عبد القادر التنلاني، المصدر السابق، و56.

[2]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر سابق، ج01، ص320.

[3]- أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص259.

[4]- أبو سالم العياشي، ماء الموائد، مصدر نفسه، ج01، ص466.

[5]- عبد القادر الجزيري، المصدر السابق، ج02، ص85.

[6]- الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص170.

منه وقالوا: ألَمْ تعلَمْ أنَّ أهلَ مكة لا ينتظرون إلَّا هذا الموسم؟ طُفْ لنفسِك واترك الناس. فردَّ عليهم ـ بكلِّ ثقةٍ وزهدٍ ـ قائلاً: أنا أطوفُ بهم وأعلِّمُهم، وأنتم خُذوا الأجرة منهم[1].

يزعمُ البعض أنَّ الحاجَّ من الجزائريين إنَّما يفرح بلقب "الحاج" المبجَّل، لأنَّه من شأنه أن يرفعَ قدرَه أو يُبوِّئه مكانة مرموقة في مجتمعه؟ أو أنَّ البعض إنَّما ينوي بحجِّهِ المفاخرة والتباهي، وليُقالَ أنَّه حجَّ وفقط[2]! ولعلَّ بعضاً من ذلك الاعتقاد لا زال واقعاً متوارَثاً في الجزائر إلى اليوم. لكنَّ الحقيقةَ الثابتَةَ أنَّ تلك نظرةٌ ضيِّقة لمعنى ومدلول "الحاج". والأكيدُ أنَّ "الحاج" ـ فعلاً ـ أشرفُ لقبٍ قد يتحلَّى به المسلم في حياته، لكنَّه حملٌ ثقيلٌ على مَن فَقِهَ معناه، نظراً لرمزيته الدينية، وخلفيته الوُجدانية. وهو لقبٌ غالٍ نفيسٌ، يظلُّ **الجزائريُّ الحاجُّ** يحمِله بِفخرٍ وورعٍ حتى انقضاءِ أجَلِه، ولسانُ حالِه يرجو مغفرة ربِّه قائلاً[3]: (البسيط)

مَا كانَ أهْنَى وأَحْلَى حَجَّةٍ حَصَلَتْ   لَنَا فَنِلْنَا الذِي نَرْجُوهُ مِنْ أَمَلِ

رُحْنَا إلَى عَرَفاتٍ والذُّنُوبُ عَلَى   ظُهُورِنَا فَحَطَطْنَاهَا عَلَى الجَبَلِ

خلاصة الفصل الخامس:

جمعنا في هذا الفصل الأخير حوصلةَ النشاط الثقافي الفكري لرحلة الحج، الذي تجلَّى بوضوح في مسيرة ركب الحج الجزائري من مُنطلقها إلى مُنتهاها. فالعطاء العلمي لأعلام الحج الجزائريين لم ينقطع في أيِّ محطة من محطات الطريق المتعاقبة، لأنَّ المزاوجة بين الحج والعلم كانت ديدنَ العلماء الجزائريين في تلك الأزمنة. وما أوردناه من أسماءَ لأعلامِ الحج وعطاءاتهم ما هي إلَّا عيِّنة قليلة، وإلَّا فإنَّ "الظواهر العلمية" الجزائرية كانت تتجدَّد مع كلِّ موسمِ حجٍّ.

وعرَّجنا على مظاهر ذلك الإشعاع الفكري لأعلام الركب الجزائري، من خلال المثاقفة الحاصلة ومحطّاتها والمجالات التي غطَّتها. ورأينا أنَّ الجامع الأزهر الشريف بمصر كان أهمَّ محطة علمية يقصدها الحجاج أثناء سفرهم، مستغلِّين وجود "رواق المغاربة"، وتشكُّل إرث علمي مغاربي مميَّز بفضل أعلامٍ سابقين حطُّوا هنالك. أمَّا العلوم المأمولة فلم تكن تخرج عن نطاق العلوم التقليدية المنتشرة حينئذٍ، وعلى رأسها علم الحديث الذي كان مطلب الإجازات.

[1]- الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ج02، ص263.

[2]- جوزيف بتس، المصدر السابق، ص59.

[3]- عبد القادر التنلاني، المصدر السابق، و96.

ونظراً لتباين بلاد المغرب عن بلاد المشرق في الكثير من الجوانب، فقد تجدَّدت بعضُ دعوات "التفاضل" فيما بينهما، وأدلى الحجاج الجزائريون والمغاربةُ عموماً بِدلوهم فيها. ومن مظاهر ذلك التباين تنوُّع المذاهب الإسلامية التي واجهها ركب الحج في سفره، وانعكاس ظاهرة التعصُّب الحاصل للمذهب من جميع الأطراف على رحلة الحج. أمَّا المدُّ الصوفي الطاغي على المغرب والمشرق في العهد العثماني على السواء، فقد سيطر على الرحلة إلى الحج من أولها إلى آخرها، وأصبح همُّ العديد من الحجاج ملاقاة الأشياخ، وزيارة الصالحين الأحياء منهم والأموات.

وأخيراً تطرَّقنا إلى جانبٍ خفيٍّ من رحلة الركب الجزائري، إنَّه جانب الاستئناس والترويح عن النفس من قِبَل الحجاج، وذلك في مواجهة السفر الطويل والظروف الشَّاقة المحيطة به، من ذلك ما كان يتمُّ بينهم من محاورات فكرية، ومطاردات شعرية، وألغاز متبادَلة شعراً ونثراً. كما لم تغِب الطُّرفة والنُّكتة عن يوميات سفرهم، إضافةً إلى ما كان يُصادفهم من أمور غريبة عجيبة، يُقابلونها بثباتٍ وإيمانٍ. كلُّ ذلك أكَّد أنَّ رحلة الحج في العهد العثماني رحلةٌ روحيةٌ بالدرجة الأولى.


الخاتمة

الخاتمة

لقد تبيَّن من هذه الدراسة المخصَّصة لركب الحج الجزائري خلال العهد العثماني مدى أهمية هذا الهيكل المنظِّم لأداء الجزائريين شعيرةَ الحج، وتعدُّد الأوجه والأبعاد التي كانت تحيط برحلة الحجاج إلى بلاد الحجاز آنذاك. فقد أضحى ركب الحج الجزائري بمثابة المؤسسة التي تُمكِّن مجتمع الحجاج ـ فضلاً عن أداء الحج ـ من ضمان التواصل المتنوِّع مع فضاء سفره.

بناءً على الفصول الخمسة التي عرضناها تِباعاً وما تضمَّنته مباحثُها من شروح واستنباطات، توصَّلنا إلى استخلاصِ النتائج التالية:

أولاً: لم يكن ركب الحج الجزائري غائباً في مسألة تنظيم الحج من الجزائر خلال العهد العثماني، ولم يكن مُلحَقاً بأركابِ حجٍّ أخرى، بل كان كياناً وظيفياً قائماً بذاتِه، ينطلق من الجزائر في رحلته لأداء الحج، ثمّ يكون مُنتهاهُ إليها بعد أداء الحج والعودة من الحجاز. وذلك رغم مزاحمةِ الأركاب المغاربية الأخرى، وشهرة الركب "المغربي"، بسبب دلالات تلك التسمية الواسعة التي كانت تشمل الحجاج الجزائريين أيضاً في ذلك العهد. كما كانت قوافل الحجاج المكوِّنة للركب الجزائري تفِد من جهات ومناطق جزائرية مختلفة، نظراً لشساعة إقليم الإيالة الجزائرية، ثمّ تشرع في التكتُّل والاندماج بعد وصولها إلى المدن والمراكز الحضرية الكبرى المجمِّعة للركب، مثل: قسنطينة، بسكرة، الجزائر، مليانة، مجاجة، معسكر، تلمسان، توات، تيدكلت.... وغيرها.

ثانياً: الركب البحري من أهمِّ أصناف ركب الحج الجزائري خلال العهد العثماني، فكانت السفن تُقلُّ الحجاج الجزائريين من ميناء الجزائر أو من ميناء تونس، باتجاه ميناء الإسكندرية المصري، ومنه نحو الحجاز براً في غالب الأحيان. إلا أنَّنا سجلنا عدم وجود الاهتمام اللازم والضروري بشؤون ركب الحج ومتطلباته من لدن السلطات العثمانية الحاكمة بالجزائر، كما هو الشأن بالنسبة لسلطات المغرب الأقصى ـ مثلاً ـ رغم حرص العثمانيين على إرسال "الصُّرَّة" أو ناتج أموال أوقاف الحرمين الشريفين إلى الحجاز مع الركب سنوياً، وكذا الإشراف على تقليد منصب "إمارة الركب" لبعض الأُسَر الجزائرية فقط.

ثالثاً: نالتْ عشراتُ البيوتات الجزائرية شرف منصب إمارة ركب الحج الجزائري تعييناً أو اختياراً وإجماعاً، منها: آل الفكون وآل المسعود وآل بن ناجي وآل المرازقة وآل الجوزي وآل أبي

نعامة وغيرهم. وكان هذا المنصب يورَّث في البيت الواحد لعقودٍ من الزمن، ويتحلّى منَ يتولاه بمجموعة من الخِصال والمقوّمات الضرورية.

رابعاً: شيوع عادة النداء للحج في التجمّعات الكبرى داخل المدن، وفي الأرياف التي يقطنها أغلب السكان الجزائريين. وتشابُه عادات التحضير للسفر والممارسات الاجتماعية غداةَ خروج الحجاج في معظم نقاط تجمُّع أو مرور الركب الجزائري. وتنوُّع التشكيل البشري الذي يتكوَّن منه ركب الحج الجزائري ليشملَ العلماء والطلبة والقضاة والأعيان، وكذا بعض الأعوان الذين يُفترض وجودهم في أيِّ ركب للحج مثل: دليل الركب الواجب اصطحابه، والعلام رافع رايات الركب وأعلامه، وصاحب الطبل الكبير المستخدم للتواصل بين شيخ الركب وعامة الحجاج....

خامساً: انخراط المرأة الجزائرية بقوة في ركب الحج الجزائري، وبروز أسماء بعض النساء الحاجّات اللائي تحدّينَ الصعاب، وسايَرنَ الرجال في رحلتهم الشاقة نحو الحجاز، واشتهرن بالعلم والكرم وحسن العِشرة. على غرار: الحاجة عودة، الحاجة فاطمة، الحاجة عويشة، الحاجة شريفة، الحاجة مستورة، الحاجة مباركة، الحاجة آمنة.... وغيرهنَّ كثيرات.

سادساً: كانت الإبل هي وسيلة النقل المثلى لجلِّ الحجاج الجزائريين، نظراً لوفرتها وإمكانية استبدالها في محطات طريق الحج، مع توظيف البغال ثمّ الخيول على نطاقٍ ضيّق. ويقوم الحجاج بحمل أعلاف الدواب على ظهورها من باب أخذ الاحتياط اللازم، بينما يُطلقونها على عواهِنها لترعى وتأكل ما توفّر من عشب وكلأ أثناء نزول الركب للراحة في المحطات المتوالية.

سابعاً: اشتهار ركب الحج الجزائري بالقوة والكثرة والنجدة، خاصة في مواسم حجِّ القرن 12هـ/18م، واعتراف الحجاج الآخرين بِسبقِه وريادته على بقية الأركاب المغاربية والمشارقية، بما فيها الركب المصري أعظم أركاب الحج في ذلك الزمان. يكفي دليلاً على ذلك شهادة أحد المشارقة عن حجم ركب الجزائر وضخامته بالقول: "منذ حصلَ لنا التمييزُ ما طلعَ ولا جاءَ ركبٌ من المغرب مثلَ هذا الركب، إذْ فيه ألوفٌ مؤلَّفة".

ثامناً: اعتُبرتْ مسارات ركب الحج داخل الإقليم الجزائري بمثابة منافذ، يسلكها الحجاج الجزائريون للوصول إلى الطريق الرئيسية الخارجية، وهي الطريق المحاذية للبحر الأبيض المتوسط، مروراً بتونس وطرابلس الغرب ومصر. بينما استُخدمت الطريق الجنوبية الصحراوية عبر إقليم فزّان من

قِبَل حجاج الصحراء الجزائرية. وكان بالإمكان التقاء ركب الحج الطالع في موسمه بركب الحج الهابط في الموسم الذي قبله في محطة من محطات الطريق، بسبب طول فترة غياب الحجاج عن أوطانهم، الذي يستغرق سنة كاملة. حيث مواقيت خروج الركب تتراوح بين شهري ربيع الثاني ورجب كحدٍّ أقصى، بتقدير الوصول إلى المحطة المصرية قبل انقضاء شوال على المعتاد.

تاسعاً: اعتادت أركاب حج بلاد المغرب السير جنباً إلى جنب مع الركب المصري في المقطع الأخير من طريق الحج، المسمَّى "درب الحجاز"، المشهور بكثرة بنادره (محطاته). على أنَّ السبق للمصري في الذهاب، بينما السبق للمغاربة في الإياب. وقد تميَّزت المحطة المصرية عن بقية المحطات، بطولِ زمن مكوث الحجاج الجزائريين فيها، وبالاحتفالات الرسمية والشعبية المصاحبة لمراسيم خروج محمل كسوة الكعبة المشرفة من مدينة القاهرة، في أواخر شهر شوال من كل سنة.

عاشراً: إنَّ أكبر خطر كان يتهدَّد الحجاج الجزائريين هو الاعتداء على ركبهم، وسلب أموالهم وأرزاقهم من طرف بعض قبائل البدو الرحل أو "الأعراب"، التي أصبحت تفرض ما اعتبرته "عوائد الطريق"، مقابل عدم التعرُّض لهم بسوء. لقد سادت تلك الممارسات المشينة الماكرة جلَّ مقاطع الطريق، وبصفة خاصة في درب الحجاز، ولم يجِدْ الحجاج سبيلاً لدرئِها سوى جهودهم الخاصة في حماية ركبهم، في ظلِّ عجز الدولة العثمانية عن تأمين جميع المسالك. كما شكَّلت إكراهات الطريق الطبيعية وصعوبات تأمين العلف لرواحل الحجاج أعباء إضافية في رحلة ركب الحج الشاقة أصلاً من أولها إلى آخرها.

حادي عشر: تمكَّن الحجاج من التأقلم مع المستجدات السياسية والأمنية الحادثة في الأقاليم التي كان الركب الجزائري يمرُّ بها. رغم معاناتهم من تبِعات بعضها، مثل الحملة الفرنسية على مصر، والحرب العثمانية على الحركة الوهابية.

ثاني عشر: اختلاف ظروف وميزات مسير ركب الحج في عودته إلى الجزائر عن مسيرِ الذهاب، وذلك من حيثُ الفترةُ الزمنيةُ التي بدتْ أقلَّ، ومن حيث إصرارُ أهل المدن والقرى التي يمرُّ بها الركب على الترحيب بالحجاج وإكرامهم. وكذا النشاط التجاري المزدهر عقِبَ الموسم.

ثالث عشر: لمسنَا حجم الترابط الاجتماعي الناشئ بين حجاج الركب، وتجسيدهم لأسمى صور التضامن والتآزر فيما بينهم، خاصة إذا ما تعلَّق الأمر بحوادث المرض أو الوفاة، أو الذود عن

المحارم والشرف. حيث كان ركب الحج الجزائري بمثابة مجتمع متنقّل، أثّر وتأثّر بمحيطه الظرفي كما لو كان قارّاً، ونجح في إقامة جسور التواصل الإنساني الحضاري مع سكان المدن والحواضر المتتالية، وكرّس القِيَم الإنسانية في علاقاته مع البدو الرحل، في القرى والبوادي التي كان يعبُرها.

رابع عشر: لم تكن رحلة ركب الحج الجزائري الطويلة والشاقة إلى الحجاز تنتهي بمجرَّد عودة الحجاج إلى بلدانهم، وإقامة الولائم والأفراح لمقْدَمِهم، بل بعودتهم كان يبدأ فصلٌ آخر من فصولها، عنوانُه الإخبارُ والإعلام بتفاصيلها ومشاهداتها، واستعراضُ أحوالِ المشرق وأخبارِ أعلامه، وتحليلُ تطوُّرات الأحداث المختلفة المحيطة بمجالها.

خامس عشر: لولا رحلةُ الحج المتجدِّدة في كلِّ موسم لجهلنا أسماء الكثيرين من أعلام الجزائر وعلمائها في العهد العثماني، فآثارهم ومآثرهم ارتبطت بسفرهم إلى الحجاز مجاورةً أولاً، ثم بزياراتهم لأقاليم المشرق الأخرى تدريساً وعطاءً.

سادس عشر: لقد ألقى الطابع الفكري السائد في محيط رحلة الحج على توجّهات الحجاج، وعلى طبيعة النقاشات السائدة والفنون المأمولة، فالمدُّ الصوفي كان جارفاً، والاستقطاب المذهبي بدا حاداً وقتئذ.

سابع عشر: فاجأتنا رحلةُ حجِّ الركب الجزائري السنوية بكونها لم تخلُ من جوانب الطُّرفة والغرائبية والاستئناس، بدا ذلك واضحاً داخل مجتمع الركب في حدِّ ذاته، من خلال المحاورات والمناظرات والألغاز بين الأعلام، وفي التفاعل مع محيط الرحلة، من خلال المواقف الطريفة التي كانت تصادف بعض الحجاج، أو الصور الغريبة التي يقف عليها الركب في سفره.

لقد مكنَّتنا هذه الدراسة العلمية الأكاديمية من الاستئناس بعددٍ كبير من الرحلات الحجازية الجزائرية وغيرها، ومن خلالها الغوص في تفاصيل وحيثيات رحلة الركب الجزائري إلى الحجاز، أو بوصفٍ أدقّ الانخراط في "مجتمَع الحجاج" الفاعل، طيلة فترة العهد العثماني بالجزائر.

وفي ختام هذا البحث يمكن أن نقترح بعض التوصيات أو التصورات التي من شأنها أنْ تُعيدَ ربط التاريخ الراهن بما تناولناه من إشعاعٍ حضاري سالفٍ لركب الحج، أحدِ أبرز تراث الجزائر العثمانية، وتقتبسَ من ذلك التراث ما توارَى من قِيم وسلوكيات، نحن في أمسِّ الحاجة إليها:

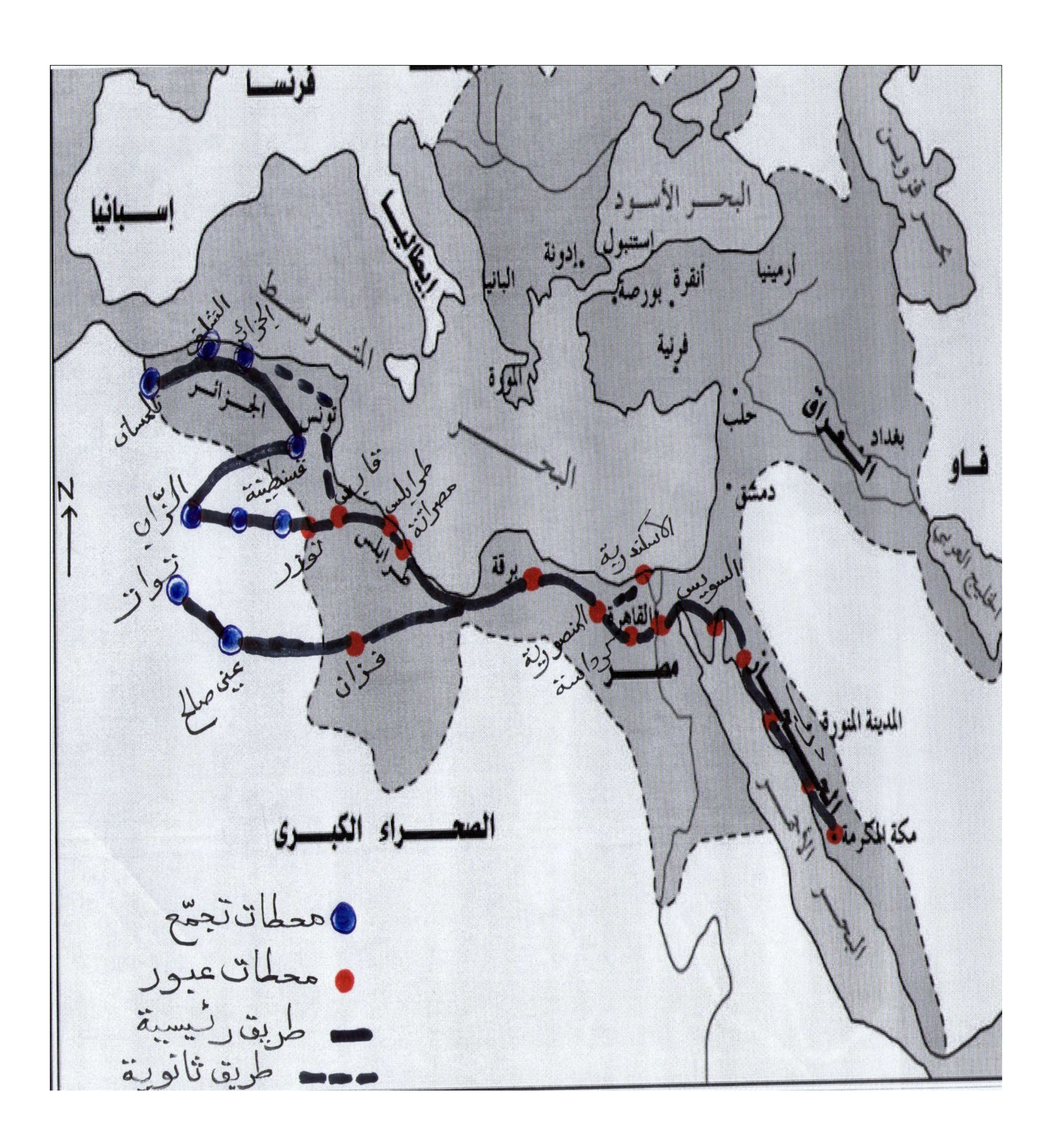
ـ إقامةُ ندوات ومؤتمرات علمية سنوية بشأن تطوّر "مؤسسة ركب الحج" عبر التاريخ، كما هو مُحدثٌ في المملكة العربية السعودية حالياً، وكذلك في المغرب الأقصى، حيث تُعقد ندوات علمية خاصة، تستلهم من تجارب مواكب الحج بين الفينة والأخرى.

ـ مبادرةُ مراكز المخطوطات ومخابرها المعتمدة إلى جمع أو جرد مخطوطات الرحلات الحجازية، المتوارية بين رفوف الخزائن الخاصة، وتمكين الباحثين من دراستها وتحقيقها واستخراج مضامينها، نظراً لقيمتها العلمية التاريخية، وتقاطع اهتمامات تخصُّصات عديدة بشأنها.

ـ اعتمادُ الشراكة أو التوأمة العلمية بين قطاعي التعليم العالي والشؤون الدينية والأوقاف لإنجاز معاجم وكتب تراجم خاصة، للتعريف بالأعلام العلماء من الحجاج الجزائريين الذين تداولوا على السفر إلى بلاد المشرق طيلة العهد العثماني، وتبيان حجم النشاط أو الإشعاع العلمي الحاصل.


الــمـــلاحــــــق

ملحق رقم 01: خريطة مسار ركب الحج الجزائري في العهد العثماني



من إنجاز الباحث (بناءً على مصادر الدراسة)

ملحق رقم 02: بعضُ محطات طريق ركب الحج الجزائري نظماً لابن مسايب التلمساني

قل لهم يا أهل الديــــوان * جيتكم وانا طيربلان
سرحوني في ساع عجلان * بحرمة الزهراء وابيها

وادع اهل التصريف وسرّ * شرّق فبالة خذ الدّير
صاحب الحكمة والتدبير * يمنع النبس ويحطيها

فعبّرْ اليوم كبهات الوعد * بَتْ ليلة واصبح جدّاد
سر يا الورشان الوكّاد * تسالة وجُزْ عليها

فم قبل طلوع الزهرا * واقطع تليلات وَعْبُرا
مستغانم وقرى اخرى * توصل القلعة بحصُنْها

وادها يسمّى يَلـــل * تحتها بمياه يهوطل
على رحيها لا بد سايل * هابطَ لمينة يلقاها

فم من ثمّ امشِ دَبّاب * على يمينك واصبح رقاب
راه سيدي عابد في الباب * فبتنه جُزْ تواليها

فابله وتلّحظ لحظــه * وشَيئًا اعطاك به ارض
طِرْ وانزل واد البعصّه * ميّزْ الارض وتمشّيها

ميّز الارض واصبح شوّاف * واعمد فبالة للعطّاف
افطعْ شلف سام الاجراف * بَتْ من هذيك الجيها

اقطع المشرع وتهـدّف * وبت من ثمّ لا تلهَّف
زر سيدي احمد بن يوسف * وبت مليانة داخلها

فم قبل طلوع الغزّار * واوعد المدبون في زكّار
زر وادخل عنده للدار * وَعَدته لا بد تعطيها

فم يا طير امش عجلان * باش تخرج لبو حلوان
بت مكروم على الامان * عند ناس بلادك بيها

فم قبل الفجر وبكّر * باش تخرج ساع لواجر
شوّف متيجة واستخبر * ألبليدة بيّتْ بيها

زر مولى ساكة نوصيك * طِرْ من ثمّ لبو فريك
اعمل الدرك على جنحيك * تبات بَلْد الجير نزاها

بَتْ زاهي واصبح مسرور * بين مآ ومنازه وقصور
خذ وعدة سيدي منصور * قبل الاّ تدخل فيّها

فم كي تنحلّ البيبان * للجزاير داخل برحان
زر سيدي عبد الرحمان * بركته ينبعنا بها

ليلة الجمعة اطلع للشيخ * نرسلك واذا كنت صريخ
تورخ منازلها توريخ * واعرف الدار ارجع ليها



278 ITINÉRAIRE DE TLEMCEN A LA MEKKE

ادخل مزغنة يا صاح * عندهم تمتع وارتاح
تنسقى من كيسان الراح * من خمور الود اسقيها

فم يا طير جلوسك طال * طر وانزل في جبل عمال
اخرج على البيبان وسل * جز مجانة خليها

فم من قصر الطير و رح * تبلغ قسنطينة مشروح
ادخل و باب الله مفتوح * كلها الناس تراعيها

فم يا طير مناش تخاف * ريح النبس وادخل للكاف
عندهم تأدب واظرف * يعجبك صوت مغانيها

فم يا طير ادخل تونس * زر الباجي وابن يونس
تبات طول الليل مونس * بهم النبس تزقيها

اخرج على الباب واستخبر * للمختار ابن مرفة
زرهم باطنتك تصبر * وكل هم يزول عليها

بالك انهل يا ورشان * حذ لا تفرا فيه أمان
وين كانت تجمع العربان * هاملة جز وخليها

خلي العرب في محلتها * وجز لطرابلس أدخلها
شفي جريدتها وشغلها * وكيف تاويل مواليها

ITINÉRAIRE DE TLEMCEN A LA MEKKE 279

اخرج على الباب مشية * وانزل الديار المنشية
فم يا ولد الطوبية * انزل حذاها سامها

أنتبذ يا طير بيفن * وابعد المنازل وتوطن
وشف وين طريف المطن * منين تاخذ وما جيها

تتبع طريف الركب و رح * دمعتك فوق الخد تلوح
والدليل مليح مشروح * ليعنه واش يبريها

ليعة البرقة وامر الشوف * والهوى من لا ذاق يذوق
يرى حما الشيخ الزروق * نرسلك والنبس امصيها

فم يا طير ادخل برقة * حزم حزام بلا شبقة
الوطن بيه تعب وشقا * حذ ما يقدر يليها

كيف يا طير يكون مشيك * من التعب والعطش من يسقيك
لا رفيق معك يلهيك * ولا عرب تتسلى بيها

بت ساير واصبح قتار * في البيابي وارض الغبار
وادخل مصر فيها اختر * في الحسنين داراكرها

انزل مجاورهم يا صاح * عندهم تهنى وارتاح
زرهم كل مسا وصباح * والمجالس لا تخطيها

Ben Messaib, **Op**.**cit**, **p p 276–279**.

ملحق رقم 03: نصُّ وثيقةٍ رسميةٍ لتزكيةِ الشيخ عبد الكريم الفكون أميراً على ركب الحج الجزائري عام 1048هـ/1639م

"الحمد لله، لِيَعلَمْ مَنْ يقفُ على هذا الأمرِ الكريم، مِن القوّاد والعمّال والخاصِّ والعام ببلدِ قسنطينة، سدَّد اللهُ الجميع، وبعدُ فإنَّ الشيخَ العالم القدوة التقي الناسك الأبرَّ النحرير المؤلِّف البليغ، سيدي **عبد الكريم الفكون**، دامتْ بتوفيق الله عنايتُه ونفعَنا ببركاتِه، جدَّدْنا له على مقتضى ما بِيدِه من الأوامر، فلمَّا كان توجَّه للأرض المشرَّفة وزارَ قبرَ المصطفى، عليه الصلاة والسلام، بعد استخارة الله سبحانه، وظهرَ له يتبعُ طريق إمامِ التحقيق شيخِ الأشياخ العارفِ بالله المحقِّق المتبرَّك بهِ في الحركة والسُّكون سيدي أحمد زروق، نفعنا الله ببركاته.

وأذنَّا له بضَربِ الطبلِ، ويتوجَّه بالمسلمين كما كان، ويكونُ رقاس (مبعوث) الرسول، عليه الصلاة والسلام، لا مانعَ له ولا معارضَ ولا مُدافع، لأنَّه أحقُّ بها ويقوم بحقِّها. موصي فيما سعَى وقلَّد إليه وإتباع الطريق فيما اقتدى واهتدى، والرّفق بالرفيق، والسائق المزمِّل للبيت العتيق، يَسيرُ على قدر سيرهم، ولا يؤثر البعض على بعضهم. قصَدْنا بذلك وجهَ الله العظيم، ورجاءَ ثوابه الجسيم.

وكُتِبَ بأمرِ عبد الله المجاهد في سبيل الله أبي الحسن **علي باشا** ـ أيَّده الله ـ بتاريخ أوائل رمضان المعظم عام **ثمانية وأربعين وألف**. وبِأولهِ خاتمٌ بهِ ما نصُّه أضعفُ العِبادِ علي".

أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، مرجع سابق، ص225.

ملحق رقم 04: نماذج لشيوعِ الوقف على الحرمين الشريفين بالجزائر العثمانية

أ ـ نموذج وقف على الحرمين الشريفين عام 1066هـ/1656م

"أوقفَ **الحاج أحمد** بن علي الدار التي على ملكه بناحية باب عزون على ولديه أحمد ومريم، وعلى من سيولد له في المستقبل ذكوراً وإناثاً للذكر مثل حظِّ الأنثيين، ثم على عقب أولاده وأعقاب أعقابهم ما تناسلوا، فإن انقرض عقب الذكور رجع ذلك على عقب البنات وعقب أعقابهن ما تناسلوا، فإن انقرضوا عن آخرهم رجع ذلك حبساً على **فقراء الحرمين الشريفين**".

ب ـ رأي علماء الجزائر في أوقافٍ لم تُعيَّن مراجعُها عام 1174هـ/1760م

"بِمقتضَى الشرع القويم والصراط الواضح المستقيم حيث لم تُعلم الجهة التي يُصرَف إليها ما ذُكِر، أنَّ غلَّة ذلك تُصرف في **غالب قربات البلد،** وذلك **فقراء الحرمين الشريفين** مكة المشرقَة والمدينة المنورة".

"تأمَّلَ العلماءُ في القضية المذكورة تأمُّلاً كافياً وأمعنوا نظرهم فيها إمعاناً شافياً، فظهر لهم دامت عافيتُهم وقويتْ عِنايتُهم بدليل الشرع القويم والصراط الواضح المستقيم أنَّ المحبِّس إذا لم يُعيِّن المرجع وترك الحبس مهملاً، فالنصُ في ذلك أنه يرجع بعد انقراض ذرية المحبِّس لأقرب عصبته، وبعد انقراض العصبة يكون **لغالب أوقاف البلد وذلك مكة والمدينة** شرَّفهما الله تعالى".

خليفة حماش، الأسرة في مدينة الجزائر، مرجع سابق، ص ص: 901–905.

ملحق رقم 05: نماذج تقديرية لمجموع الزمن الكلِّي لرحلة الحج

مُنطلقُ الرّكب	تاريخ الذهاب	تاريخ العودة	مجموع زمن الرحلة
مدينة الجزائر (بحراً)	رجب 1091هـ/ جويلية 1680م	ربيع الثاني 1092هـ/ أبريل 1681م	**09 أشهر** (توقفات عادية)
الشرق الجزائري	جمادى الثاني 1179هـ/ نوفمبر 1765م	ذو الحجة 1180هـ/ أبريل 1767م	**19 شهراً** (توقف طويل بتونس)
الغرب الجزائري	ربيع الثاني 1241هـ/ نوفمبر 1825م	جمادى الثاني 1828م	**أكثر من سنتين** (زيارات بالمشرق)
وادي الساورة	ربيع الأول 1001هـ/ ديسمبر 1592م	شعبان 1002هـ/ أبريل 1594م	**17 شهراً** (تعطُّل بالقاهرة)
منطقة تيدكلت (عين صالح)	جمادى الثاني 1188هـ/ أوت 1774م	شعبان 1189هـ/ أكتوبر 1775م	**15 شهراً** (تعطُّل بالطريق)
وادي مِزاب	رجب 1196هـ/ جوان 1782م	ربيع الثاني 1197هـ/ مارس 1783م	**09 أشهر** (توقفات عادية)
منطقة الزّاب (بسكرة)	جمادى الثاني 1063هـ/ ماي 1653م	ربيع الثاني 1064هـ/ فبراير 1654م	**10 أشهر** (توقفات عادية)
توات (أدرار)	جمادى الأول 1232هـ ماي 1817م	رمضان 1233هـ جويلية 1818م	**15 شهراً** (تعطُّل بالطريق)

من إنجاز الباحث (بناءً على مصادر الدراسة)

ملحق رقم 06: نماذج عن وفيات بعض الحجاج ضمنَ الركب الجزائري

اسمُ الحاج	موطنُه	صِفتُه	تاريخُ الوفاة	مكانُها	ملاحظة
الحاج محمد آغا	مدينة الجزائر	موظف بالديوان	محرم 1041هـ أوت 1631م	المدينة المنورة	بعد أداء المناسك
محمد الفكون	قسنطينة	والد أمير الركب	1045هـ 1635م	المويلح (درب الحجاز)	في رحلة العودة
عبد الرحمن السائح الكنتي	أقبلي (تيدكلت)	أمير ركب الحج	منتصف القرن 11هـ القرن 17م	البقيع المدينة المنورة	والد الشيخ أبي نعامة
عويدة بنت محمد	بلاد الزَّاب	عمّة أمير الركب	أواخر 1063هـ نوفمبر 1653م	طريق المدينة المنورة	بعد أداء المناسك
؟ (عجوز)	الجزائر	من عامةِ الحجاج	1091هـ 1680م	رشيد (مصر)	في رحلة الذهاب
يحي الشاوي الملياني	مليانة الجزائر	عالمٌ وأميرُ الركب	1096هـ 1685م	في السفينة الإسكندرية	دُفن بالقرَّافة (القاهرة)
محمد المنور التلمساني	تلمسان	شيخٌ وعالم جليل	1173هـ 1759م	القاهرة	في رحلة العودة
عبد الرحمن بن السحري	بني عامر (سطيف)	عالمٌ فقيهٌ	أوائل 1179هـ 1765م	في طريق الحج	في رحلة الذهاب
أحمد الصديق	الجزائر	خطيبٌ ومعلِّمُ ولد الداي	صفر 1180هـ جويلية 1766م	القاهرة	دخول مصر في العودة
الحاج إبراهيم	؟	عالمٌ فاضِل	ذو الحجة 1179هـ ماي 1766م	مكة المكرمة	بعد الرجوع من عرفة
محمد بن القاضي	جبل زواوة (القبائل)	حاكم بلاد زواوة	محرم 1180هـ جوان 1766م	الينبُع (درب الحجاز)	في رحلة العودة
سيدي مهنّا الصنهاجي	قسنطينة	وليٌّ صالح	صفر 1180هـ جويلية 1766م	القاهرة	كبيرٌ في السّن
أحمد بن إدريس	أمدوكال	ابن عمّ أمير	ربيع الثاني 1180هـ	صعيد مصر	في رحلة

	(الزّاب)	الركب	سبتمبر 1766م		العودة
الطيب بن بونشادة	بني عامر (سطيف)	من عامةِ الحجاج	ربيع الثاني 1180هـ سبتمبر 1766م	كَفَر حمام (مصر)	في رحلة العودة
؟	بسكرة	قاضي مدينة بسكرة	منتصَف 1180هـ أواخر 1766م	قرية عَرام (شرق تونس)	في رحلة العودة
عويشة بنت عبد الله	قصر الطير (سطيف)	زوجة الشيخ الورثِلاني	1180هـ 1766م	تونس	في رحلة العودة
فاطمة بنت عبد الله	قصر الطير (سطيف)	زوجة ابن الورثِلاني	1180هـ 1766م	تونس	في رحلة العودة
الحاج العباس بن إبراهيم	تيمي (توات)	شيخٌ فاضل	محرم 1189هـ مارس 1775م	عيون القصب (درب الحجاز)	في رحلة العودة
عبد الرحمن بن عمر التنلاني	منطقة توات	عالمٌ جليلٌ	صفر 1189هـ أبريل 1775م	القاهرة (مقبرة المنوفي)	في رحلة العودة
سلمان ؟	وادي مِيزاب	من عامةِ الحجاج	شعبان 1196هـ أوت 1782م	مدينة قابس (تونس)	في رحلة الذهاب
التومي ؟	صحراء الجزائر	من عامةِ الحجاج	ذو القعدة 1196هـ نوفمبر 1782م	معطن النبط (درب الحجاز)	في رحلة الذهاب
عيسى بن أحمد	وادي مِيزاب	من عامةِ الحجاج	ذو الحجة 1196هـ ديسمبر 1782م	طريق المدينة المنورة	بعد أداء المناسك
عيسى بن سلمان	وادي مِيزاب	إمامُ بلدة القرارة	محرم 1197هـ ديسمبر 1782م	البقيع المدينة المنورة	في رحلة العودة
سعيد بن قاسم	وادي مِيزاب	مؤذِّن ركب الحج	محرم 1197هـ ديسمبر 1782م	المويلح (درب الحجاز)	في رحلة العودة
الحاج مصطفى الغريسي	غريس معسكر	جدّ الأمير عبد القادر	1212هـ 1797م	عين غزالة درنة (ليبيا)	بعد الحَجّة الرابعة
أحمد التهامي	وهران	مفتي وهران	أوائل ق 13هـ أواخر ق 18م	مصر	في رحلة العودة
الحاج بابا حمو	توات	من العامّة	محرّم 1233هـ	الجديدة	بعد أداء

			أواخر 1817م	جنوب المدينة	المناسك
الحاج عبد الرحمن التنلاني	تنلان توات	شيخٌ فقيه	1233هـ 1818م	السبخة (شرق ليبيا)	في رحلة العودة
الحاج اسويلم	توات	من العامّة	1233هـ 1818م	قرب الهاروج (ليبيا)	في رحلة العودة
محمود بن محمد	الجزائر	والد المفتي ابن العنابي	مستهلّ 1237هـ 1821م	بلد القصير (السويس)	في رحلة العودة

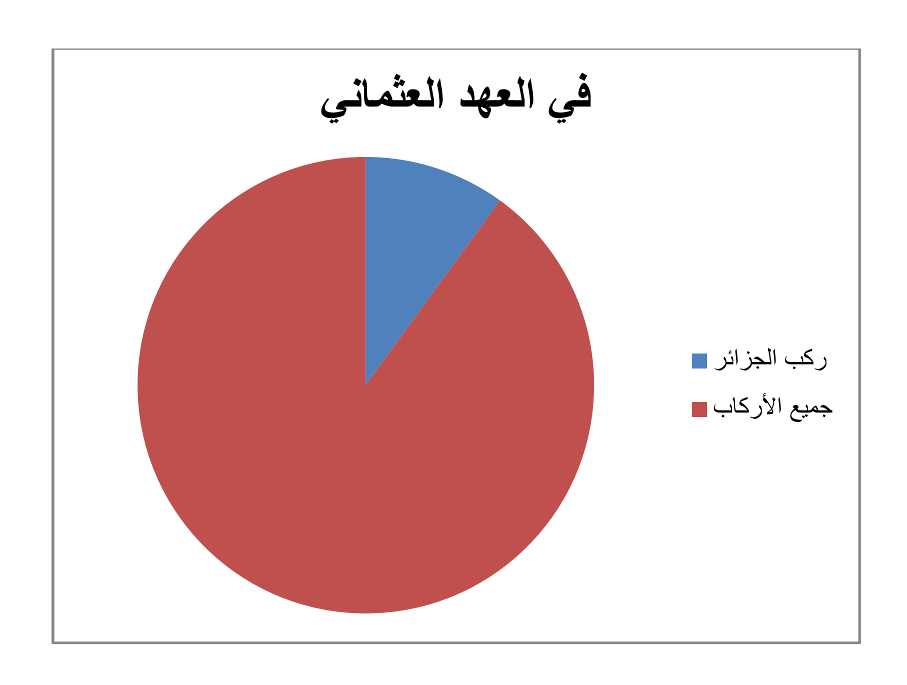
من إنجاز الباحث (بناءً على مصادر الدراسة)

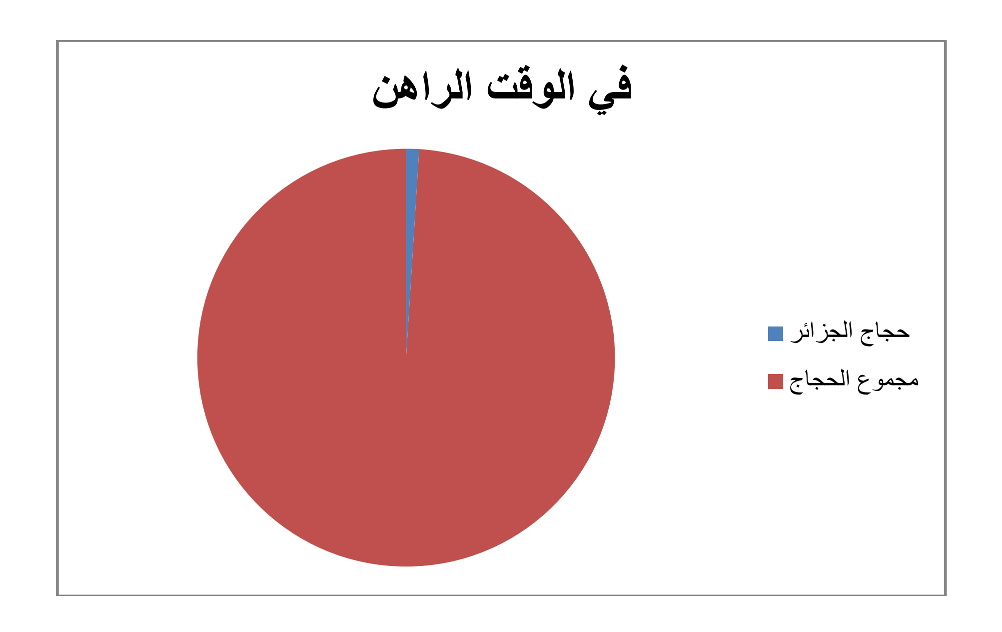
ملحق رقم 07: أسماء أهمِّ عيون الماء المنتشِرة في طريق ركب الحج

الرقم	اسم المعطن (العين)	الموقع	مِيزةُ مائِه
01	الغيسران	شرق الجزائر	لا بأس به
02	الشبيكة	مدخل توزر التونسية	عذب
03	الوديان	شرق تونس	صالح
04	مطراو	صحراء ليبيا	لا بأس به
05	النعيم	صحراء ليبيا	عذب
06	المنعم	صحراء ليبيا	زلال
07	الراضة	أجدابيا (شرق ليبيا)	لا بأس به
08	سلّوك	شرق ليبيا	عذب
09	التميمي	إقليم برقة	حسن
10	السروال	إقليم برقة	لا بأس به
11	الشقَّه	إقليم برقة	قبيحٌ آجن
12	الجرجوب	إقليم برقة	لا بأس به
13	الشمام	إقليم برقة	لا بأس به
14	عجرود	درب الحجاز	مالح
15	بئر الصعاليك	درب الحجاز	عادي
16	ظهر الحمار	درب الحجاز	لا بأس به
17	عيون الأقصاب	درب الحجاز	عذبٌ جارٍ
18	بئر السلطان	درب الحجاز	لا بأس به
19	عكرة	درب الحجاز	قبيح
20	واد فاطمة	مكة المكرمة	عذبٌ جارٍ

من إنجاز الباحث (بناءً على مصادر الدراسة)

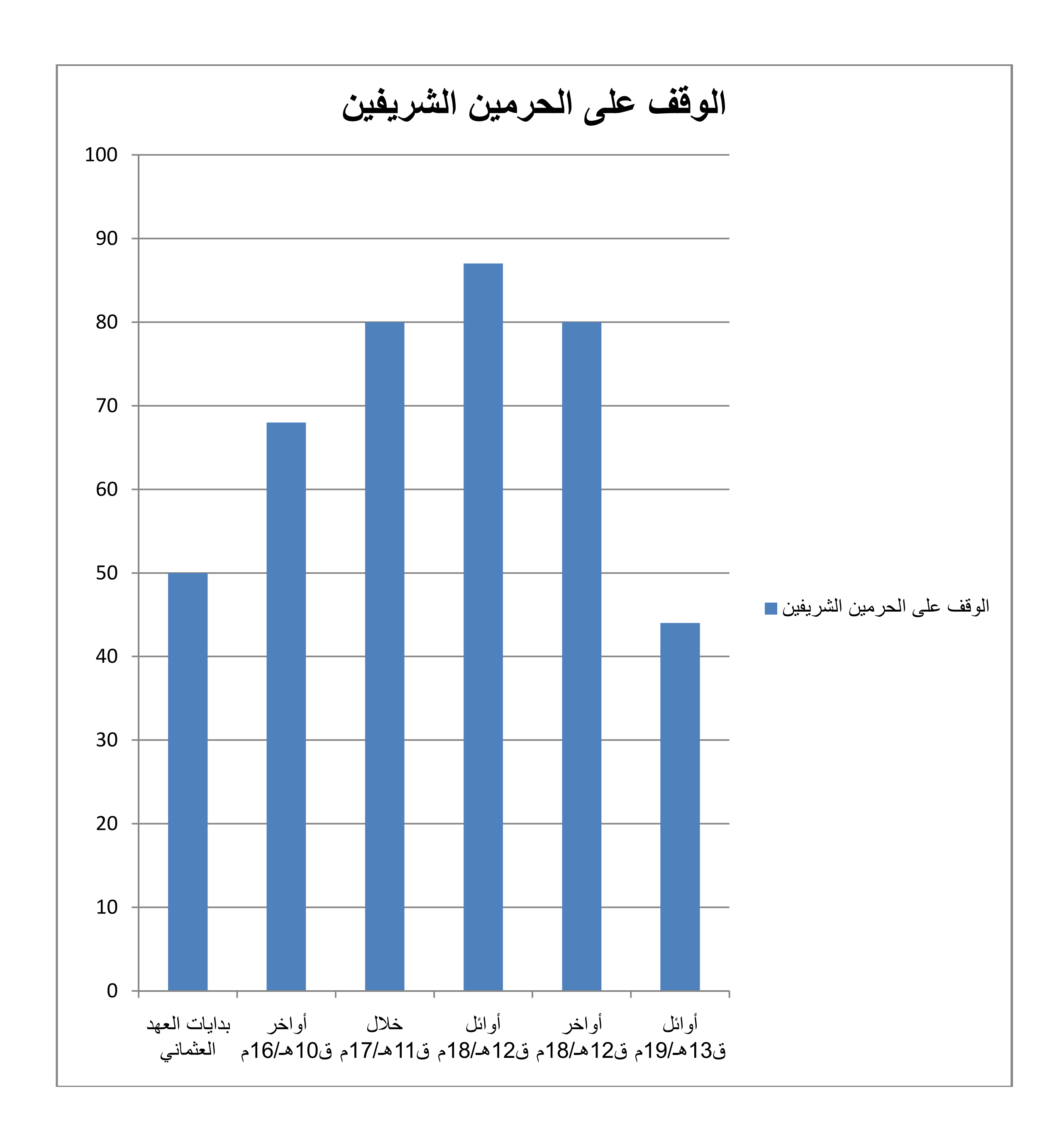
ملحق رقم 08: نسبة الحجاج الجزائريين من إجمالي عدد الحجاج (بين عهدين)





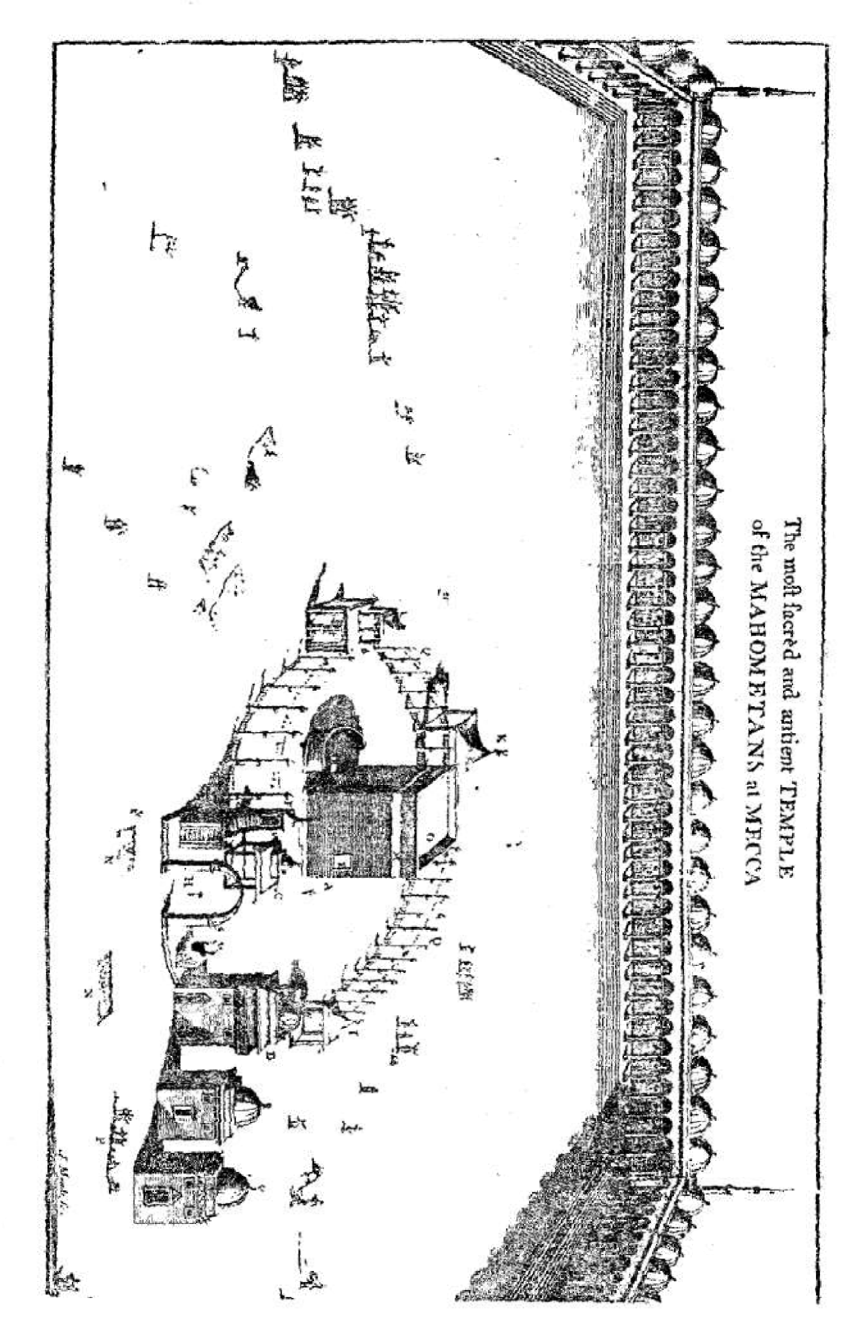
من إنجاز الباحث (مقارنة تقديرية بناءً على ما توفَّر من معلومات)

ملحق رقم 09: معدلات الوقف على الحرمين الشريفين من الوقف الإجمالي بالجزائر في بعض مراحل العهد العثماني



مُستخرَجٌ من جدول توزيع الحالات المرجعية في الوقف بالجزائر العثمانية لـ: خليفة حماش، الأسرة في مدينة الجزائر، مرجع سابق، ص907.

ملحق رقم 10: مخطط المسجد الحرام بيد حاجٍّ من ركب الجزائر في موسم حجٍّ 1091هـ/1680م



رحلة جوزيف – ١٧

جوزيف بتس، المصدر السابق، ص17.

ملحق رقم 11: أسماءُ بعضِ زادِ ومُعدَّات الحجاج في ركبِ الحج

وتزوَّدْ وخَيْرُ زَادِكَ تقوَى ويُصاحِبُها طعامٌ ومَاءُ
وانتَخِبْ أسرَعَ المراكِبِ سَيْراً وجِمالاً تُطوَى بها الأفْلاءُ
واتَّخِذْ للفصولِ خيرَ لباسٍ سيَمَا عندمَا يَحِينُ الشتاءُ
واتَّخِذْ ما يَقيكَ ساقَيْكَ برداً مِثلَ وَارْقِلَةٍ بهَا استِدْفاءُ
وكذَا مَا تَكِنُّ فيهِ فإمَّا مِثلُ بَيْتٍ يَقي وإمَّا خِباءُ
وكذا مَفرشٌ أخي وفِراشٌ ووِسادٌ مَتَى يكُنْ إغفاءُ
واصحَبِ الشَّمعَ للإضاءَةِ والفَا نوسَ تَحْظَ بما بِهِ يُستضاءُ
واتَّخِذْ قيِّماً صَدوقاً أميناً مَعَ خُدَّامِ كُلِّ أمرٍ تشاءُ
ثُمَّ آلاتٍ مِثلَ قِدْرٍ نُحاسٍ مَعَ كَسْكَاسِها وذاكَ سَواءُ
ثُمَّ قُفٍّ لهَا ومَغْرَفَةٌ ثمَّـتَ طَنْجَرَةٌ يَلِيهَا غِطاءُ
وكذا طَاوةٌ وشُعْلٌ وزِندٌ وقَدومٌ ومِحقَنٌ ودِلاءُ
وحِبالٌ ومَيجَمٌ مَعَ سَطْلٍ وكذا قِطعةٌ عَدَاكَ الشَّقاءُ
وبَطَّاتُ الإدامِ كالشَّحم والسَّمْـنِ وخَلٌّ ووقتُهُ الرَّمضاءُ
وكذا سُفرةٌ وصَحنٌ لأَكْلٍ ولكُلٍّ ممَّا ذكرتُ وِقاءُ
واتَّخِذْ يا فتىَ غَرارةَ دبشٍ وليكُنْ لكَ بالأمورِ اعتِناءُ
واتَّخِذْ رَكوةً وطاسَةَ شُربٍ في سِماطِ العلِّيقِ وَهْوَ وِعاءُ
وَلْتُصاحِبْ بُطِيطةَ السَّمنِ أو شبـهٍ إذا لمْ يكنْ لكَ استغناءُ
واعْجِنَنَّ السّويقَ بالسَّمنِ إنْ أمْـكنَ مَعْ عَسَلٍ فنِعمَ الغذاءُ
فإذا يتعذَّرُ الطَّبخُ يَوماً كانَ فيهِ لآكِليهِ غِناءُ
وليُصاحِبْكَ كاغِدٌ ودواةٌ مَعَ أقلامِها لِما قدْ يُشاءُ
مِقْرَضٌ ومِشْطٌ ومَوْسَى ومرآ ةٌ ويَحفَظُ كُلَّهُنَّ غِشاءُ
وخُيوطٌ مِنْ كلِّ نُوعٍ وإبْرَا تٌ ومِنْ بعدِ مِخْيَطٍ إشْفاءُ
ثُمَّ مُكْحَلَةٌ بِكُحْلٍ وميلٌ ثُمَّ لَقَّاطُ شَوْكٍ بِيسَ الدَّاءُ
وتذكَّرْ حوائِجاً نافعاتٍ وتجنَّبْ لِمَا اقتِناهُ عَناءُ

وانْتَخِبْ قِرَباً وَثيقَةَ خَرزٍ   جيِّداتٍ لِيُمكِنَ اسْتِسْقاءُ

وتَخَيَّرْ لهَا تَبارِجَ تَحمِيـ   ـهَا لكَي لا يُصِيبَها إفْراءُ

واتَّخِذْ يَا فتَى مِنَ العِطرِ شيئاً   رُبَّ وقتٍ بِهِ يكونُ الشِّراءُ

لا تَكلَّفْ بسِلعةٍ إنَّ فيها   خطَراً وهْيَ مِحنةٌ وبَلاءُ

بَلْ دنانيرُ جيِّدٌ مِن نُضارٍ   في حزامِك حبَّذا الرُّفقاءُ

ولْيُصاحِبْكَ مَا تُصلِّي عليهِ   مِثلَ جِلدٍ مَتى يكُنْ إيذاءُ

واصْحَبَنَّ مناسكَ الحجِّ إذْ لا   يَستوي العُلماءُ والجُهَلاءُ

والتَزِمْ كُتُباً تُفيدُكَ عِلماً   فَهْيَ نِعمَ الأصحابُ والجُلَساءُ

ودلِيلُ الخَيراتِ لا تَسْهَ عنهُ   إنَّما هُوَ كاسْمِهِ لا مِراءُ

واصحَبَنْ سَبْحةً تُذكِّرُكَ الذِّكْـ   ـرَ ومَا لِلْمَظَلِّ عنكَ عَداءُ

واصحَبَنْ مثلَ زِيبَقٍ مَعَ حنَّا   ءَ فَذاكَ لِلقَملِ منه جَلاءُ

واتَّخِذْ يا لَبيبُ آلَةَ حَرْبٍ   ربَّما عَرَضَتْ لكَ الأعداءُ

واتَّخِذْ للطَّريقِ خَيْرَ رَفيقٍ   إنَّ ذاكَ لَعَمْرِيَ العَنْقاءُ

وَلْتُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ كَثيراً   فَالصَّلاةُ عَلَى النَّبِيِّ شِفاءُ

محمد المنوني، المرجع السابق، ص89 وما بعدها (مُلحق رحلة العامري التلمساني في القرن 12هـ/18م)

ملحق رقم 12: قصيدةٌ شوقيةٌ لأبي محمد عبد الله البسكري (ت713هـ/1313م)

دارُ الحبيبِ أحقُّ أنْ تهوَاهَا … وتَحِنَّ من طَرَبٍ إلى ذِكراهَا

وعلى الجفونِ إذا همَمْتَ بزورَةٍ … يَا ابنَ الكرامِ عليكَ أن تَغشاهَا

فَلَأنتَ أنتَ إذا حلَلْتَ بطيبةٍ … وظلَلتَ ترتعُ في ظِلال رُباهَا

لا تحسبِ المِسكَ الذكيَّ كَتُربِها … هَيهاتَ أينَ المسكُ مِنْ ريَّاهَا

طابتْ فإنْ تبغِ التطيُّبَ يا فتَى … فَأدِمْ على الساعاتِ لثمَ ثَراهَا

وابشِرْ ففِي الخبرِ الصحيحِ تقرَّرَ … أنَّ الإلَهَ بِطَيبةٍ سَمَّاهَا

واختَصَّها بالطَّيِّبينَ لطِيبِها … واختارَهَا ودَعَا إلى سُكْناهَا

لَا كالمدينةِ مَنزِلٌ وكفَى بها … شَرَفاً حُلولُ مُحمَّدٍ بِفِناهَا

خُصَّتْ بِهِجرةِ خَيْرِ مَن وَطِئَ … الثَّرى وأجلِّهم قَدراً وأعظمِ جَاهَا

كُلُّ البِلادِ إذَا ذُكِرنَ كأحرفٍ … في اسمِ المدينةِ لَا خَلَا مَعناهَا

حاشَا مُسمَّى القدسِ فَهْيَ قريبةٌ … مِنها ومَكَّةَ إنَّها إيَّاهَا

لَا فرقَ إلَّا أنَّ ثَمَّ لطيفةً … مَهمَا بدتْ يَجلُو الظلامَ سَناهَا

جَزَمَ الجميعُ بأنَّ خيرَ الأرضِ مَا … قد حازَ ذاتَ المصطفَى وحَواهَا

ونعمْ لقد صدقوا بِساكِنِها عَلَتْ … كالنَّفسِ حينَ زَكَتْ زَكَا مَأْواهَا

وبهذه ظَهَرتْ مَزِيَّةُ طيبةٍ … فغَدتْ وكلُّ الفضلِ في معناهَا

حتَى لقدْ خُصَّتْ بهِجرةِ حِبِّهِ … اللهُ شرَّفَها بِهِ وحَباهَا

مَا بينَ قبرٍ للنبيِّ ومِنبَرٍ … حَيَّا الإلهُ رسولَهُ وسقاهَا

هذِي محاسِنُها فهلْ مِن عاشقٍ … كَلِفٍ شَجِيٍّ ناحِلٍ بِنَواهَا

إنِّي لأَرهَبُ مِنْ تَوقُّعِ بَيْنِها … فيَظَلُّ قلبي مُوجَعاً أوَّاهَا

ولَقلَّما أبصرتُ حالَ مودِّعٍ … إلَّا رثتْ نفسِي لَهُ وشَجَاهَا

فَلكَمْ أَراكُمْ قافلين جماعةً … في إثرِ أُخرَى طالبينَ سِواهَا

قَسَماً لقد قاسَى فؤادي بينَكم … جَزعاً وفجَّرَ مُقلتِي مِياهَا

إنْ كان يُزعِجُكُمْ طِلابُ فضيلةٍ … فالخيرُ أجمعُهُ لَدى مَثواهَا

أو خِفتموا ضُرّاً بِها فتأمَّلُوا … بركاتِ بُقعتِها فمَا أزكاهَا

أُفٍّ لمنْ يَبغِي الكثيرَ لشهوةٍ ... ورَفاهةٍ لَمْ يَدْرِ ما عُقباهَا
فالعَيْشُ ما يكفي وليسَ هوَ الذي ... يُطغِي النُّفوسَ إلى خَسيسِ مُناهَا
يَا ربِّ أسألُ مِنكَ فضلَ قناعَةٍ ... بِيَسيرِها وتحصُّناً بِحِماهَا
ورِضاكَ عنِّي دائماً ولُزومَها ... حتَّى تُوافِي مُهجَتي أُخراهَا
أنتَ الذي أَعطيتَ نفسِي سُؤلَها ... وقَبِلتَ دعواها فيَا بُشراهَا
بجوارِ أوفَى العالمين بِذِمَّةٍ ... وأعزِّ مَن بالقربِ منهُ يُباهَى
مَن جاءَ بالآياتِ والنُّورِ الذي ... داوَى القلوبَ مِنَ العَمَى فَشفاهَا
أَوْلَى الأنامِ بِخطَّةِ الشَّرفِ التي ... تُدعَى الوسيلةَ خَيرِ مَنْ يُعطاهَا
إنسانُ عَينِ الكونِ سِرُّ وجودهِ ... (يس) أكسِيرُ المحاسِنِ طهَ
حَسْبِي فلستُ أَفِي ببعضِ صِفاتهِ ... لو أنَّ لي عددَ الحصَى أفواهَا
كَثُرَتْ محاسِنُه فأُعجِزَ حصرُهَا ... فغَدَتْ وما تَلقَى لها أَشْباهَا
إنِّي اهتديتُ منَ الكتابِ بِآيةٍ ... فعلِمتُ أنَّ عُلاهُ ليسَ يُضاهَى
ورأيتُ فَضلَ العالمينَ مُحدَّداً ... وفضائلُ المختارِ لَا تَتَناهَى
كَيفَ السبيلُ إلى تَقَصِّي مدحِ مَنْ ... قالَ الإلهُ لهُ وحَسْبُكَ جاهَا
(إنَّ الذين يُبَايعونَكَ إنَّمَا ... - فِيمَا يقولُ - يُبايِعُونَ اللهَ)
هَذَا الفَخَارُ فهلْ سمِعْتَ بمثلِهِ ... وَاهاً لِنشأتِه الكريمةِ وَاهَا
صَلُّوا عليهِ وسَلِّمُوا فَبِذَلِكُمْ ... تُهْدَى النفُوسُ لرُشْدِها وغِناهَا
صَلَّى عليهِ اللهُ غيرَ مُقيَّدٍ ... وعليهِ مِنْ برَكاتِه أنمَاهَا
وعَلَى الأكابرِ آلِهِ سُرُجِ الهُدَى ... أَكْرِمْ بِعِترتِهِ ومَنْ وَالَاهَا
وكذا السَّلامُ عَليهِ ثُمَّ عَليهِمُ ... وَعلَى صَحابتِهِ التِي زَكَّاهَا
أَعْنِي الكِرامَ أُولِي النُّهَى أصحَابَه ... فِئَةَ التُّقَى ومَنِ اهتَدَى بِهُداهَا
والحَمْدُ للهِ الكَرِيمِ وَهذِهِ ... نَجَزَتْ وظَنِّي أنَّهُ يَرضَاهَا

القيسي السراج، المصدر السابق، ص143.

ملحق رقم 13: أمثال وأقوال مرتبطة بركب الحج في العهد العثماني

- "جملٌ طرابلسي وقِرْبةٌ مصرية"

مثلٌ شاعَ بين الحجاج المغاربة في العهد العثماني، مؤدَّاه أنَّ أنفَعَ الزَّاد لمن عوَّل على إتمام السفر إلى الحج وتيسير بعض ظروفه هو: جملٌ من جِمال مدينة طرابلس الليبية، الشهيرة بقوة التحمُّل والصبر على العطش والأثقال. وكذا قِربة جلدية من القِرب المصرية المتميِّزة بجودة الإتقان، وحفظ الماء على مسافات طويلة. لذلك كان الحجاج الجزائريون ـ حينئذٍ ـ يستبدلون رواحلهم بالإبل الطرابلسية، حين يصِلون تلك المحطة.

- "الحجُّ زادٌ وراحلة"

مَثَلٌ لتوضيح أهمّ مطلَبَين يجبُ توفّرهما عند مَن يرغب في الحج خلال تلك الأزمنة، مالٌ ومؤونة، إضافةً إلى راحلة (جملٌ، فرسٌ، أو بغلةٌ....)

- "حجَّ حجّةً صعلوكية"؟

هي حَجّةٌ في إطارٍ غيرِ منظَّم، مستقلَّة عن الركب وضوابطه التنظيمية، في معزلٍ عن وظائف السفر الجماعية المشتركة المعهودة بين الحجاج، من حراسةٍ ونصبٍ للخيام وجمعٍ للحطب ورعيٍ للرواحل.... وهي بذلك ليست مُكلِفة. كان يلجأ إليها الضعفاء والفقراء، وكذا العالةُ منهم على غيرهم من الحجاج طيلة السفر، فيغلب عليهم وصف "الحجاج الصعاليك".

- "حجّ وجاز على برقة"!

- "حرقة وغرقة ولا برقة"!

كان هذا المثل يُضرب للعجب غايةَ العجب ممَّن يتمكَّن من الحجاج من اجتياز مفازة برقة الليبية المقفِرة المخيفة والمهلِكة، إمَّا بمفردِه أو في عددٍ قليل من الحجاج المتخلِّفين عن الركب. ويُبيّن أنَّ خطر تلك المفازة الموحِشة ليس أقلَّ وقعاً من الغرق أو الحرق.

ـ "ركبُ الحجّ غدوُّهُ عامٌ ورواحُهُ عامٌ"

مثلٌ يُشيرُ إلى طول الفترة الزمنية التي كان يستغرقها ركب الحج في سفره البعيد إلى الحجاز، والتي تصلُ أحياناً إلى العامين، ما بين ذهاب وإياب.

ـ "مائة دقَّه وْلاَ شربة من الشقَّه"

مثل شائع باللغة الدارجة في ذلك العهد، والشَقَّة المذكورة هي مورد ماء قبيح آجن مالح، يوجد في صحراء برقة الليبية، يتمنَّى من ألْزَمَهُ العطشُ إلى شُربه من الحجاج لو أنَّه ما شربَهُ، بلْ يُفضِّل أنْ يُضرب مائة ضربة على أنْ يتناول شربةً واحدة منه!

ـ "المال المودَع بعْ وانتَفعْ"

مثلٌ لتنبيه الحجاج الجدد على أنَّ الرأي الصائبَ في السفر هو بيعُ ما فَضُلَ من الإبل لديهم على الحاجة، وليس إيداعَها في الوكالات المخصصة لذلك، ومتى احتاج الحاجُّ إبلاً بديلة اشترى، وارتاح من مشاكل سماسرة الإيداع والكراء، الذين يتلقّون الحجاج بطمعٍ ونَهَمٍ في مصر والحجاز.

ـ "الماشي للحج مفقود والراجع مولود"

للدلالة على أنَّ حدوث الوفاة في رحلة الحج الشاقَّة والخطيرة بكلِّ المقاييس والأبعاد أمرٌ عادي في ذلك الزمان، وأنَّ العائدَ منها كمَنْ كُتِب له عُمرٌ ثانٍ!

ـ "مكَّة في الشرق ورجالها في الغرب"

كناية عن تعلُّقِ الحجاج المغاربة الشديد بالحرمين الشريفين، وتمسُّكِهم غير المتناهي بشعيرة الحج رغم بُعدِ المغرب عن المشرق، وصعوبات السفر المتراكمة آنذاك.

ـ "مَن أراد أنْ ينظرَ إلى الدنيا بعد انقراض أهلها فلينظر إلى مِنى!"

يُضربُ في العَجَب من ضيقِ مشعرِ مِنَى وازدحامه بالحجاج ورواحلهم وأمتعتهم وأسواقهم أثناء موسم الحج، ثمّ تبيُّن سعة ذلك المكان وامتداده بعد ارتحال أركاب الحج عنه مباشرة. وكذلك هو حال الدنيا.... خرابٌ بعد عمارة!

ـ "قطَعنَا سبعَ وعْرَاتٍ!"

مثَلٌ يُردِّده الحجاج عندما يفرحون بقطع سبع مرتفعات، شكَّلت دوماً صعوبات وعقبات في طريق سير ركب الحج في مقطع درب الحجاز.

ـ "سرّ مكَّة يبقى في مكَّة"

مثلٌ دارجٌ على ألسنة الحجاج الجزائريين، يدعو إلى حفظ أسرار ومشاهدات موسم الحج، وعدم نقل الأخبار أو التفاصيل السلبية المسيئة لرحلة الحج المقدسة.

ـ "شيخُها جملٌ"

كان يُضرب في الحالات المتكررة التي يرتحل فيها الركب من أحد المنازل دون إذن شيخ الركب، بل بمجرّد سماع صوت رُغاءِ الجمل! فيظنُّ أول من يسمعه أنَّه إيعازٌ من قيادة الركب للارتحال فيرتحل، ثمَّ يتبعُه آخرون، وهكذا حتى يرتحل جميع الركب بصوت جمل، وليس بأمر شيخه! وفيه كناية عن ضعف شخصية أمير الركب أحياناً.

ـ "وما هداكَ إلى أرضٍ كعالِمِها"

أي ضرورة استئجار ركب الحج للدليل أو الخبير الماهر العالِم بالطريق، الذي يُجنِّب الحجاج خطر التِّيه في بعض المقاطع الموحِشة، لأنَّه أدرى وأعلم بالطريق من الحجاج.

ـ "لا بُدَّ أن تأخذ هذه المفازةُ شاتَها"

مثلٌ يحوي بعض التشاؤم من المفازات الموحِشة التي كان ركب الحج يَتِيهُ فيها، وتشبيه الخسائر البشرية أو المادية من جرَّاء عبورها، كمن أخذ "شاة" على الأقل من شخصٍ ضريبةً لمروره! فأصبح الحجاج يذكرونه كلَّما جاوزوا إحدى المفازات في الطريق.

ـ "لا تأمن اللصوص ولو هُم في صُحبتك"

مثلٌ لتنبيه الحاج وتحذيره من "الحجاج الصعاليك" المسافرين مع الركب في كلِّ موسم، وتشبيه بعضهم بالصعاليكِ، قطَّاعِ الطرق الحقيقيين.

ـ "لا رجالَ إلَّا رجال الحوراء، ولا جِمالَ إلَّا جِمال الدوراء"

الحوراء بندر من بنادر درب الحجاز، رجالُه أهل غاراتٍ شديدةِ الوقع على أركاب الحج. والدوراء أو الدورة بمعنى الرجعة، أي أنَّ الجمال القوية المطلوبة للحج هي التي تصبر في رحلة الرجوع من الحج، إذ هو آخر السفر، وفيه يقلُّ علف الجمال، ويزداد ثِقل أحمالها. فالجِمال الشديدة في العودة فعلُها كفعلِ رجال الحوراء الأشدَّاء.

من إنجاز الباحث (بناءً على مصادر الدراسة)

ملحق رقم 14: صورة من مخطوط رحلة عبد الرحمان المجاجي موسم 1063هـ/1653م



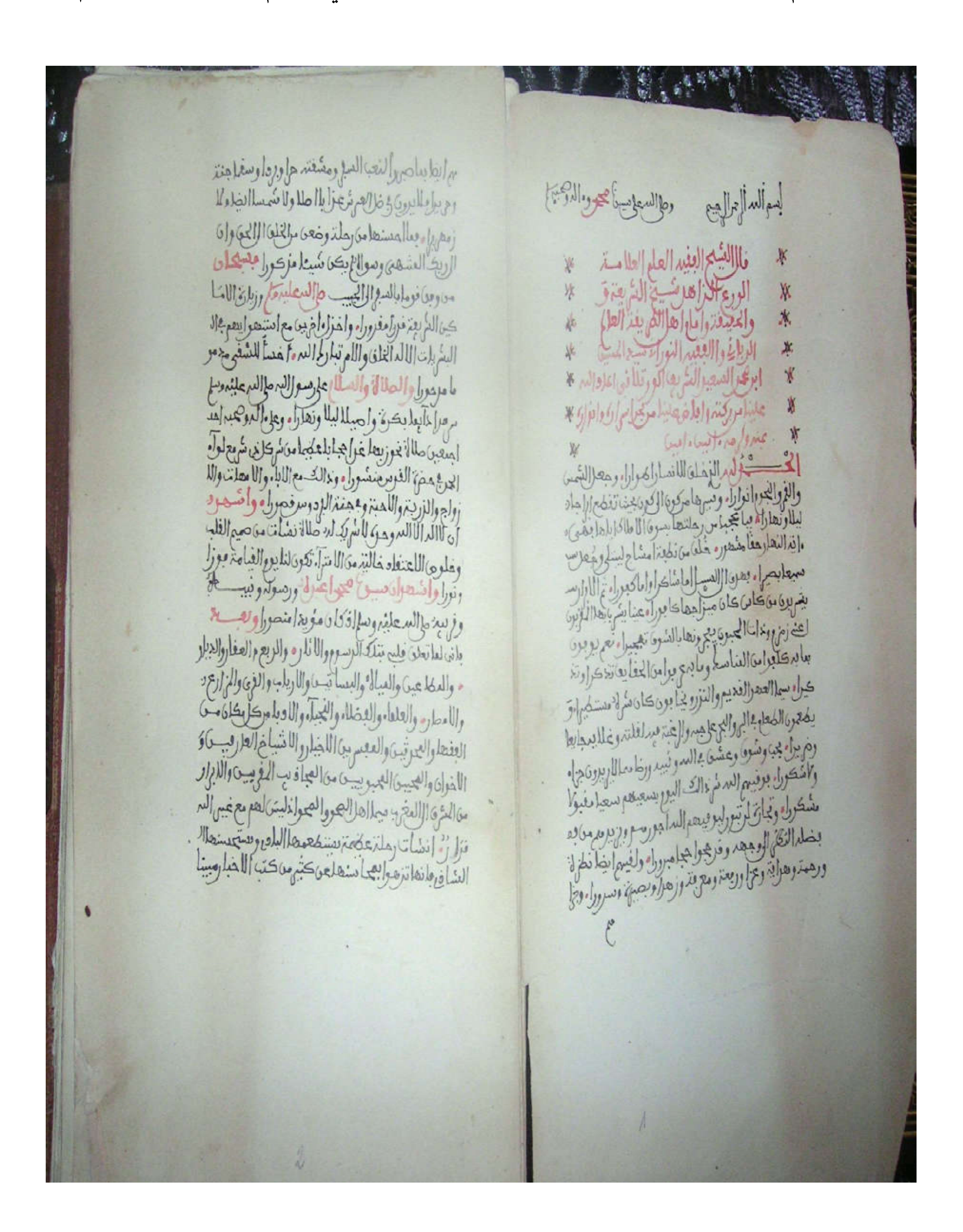
المكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر: رقم 1565.

ملحق رقم 15: صورة من مخطوط رحلة ابن الطيب الشرقي موسم 1139هـ/1727م



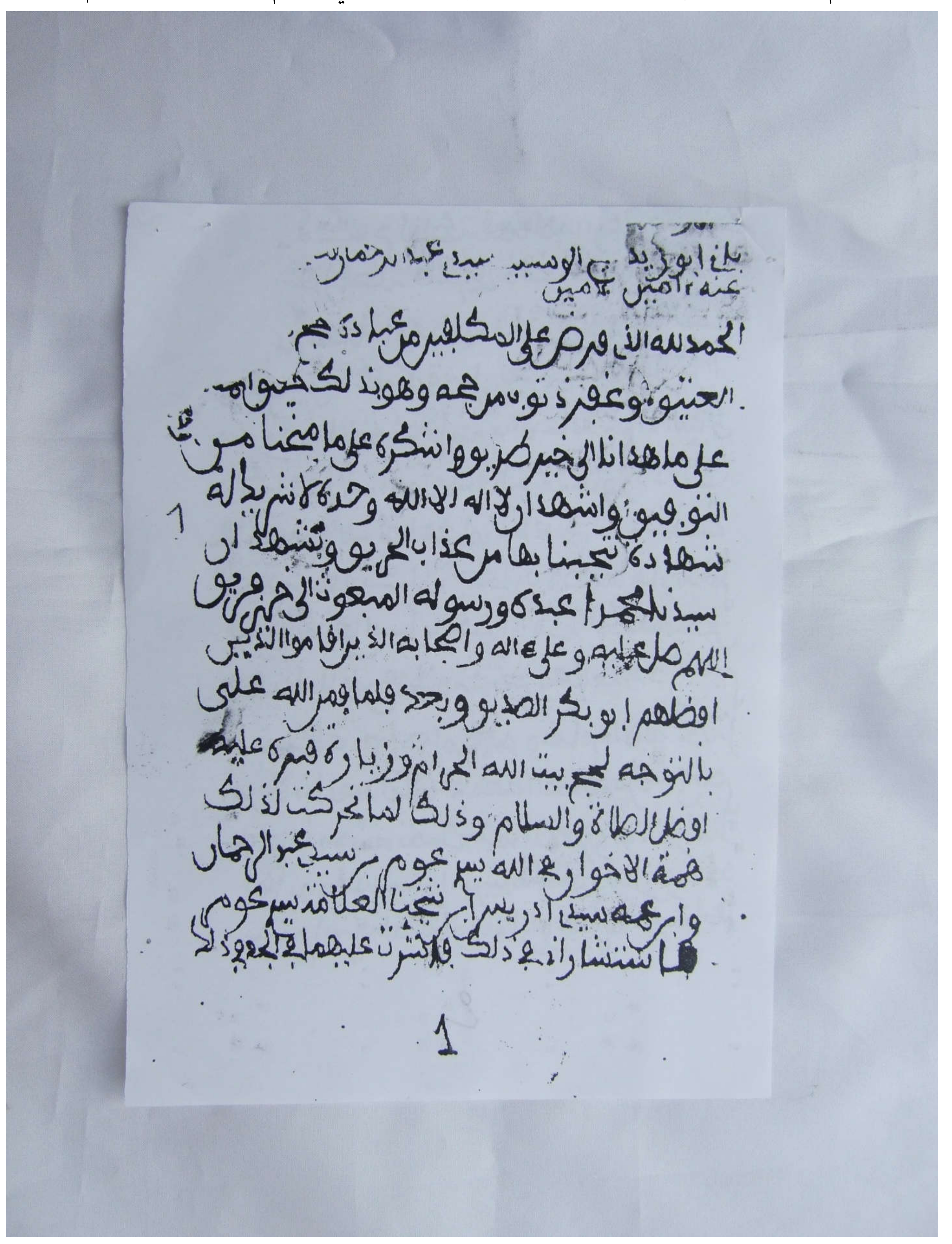
مخطوط بجامعة ليبزيك، فيينا، رقم: 746.

ملحق رقم 16: صورة من مخطوط رحلة الحسين الورثلاني موسم 1179هـ/1766م



خزانة برج بن عزوز، بسكرة، الجزائر.

ملحق رقم 17: **صورة من مخطوط رحلة عبد الرحمان التنلاني موسم 1188هـ/1774م**

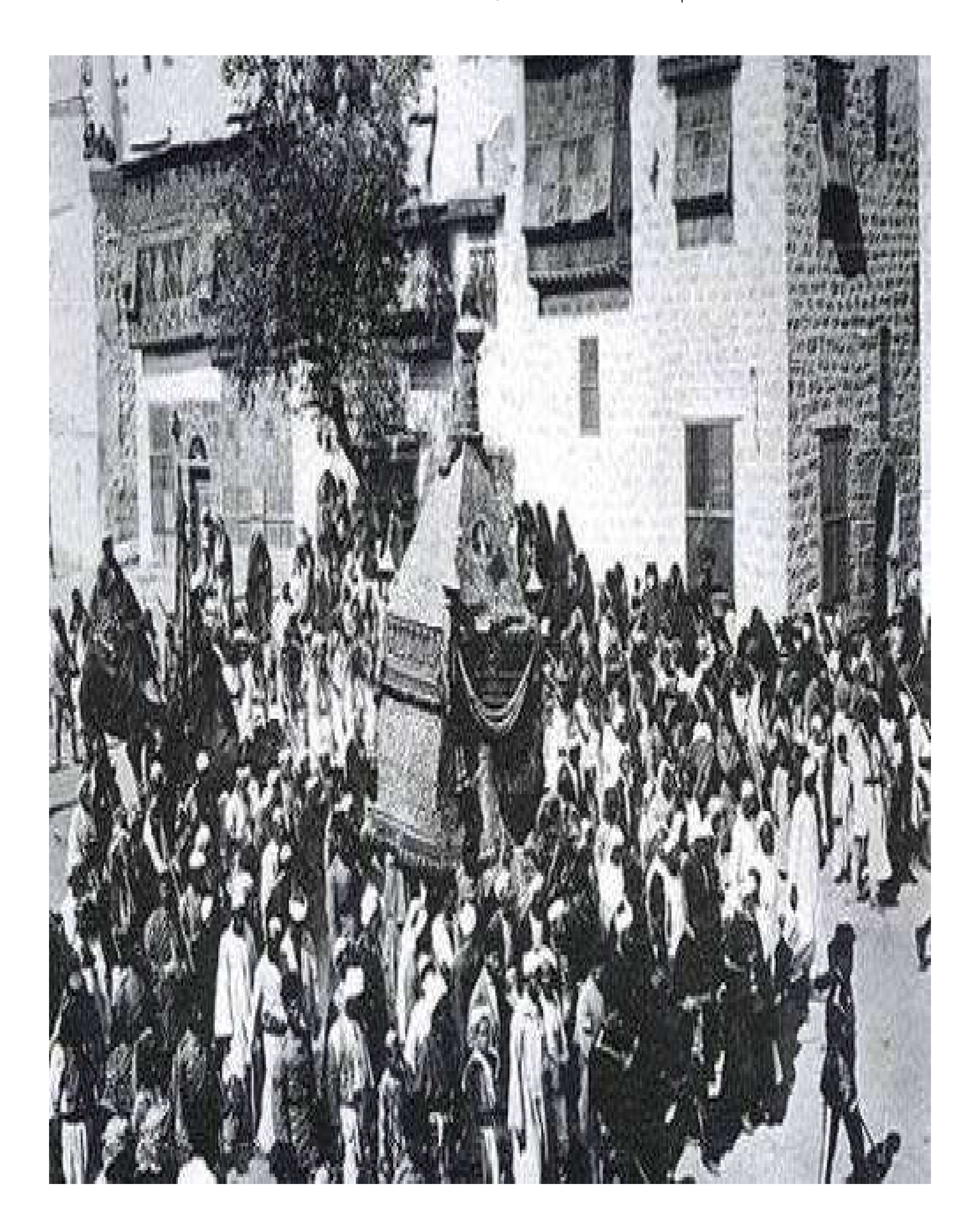

قال أبو زيد بن الوسيد سيدي عبد الرحمان رضي الله
عنه آمين آمين
الحمد لله الذي فرض على المكلفين من عباده حج
العتيق وغفر ذنوب من حجه وهو بذلك حقيق
على ما هدانا إلى خير طريق ونشكره على ما منحنا من
التوفيق وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له
شهادة تنجينا بها من عذاب الحريق ونشهد أن
سيدنا محمدا عبده ورسوله المبعوث إلى خير فريق
اللهم صل عليه وعلى آله وأصحابه الذين رافقوا الذين
أفضلهم أبو بكر الصديق وبعد فلما من الله علي
بالتوجه لحج بيت الله الحرام وزيارة قبره عليه
أفضل الصلاة والسلام وذلك لما تحرك لذلك
همة الأخوان في الله سيدي محمد بن سيدي عبد الرحمان
وابن عمه سيدي ادريس ابن شيخنا العلامة سيدي محمد
فاستشاراني في ذلك فأشرت عليهما في الجهود [illegible]
1

خزانة بن الوليد، أدرار، الجزائر.

ملحق رقم 18: صورة لنزول الحجاج في ميناء جُدَّة (الركب البحري)



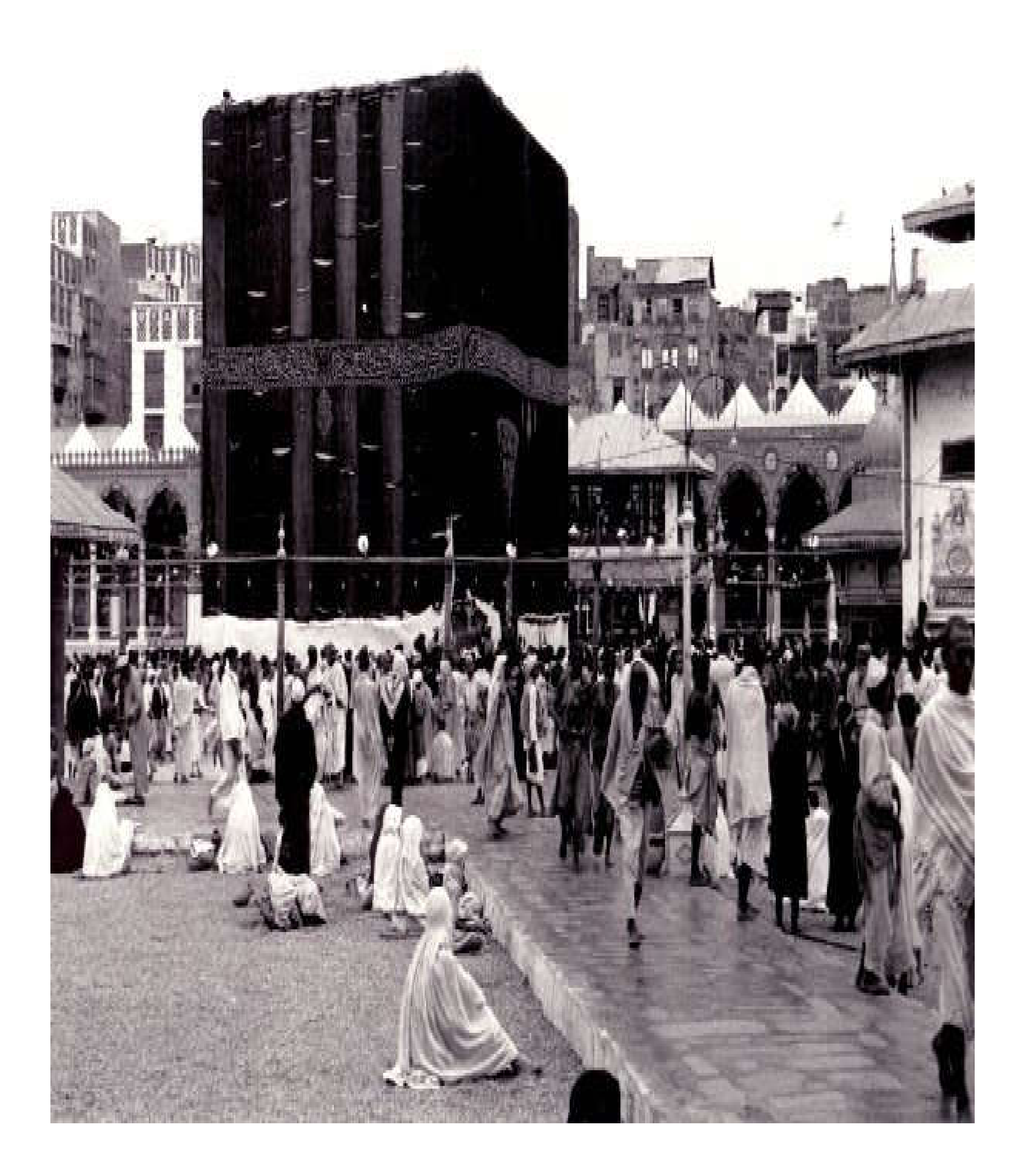
ملحق رقم 19: صورة للمحمل وكسوة الكعبة المشرَّفة



ملحق رقم 20: صورة للحجاج من المشاعر



ملحق رقم 21: صورة قديمة للكعبة المشرَّفة



SNOUCK HURGRONJE: BILDER AUS MEKKA, LEIDEN, BRILL: 1889.


الـــمصـــادر
والــمراجـــع

قائمة المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

أولاً: المصادر المخطوطة

01. بونَ محمد: كاشف الغمّ والغَمامة عن حياة الشيخ أبي نعامة، مخطوط بخزانة مولاي عبد الله سماعيلي، أدرار.

02. المجاجي عبد الرحمن بن محمد بن خروب: رحلة منظومة حول الحج إلى مكّة، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر، رقم: 1565.

03. القبلاوي الفلاني أبو عبد الله: رحلة الفلاني القبلاوي، مخطوط بخزانة مولاي عبد الله سماعيلي، زاوية كنتة، أدرار.

04. الشرقي محمد أبو عبد الله ابن الطيب: الرحلة الحجازية، نسخة مصورة من مخطوط بجامعة ليبزيك، فيينا، رقم: 746.

05. التواتي التنلاني عبد القادر بن عومر: الرحلة إلى الحج، مخطوط بخزانة الشيخ أحمد بن حسان، قصر عريان الراس، تسابيت، أدرار.

06. التواتي التنلاني عبد الرحمن بن عمر: الرحلة الحجية، مخطوط بخزانة بن الوليد، قصر با عبد الله، تيمي، أدرار.

07. رسالة من الحاج عثمان جنبلاط وكيل الجزائر في مصر إلى حسين باشا، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 3190/01/249.

08. رسالة من وكيل الجزائر لدى الباب العالي إلى حسين باشا، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 3190/01/137.

09. رسالة من شريف عبد الله قرمانلي إلى حسين باشا، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 3190/01/151.

10. رسالة إلى باشا الجزائر، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 3190/01/48.

ثانياً: المصادر المطبوعة

11. الأزدي أبو داود: سُنن أبي داود، ط خ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، دار الرسالة، دمشق، 2009م، ج04.

12. الأنصاري التلمساني محمد بن صعد: روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، ط خ، تحقيق: يحيى بوعزيز، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.

13. الأغواطي الحاج ابن الدين: رحلة الأغواطي، ط خ، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.

14. البوني أحمد بن قاسم: الدُّرّة المصونة في علماء وصُلحاء بونة، ط خ، تحقيق: سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، 2007م.

15. البرتلي الطالب محمد أبو عبد الله: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، ط01، تحقيق: إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م.

16. بتس جوزيف: رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف) إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة، ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ط01، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، 1995م.

17. البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، ط01، دار ابن كثير، دمشق، 2002م.

18. البغدادي ابن رشيد محمد بن أبي بكر: القصيدة الذهبية في الحَجة المكية والزورة المحمدية، ط03، تحقيق: محمد بن إسماعيل المقدم، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006م.

19. الجبرتي عبد الرحمن بن حسن: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ط02، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1998م.

20. جونز هارفُرد: موجز لتاريخ الوهَّابي، ط01، ترجمة: عويضة بن متيريك الجهني، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، 2005م.

21. الجزائري ابن ميمون محمد: التُّحفة المرضية في الدَّولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، ط02، تحقيق: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م

22. الجزائري محمد بن عبد القادر: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ط01، المطبعة التجارية، الإسكندرية، 1903م، ج02.

23. الجزيري عبد القادر الأنصاري: الدُّرر الفرائد المنظَّمة في أخبار الحاج وطريق مكّة المعظَّمة، ط01، تحقيق: محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م، ج02.

24. الجيلالي عبد الرحمن بن محمد: تاريخ الجزائر العام، ط 02، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965م.

25. جيرار بيير سيمون: وصف مصر موسوعة الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر، ط03، ترجمة: زهير الشايب، دار الكتب، القاهرة، 1978م، ج04.

26. الدرجيني أبو العباس أحمد بن سعيد: طبقاتُ المشائخ بالمغرب، تحقيق: إبراهيم طلاي، ط01، مطبعة البعث، قسنطينة، 1974م.

27. الدرعي ابن ناصر أحمد بن محمد أبو العباس: الرحلة الناصرية، ط01، تحقيق: عبد الحفيظ ملوكي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2011م.

28. هابنسترايت: رحلة العالم الألماني ج. أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس1145هـ-1732م، د ط، ترجمة: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2007م.

29. الهلالي السجلماسي أحمد أبو العباس: التوجه لبيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام، د ط، تحقيق: محمد بوزيان بنعلي، مطبعة الجسور، وجدة، 2012م.

30. الورثِلاني الحسين بن محمد: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار (الرحلة الورثِلانية)، تعليق: ابن مهنّا القسنطيني، تقديم: محفوظ بوكراع وعمار بسطة، ط خ، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.

31. الزهار الشريف: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر، د ط، تحقيق: أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م.

32. الزياني أبو القاسم: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برّاً وبحرا، تحقيق: عبد الكريم الفيلالي، ط 02، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، 1991م.

33. الزياني محمد بن يوسف: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، ط خ، تحقيق: المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م.

34. الحِميَري محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، ط02، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م.

35. الحفناوي أبو القاسم: تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1906م.

36. الحُضيكي محمد: الرحلة الحجازية، ط01، تحقيق: عبد العالي لمدبر، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، 2011م.

37. الطبري محمد بن جرير أبو جعفر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ط 01، تحقيق: بشار عواد معروف وعصام فارس الحرستاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1994م.

38. الكنسوسي محمد بن أحمد أبو عبد الله: الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، د ط، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، د س، ج01.

39. ابن المبارك أحمد بن العطار: تاريخ بلد قسنطينة، ط خ، تحقيق: عبد الله حمادي، دار الفائز للنشر والطباعة والتوزيع، قسنطينة، 2011م.

40. المحِبّي محمد أمين بن فضل الله الحموي: خلاصةُ الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ط01، دار صادر، بيروت، د س، ج02.

41. المكناسي محمد بن عبد الوهاب: إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب، ط01، تحقيق: محمد بوكبوط، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي: 2003م.

42. ابن المفتي حسين بن رجب شاوش: تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، ط01، تحقيق: فارس كعوان، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، سطيف، 2009م.

43. المصعَبي إبراهيم بن بحمان اليَسْجَني: رحلة المصعَبي، ط01، تحقيق: يحيى بن بهون حاج امحمد، العالمية لخدمات النشر، غرداية، 2006م.

44. المقّرِي التلمساني أحمد أبو العباس: نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرطيب، د ط، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988م.

45. المقّرِي التلمساني أحمد أبو العباس: رحلة المقّري إلى المغرب والمشرق، تحقيق: محمد بن معمر، ط01، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع.

46. مرداد أبو الخير عبد الله: المختصر من كتاب نشر النور والزّهر في تراجم أفاضل مكة، ط02، تحقيق: محمد سعيد العامودي وأحمد علي، عالم المعرفة، جدّة، 1986م.

47. النابلسي عبد الغني بن إسماعيل: الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، د ط، تقديم: أحمد عبد المجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986م.

48. الناصري أحمد بن خالد أبو العباس: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، د ط، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997م، ج 08.

49. الناصري المعسكري محمد أبو راس: فتح الإله ومنّته في التحدث بفضل ربي ونعمته، د ط، تحقيق: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.

50. نيبور كارستن: رحلة إلى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى مجاورة لها، ط01، ترجمة: عبير المنذر، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، 2007م، ج01.

51. السوسي محمد المختار: أصفى الموارد في تهذيب نظم الرحلة الحجازية للشيخ الوالد، د م، الرباط، 1959م.

52. السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير، د ط، ترتيب: يوسف النبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، د س.

53. السُّنوسي محمد: الرحلة الحجازية، تحقيق: علي الشنوفي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس: 1976م.

54. العبدي محمد بن أحمد الكانوني: البدر اللائح والمتجر الرابح في مآثر آل أبي محمد صالح، ط01، منشورات جمعية البحث والتوثيق والنشر، الرباط، 2011م.

55. العبدري البلنسي محمد: الرحلة المغربية، ط01، تقديم: سعد بوفلاقة، مؤسسة بونة للبحوث والدراسات، عنابة، 2007م.

56. العزيزي علي بن أحمد بن نور الدين: السراج المنير شرح الجامع الصغير في حديث البشير النذير، ط01، المطبعة الخيرية، القاهرة، 1887م.

57. العياشي أبو سالم: الرحلة العياشية (ماء الموائد)، ط01، تحقيق: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2006م.

58. العياشي أبو سالم: تعداد المنازل الحجازية (الرحلة الصغرى)، ط01، تحقيق: عبد الله حمادي الإدريسي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2013م.

59. ابن عمّار الجزائري أبو العباس أحمد: نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، ط01، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1902م.

60. العظمة عبد العزيز: مرآة الشام تاريخ دمشق وأهلها، ط01، تحقيق: نجدة فتحي صفوة، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 1987م.

61. الفاسي ابن زاكور: نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان، ط خ، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.

62. الفكون عبد الكريم: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، ط01، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م.

63. القدوري عبد المجيد: ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت الخريت، د ط، مطابع منشورات عكاظ، الرباط، 1991م.

64. القيسي (السراج) أبو عبد الله محمد بن أحمد: أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيّد الأعاجم والأعارب، د ط، تحقيق: محمد الفاسي، مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية، فاس، 1970م.

65. القرطبي أبو عبد الله محمد بن أبي بكر: الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمّنه من السنة وآي الفرقان، ط 01، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2006م.

66. روش ليون: اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام مذكرات ليون روش عن رحلته إلى الحجاز، ط01، ترجمة: محمد خير محمود البقاعي، جداول للنشر والتوزيع، بيروت، 2011م.

67. الرشيدي أحمد: حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولّي إمارة الحاج، د ط، تحقيق: ليلى عبد اللطيف أحمد، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1980م.

68. شالر وليام: مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824م)، د ط، ترجمة وتقديم: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.

69. التازي عبد الهادي: أمير مغربي في طرابلس (ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي)، د ط، المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 2006م.

70. التونسي محمد بن عمر: تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، د ط، تحقيق: خليل محمود عساكر ومصطفى محمد مسعد، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1965م.

71. التلمساني محمد بن مرزوق (الخطيب): المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، د ط، تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم: محمود بوعيّاد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.

72. التمكروتي علي بن محمد: النفحة المسكية في السِّفارة التركية، د ط، تحقيق: عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية، الرباط، 2002م.

73. تشرشل شارل هنري: حياة الأمير عبد القادر، ط01، ترجمة وتقديم: أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، تونس، 1974م.

74. خوجة حمدان بن عثمان: إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز عن الوباء، دار الطباعة السلطانية، اسطنبول، 1592م.

75. ابن الخوجة محمد: صفحات من تاريخ تونس، ط01، تحقيق: حمادي الساحلي والجيلاني بن الحاج يحيى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.

76. ابن خلدون عبد الرحمن: رحلة ابن خلدون، ط01، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت: 2004م.

ثالثاً: المراجع باللغة العربية

77. ألتِر عزيز سامح: الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ط01، ترجمة: محمود علي عامر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1989م.

78. أنساعد سميرة: الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري من القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر الهجريين، ط01، الوكالة الأفريقية للإنتاج السينمائي والثقافي، الجزائر، 2011م.

79. الباروني عمر محمد: الأسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس، ط01، مطبعة ماجي، طرابلس، 1952م.

80. البوعبدلي المهدي: الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي، ط01، جمع: عبد الرحمن دويب، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م.

81. بلعالم محمد باي: الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، د ط، دار هومة، الجزائر، 2005م.

82. جارشلي إسماعيل حقي: أشراف مكة المكرمة وأمراؤها في العهد العثماني، ط01، ترجمة: خليل علي مراد، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2003م.

83. جعفري أحمد أبا الصافي: المخطوطات الجزائرية وأعلامها في المكتبات الأفريقية، ط خ، دار نور شاد، الجزائر، 2015م.

84. جعفري أحمد أبا الصافي: الشيخ سيدي محمد الإداوعلي حياته وشعره، ط01، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2008م.

85. دي غوري جيرالد: حكام مكة، ط01، ترجمة: محمد شهاب، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2000م.

86. الزبيري محمد العربي: التجارة الخارجية للشرق الجزائري، د ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د س.

87. حجي محمد: الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، ط01، المطبعة الوطنية، الرباط، 1964م.

88. حوتية محمد: توات والأزواد خلال القرنين 12 و13هـ دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، ط01، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007م.

89. حماش خليفة: كشاف وثائق تاريخ الجزائر في الأرشيف الوطني التونسي، ط02، منشورات كلية الآداب والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2016م.

90. كنون عبد الله الحسني: شرح الشمقمقيّة، ط05، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979م.

91. الكنتي الهاملي عقباوي عزيز بن بوبكر: النفحات البهية في أفنان الشجرة الكنتية، د ط، مطبعة عزي، غرداية، دس.

92. كروم عبد الله: الرحلات بإقليم توات دراسة تاريخية وأدبية للرحلات المخطوطة بخزائن توات، ط خ، دار دحلب، الجزائر، 2007م.

93. لبيب رزق يونان ومزين محمد: العلاقات المغربية المصرية منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام 1912، ط01، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1982م.

94. مانتران روبير: تاريخ الدولة العثمانية، ط01، ترجمة: بشير السباعي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1993م، ج01.

95. مؤنس حسين: ابن بطوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل، د ط، دار المعارف، القاهرة، 2003م.

96. المنوني محمد: من حديث الركب المغربي، ط01، مطبعة المخزن، تطوان، 1953م.

97. السِّباعي أحمد: تاريخ مكة دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، ط05، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، 1999م، ج02.

98. سبنسر وليم: الجزائر في عهد رياس البحر، ط خ، ترجمة وتقديم: عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007م.

99. سيد عمر محمد عبد العزيز: قطف الزهرات من أخبار علماء توات، ط 02، دار هومة، الجزائر، 2002م.

100. سعد الله أبو القاسم: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط خ، دار البصائر، الجزائر، 2007م.

101. سعد الله أبو القاسم: شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ط01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.

102. سعد الله أبو القاسم: رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنّابي، ط02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م.

103. سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، ط 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م.

104. سعد الله أبو القاسم: تجارب في الأدب والرحلة، ط01، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م.

105. سعيدوني ناصر الدين: دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية الفترة الحديثة، ط01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001م.

106. سعيدوني ناصر الدين: النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800-1830، ط01، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م.

107. عبد المعطي حسام محمد: البيوت التجارية المغربية في مصر العثمانية، د ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2008م.

108. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: المغاربة في مصر في العصر العثماني 1517-1798م، د ط، منشورات المجلة التاريخية المغربية، تونس، 1982م.

109. عواطف بنت محمد يوسف نواب: كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، 2008م.

110. عويس عبد الحليم: أثر دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب في الفكر الإسلامي الإصلاحي بالجزائر، ط01، دار الصحوة للنشر، القاهرة، 1985م.

111. علي عمر سميرة فهمي: إمارة الحج في مصر العثمانية 1517-1798م، د ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2001م.

112. فالنسي لوسيت: المغرب العربي قبل سقوط مدينة الجزائر 1790-1830م، ط01، ترجمة: إلياس مرقص، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، 1980م.

113. قدي عبد المجيد: صفحات مشرقة من تاريخ مدينة أولف العريقة، د ط، د م، د س.

114. ريمون أندريه: المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ط01، ترجمة: لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1991م.

115. غيتاوي مولاي التهامي: الفتح الميمون في تاريخ قورارة وعلماء تيميمون، د ط، العالمية للطباعة والخدمات، الجزائر، 2013م.

رابعاً: المراجع باللغة الأجنبية

116- Ben Messaib: Itinéraire de Tlemcen a la Mekke, par: Mohamed Ben Cheneb, Revue Africaine, volume 44, 1900, Alger.

117- Bernard Saffroy: chronique du Touat, Ghardaia: Centre de Documentation Saharienne.

118- Et-talib Ahmed Ben Towair Al-ganna: Rihlat elmona wel minna (Pèlerinage à La Mekke), Revue Africaine, volume 55, 1911, Alger.

119- Louis Rinn: Marabouts et Khouan, étude sur L'islam en Algérie, Adolphe Jourdan, libraire-éditeur, Alger: 1884.

خامساً: المعاجم والقواميس

120. جعفري مبارك ومقلاتي عبد الله: معجم أعلام توات، ط01، منشورات الرياحين، الجزائر، 2013م.

121. دوزي رينهارت: تكملة المعاجم العربية، ترجمة: محمد سليم النعيمي، د ط، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1980م.

122. الزبيدي محمد مرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس، ط 02، تحقيق: علي هلالي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 2004م، ج 02.

123. ابن زكريا أحمد بن فارس أبو الحسين: مجمل اللغة، ط 02، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986م.

124. الزِرِكلي خير الدين: الأعلام، ط 15، دار العلم للملايين، بيروت، 2002م.

125. كحالة عمر رضا: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ط08، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997م.

126. ابن منظور محمد جمال الدين: لسان العرب، د ط، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، د س.

127. نويهض عادل: معجم أعلام الجزائر، ط02، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1980م.

128. الفيروز آبادي محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، ط 08، تحقيق: محمد نعيم العرقسُوسي وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005م.

سادساً: الملتقيات والدوريات

129. أرحومة هدى الصادق: عالمُ الرياضيات النسّاب ابن حمزة المغربي، المجلة الجامعة، العدد 15، جامعة الزاوية (ليبيا)، 2013م.

130. ولد السالم حماه الله: رحلات الحج من شنقيط وإسهامها في التواصل المشرقي المغربي، المؤتمر الدولي الأول لندوة الرحالة العرب والمسلمين، الدوحة، 2010م.

131. حماش خليفة: الأسرى الجزائريون في أوروبا في العهد العثماني من خلال المصادر المحلية، أعمال الملتقى العلمي الأول "سوسيولوجية الهجرة الجزائرية في تاريخ الماضي والحاضر"، مخبر الدراسات والأبحاث الاجتماعية التاريخية حول الهجرة والرحلة، جامعة قسنطينة، ماي 2008م.

132. حماش خليفة: دكان الحرمين الشريفين في مدينة الجزائر في العهد العثماني، مجلة الدارة، العدد 01، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، 2009م.

133. حميدة بن زيطة: ترجمة القاضي محمد عبد الله بن الجوزي، ملتقى إسهامات علماء توات في الحركة الفكرية والثقافية إبان العصر الحديث، جامعة أدرار، 19-20 أبريل 2010م.

134. لبصير سعاد: دوافع الهجرة العلمية والدينية من الجزائر في العهد العثماني، ملتقى سوسيولوجية الهجرة.

135. معاشي جميلة: الإنكشارية في الجزائر بين الهجرة والتهجير، ملتقى سوسيولوجية الهجرة.

136. عزي عبد الرحمن: التواصل القيمي في الرحلة الورثِلانية، المؤتمر الدولي "ثقافة التواصل"، جامعة فيلادلفيا، عَمان، نوفمبر 2009م.

137. فيلالي كمال: الهجرة العلمية والطلابية إلى قسنطينة في عهد عبد الكريم الفقون علامة العصر (988-1073هـ)، ملتقى سوسيولوجية الهجرة.

138. غطاس عائشة: أوقاف الحرمين الشريفين بالجزائر إبان العهد العثماني من مظاهر التواصل بين الجزائر وبلاد الحجاز، أعمال المؤتمر العلمي الخليجي المغاربي الأول حول "العلاقات بين دول الخليج والمغرب العربيين الواقع والمستقبل"، تقديم: عبد الجليل التميمي وفهد بن عبد الله السماوي، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، 2005م.

سابعاً: الرسائل الجامعية

139. بن داود نصر الدين: بيوتات العلماء بتلمسان من القرن 07 إلى القرن 10هـ، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، إشراف: محمد بن معمر، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2009-2010م.

140. حماش خليفة: الأسرة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ الحديث، إشراف: فاطمة الزهراء قشي، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006-2007م.

141. قبايلي هواري: مسألة الحج في السياسة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر 1894-1962م، أطروحة دكتوراه في التاريخ، إشراف: بوعلام بلقاسمي، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2013-2014م.

142. شدري معمر رشيدة: العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر فترة الدايات (1671-1830م)، رسالة ماجستير في التاريخ، إشراف: فلة موساوي القشاعي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2005-2006م.

143. شويتام أرزقي: المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830م، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: عمار بن خروف، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2005-2006م.

144. غطاس عائشة: الحِرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830م، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، إشراف: مولاي بالحميسي، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، 2000-2001م.

ثامناً: الحوامل الإلكترونية

145. موقع: http://ibadiya-ahlalhaqe.blogspot.com، بتاريخ: 2016/07/02م.

146. موقع: www.manarahnet.net، بتاريخ: 2015/03/04م.


الفهـــــارس

فهرس الأعلام والقبائل

ن

س

فهرس الأماكن والبلدان

أ

ب

ج

ح

ط

ي

ك

ل

م

فهرس المحتويات

الفصل الثاني: الإعدادُ لرحلةِ الحجِّ وتشكيلُ الرّكب

الفصل الثالث: طُرقُ الحجِّ محطَّاتُها وإكراهاتُ مجالِها

الفصل الرابع: التواصلُ الاجتماعي في رحلة الركب وظروفُ عودتِه

الفصل الخامس: الإشعاعُ العلمي والفكري للركبِ الجزائري

ملخص الأطروحة

" ركبُ الحج الجزائري خلالَ العهدِ العثماني دراسةٌ تاريخيةٌ من خلالِ الرِّحلات الحجازية "

تُعالج هذه الأطروحةُ موضوعَ سفَرِ الجزائريين إلى بلاد الحجاز في العهد العثماني (1518–1830م)، من أجل أداءِ مناسك الحج مع قدومِ كلِّ موسمٍ من مواسمه، وتركِّزُ على الإطار المنظم الذي كان يجمع الحجاج الجزائريين في تلك الرِّحلة المقدسة، وهو ما عُرِف باسم "ركب الحج". وتُبيِّن مدى استقلالية ركب الحج الجزائري عن بقية الأركاب المغاربية، وتُعرِّف بأسماء أشهر البيوتات التي تولَّت مهام إمارة ركب الحج، وكيف كان يتمُّ التزوُّد والتحضير لخروجِ الركب من الجزائر في ذلك العهد. كما تهتمُّ أيضاً بموضوع طُرُق الحج ومحطاتها، والمعيقات الطبيعية والبشرية المواجهة للحجاج في سفرهم. وتستعرض مظاهر التواصل البَيْني داخل الركب، أو الخارجي مع فضاء الرحلة، انتهاءً بالإشعاع العلمي المرادِف لركبِ الحج في ذهابِه وإيابِه.

الكلمات المفتاحية: ركبُ الحجِّ الجزائري، أميرُ الركب، الحجاج، الرِّحلة، الرواحل، الطريق، المحطات، الحجاز، درب الحجاز، بلاد الحرمين الشريفين، التواصل الاجتماعي، أعلامُ الركب.

Summary:

"The Algerian Pilgrimage Carnival During The Ottoman Era. A historical Study Through The Hijazi's Voyages"

This dissertation discusses the subject of Algerian's voyage to Hijazi's land during the Ottoman era (1518–1830); for the seek of pilgrimage each year, and it also focuses on the organized frame that gathered the Algerian's pilgrims in that holy journey, which was known with "pilgrimage carnival".

This dissertation shows how independent was the Algerian pilgrimage carnival from the rest of Moroccan carnivals, furthermore, it defines and shows the famous names and villages that served the pilgrimage carnival, and how was the carnival getting its supplies and preparing to voyage from Algeria in that era. In addition to that, it gives big importance to the subject of pilgrimage's ways and stations, as well as the natural struggles and human struggles that faced pilgrims in their voyage. It also illustrates the ways of communication inside and outside the carnival ending with the amount of knowledge that the carnival gained in its way of going and return.

Key words: the Algerian pilgrimage carnival, carnival's prince, pilgrims, voyage, travelers, road, stations, Hijaz, Hijaz road, country of the two holy mosques, social communication carnival's figures.